الجامعة الليبية

مجلة
كلية الآداب والتربية

(بنغازى)

المجلد الأول

١٣٧٧ - ١٩٥٨

المطبعة الأهلية - بنغازى

الفهـرس

الرقم	الموضـوع	
ا ـ ب	**مقدمة المجلة**	
١	ـــ **ليبيا (الاسم ومدلولاته التاريخية)**	للدكتور محمد عبد الهادى شعيره
١٧	ـــ **الآمدى وكتابه الموازنه**	للدكتور طه الحاجرى
٦٧	ـــ **اللغة والمجتمع (رأى ومنهج)**	الدكتور محمود السعران
١٨٩	ـــ **سيرة السنوسى الكبير** نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة لحفظ تراث الأستاذ الامام السنوسى	للدكتور محمد عبد الهادى شعيره
٢١٩	ـــ **فترة حاسمة من تاريخ المغرب** موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى افريقيا ونقلتهم الى مصر	للدكتور سعد زغلول عبد الحميد
٢٥٩	ـــ **النظرية العنصرية (نقد وتحليل)**	للدكتور احمد الخشاب
٢٩٥	ـــ **مشكلة الامطار فى ليبيا**	للدكتور عبد العزيز طريح شرف

باب عرض الكتب ونقدها

٣٢٣	ـــ **كتاب الاحاطه فى اخبار غرناطه**	للدكتور طه الحاجرى
٣٣٣	ـــ **الاستبصار فى عجائب الامصار**	للدكتور محمد عبد الهادى شعيره
٣٣٦	ـــ **ذكرى الامام السنوسى الكبير**	للدكتور محمد عبد الهادى شعيره

مواسم المحاضرات العامة بالجامعة الليبية

(٥٥ ـ ٥٦) ، (٥٦ ـ ٥٧) ، (٥٧ ـ ٥٨)

1-14 SHAKESPEARE'S INTEREST SKIN COLOUR BY GWYN WILLIAMS

ليبيا

الاسم ومدلولاته التاريخية

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

للتسميات الجغرافية معان وملابسات تجعل لها قيمة تاريخية ، ولهذا حرص المؤرخون على الانتفاع بدراسة الأسماء • وهم يسمون استنباط الأخبار من الأسماء بفقه الأسماء أو الأونوماستيك (Onomastique)

والأسماء قد يعتريها الاندثار كما اندثر فى مصر وليبيا كثير من الأسماء اليونانية القديمة التى كانت شائعة أيام اليونان • وقد تنمو مدلولات الأسماء وقد تتضاءل • ومن الأسماء ما ينقلب ويحل محله ضده ، ومنها ما يعبر عن فكرة جغرافية وهكذا •

ونبغى فى هذا البحث معرفة ما طرأ على لفظ ليبيا من ناحية فقه الأسماء ، كما نريد أيضا أن نتدرج فى مختلف العصور مع مدلولات الاسم التاريخية •

* * *

مدلولات بعض الأسماء : فمن الأسماء ما يكون محليا محدودا ثم ينمو ويمتد اطلاقه حتى تسمى به قارة كبيرة مثل اسم افريقية• ومنها ما يكون اسم قارة ثم يتضاءل حتى يصبح اسما لشعب محدود واقليم معين مثل اسم ليبيا، وسنرى بالتفصيل كيف تم هذا التطور •

وقد تتعدد الأسماء المطلقة على بلد معين، فتختار كل لغة من لغات الحضارة اسما دون غيره ، فنحن العرب نقول برقة ويقول الفرنج فى لغاتهم سيرينايكا ، نسبة الى قورينة • وكنا نقول طرابلس الغرب منذ أيام العثمانيين وكان يترجم عنا الفرنج فيقولون طريبوليتانيا وكانت الأبحاث العلمية تذكر اسم لبيبا ، ثم عدل الفرنج منذ الاحتلال الايطالى الى استعمال اسم ليبيا ثم فضلنا نحن استعمال نفس الاسم •

وقد تنقل لغة عن لغة مثال ذلك اسم المغرب فانه أنتقل من لغتنا الى اللغات الأوربية •

ومن التسميات ما يعبر عن فكرة معينة ، لتدل على جنس أو لتدل على فكرة عن الجنس •فقدكان الفرنسيون فى القرن السابع عشر يطلقون اسم Barbarie على بلاد المغرب ، ثم صار المؤلفون الفرنسيون المحدثون يطلقون اسم Berbérie على ما أخضعوه من بلاد الشمال الافريقى دون ما لم يخضعوه(١). والفرنج انما ورثوا هذه

(١) مثل اندريه چوليان، وچورچ مارسيه، وغيرهما كثير

التسمية عن الرومان وكان الرومان اول من أذاعوها، وكذلك ورثها العرب وحاولوا أن يفسروها بالنسب فقالوا: بر بن قيس أبو البربر. أما البربر فيسمون أنفسهم باسم الامازيغ (مؤنثة : تمازغت ، وجمعه امازيغ) والمعنى الرجال الأحرار النبلاء . وقد يجب أن نذيع هذا الاسم اذا سرنا على مبدأ تسمية الناس بأحب أسمائهم اليهم .

وهكذا حدث للبربر ما يحدث للأشخاص فى القرى والمدن الصغيرة والأسر فيشتهر الرجل باسم غير اسمه الأصلى للتعبير الجماعى عن فكرة معينة .

وقد تختار الدول أسماء فتذيع أو تسقط مثال ذلك اطلاق الانجليز على قواتهم فى ليبيا : اسم « القوات البريطانية فى شمال افريقية » ، ولعل لهم غرضا فى العدول عن اسم ليبيا .

ومن الأسماء ما يسقط ليحل محله نقيضه تبعا للظروف الحضارية . فنحن اليوم نتبع الغرب الأوربى والأمريكى فى تسمية بلادنا باسم الشرق ونسمى أنفسنا بالشرقيين ، لأن بلادنا صارت تقع الآن فى شرقى الحضارة (قبل أن يعظم شأن روسيا) ؛ وكذلك كانت برقة ومصر والشام فى العصر الرومانى والبيزنطى تسمى باسم المشرق (Anatoly) . أما فيما بين ذلك فى العصر الذى كانت حضارة الاسلام فيه الحضارة المركزية وكانت بغداد فيه مدينة العالم المتحضر فقد كانت التسميات تطلق بالنسبة لهما ، فكل ما يقع شرقى الرافدين كان يسمى مشرقا ، وما يقع غربيه يسمى مغربا . فكانت البلاد الاسلامية من الفرات الى المحيط الأطلسى تسمى بالمغرب وكان تسمى أيضا بحسب قول جغرافى فى القرن الرابع الهجرى بالاقاليم العربية[1] .

ومن قبيل التسميات الخاصة ما يراد به التعبير عن فكرة ، مثال ذلك أن أستاذا كبيرا تتلمذنا عليه خصص مجلدا للتاريخ الاسلامى وجعل عنوانه Les Barbares بمعنى الأعاجم أو البرابرة على أساس أن الرومان كانوا يسمون غير الرومان بهذا الاسم .

ومن الأسماء ما يعبر عن سمة جغرافية بارزة ، كاطلاق اسم بلاد الأطلس على « افريقية الشمالية الفرنسية التى تتشامخ فى أرجائها جبال الأطلس . ومثال آخر هو تسمية نفس هذا المغرب باسم افريقية الصغرى Afrique Mineure باعتباره ركنا مستقلا أو قارة داخل قارة أكبر . وقد ورد مثيل لهذه التسمية عند ابن خلدون (حـ ٦ ص ١٠١) « جزيرة المغرب » فتشابهت التسميات أو تقاربت مع تباعد العصور .

اسم ليبيا وكيف استقبل حديثا

واسم ليبيا معروف منذ أقدم الأزمنة ، وشعب البربر

(١) انظر : محمد عبد الهادى شعيرة : تقسيمات اقليمية فى العصر العباسى الأول، مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق (الاسكندرية) ١٩٤٤، وانظر ايضا المقدسى (ق ٤هـ) ص ٧\٨

أو شعب الأمازيغ هو الجنس الليبى النازل من حدود مصر الى المحيط . واسم ليبيا مشهور فى الأبحاث التاريخية فى كل العصور قديمها وحديثها ، سواء عندما كان يطلق على كل قارة افريقية أو عندما صار يطلق منذ أيام الرومان على منطقة معينة . وقد عرف المسلمون الاسم فيما كتبوا وكان له عندهم مدلولات معينة .

غير أن الاحتلال الايطالى الذى ابتليت به البلاد منذ بضعة عقود من السنين اقترن باسم ليبيا . وكان طبيعيا أن يحرص الوطنيون المجاهدون فى داخل البلاد وفى مهاجرهم على ان يلتزموا التسمية القديمة ، فكانوا يقولون طرابلس وبرقة ، ولعلهم وجدوا فى هذه التسمية الثنائية تأكيدا لتضامن شطرى البلاد ، وفعلا استغل جيش التحرير الوطنى هذه التسمية الثنائية وتمسك بها الى أن جرى اسم ليبيا على الألسنة وأصبح عرفا دوليا ، واعترفت الدول باستقلال ليبيا ، وانكشفت الغمة فاتخذت الدولة الليبية فى عهدها الجديد اسم المملكة الليبية المتحدة . ووصف الشعب أو المملكة بأنه ليبى وصف صحيح سليم .

ومع ذلك فان ذيوع هذه التسمية مع الاحتلال واقترانها به كان أمرا كريها جارحا لحساسية المجاهدين . وظل بعض علماء ليبيا ينفرون من الاسم الجديد القديم . وقد عبر الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى عن هذا النفور فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » نشر دار المعارف ، القاهرة . فقال انه اسم دخيل « قصد به القضاء على الأسماء العربية التى كان تطلق على المقاطعات الثلاث » أى طرابلس وفزان وبرقة . وفضل الزاوى الاحتفاظ باسم طرابلس (وان لم يلتزم ما دعا اليه فى عنوان كتابه) ، وهو الاسم الذى لا يزال مسجلا فى كل ما وضع منذ جيل من الخرائط والقواميس والمؤلفات والوثائق ، وهو اسم يناسب العرف الاسلامى القديم بتسمية البلاد أحيانا بأسماء عواصمها .

وفريق آخر من العلماء استقبلوا الاسم بالترحيب ، وراوه أسهل من الاسم الثنائى المشطر وأفضل من تسمية البلاد بولاية دون ولاية ، فان التشطير كان فى تاريخ البلاد نكبة مزمنة . ويمثل هذا الفريق زميلنا الأستاذ مصطفى عبد الله بعيو عميد كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية غير أنه يرى ضرورة تعريب الاسم ورسمه فى صورته العربية الأصيلة بالواو لا بالياء[1] .

ومسألة الواو أو الياء والجدل حولهما مسألة من مسائل فقه اللغة ، وهى مسألة لا يمكن أن تؤثر على التسمية الحديثة بالياء مهما يكن رأى علماء فقه اللغة مع الواو

(١) يعتمد الاستاذ بعيو فى ترجيح الواو على ١ ــ المعجم الجغرافى للمجمع اللغوى بالقاهرة، ٢ ــ قاموس الجغرافية القديمة بالعربى والفرنساوى للمرحوم شيخ العروبة أحمد زكى باشا (المطبعة الأميرية) القاهرة ١٨٩٩، ٣ ــ النصوص التاريخية والجغرافية

أو عليها • فان التسميات ظواهر اجتماعية قلما تتأثر برأى فرد واحد أو أفراد خواص• والواو والياء بعد هذا ليسا الا واوا ممدودة أو كسرة ممدودة ، والكسرة والفتح يرد فى تسمية مصر ، ويقول أهل تونس قرطاج ويقول غيرهم قرطاجنة ، ويقول أهل ليبيا الفرنسيس كما كان يقول الجبرتى ويقول غيرهم وبعضهم الفرنساويين • وكنا نقول لندره وصرنا نقول لندن • وكل هذه الأمثلة تدل على أن النطق متوقف على حالة الناقلين للاسم أو الناطقين له • فلا بأس اذا كان الأمر كذلك أن تحتفظ الأجيال بالواو وأن نعدل نحن فى عصرنا هذا الى الياء • فهذا العدول ناشىء عن أننا أصبحنا أقدر على نطق الأسماء كما ينطقها الأجانب ، وأصبحنا من جهة أخرى أكثر استجابة لترقيق الأصوات •

والجدل حول الواو والياء هو جدل حول الرسم ، انضاف الى الجدل حول الاسم •

وهذا كله عبارة عن محاولة جماعية لتحديد الموقف من التسمية ، وهى محاولة تنم عن شىء من القلق• ولكنها محاولة أظهرت فى حقيقة الأمر طابع هذه الأمة الليبية•

فالصبغة العربية فى التسمية هى النقطة التى يتلقى عندها العالمان الليبيان • فأما أحدهما فيريد التزام النطق الوارد فعلا لدى كتاب المسلمين ، وأما الآخر فيريد الاحتجاج على ما يسميه « القضاء على الأسماء العربية » • ونحن نلمس كذلك فى موقف العالمين الليبيين روح المحافظة على القديم كما ترسمه التقاليد الاسلامية ، كما نلمس كراهة الدخيل التى رسبت من بلاء الاحتلال ، ونلمس كذلك اشفاقا من العصبية الاقليمية وحرصا على الوحدة المنشودة بين أشطار البلاد • وهكذا ترى أن النظر فى اسم ليبيا كشف لنا عن المشاعر القومية العميقة •

القلق الذى يحدثه الاسم : وللأسماء تأثير فى النفس يحدث تلازما وتداخلا بين الاسم والمسمى • ومن المسميات ما يجب أن تكون لها قداسة تقتضى الثبات وتتنزه عن التحوير • واسم الوطن جزء من كيان الشعب يجب أن يكون ثابتا • وكل مساس

القديمة مثل المقدسى وابن خرداذبه، وياقوت، وابن خلدون، والمقريزى، وابن رسته ، والبيرونى وكثير جدا غيرهم •

واذا كان لنا أن ندلى برأى فى الموضوع فاننا مع اعترافنا بأن الفصل فيه انما يكون لعلماء فقه اللغة لا لأمثالنا المؤرخين نقول ان الواو أصح • وقد ورد الاسم فى النقوش بما يقابل الياء والواو مجتمعين فى صوت واحد (والنقوش فى الشحات) (بوتا واويسيلون I'Y) فالياء المجتمعة مع الواو لا بد أن تمال ولا بد أن تخرج عن كونها ياء صريحة ، ولكن الاسم فى رسمه اليونانى يرد ايضا فى القواميس وفى اشيع اللهجات بالياء الصريحية • فكيف يكون النطق ؟ والجواب أننا نجهل النطق اليونانى القديم ولا نستطيع الى الآن ان نصل الى ضبطه ضبطا تاما • ولنا ان نلتزم النطق الوارد لدى الاكثرية من كتاب المسلمين : بالواو •

بمبدأ الثبات يورث حتما شيئا من القلق • وهنا السر فى أن بعث اسم ليبيا حفز الجماعة الى التعبير عن موقفها على أقلام مفكريها • ومع ذلك فان القلق لم يكن كبيرا فان عامة الناس قبلوا الاسم وعرفوه وتسموا به بكل سهولة ويسر ، كأنما عاد اليهم غائب أليف •

موقف المؤرخين من التسميات :

والمؤرخون يسجلون هذه التسميات ويحرصون على أن يحددوا مدلولاتها فى كل عصر • وقد رأيت من التسميات ما يتحول الى نقيضه مع الزمن • ومن التسميات ما ينبىء عن وضع حضارى كتسمية البحر الابيض بالبحر الشمالى عند هيرودت، وكتحديد بحر الروم أنه من انطاكية الى القسطنطينة الى صقلية فهو تحديد يرجع حتما الى عصر معين (ص ١٤٥ ابن الفقيه الهمدانى كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢/١٨٨٥) •

والتاريخ فى حالتنا هذه ينفع فى ازالة الشبهات ، وتبديد القلق ، واستعادة الذكريات ، فهو ذاكرة الأمم • والمؤرخون حين يبعثون الماضى أشبه بالاطباء حين يعيدون الذاكرة لمن فقدها[1] • وقد يكون فى بعث الأسماء الأصيلة قوة وتمكين وفخر، وعندئذ يكون بعث الاسم القديم أمرا يستدعى الترحيب •

وتاريخ اسم ليبيا يزيل الشبهات ويبدد القلق • فانه اسم أقدم من الحضارتين اليونانية والرومانية ، كان اسم قبيلة ليبية ثم أطلق على كل القبائل الليبية وصار علما على جنس وعلى القارة التى هى منزل هذا الجنس ، ثم ظهر اسم آخر ، هو اسم قبيلة أخرى ونما بنفس الطريقة تماما وزاحم الاسم القديم ، فاعتصم الاسم القديم بهذه البلاد وأطلق عليها دون غيرها وصار علما لها ؛ ثم اعتصم الاسم فى أواخر العصر البيزنطى وفى العصر الاسلامى بذاكرة التاريخ والجغرافيا حتى عاد آخر الأمر عودة الغائب الى أهله •

فلا بأس اذن من أن تعتصم البلاد بالاسم القديم وما فيه من جمع وشمول عند احساس الخطر على وحدتها أو على كيانها ، ولا بأس من أن تجد البلاد فيه تعبيرا عن وعيها بكيانها •

* * *

مدلولات الاسم التاريخية :

والأخبار عن ليبيا فى عصر ما قبل التاريخ ليس فيها اسماء بطبيعة الحال لأن

(١) ويقول الاستاذ لوت عن القومية التشيكية انها ظلت حية فى صدور الفلاحين وبعض الاثريين والمؤرخون واصحاب فقه اللغة والنحويين . وهم جماعات مجردة من العدوان الى اقصى حد ولكنهم فى الحقيقة ذوو شأن عظيم لانهم يحيون الماضى . . . الخ
LOT : Les Invasions Barbares, Paris 1937

البشرية لم تكن فى تلك الأزمنة اخترعت الكتابة لتسجيل النطق والأخبار ، وكان التعبير قاصرا على الرسم وعلى ما خلفوا من أدوات • ثم تأتينا أخبار ليبيا فى العصر التاريخى من النقوش والبرديات الفرعونية ، ثم تأتينا الأخبار عن اليونانيين منذ نزول الدوريين بالبلاد فى القرن السابع ق م ، ثم تتعدد مصادر الأخبار فنجدها عند اليونان وعند الرومان وعند العرب •

وتبدأ أخبار الليبيين مع أول الفراعنة (مينا — نامر) ففى متحف القاهرة الفرعونى درع يصور اخضاع مينا لمملكة هارپون الصغيرة (Harpoon) الواقعة غربى الدلتا من الشمال •

وكذلك تقول النقوش انه أخضع التحنو الليبيين النازلين غربى مملكة هارپون[1]. ومنذ هذا الوقت ظلت الصلات تقوى وتضعف ولكنها لم تنقطع ، وظل الليبيون يتسربون نحو النيل فى حركة طبيعية مستمرة حتى عظمت جاليتهم وحتى تهيأ الجو لقيام أسرة فرعونية من أصل ليبى •

ثم طرأت على البلاد هجرة الدوريين ، وانشأ هؤلاء المدن اليونانية الأولى وظلت الصبغة الهلينيه تقوى حتى أن هيرودوت حين زار برقة فى القرن الخامس ق م لاحظ ان الصبغة الهلينية كانت تسود البلاد • ثم كانت فتوح الاسكندر حادثا هز العالم القديم أواخر القرن الرابع ق م وكان من أثره على مصر أن قام فيها البطالمة (خلفاء الاسكندر) • وكان من الطبيعى أن يشتد الاتصال بين مصر وبرقة ، وان تكون الجاليات اليونانية فى البلدين واسطة هذا الاتصال ، وبلغ الاتصال حد المشاركة فى حضارة واحدة، فكان فلاسفة قورينة وعلماؤها زملاء علماء الاسكندرية واستمرت الصبغة اليونانية فى البلدين بعد زوال الوثنية وقيام المسيحية فكان مرقس الحوارى من أصل ليبى وكانت الاسكندرية مهد كرازته بحسب تعبير المسيحيين • ثم ظهر الاسلام فصهر عددا من الامم فى أمة واحدة •

أما من حيث السكان فان الفراعنة عرفوا من الليبيين ثلاث قبائل وهى : Lebu Mashwesh Thehenu = Tehnu الليبو والتحنو والمشوش • أما الدوريون فانهم وجدوا فى برقة أربعة قبائل رئيسية : قبيلة أسبستاى فى دواخل قورينة ، وقبيلة Bacales بكاليس عند توكره ، وقبيلة Auschisae أوشيساى عند هسپريدس (= برنيق = بنغازى) ، وقبيلة النسامون غربى برنيق Nasamones وعندما زار هيرودوت قورينة (٤٤٣ ق م) وجد فيها ثلاث قبائل مهمة هى: Nasamones, Giligmae, Adry machidae • وأما فى العصر البيزنطى وفى أول العصر الاسلامى فقد كانت توجد ببرقة وطرابلس قبيلتان غالبتان هما لواته وهواره • ثم كانت هجرة سليم وهلال

1) A. DE COSSON : Mareatis, London, 1935

وغيرهم واليهم ترجع أكثر الأنساب اليوم هم والأمازيغيون •

ليبيا قارة عند هيرودوت

كان هيرودوت والجغرافيون القدماء يقسمون العالم الى ثلاث قارات : ليبيا وآسيا وأوربا • وتناقلت الأجيال هذا التقسيم حتى وصل الى البيرونى العالم المسلم فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) فسجله وان كان قد تقادم وحل محله تقسيم آخر • ونفضل ان نقف عند تحديدهما ، ولنبدأ بالآخر : قال البيرونى : « كان اليونانيون يقسمون المعمورة (والمعمورة والمسكونة ترجمة حرفية للاصطلاح اليونانى (ايوكومينيه) بأقسام ثلاثة ... (أولها) ما مال عن مصر وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبية ، ويحدها بحر أوقيانوس المحيط الأخضر من جهة المغرب ، وبحر مصر (البحر الأبيض) من جهة الشمال ، وبحر الحبش من جهة الجنوب (وهنا نلمس الجهل بالحدود الجنوبية) وخليج القلزم من جانب المشرق • وهذا كله يسمى لوبية (٢) والقسم الآخر . . آسيا . . (٣) والقسم الآخر . . أوروبا . . »

وقد تبع البيرونى هيرودوت تقريبا ناقلا عن اليونان • وننقل تحديد هيرودوت • قال : الحد الشمالى لقارة ليبيا يبدأ من حدود مصر (كما كانت أيامه عند ضفة النيل) الى رأس سولوجوس (الآن رأس سپارتل على المحيط جنوب غربى طنجه (ك ٢، ف ٣٢) والحد الشرقى هو النيل وهو حد واضح فى الصعيد ثم يندغم فى الدلتا • ولهذا اصطلحوا على أن يكون حد القارة الليبية فى وسط الدلتا عند الفرع الأغزر ماء ، وهو الفرع السبنيتى (وهو غير موجود الآن) • وكان للنيل ثلاثة فروع طبيعية وفرعان صناعيان • وقد انتقد هيرودوت هذا التحديد لأنه يجعل مصر فى قارتين على حد قوله « فجانب من مصر جزء من ليبيا ، والجانب الآخر جزء آسيا (ك ٢، ف ١٨) • وفضل هيرودوت أن يجعل مصر كلها من آسيا بكامل حدودها الغربية عند منطقة مريوط • وقد عزز تحديده لمصر بذكر نزاع على الجنسية بين أهل مدينة ماريا (مريوط) وبين مصر • وكان الحكم فيه يستند على أن المصريين هم الذين يسكنون وادى النيل مما يلى الفتتين ويشربون من ماء النيل ، وعلى أن النيل « . . . يغمر ما يسمى بالبلاد الليبية وبلاد العرب الى مسيرة يومين من كلا الجانبين ويزيد عن ذلك أحيانا ويقل أخرى أما فى الصعيد فان ضفة النيل الى «الجبال اللوبية» التى هى حافة الهضبه الصحراوية تدخل فى مصر (ك ٢، ف ٨، ١٩) • وقد جهل هيرودوت الحد الجنوبى للقارة لأنه يقول : يظهر ان قارة ليبيا نفسها محاطة بالبحر الا من جهة اتصالها بآسيا (ك ٤، ف ٤٣) فتصور وجود بحر فى جنوبى الصحراء الكبرى •

ونقف فى هذين التحديدين عند بعض التسميات : فالبحر الأبيض يسمى عند

هيرودوت اليونانى بالبحر الشمالى ، وعند البيرونى ببحر مصر ، وهنا مثل على تغير التسميات المؤسسة على الجهات الأصلية بحسب انتقال مركز الحضارة •

أما من حيث السكان فقد ذكر هيرودوت انهم من مصر الى المحيط قبائل مختلفة يجمعهم جنس واحد (ك ٢، ف ٣٢) •

ونحن اذا تأملنا هذا التقسيم وجدناه مستندا الى مجال الجنس الليبى مضافا اليه جنس قليل الأهمية ينزل فى الجنوب هو جنس الحبش أى السودان • فللتسمية ما يبررها اذن •

ظهور اسم افريقية فى العهد الرومانى، وانكماش اسم ليبيا

بدأ اسم افريقية فى الظهور عند الكتاب اللاتين منذ فجر القرن الثانى ق م• وكان اسما محدودا يطلق على قبيلة فى تونس الحالية تسمى أفرى • ثم ذاع الاسم فى أواخر أيام البونيين فى قرطاجنة ، ثم جعله الرومان علما على ما استولوا عليه حول قرطاجنة حين أبادوا السيادة البونية فى تونس الحالية • وسموا ما استولوا عليه اقليم افريقية Provincia Africa• وكانت افريقية الرومانية محدودة المعالم ، وكان الاقليم الواقع الى الغرب يسمى نوميديا ، والاقليم الواقع فى أقصى الغرب يسمى موريطانيا • أما ما يقع فى شرقى تونس أو افريقية الرومانية فقد احتفظ باسم ليبيا • ثم كان الرومان هم الذين مدوا اسم افريقية حتى أطلق على كل القارة الليبية القديمة• ولعل أساس امتداد الاسم الجديد هو وحده المصير السياسى اذ صار حكم ما امتد اليه السلطان الرومانى حكم افريقية فصارت طرابلس من افريقية حين كان اقليم طرابلس وحده منضافا الى افريقية الرومانية • فلما استولى الرومان على برقة أجروها مجرى طرابلس ، ثم تلا ذلك استيلاء الرومان على مصر • فكان استيلاؤهم على ما يقع شرقى تونس أمرا تدريجيا ، فتهيأ الجو لامتداد اسم افريقية •

وبذلك حل لفظ افريقية محل لفظ ليبيا ، وصرنا اذا جهلنا الجغرافية التاريخية نجهل أيضا أن اسم ليبيا كان يطلق على قارة • وضاق عندئذ مدلول اسم ليبيا حتى صار منذ انشاء ولاية افريقية الرومانية يمكن ان يطلق على ما يقابل المملكة الليبية الحاضرة •

ولا بد من أن نقرن هذه الوقائع بالتواريخ • أما السيادة الرومانية فى افريقية وانشاء ولاية افريقية فكان عام ١٤٦ق م ؛ وتلا ذلك مباشرة ضم طرابلس • أما برقة فانها آلت الى الرومان بعد ذلك بنصف قرن تقريبا (٩٦ ق م) • بوصية بطليموس أبيون الابن الغير الشرعى لبطليموس السابع من بطالمة مصر• وهذان التاريخان حاسمان فى تاريخ اسم افريقية وقد ضاق تبعا لذلك مدلول اسم ليبيا •

اقليم ليبيا ، أقسامه وحدوده فى العصور المختلفة

ومن الطبيعى أن يكون تقسيم البلاد الموحدة الجنس الشاسعة مثل بلاد القارة الليبية تقسيما تمليه الطبيعة الجغرافية أو الظروف السياسية •

واقليم ليبيا مؤلف من شطرين أو قل من وحدتين جغرافيتين بينهما تشابه[1] ، فكلاهما محاط من كل جهة تقريبا بالصحراوات الفاصلة • وحدودهما البرية كذلك حدود رسمتها الطبيعة • والصحراوات تجعل من برقة وطرابلس واحتين ضخمتين اذا جاز لنا التجاوز شيئا عن المعنى الحرفى • ويصدق على شطرى ليبيا ما يصدق على الواحات من حيث انها بلاد لا يقدر عليها الا أهلها ومن حيث أنها بيئة محافظة بحيث يمكننا القول انه لولا البحر والطريق الساحلى لكانت ليبيا واحتين حقيقتين ضخمتين •

وهذا التقسيم الجغرافى مبنى على التناظر الذى يجذب النظير وينشىء بينهما تكاملا •

التقسيم السياسى : ولكن قد توجد ظروف سياسية أقوى من التجاذب ، وعندئذ يكون التشطير • والواقع ان شطرى البلاد لم يتميز أحدهما عن الآخر الا بالظروف السياسية ، بل نلاحظ أيضا أن الظروف التى اقتضت التشطير كانت ظروفا طارئة من الخارج ، ونخرج من حسابنا التشطير الذى تقتضيه الضرورة الادارية • ونحن اذا تتبعنا تاريخ البلاد وجدنا أن الشطرين فى أقدم الأزمنة كانا متجانسين موحدين الى الحد الذى تسمح به طبيعة السكان القبلية• ثم كان أول تشطير عندما استولى الفرس على برقة وضموها الى مصر وجعلوها «الستراپية الفارسية السادسة»• فسارت برقة فى ناحية وسارت طرابلس فى ناحية أخرى • وكان التشطير الثانى الذى اكتسب بطوله وعمقه بعض الأهمية : حين نزل الدوريون فى برقة فى القرن السابع ق م وحين نزل البونيون فى قرطاجنة وساحل طرابلس فكان شطر بونيا ساميا مشاركا فى حضارة آفلة وكان شطر بونيا مشاركا فى حضارة صاعدة فتية • وقد شاءت الحوادث السياسية أن تتدعم الصفة اليونانية فى برقة حين وقعت فتوح الاسكندر ، واتخذت الصبغة الهلنستية بهذه الفتوح شكل عالم متصل الحلقات يدور كله حول الحوض الشرقى للبحر الأبيض • غير أن هذا التشطير الذى طال انتهى عندما قويت روما وجعلت البحر الأبيض بحيرة رومانية ، وظلت آثار التشطير مع ذلك قائمة فى العصر الرومانى فكان قسم يونانيا فى صبغته وكان القسم الآخر رومانيا محتفظا ببعض

1) M. CARY : The Geographical Background of Greek & Roman History, Oxford, 1949, p. 220.

آثارما خلفه البونيون. ولكن هذا التشطير كان يخفي وراءه اجتماعا مبنيا فى الحقيقة على وحدة الجنس. وأما منذ قيام الرومان الى الآن أى منذ ١٤٦/٩٦ق م — الى الآن فقد انعدم التشطير الا للحاجات الادارية أو الدفاعية .

والحقيقة التاريخية التى تستنتج من هذا العرض ان ليبيا ببرقتها وطرابلسها تتأثر فى الوحدة والتشطير بأحوال جيرانها من ناحيتى الشرق والغرب ومن ناحية البحر.

علة التشطير : وللتشطير علة دفاعية حتمية ، فانه يتم كلما تنازعت قوتان خارجيتان، هذه ملاحظة والأخرى : أن كل قوة تقوم فى اقليم تونس تحتاج لوقوعها أمام ايطاليا وعداوتها لرومة الى ان تجعل اقليم تونس قلبا وقاعدة كبرى للدفاع ، والى أن تتخذ فوق ذلك لهـذا القلب جناحين عن يمين من ناحية طرابلس وعن يسار نحو الجزائر الحالية . هكذا كان الوضع أيام البونيين فى حروبهم مع الرومان ، ولهذا السبب أيضا جعل المسلمون القيروان قاعدة كبرى .

حدود اقليم طرابلس من الغرب : وحدود طرابلس من الغرب كانت فى أقدم العصور الى قيام البونيين فى قرطاجنة هى الحدود الطبيعية أى قابس وشط الجريد (= بحيرة ليبيا) والحدود الطبيعية حدود تلتزمها القبائل فى العادة ولا تستطيع التغلب عليها الا فى أثناء الهجرات الكثيفة . ثم اتصلت طرابلس وقرطاجنة فى أثناء العصر البونى فلم تتغير الحدود لأن النفوذ البونى انما تركز فى مدن الساحل دون الدواخل . ثم يرث الرومان نفس الوضع كما كان أيام البونيين وتحس البلاد بصخب هذا السلطان الجديد وصولته وتنشأ على حدودها نظم تغرية دفاعية ، تؤدى دراستها الى تعيين الحد الغربى بالدقة . فقد جعل الرومان دفاعهم يتركز على قابس وبحيرة شـط الجريد خاصة فأقاموا سلسلة من الحصون تبدأ من قابس وتمر جنوبى شط الجريد ثم بحافة الهضبة الصحراوية التى تتقوس وتبعد فى تقويسها عن البحر لتعود اليه مرة أخرى عند مصراته تقريبا . واتخذوا مع هذه الحصون ضياعا[1] . وعند قابس وشط الجريد كانت توجد الحدود الطبيعية التى تشير اليها التسميات . فان تسمية بحيرة شط الجريد الحالية باسم بحيرة ليبيا تسمية تقابل اطلاق اسم ليبيا على الجبال الغربية الموازية للنيل واسم لوبية على الكورة المجاورة لمريوط . وهنا أيضا الحدود الجغرافية ، ففى هذا الموضع منخفض فاصل مشغول ببحيرات . ففى مقابل قابس توجد اولا بحيرة شط الجريد ثم بحيرة أخرى على امتدادها هى البحيرة التى يصب فيها نهر الزاب المسمى الزاقوس Savus عند اللاتين. والواقع أن قابس هى مفتاح تونس من الغرب . ومع ذلك فان هذه الحدود كانت حدودا داخلية فى أيام

1) M. CARY, op. cit. p. 707 ; R.C. CAGNAT : La frontière militaire de la Tripolitaine (Mémoire de l'Académie des Inscriptions . . . T. XXXIX, Paris 1912.

البونيين والرومان والروم والمسلمين . ولم تكن تبعا لذلك حدودا مرسومة ضد عدو قريب أو بعيد . ولم تكن حتى فى صفتها الداخلية فعالة الا فى فترة محدودة أيام الرومان فى القرن الرابع الميلادى .

أما الحدود الليبية الحالية فتقع شرقى مدينة جربة .

الحدود بين برقة وطرابلس : وكذلك الحدود بين برقة وطرابلس حدود طبيعية ، فانه تقع بين العقيلة وسرت منطقة تزحف فيها الصحراء حتى تصل الى البحر . أما من الناحية السياسية فان الحدود أختلفت باختلاف الحدود وسنعرض لها عند الـكلام على برقة .

كور برقه

وحدود برقة من الشرق من ناحية مصر حدود تأرجحت تأرجحا كبيرا بتغيير الزمان ولنصرف النظر عن النيل والفرع السبنيتى فى الدلتا ، فانه حد هندسى بين قارتين (آسيا وليبيا) ولا يقابل شيئا . فاذا انتقلنا الى غربى الدلتا لقينا غربى الفرع الكانوبى (الذى كان يصب فى البحر عند « أبو قير » اقليما يعرف باسم مريـوط أو كورة مريوط أو پاجاركيه مريوط ومنيلايت . ولنعتبر هذه الكورة من مصر كما كانت منذ أوائل العصر الفرعونى . واذن تكون أول كورة من كور برقة على أوسع تقدير كوره لوبيه ثم مراقيه ثم اقليم برقة ، فلنحاول التعريف بهذه التقسيمات على الترتيب .

كورة مريوط وحدها الغربى : لا يهمنا الحديث عن كورة مريوط نفسها ، فانها كانت دائما خارجة عن ليبيا ، داخلة فى مصر ، حتى عندما كانت تستقل بتدبير أمورهـا بنفسها وانما يهمنا الحد الغربى منها المجاور لكورة لوبية .

حد مدينة مريوط : يقول هيرودوت أن حد مصر يبدأ شرقا من بحيرة سربونس (برديل الآن ومنذ أيام الحروب الصليبية) الى مدينة ماريا (= مريوط) القديمة[1] الواقعة جنوبى البحيرة الى مدينة پلينثين Plinthine الواقعة شمال البحيرة فكلتاهما حد ، وتقعان غربى العامرية الحالية ، وعندهما يتقوس الساحل ليكون ما يسمى خليج پلينثين أو خليج العرب[2] .

(١) ماريا الآن خرائب لا شكل لها، وهى على مسافة يسيره من قرية الهوارية الحالية نسبة الى قبيلة هوارة التى ادركها الفتح العربى . وقد حدد موضعها محمود الفلكى باشا، وكانت تعتبر مفتاح مصر أمام اى غزو برى من هذه الناحية . وقد حلت الحمام اليوم محلها، انظر A. DE COSSON : Mareotis, London 1935

(٢) العامرية كانت تسمى باسم الغيط وباسم القرة Quarrah وباسم برنجى مريوط، حقق موضعها محمود الفلكى باشا ؛ ويذكر دى كوسون انه فى ١٩١٦ لجأ اليها كثير من المجاهدين السنوسيين (نفس الكتاب المذكور آنفا ص ١٤٥/٦)

حد باشو عام ١٨٢٤ (أبيس) وقد روى الرحالة باشو Pacho[1] عندما زار المنطقة عام ١٨٢٤ أن حد مصر يومئذ Buon Adjoubah, Apis فاذا رجحنا مع دى كوسون أنهما مكانان قريبان من ابو صير Taposiris[2] كان محتما أن نقول أن الحد عام ١٨٢٤ هو نفس الحد الذى ذكره هيرودوت فى القرن الخامس (ق م)• ونذكر تفاديا للابهام أن باشو ذكر هذا الحد على أنه الحد الفعلى ثم أضاف ان وراءه منطقة فاصلة ممتدة الى السلوم ، وأن حد السلوم فاصل بين أولاد على شرقا وبين الحرابى النازلين غرب السلوم •

حد العلمين : أما دى كوسون الذى خصص كتابا لكورة مريوط، فانه يجعل الحد الغربى غربى العلمين بقليل عند خط طول ٢٩ • وهذا التحديد ينقلنا ويقصينا عن حدود هيرودوت نحو الغرب بحوالى ٧٠ كم٢ •

حد الحمام فى العصر الاسلامى : ونحن اذا رجعنا الى كتب الجغرافيين والمؤرخين وجدنا ذات الحمام حدا مهما فقد ورد عند المقدسى الجغرافى (ص ٢٢٤) أن عمارة ذات الحمام من امارات ظهور الفاطمى على مصر• ومثل هذا التنبؤ اما ان يكون بعدظهور الفاطميين فى افريقية أو بعد دخولهم مصر • ونحو ذلك ما قال ابن الفقيه فى خواص البلاد (ص ٣/٤) : صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطير والجناحين والصدر والذنب ، والذنب من ذات الحمام الى المغرب • فاذا رجعنا الى أصحاب المسالك عرفنا أن ذات الحمام هى الحمام بحسب ما ورد عنـد ابن خرداذبه (٨٤ ، ٣٦٦) والادريسى (ص ١٣٦) (الاسكندرية ثم بومينه 1st Menas, Boumnah, Abomna[2] (وقد يرد بدلها تونيه ولعلها محرف Toenia)) ثم ذات الحمام ومجموع المسافة ٣٨ ميلا • فاذا رجعنا الى المؤرخين وجدناهم يذكرون ذات الحمام فى حوادث مختلفـة فى القرون الهجرية الأولى ، ونستنتج من الحوادث ان ذات الحمام لها أهمية حربية كحدود فعلية • وقد ورد فى ابن الاثير أن بين ذات الحمام وبرقة (هكذا والمقصود كل أقاليم برقة) مفازه قدر مرحلتين لا يوجد فيها الماء الا بصعوبة وشدة فى آبار عميقة ، ويتفق هذا مع قول قدامة الجغرافى أنه : من ذات الحمام يحمل الماء فى البرية ويقترب الطريق من بحر الروم • ويوافق هذا قول دى كوسون فى وصف هـذه النواحى الآن ، فهو يقول انه توجد فعلا منطقة فاصلة هنا بحيث أن العرب النازلين غربى العلمين يسمون أرضهم « المقطوعة » فاذا خرجوا منها الى الحمام والعامرية كانت ناحية «خشم العيش» هى أول العمران • وللحمام الآن أهمية تجارية ففيهـا

(١) دى كوسون، المذكور بالانجليزية ص ٢٠٢
(٢) نفس المرجع، ص ٢٥
(٣) نفس المرجع ١٣٥/١٣٦ وقد وصف البكرى فى القرن الحادى عشر الميلادى كنيسة بومينا وصفا مسهبا .

تعقد اسبوعيا سوق كل سبت ، ولها أيضا أهمية فى المواصلات : فعندها كان ينحرف طريق الحج القديم نحو وادى النطرون والقاهرة • ويذكر الجغرافى قدامه بن جعفر (ص ٢٢٠) أنه عندها يلتقى طريق برقة وطريق الاسكندرية •

ثبات حد مريوط : وينتج من استعراض هذه التحديدات أن حد مريوط يتراوح بين «ابوصير» Taposiris والحمام والعلمين • وهذا المتراخى فى التحديد غير مهم فنحن نعلم ان المدن الكبيرة مثل ماريا التى دالت ومثل الحمام فى العصر الاسلامى لا تكون بذاتها حدا ، وانما تدخل فيها أيضا أرباضها ومن يتصل بها خاصة من البـدو • والواقع ان المدن لا تكون حدا هندسيا الا اذا وقعت عند نهر أو جبل حاجز أو على ساحل •

حد مريوط حد داخلى : كانت مريوط فى القديم حدا دوليا بين قارتين ، واقتضى ذلك أن يسمى ما وراء مريوط غربا باسم «لوبية» كما سميت الجبال الغربية المحاذية للنيل • ثم نمت رقعة مصر منذ القديم بحكم الاتصال بالليبيين وخاصة عندما قامت فى مصر أسرة فرعونية ملكية من أصل ليبى فزحفت الحدود الرسمية نحو الغرب فدخلت فى مصر فى أكثر الاوقات لوبيه ومراقيه وبرقه ، ودخلت فيها طرابلس أحيانا فى بعض التقسيمات الادارية ، وصار حد كوره مريوط الغربى حدا داخليا ، ومع ذلك ظلت منطقة مريوط فى كل الأحوال منطقة ثابتة بثبات الجغرافيا •

ومن امثلة الضم الادارى أن تراجان ضم مراقية الى مصر ، وان چستيان ضم كوره لوبيه وكوره مريوط وجعلهما قسما واحدا منفصـلا عن اقليم مصر الأول Aegyptus I كما ورد فى المرسوم الثالث عشر Just. Edict XIII

كوره لوبيه

وتقع لوبية فى غربى مريوط ، وحدها الشرقى فى نواحى العلمين الحالية حيث يضع دى كوسون مدينة Leucaspis (وخرابتها على نحو ٥ كم من العلمين) وعاصمة الكورة هى مرسى مطروح الحالية وهذا الاسم حل محل الاسماء القديمة : مرسى البركه ، والبرطون معرب Paraetonium، وقد سماها استرابون Ammonia أما الحد الغربى فهو السلوم Catabathmus

ويوجد فى المصادر العربية بعض التردد فى تصور مواقع لوبية ومراقية[1] ، وهو تردد يدل على انهم ذكروا الاسماء استنادا الى مرويات قديمة كانت قد دالت •

(١) مثال ذلك ما روى ياقوت الحموى فى معجم البلدان « اذا قصد القاصد من الاسكندرية الى افريقية فأول بلد يلقاه مراقيه ثم لوبيه . وهذه الرواية مفردة من جهة ومرجوحة من جهة أخرى بما كان معروفا قبل الاسلام وبعده وخاصة رواية القلقشندى عن القضاعى (حـ ٦، ص ٣٨٧) التى تقول وفى آخر ارض مراقبة تلقى ارض انطابلس .

فمعرفتهم للكورتين معرفة غامضة مع انهم حققوا وضع مريوط ورووا فى فضائلها مثلا ما يأتى : « لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمريوط من كورة الاسكندرية وبوادى فرغانه » فى وسط آسيا • ويظهر أنه كان من نتيجة سقوط هاتين التسميتين أن امتد اسم برقة فى مكانها ، كما نرى عند ابن الاثير فى قوله ان بين ذات الحمام وبرقة منزلتين (أخبار سنة ٣٩٧ فى ثورة ابى ركوره) •

كورة مراقيـــة

واسم مراقية ماخوذ من اسم شعب المرمريق Marmaridae وكانت عاصمتها تسمى Marmarice أيضا ولا يعرف موضعها اليوم ويقال انها كانت نحو الداخل، وكانت أهم من درنة وطبرق Darnis, Antipyrgus ويضيف دى كوسون أربع مدن أخرى[1] فى كتابه عن مريوط •

وبعض المؤرخين يدخل درنة فى برقة ، ويخرجها من مراقية ويجعل الحد بين الاقليمين واقعا بين خرسونيز Chersonesus [2] ودرنة •

ولدينا نص بردى محفوظ بالفاتيكان (رقم ٥٣ Slùdi e testi) ورد فيه اسم مراقية على أنه نوم من نومات مصر (وقد امتد التقسيم الى نومات بمعنى الكور الى العصر الرومانى) ويعلق المؤرخون على هذا الخبر بأن هذا الحادث يمكن أن يكون وقع بسبب الثورة اليهودية فى أواخر حكم تراجان[3] •

اقليم برقة بالمعنى الضيق : ذكرنا أن اسم برقة امتد شرقا حتى قارب الحمام ونضيف هنا انه امتد غربا حتى وصل الى غربى العقيلة الحالية أيام البطالمة • وقـد جرى المؤرخون المسلمون فعلا على اعتبار برقة اسما عاما يدخل فى حكمه كل ما تعلـق ببرقة من الجهات شرقا وغربا • أما المعنى الضيق فثابت للآن فى الجغرافيا بتميز منطقة البطنان فى برقة الحالية ، والبطنان تقابل مراقية ، والمعنى الضيق ظهر أيضا فى أيام الدوريين قبل البطالمة فان الدوريين اقتسموا بعد العصر الملكى حول مدينتين أو حكومتين قورينه Cyrene وحكومة برقة Barca ثم زال هذا التقسيم أيام البطالمة، ثم آلت البلاد الى الرومان (٩٦ ق م) بوصية من بطليموس أپيون • وبقى اسم أنطابلس، ففى القرن الثالث الميلادى جعل الامبراطور الرومانى (دقلديانوس : برقة اقليما مستقلا وساه Libya Pontopoliso أو Pentopolis Libya (ليبيا الأنطاپولية، أو انطابلس الليبية) وظل هذا الاسم مستعملا الى أوائل العهد الاسلامى ثم اندثر وحل محله اسم برقة عند من يكتبون بالعربية ، وان كان اسم سيرينايكا هو الذى

1) Cataeunium, Batrachus, Paluvius, Axilis

(٢) ولهذه المدينة سمية عند الاسكندرية تعرف باسم خرسونيز الصغرى ، ويوجد فى موضعها اليوم سيدى العجمى والدخيلة .

3) Cambridge Ancient History vol. XI Ch. XVI

لا يزال يستعمل عند الفرنج الى الآن •

وقد بادت اسماء العصر القديم اليونانى والرومانى الا طلميثة ودريانه فـان احداهما تذكر بالبطالمة والأخرى باسم الامبراطور هدريان • أما اسم ارسينوى Arsinoé الذى كان يطلق على توكره Tocra فقد باد، وكذلك اسم Apollonia الذى كان يطلق على سوسه Sozusa ، وبقيت ذكريات للقديم اليونانى عند البدو فأهل أوجله يذكرون برنيق Berenice [1] واهل الشحات يذكرون قرنه على انها اسم موضع لا شىء فيه قريب من آثار قورينه •

وحد برقة بالمعنى الضيق يشمل درنه أو لا يشملها شرقا ويمتد غربا الى بنغازى (= برنيق=هسبريدس Hesperides, Eusperides) قبل عصر البطالمة ثم فى عهد البطالمة الى اوتوملاكس Automalax أو ايفرتناس Euphrontas أو مذبح فيلانى[2]

التحديدات الاسلامية لبرقه

نقل الكتاب المسلمون الينا أسماء التقسيمات الكبيرة (لوبية ، مراقية ، برقة) ولكنهم لم يهتموا بالتفاصيل • وانصب اهتمامهم خاصة على ذكرى حد برقة من الغرب ، ويرجع هذا الاهتمام الى ان برقة كانت فى الأغلب منضافة الى مصر ، فكان حد الأعمال أو التقسيمات الادارية هو الذى يجتذب الاهتمـام ، ولنذكر بعض التحديدات :—

١ — روى القلقشندى (ح ٦، ص ٣٨٧) أن مراقية هى آخر الديار المصرية من جهة الغرب ، ويؤيده قول ياقوت : ان لوبية ومراقية من كور الاسكندريه، ويؤيده ايضا قول المراكشى ان : «بر برقة المقابل لكريث هو أول المغرب» (ص ٢١) ومعناه بحسب ما نرى ان برقة خارجة عن اختصاص مصر •

٢ — ويشبه التحديد السابق تحديد رواه الادريسى حيث قال : مدينة برقة أول منبر ينزله القادم من بلاد مصر الى القيروان (ص ١٣١) فانه دلنا على وجود ثلاثـة منابر • فى مصر ، وفى برقة ، وفى القيروان • وبرقة فى هذا التحديد خارج مصر •

٣ — ونجد فى روايات ابن الأثير (أخبار عام ٣٠٠هـ) تحديدا آخر يجعل برقة من عمل مصر ، ويجعل نهايتها الغربية عند مدينة انطابلس ، وقد ردد هذا التحديد القلقشندى (ح ٣، ص ٣١١) فقال على فراسخ منها عند العقبة الكبرى • ويستطيع من يعرف البلاد أن يؤكد ان المقصود هو عقبة توكره أو الباكور • وقد ردد المراكشى هذا التحديد فقال « أول حد بلاد المغرب مدينة انطابلس المدعوة برقة، . . . ومنها كان ابتداء فتح المغرب » ص ٣٤٧ • وقد روى ابن اياس ص ٧، وابن خرداذبه ص

(١) يذكر الادريسى ص ١٣٢، ١٣٥ : اقليم برنيق ووطاء برنيق ويقول انـه الارض التى بين مدينتى برقة واجدابية

2) A.H.M. JONES : The Greek City from Alex. to Justin Oxford, 1940. p. 362.

٨٣، والادريسى ١٣١ وابن الفقيه ص ٥٧٢ أن حد مصر من مدينة برقة الى عقبة أيله ٤٠ يوما .

وقد اعتمدت شخصيا هذا التحديد فيما يخص فتح العرب لمصر ، فاعتبرت فتح برقة الأول على يد العرب تتمة طبيعية لفتح مصر بحسب العرف الادارى البيزنطى الذى كان قد دام عدة قرون عندما جاء الاسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن مثل هذا التحديد كان عرفا جاريا فى عصره فقال ص ١٠١ : والعرف الجارى لهذا العهد . . . لا يدخل فى المغرب اقليم مصر ولا برقة وانما يختص المغرب بطرابلس وما وراءها ، ويذكر السلاوى ص ٣ مثل ذلك .

٤ — ولدينا أيضا تحديد فعلى مستمد من روايات المؤرخين للحوادث التاريخية . فان تتبع أخبار الخوارج فى القرن الثانى للهجرة فى افريقية يدل على ان سرت كانت آخر حامية طرابلسية ، ومعنى هذا ان ما وراءها شرقا يتبع برقة أو على الأقل أن سرت مفتاح طرابلس . ونجد كذلك فى خبر خروج العباس بن احمد بن طولون على أبيه أن آخر حصن لأبن الاغلب كان لبدة حيث كان يوجد عامل لابن الأغلب . وتدلنا أخبار الفتوحات على أن قصور حسان كانت من حيز برقة .

لفظ المغرب :

ويرد لفظ المغرب دائما فى العبارات التى تتعرض لتحديد عمل مصر أى اختصاصها الادارى أو عند تحديد برقة من جهة الغرب . ونلاحظ عندما نريد استخلاص حدود المغرب من النصوص أننا أمام قاعدة هى : ان ما عدا مصر هو المغرب كما كان ما عدا مصر هو قارة ليبيا . وعلى هذا اختلفت حدود المغرب من جهة مصر باختلاف عمل مصر الادارى بحسب التقاليد الادارية . فيكون حد المغرب مرة عند ذات الحمام، ومرة غربى مراقية، ومرة عند غربى برقة . ولا يبعد قط ابتداء المغرب عن ذلك .

والخلاصة ان اسم ليبيا ورد عند العرب كاسم قارة ولم يطلق قط على برقة وطرابلس طول العصور الاسلامية السابقة ولا على بحيرة شط الجريد وانما اطلق على كورة وجبال وصحراء، ولكن الاسم قديم أصيل لا يعرف أوله، ثم اطلق على برقة وطرابلس فعلا منذ قيام اقليم افريقية وابتداء السيادة الرومانية (حول ١٤٦ ق م) ثم حل لفظ المغرب عند كتاب اللغة العربية محل اسم ليبيا تماما . ومع ذلك فان قدم الاسم وأصالته وسرعة قبوله اليوم يجعلنا نرجو أن يكون الاسم القديم المبعوث بشيرا بنهضة ثابتة الدعائم وان يكون الاسم موضع الترحيب .

بنغازى
محمد عبد الهادى شعيرة
استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة الليبية
وجامعة عين شمس

الآمدي وكتابه المـــوازنة

للدكتور طـه الحـاجرى

— ١ —

قلت فى مقدمة الجزء الأول من كتابى «فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية» ان «النقد الأدبى أكثر وجوه النشاط العقلى تأثرا بسائرها، وتعبيرا عن اتجاهاتها، وجريا مع تياراتها المتباينة، حتى لنستطيع القول — فى غير مبالغة ولا تجاوز لحدود التقدير العلمى — اننا نملك — اذا أتيحت لنا مجموعة هذا النقد مكتملة منتظمة منسقة — أن نتعرف فيها أصداء جميع ما أتيح للعقل الاسلامى والجماعة الاسلامية، من تغيير وتطور، ومن تبدل وتحول، واضحة جلية» .

وهذا قول عام يصدق — فيما نرى — على النقد الأدبى عامة، لا يختص به عصر دون عصر، ولا بيئة دون بيئة، ولا أمة دون أخرى[1]، اذ كانت الأسباب المفضية الى هذه النتيجة أسبابا عامة، على النحو الذى بيناه هنالك. فليس يتوجه على هذه القضية العامة أن يكون لعصر من العصور بعض الخصائص التى يبدو أنها تبعد به عن الاندراج تحتها والوقوع فى حكمها، كالذى يمكن أن يقال عن القرن الرابع الذى نؤرخ هنا لبعض وجوه النقد الأدبى فيه، اذ ندرس الآمدى فى كتابه الموازنة ، من انه عصر التخصص، وانه بذلك يختلف عن العصور السابقة التى كانت وجوه النشاط العقلى فيها اكثر تجاوبا، وأظهر تداخلا، وأوثق اتصالا، مما كان أعون على تحقيق تلك الظاهرة، أما هو فان الحياة العلمية أخذت فيه طابعا جديدا، اذ برزت فيه تلك الظاهرة التى كانت تتكون من قبل شيئا فشيئا، وهى ظاهرة التخصص العلمى،

(١) انظر ما قاله ، مما هو بسبيل من هذا Fernand Baldensperger بالقياس الى تاريخ النقد الأدبى فى فرنسا فى كتابه :
La critique et l'histoire litteraires en France ... etc. p. 13

٨٣، والادريسى ١٣١ وابن الفقيه ص ٥٧٢ أن حد مصر من مدينة برقة الى عقبة أيله ٤٠ يوما .

وقد اعتمدت شخصيا هذا التحديد فيما يخص فتح العرب لمصر ، فاعتبرت فتح برقة الأول على يد العرب تتمة طبيعية لفتح مصر بحسب العرف الادارى البيزنطى الذى كان قد دام عدة قرون عندما جاء الاسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن مثل هذا التحديد كان عرفا جاريا فى عصره فقال ص ١٠١ : والعرف الجارى لهذا العهد . . . لا يدخل فى المغرب اقليم مصر ولا برقة وانما يختص المغرب بطرابلس وما وراءها ، ويذكر السلاوى ص ٣ مثل ذلك .

٤ — ولدينا أيضا تحديد فعلى مستمد من روايات المؤرخين للحوادث التاريخية . فان تتبع أخبار الخوارج فى القرن الثانى للهجرة فى افريقية يدل على ان سرت كانت آخر حامية طرابلسية ، ومعنى هذا ان ما وراءها شرقا يتبع برقة أو على الأقل أن سرت مفتاح طرابلس . ونجد كذلك فى خبر خروج العباس بن احمد بن طولون على أبيه أن آخر حصن لأبن الاغلب كان لبدة حيث كان يوجد عامل لابن الأغلب . وتدلنا أخبار الفتوحات على أن قصور حسان كانت من حيز برقة .

لفظ المغرب :

ويرد لفظ المغرب دائما فى العبارات التى تتعرض لتحديد عمل مصر أى اختصاصها الادارى أو عند تحديد برقة من جهة الغرب . ونلاحظ عندما نريد استخلاص حدود المغرب من النصوص أننا أمام قاعدة هى : ان ما عدا مصر هو المغرب كما كان ما عدا مصر هو قارة ليبيا . وعلى هذا اختلفت حدود المغرب من جهة مصر باختلاف عمل مصر الادارى بحسب التقاليد الادارية . فيكون حد المغرب مرة عند ذات الحمام، ومرة غربى مراقية، ومرة عند غربى برقة . ولا يبعد قط ابتداء المغرب عن ذلك .

والخلاصة ان اسم ليبيا ورد عند العرب كاسم قارة ولم يطلق قط على برقة وطرابلس طول العصور الاسلامية السابقة ولا على بحيرة شط الجريد وانما اطلق على كورة وجبال وصحراء، ولكن الاسم قديم أصيل لا يعرف أوله، ثم اطلق على برقة وطرابلس فعلا منذ قيام اقليم افريقية وابتداء السيادة الرومانية (حول ١٤٦ ق م) ثم حل لفظ المغرب عند كتاب اللغة العربية محل اسم ليبيا تماما . ومع ذلك فان قدم الاسم وأصالته وسرعة قبوله اليوم يجعلنا نرجو أن يكون الاسم القديم المبعوث بشيراً بنهضة ثابتة الدعائم وان يكون الاسم موضع الترحيب .

بنغازى **محمد عبد الهادى شعيرة**
استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة الليبية
وجامعة عين شمس

الآمدي وكتابه الموازنة

للدكتور طه الحاجرى

— ١ —

قلت فى مقدمة الجزء الأول من كتابى «فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية» ان «النقد الأدبى أكثر وجوه النشاط العقلى تأثرا بسائرها، وتعبيرا عن اتجاهاتها، وجريا مع تياراتها المتباينة، حتى لنستطيع القول — فى غير مبالغة ولا تجاوز لحدود التقدير العلمى — اننا نملك — اذا أتيحت لنا مجموعة هذا النقد مكتملة منتظمة منسقة — أن نتعرف فيها أصداء جميع ما أتيح للعقل الاسلامى والجماعة الاسلامية، من تغيير وتطور، ومن تبدل وتحول، واضحة جلية» .

وهذا قول عام يصدق — فيما نرى — على النقد الأدبى عامة، لا يختص به عصر دون عصر، ولا بيئة دون بيئة، ولا أمة دون أخرى[1]، اذ كانت الأسباب المفضية الى هذه النتيجة أسبابا عامة، على النحو الذى بيناه هنالك. فليس يتوجه على هذه القضية العامة أن يكون لعصر من العصور بعض الخصائص التى يبدو أنها تبعد به عن الاندراج تحتها والوقوع فى حكمها، كالذى يمكن أن يقال عن القرن الرابع الذى نؤرخ هنا لبعض وجوه النقد الأدبى فيه، اذ ندرس الآمدى فى كتابه الموازنة ، من انه عصر التخصص، وانه بذلك يختلف عن العصور السابقة التى كانت وجوه النشاط العقلى فيها اكثر تجاوبا، وأظهر تداخلا، وأوثق اتصالا، مما كان أعون على تحقيق تلك الظاهرة، أما هو فان الحياة العلمية أخذت فيه طابعا جديدا، اذ برزت فيه تلك الظاهرة التى كانت تتكون من قبل شيئا فشيئا، وهى ظاهرة التخصص العلمى،

(١) انظر ما قاله ، مما هو بسبيل من هذا Fernand Baldensperger بالقياس الى تاريخ النقد الأدبى فى فرنسا فى كتابه :
La critique et l'histoire litteraires en France ... etc. p. 13

فقدجعلت العلوم ووجوه النشاط العقلى عامةتتمايز بصورةواضحة، وجعلت الصلات بينها تضعف وتتراخى .

وهذه الصفة من صفات الحياة العلمية فى القرن الرابع حقيقة مسلمة لا جدال فيها، ولكنها مع ذلك لا تذهب الى حد ابطال تلك القضية العامة بحق الأصول التى قامت عليها، اذ كانتاصولا ثابتة ترجع الى حقيقة النقد الأدبى فى ذاته. وبذلك ظل النقد الأدبى فى هذا القرن محتفظا بتلك الظاهرة التى لازمته فى مراحله الأولى ، واستطاع أن يبقى على صلاته بالاتجاهات العلمية المختلفة ، وأن يظل موضعا للانطباعات الصادرة عن هذه الاتجاهات يردد أصداءها ويحمل سماتها ، اذ كان انما يصدر فى ذلك عن تلك الأصول الثابتة والعلاقات الذاتية التى تربط بينه وبين وجوه النشاط العقلى، على النحو الذى بيناه وسواء فى ذلك أن تتمايز هذه الوجوه وتتزايل، أم تتقارب وتتداخل .

والى جانب ظاهرة التخصص العلمى هذه التى تجلت فى القرن الرابع، ولم تحل — كما ذهبنا — بين النقد الأدبى وبين طواعيته للانطباعات المختلفة، كانت هنالك ظاهرة أخرى تشاركها فى الدلالة على نضج الحياة العقلية، واكتمال أسلوب الدرس العلمى، وكان لها أثرها الواضح فى المنهج العام للنقد الأدبى فى هذا القرن، وهى ظاهرة «التجريد»، اذا جازت لنا هذه التسمية، ونعنى بها انتقال النشاط العلمى من دائرة الجزئيات المتفرقة المنتشرة، الى دائرة الكليات المجتمعة المؤتلفة، أو من النظرة الجزئية المحدودة، الى النظرة العامة الشاملة، تتعمق الأصول العامة والمبادى الكلية، وتتحرى فى ذلك العلاقات التى تراها آصل العلاقات، وبذلك تضع العلم فى نسق واحد منتظم، يضم اطرافه ويجمع متفرقه .

ولم يشذالنقد الأدبىفى القرنالرابع، فى جملته،عن هذه الظاهرة العامة،فوضحت فيه الصورة العلمية، اذ لم يعد أحكاما جزئية متفرقة، أو ملاحظات شخصية مفردة، وانما أصبح دراسات عميقة متصلة مجتمعة، يتجه كل منها الى غرض بعينه . ويصطنع كل منها منهجا مرسوما بين الحدود وينطبع كل منها بطابع واحد معين ، بحيث تكون كل دراسة من هذه الدراسات وحدة منسقة مؤتلفة الاجزاء، لها موضوعها وغرضها وأسلوبها .

وبذلك، وبما أتيح للحياة الأدبية عامة فى هذا القرن من عوامل جديدة ليس هذا موضع درسها ، يعتبر القرن الرابع من التواريخ الحاسمة فى تاريخ النقد الأدبى ، كما يعتبر من أحفل مراحل الحياة الأدبية بمظاهر النشاط النقدى، والاتجاهات المختلفة فيه .

واذ لم يكن من شأننا فى هذا البحث أن نتتبع هذه الاتجاهات ونستقصيها ونتعرف خصائصها وسماتها ، فانه يكفينا من ذلك، تمهيدا لما نحن بصدده، أن نعرف فيها انماطا ثلاثة كبرى، لكل نمط منها منهجه وطابعه وغايته ، كما يعبر كل منها عن نزعة عقلية خاصة ، ويتجاوب بأصداء بيئة علمية معينة .

أما النمط الأول فهو النقد الأدبى بمعناه الخاص : يهدف الى غرض أدبى خالص ، ويتقوم بموضوعات أدبية ، ويصدر عن دوافع أدبية ،كما يصطنع أسلوبا أدبيا، يثير الذوق الفنى ، ويعتمد على الحس البيانى .

والثانى نقد أدبى فى موضوعه ، ولكنه يختلف عن سابقه فى اسلوبه ومنهجه ، اذ يتجه أول ما يتجه من ذلك الي اصطناع الأسلوب العلمي فى الترتيب والتبويب ، والتصنيف والتعريف ، والتقدير والتحرير ، والي استنباط القوانين ووضع القواعد، وتقريرها بالأمثلة والشواهد ، كما يصدر — اكثر ما يصدر — عن تلك النزعة العلمية أو التعليمية التى ترمى الى جمع الأشباه والنظائر ، وبيان الصلات التى تصلها والعلاقات التى تربط بينها ، وتحرى ما قد يكون من فروق واختلافات تفرق بين الواحد منها والآخر .

وأما النمط الثالث فهو نقد أدبى أيضا فى أسلوبه ومنهجه وجملة موضوعاته ، ولكنه يصدر عن نزعة غير تلك النزعة، ويتجه الى غاية غير تلك الغاية، اذ كان يصدر عن النزعة الدينية المرتبطة منذ أول أمرها بالنزعة الأدبية ، ويتجه الى اثبات الحجة الخالدة للاسلام ، وهى اعجاز القرآن ، مظهر ذلك الارتباط . أما فيما بعد ذلك فله أسلوبه الأدبى فيما يعالج من مسائل تلك القضية ، الى جانب ما يعرض له فى أثناء هذه الدراسة من قضايا التعبير الأدبى .

هذه هى الانماط الثلاثة الكبرى للنقد الأدبى فى القرن الرابع، وفيها نستطيع أن تتبين اتجاهات النقد الرئيسية ومدى نشاطه فى هذا القرن .

وسنحاول فى هذا البحث أن نتعرف واحدا من هذه الانماط ، فى وجه من وجوهه، بدراسة أثر من الآثار الباقية التى تمثله وتوضح من معالمه ، وهو كتاب الموازنة بين الطائيين ، للآمدى .

— ٢ —

وكتاب الموازنة هذا يمثل النمط الأول من هذه الانماط الثلاثة، وهو أحد كتابين كبيرين مما وصل الينا من الآثار النقدية فى القرن الرابع ، كلاهما كان أثرا من آثار الخصومات الأدبية التى ثارت فى هذا القرن والذى قبله ، وغمرت البيئات الأدبية أمواجها وتياراتها، وذهبت فيها الاذواق والاهواء والنوازع مذاهب مختلفة، وكانت مصدرا خصيبا لنشاط قوى غامر اتخذ شتى المظاهر ، فكان من مظاهره كتاب الموازنة هذا وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، لعبد العزيز الجرجانى .

فأما كتاب الموازنة فمثاره تلك الخصومة الأدبية التى ثارت حول أبى تمام منذ أوائل القرن الثالث، وظلت متقدة محتدمة الأوار بعد أن انقضى عهد الشاعر بزمان ، كأنها لا تخضع لفعل الأيام ؛ بل لقد كان كل حدث أدبى جديد يمدها بالوقود، فهى بذلك دائمة الاشتعال . ذلك أن ابا تمام لم يعد فى هذه الخصومة شخصا بعينه ، وانما تحول رمزا لمذهب من مذاهب التجديد فى الشعر ، اشتق كيانه من بعض العناصر الأصيلة المتجددة فى الحياة الأدبية، ثم اتفق أن اعتبر معاصره وابن قبيلته، البحترى، رمزا للناحية المقابلة للمذهب الذى سلكه ابو تمام ، اذ كان رمزا للمحافظة الفنية ، والتزام عمود الشعر ، على حد تعبيرهم . وبذلك نرى أن الخصومة هنا ليست بين ابى تمام والبحترى ، وانما هى فى حقيقة الأمر خصومة بين مذهبين ، ما يزالان يقتسمان الميادين الأدبية ويتنازعانها فى كل زمان ومكان ، ومن ذلك ظلت هذه الخصومة متصلة متجددة، حتى لقد نجد بعض كتب المعاصرين تردد أصداءها، كما قد نجد بين نقادنا ومؤرخى الادب عندنا اليوم من يتعصب لأبى تمام ، ومن يتعصب

للبحترى عليه ، على تفاوت فى درجة التعصب تبعا للطبيعة والمزاج .

فالخصومة اذن بين أبى تمام والبحترى ليست الا مظهرا من مظاهر الخصومة الادبية الكبرى بين القديم والجديد، فهى خصومة أصيلة، ومن ذلك بقيت واستمرت بعد عهد الرجلين ، وبعد انتهاء ما يصحب عادة أمثال هذه الخصومات من أحقاد وضغائن ومشايعات شخصية تؤرثها وتزيد فى حدتها ، ومع ذلك بقيت لهجة الخصومة أحيانا حادة عنيفة، كأن تلك الاحقاد الشخصية ما تزال تؤرثها وتؤججها، كما نجد صورة من ذلك فى كلام الآمدى من انصار البحترى ، وفى كلام الصولى من شيعة أبى تمام .

وقد كان هناك قبل أبى تمام شعراء تظهر فى شعرهم مظاهر التجديد ، كبشار وابى نواس ومسلم بن الوليد ، كما اطردت سبيل التجديد بعده ، الا ان التجديد عند أبى تمام اتخذ شكلا واضحا بارزا مطردا فى جميع شعره، أو أنه بعبارة أخرى ، صاحب مذهب فنى فى الشعر اصطنعه وعرف مقوماته وحدوده ، وقد اعتبر نفسه مرتبطا به مسؤولا عنه ، فهو يتحراه فى عبارته الفنية ، ويأخذ به نفسه أشد الأخذ، لا يساهلها فيه ولا يتسمح لها . أما من قبله فلم يكن أمر التجديد عندهم مقصودا لنفسه ، أو هو — على الاقل — لم يكن موضع الاهتمام والتحرى منهم ، بل هو أشبه ان يكون انفعالا طبيعيا بهذه الحياة التى يحيونها بحواسهم ووجدانهم . وقد أخذت مظاهر هذا الانفعال تبدو فى اشعارهم فى صورة تعبير طريف أو تصوير بارع جديد أو معنى غير مألوف ، كأنما هى اصداء هذه الحياة لا اكثر ، دون قصد منهم اليها أو تعمد لها .

وبذلك اعتبر ابو تمام رأس هذا المذهب وصاحبه ، وبذلك كان محور الخصومة التى بدأت منذ ايامه ، بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء ، كدعبل الخزاعى ، ومن العلماء اللغويين كابن الاعرابى محمد بن زياد ، وقد مضت الخصومة بعد ذلك الى الطبقة التى تلى هذه الطبقة ، وأخذت تخلص الى حد ما من شوائب الاعتبارات الشخصية ، لتكون خصومة أدبية خالصة . كما بدأت تثير منذ ذلك الوقت حركة قوية من الكتابة والتأليف حولها ، من هؤلاء وأولئك ، كالذى كتبه

ابن المعتز، ومحمد بن داود الجراح، وأحمدبن أبى طاهر، وابو الضياء بشربن تميم،وابو العباس ابن عمار القطربلى ، مما كان ــ ولا ريب ــ كبير الأثر عظيم الخطر فى تطور النقد الأدبى .

واستمرت هذه الخصومة الادبية ، نشيطة دائبة ، الى أن اتيح لهـا فى القرن الرابع ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وبه بلغت حركة النقد الأدبى حول هذه الخصومة ذروتها ، اذ كان قد اجتمعت له مقومات الناقد الأدبى البصير، من العلم والفن ، ومن المعرفة والذوق ، ومن الخلق القوى المتزن . فأسهم فيها بكتابه هذا الذى سماه الموازنة بين الطائيين ، وأراد به أن يقف موقفا وسطا بين المتخاصمين ، وأن يكون رجلا موضوعيا فى الحكومة بينهما ، لا يغلبه الهوى على أمره كما غلب اسلافه .

على أن مما يقدم لنا اجل العون على فهم الكتاب وتقديره حق قدره ، وأجدر أن يقيمنا من ذلك على الطريق السوى القاصد ، أن نتعرف الى كاتبه ، فنتبين ملابسات حياته ، والوان ثقافته ، والاتجاه العقلى الغالب عليه ؛ كما نحاول أن نتعرف الملابسات التى لابست وضع هذا الكتاب ، مما قد يكون صاحب أثر فى توجيهه أو تلوينه ، فاذا نحن وفقنا فى تحقيق هذين الغرضين ، كان لنا أن نقدم على الكتاب درسا له والتماسا لحقائقه فى طمأنينة وثلج ضمير .

— ٣ —

يعد الآمدى ، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، من أهل البصرة ، وان انتسب الى آمد باعتبارها الموطن الأصلى لأسرته ، ففى البصرة ولد ، وبها نشأ نشأته الأولى ، وفيها أمضى معظم حياته ، وبذل اكبر نشاطه ، الى أن وافاه الموت بها .

وتقع حياة الآمدى فى فترات ثلاث : أولاها وأخراها بالبصرة، والوسطى فى بغداد ، وان كانت مصادرنا لا تضع لهذه الفترات حدودا تتبين منها متى بدأت كل واحدة ومتى انتهت ، وانما الحد الوحيد الذى تذكره هذه المصادر هو الحد

الأخير للفترة الأخيرة التى انتهت بوفاته سنة ٣٧١ ، فذلك هو التاريخ الوحيد الذى يذكره اصحاب التراجم .

واذن فلا نعلم متى ولد الآمدى ، فقد أحاطت الجهالة بذلك التاريخ ، كما هو الشأن فى تاريخ مولد كثير من اعلام الحياة الادبية فى تلك العصور . ولكنا نعلم ان بين شيوخه الذين رحل الى بغداد لتلقى العلم عنهم ابا موسى الحامض ، سليمان ابن محمد بن أحمد ، المتوفى سنة خمس وثلاثمائة (١) . واذن فقد كان الآمدى ولا شك من مواليد القرن الثالث . بل لعلنا نستطيع أن نفترض فى غير كبير حرج أنه ادرك من ذلك القرن زمنا غير قصير ، قد يبلغ العشرين من الاعوام ، كما يدلنا ذلك على ان نهاية هذه الفترة البصرية الأولى ، وقد انتهت برحيله الى بغداد ، كانت قبل سنة ٣٠٥ .

وواضح انه فى مثل هذه الفترة الأولى تتكون الملامح الأولى للشخصية وتظهر خطوطها الرئيسية ، والى المؤثرات التى يتعرض لها الشخص فى مثل هذه المرحلة من حياته يرجع كثير مما يطبعه ويوجهه فى سائر حياته . فبنا الآن أن نتعرف المؤثرات الأولى التى عملت اذ ذاك فى تكوين شخصية الآمدى الأدبية ، وتوجيهها الوجهة التى انتهت بكتابه « الموازنة » . وليس لنا فى ذلك الا أن نكتفى بتعرف صورة الحياة الأدبية فى البصرة لذلك الوقت ، فلا حيلة لنا فى غير هذا ، اذ كانت هذه الفترة من حياة صاحبنا تمضى يجللها الصمت المطلق ، فما يعرض لها أحد بكلمة .

ولم تكن البصرة فى ذلك العهد كشأنها من قبل ، حين كانت مركز النشاط الأدبى والعلمى ، بل كانت قد فقدت هذه المكانة ، وقد جعلت تفقدها شيئا فشيئا منذ أول القرن الثالث ، حين أخذت وجوه النشاط تتجه الى بغداد وتتجمع فيها، ثم أخذت تمتد بعد ذلك الى الأقاليم الشرقية ، فلم يكد ينتهى هذا القرن ، حتى لم يبق بالبصرة الا أثارات من هذا النشاط معظمها ادبى ، وبهذه الأثارات استطاعت

(١) انظر تاريخ بغداد ٩ : ٦١ ط القاهرة ، ١٩٣١ ، معجم الادباء ١١ : ٢٥٥ ط دار المأمون. انباه الرواة على انباه النحاة ٢ : ٢١ ، ط دار الكتب المصرية، ١٩٥٢

ان تحتفظ بشيء من تلك المكانة القديمة لذلك المصر ، كما كان من هذه البقية الباقية لها ما بقى للناس فيها من تذوقهم للأدب وتقديرهم له واقبالهم عليه ، التماسا للمتعة • ومن ذلك اتجه الشعر فيها الى الاتصال بجمهور الناس والتعبير عنهم والتماس اسباب حياته عندهم ، ومن أجل ذلك كان أدنى الى البساطة ، وأقرب الى السهولة ، مع احتفاظه مع ذلك بالديباجة العربية السليمة •

ولعل من أوضح الدلائل على هذه الظاهرة فى الحياة الأدبية بالبصرة لذلك العهد أن كان أحد أنديتها الأدبية اذ ذاك دكانا من دكاكين الخبازين، هو دكان نصر بن أحمد الخبزأرزى ، فى المربد ، وكان نصر هذا ــ كما يقول الثعالبى فى حديثه عنه « أميا لا يكتب ولا يتهجى • وكانت حرفته خبز خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويستطرفون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وامره ، واحداث البصرة يتنافسون فى ميله اليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه ، لقرب مأخذه وسهولته • وكان ابن لنكك ــ على ارتفاع مقداره ــ ينتاب دكانه ويسمع شعره » [1] • وكما كان ابن لنكك من رواد هذا النادى ، كذلك كان منهم ابو عبد الله المفجع البصرى ، وابو عبد الله الاكفانى الشاعر [2] •

والواقع ان هذه الندوة الشعبية تؤدى لنا صورة صادقة عن الحياة الادبية فى البصرة لذلك الوقت • فهى حياة شعبية اكثر منها ارستقراطية ، ورواد هذه الندوة هم من بين شباب يشبدون الادب ويتذوقونه ويستمتعون به ويعجبون بهذه الالوان الطريفة القريبة منه ، وجماعة من الشعراء الشيوخ يغلب على شعرهم ذلك الطابع : السهولة واليسر وقرب المأخذ والصدق الفنى • كذلك كان ابن لنكك، ابو الحسن محمد بن محمد بن جعفر «فرد البصرة وصدر أدبائها وبدر ظرفائها فى زمانه ، والمرجوع اليه فى لطائف الأدب وطرائفه طول أيامه » ، «واكثر شعره ملح وطرف ، خفيفة الأرواح ، تأخذ من القلوب بمجا معها ، وتقع من

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٣٧ ط الصاوى ، ١٩٣٤ ــ (٢) انظر تاريخ بغداد ١٣ : ٢٩٩ ، معجم الادباء ١٩ : ٢١٩

النفوس أحسن مواقعها، وجلها فى شكوى الزمان وأهله، وهجاء أهل عصره» [1] • وكذلك كان المفجع البصرى، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الكاتب، فقد كان شعره ــ كما يقول الثعالبى ــ « كثير الحلاوة ، يكاد يقطر منه ماء الظرف » [2] • ولكنه كان الى هذه الصفة الادبية عالما واسع العلم والرواية ، وقد ذكر له ياقوت طائفة من الكتب فى الشعر [3] ، كما وصفه الثعالبى فى الفصل الذى كتبه عنه بانه « صاحب ابن دريد ، والقائم مقامه بالبصرة فى التأليف والاملاء » •

وهكذا نرى أن ذلك الطابع الفنى القريب من الروح الشعبية كان الطابع الغالب اذ ذاك على الحياة الأدبية بالبصرة ، حتى على الرواة وعلماء اللغة ، كما رأينا فى أبى عبدالله المفجع هذا، وكما نراه فى شيخه ابى بكر ابن دريد وان كان ابن دريد يعد من الجيل السابق على هذا الجيل الذى نتحدث عنه ، ولو انه عاش الى هذا الوقت، وادركه الآمدى وتلمذ عليه زمانا فى بغداد، وربما تلمذ عليه فى البصرة قبل رحيله عنها ، فى بعض الاوقات التى كان ابن دريد يقصدها فيها، ويعقد مجالسه بها• وكان ابن دريد الى جانب علمه وروايته الواسعة شاعرا جزل الشعر، فقد جمع بين العلم والفن• وهو وان لم يكن يذهب فى شعره مذهب المفجع وابن لنكك ، الا انه كان جاريا على سنن الأوائل •

وراوية آخر يعرض جانبا آخر لصورة الحياة الأدبية فى البصرة لذلك العهد ، وكان ــ فيما يبدو ــ كبير الأثر فيها ، وهو أبو رياش اليمامى • ويصفه الثعالبى بانه « باقعة فى حفظ ايام العرب وأنسابها وأشعارها، غاية بل آية فى هذ دواوينها وسرد أخبارها ، مع فصاحة وبيان ، واعراب واتقان » [4] • وكان ابو رياش هذا شديد الوفاء لصناعته هذه، وكان من وفائه لها انه لم يكن يقدر غير الشعر القديم الذى تتعلق به روايته ، كما لم يكن يعترف بهؤلاء الشعراء المحدثين الذين افسدوا الشعر عنده ومسخوه ، كما نرى هذا فيما أورده الثعالبى من قول ابن لنكك فى هجائه :

(١) اليتيمة ٢ : ٣٢٠ ــ ٣٢١ ــ (٢) اليتيمة ٢ : ٣٣٤
(٣) معجم الادباء ١٧ : ١٩٤ ــ (٤) اليتيمة ٢ : ٣٢٤

يقول : ابن هانى افسد الشعر ضلة وشعر ابى تمامكم هو أضيع
ابا الريش، يا صفعان، صفعك واجب ولكن مضى من كان فى الله يصفع

فها هو ذا يجعل ابا نواس وابا تمام فى منزلة واحدة فى تنديده بهما وطعنه عليهما، وانما جمع بينهما عنده انهما من الشعراء المحدثين . وقد عرض القاضى الجرجانى فى سياق كلامه عن عصبية بعض الرواة والعلماء للمتقدمين من الشعراء ، لرجل اسمه — كما جاء فى النسخة التى بين ايدينا — رياش القيسى، وكأنماهو أبو رياش اليمامى هذا ، فيما يغلب على الظن . قال : « وحدثنى جماعة من أصحاب رياش القيسى ، ولا نعرف فى زماننا راوية تقدمه . وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء ، والغض من أبى تمام والبحترى خاصة، حتى ان نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة فى وقته »[1] واذن فهو لا يجمع بين ابى نواس وابى تمام فحسب، ولكنه يجمع بين أبى تمام والبحترى ، قطبى الخصومة، فالخصومة عنده فيهما خصومة لا معنى لها ، اذ المحدثون جميعا ملة واحدة . وقد كان — كما يؤخذ من كلام الجرجانى — شديد التأثير فى الحياة الادبية فى البصرة فى ذلك العهد ، حتى بلغ من هذا التأثير ومن توجيهه للذوق الفنى فيها ان اعرض الناس عن شعر ابى تمام والبحترى جميعا ، فقلت نسخ هذين الديوانين فى البصرة اذ ذاك .

وبعد ، فهذه صورة من الحياة الأدبية التى اخذ الآمدى يتنسمها فى البصرة أول عهده : نزعة ادبية فنية خالصة أو كالخالصة ، يمثلها الشعراء الذين لا يكادون يعنون بغير الشعر يتذوقونه ، ويمثلها العلماء الرواة للشعر ، وكان منهم من يتشيع للقديم حتى لا يكاد يعترف بشىء من هذه المذاهب الفنية المحدثة فى قول الشعر ، كأبى رياش اليمامى هذا ، ومنهم من كانت تبعد به عن هذا التعصب وتحميه منه نزعته الفنية، كأبى عبد الله المفجع .

وتلك هى صورة الفن كما وقرت فى نفس صاحبنا : السهولة والبساطة ، وجزالة اللفظ ، وقرب المعنى، وصدق الوصف، ومهما اختلفت النوازع التى رأيناها فى تقدير الفن فانها لا تختلف فى هذه الصفات . كما انه ليس فيها على كل

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص. ٥ ط دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٥

حال ذلك الايغال والتعمق، ولا ذلك الكد والتكلف. ولا ذلك الاتكاء على النفس فى الاستخراج والتوليد ، وما قد يؤدى اليه من غموض وتعقيد . ولسنا نريد أن يذهب بنا القول الى ادعاء أن هذه هى الصورة الوحيدة للفن الشعرى فى البصرة اذ ذاك، ولكنا نقول ان هذا الطابع هو الغالب عليه فيها، وانه فوق ذلك هو الأجدر أن يلائم نفسا كنفس الآمدى ، لم تلق — فيما يبدو — من صروف الحياة ما يعقدها، وان يناسب عقلا كعقله لم تأخذه الدراسات الكلامية أو الفلسفية بالتعقيد والايغال .

— ٤ —

وتنتهى الفترة الأولى من حياة الآمدى فى البصرة، لتبدأ فترة حياته الثانية، فى بغداد .

ولا ندرى على وجه التحقيق فيم كان رحيل الآمدى عن البصرة وخروجه الى بغداد. أأخرجته اليها حاجة من حاجات حياته المادية ، أم هى حياته العقلية التى اقتضته تلك الرحلة ؟ مهما يكن من أمر فقد كان مقامه فى بغداد موسوما بطلب العلم، فقد كان طلب العلم غاية هذه الرحلة أو احدى غاياتها . فلم تكن هذه الحياة الأدبية الخالصة التى رأيناها فى البصرة كافية اذ ذاك فى تكوين الرجل واعداده لما يطمح اليه، بل كان لابد من طلب العلوم النظرية، وعلم النحو خاصة على شيوخه الذين بلغوا به اذ ذاك مبلغا كبيرا، وأشاعوا فيه بعض الالوان الفلسفية . وكانت بغداد هى المدينة التى تضم رءوسهم وأصحاب المنزلة العليا فيهم، فكان على المتأدب أن يشد اليها رحاله، ليلقى هؤلاء الشيوخ .

وكذلك رحل ابو القاسم الى بغداد، وابتدأ فيها عهدا جديدا بدأه بلقاء الشيوخ والجلوس اليهم والاستماع منهم والقراءة عليهم ، كما كان يصنع الناس فى البصرة منذ أقل من قرن، حين كانت موئل العلم ومثابة العلماء ، يرحل الناس اليها من مشارق الأرض ومغاربها ليطلبوا العلم فيها ؛ أما الآن فقد غلبتها بغداد على العلم والعلماء، منذ أخذ علماء البصرة يرحلون اليها، ليكونوا فى كنف خلفائها وامرائها، فمازال ذلك حتى لم يبق للبصرة الا هذه البقايا الأدبية التى أشرنا اليها، والاشىء

من مجالس العلم لا خطر له ولا يكاد يعبأ به. واذا كان صاحبنا قدوجد فى تلك الحياة الادبية غذاء لحسه البيانى وتجاوبا مع نزوعه الفنى ، فانه ماكان ليجد فيها ما يعده للحياة العاملة التى يطمح اليها .

وقد كان على الآمدى أن يعد نفسه لاحدى خطتين فى الحياة ، ان يكون عالما يقصده الطلاب ويتحلقون حوله ويأخذون عنه، كما هو شأن ذلك العدد الكبير من رجال البصرة، وكما هو شأن ابن بلده الذى يعيش الآن فى بغداد: أبو بكر ابن دريد، وقد أصبح مطمح الانظار، وملقى عصا التسيار، اذ بلغ بالعلم المبلغ الذى جعل الناس يتسامعون به فى انحاء البلاد، ثم هاهى ذى الدولة قد أجرت عليه خمسين دينارا كل شهر، وما أجدره أن يهيىء نفسه ليكون خلفا له .

والخطة الأخرى أن يكون كاتبا كهؤلاء الكتاب الذين يملأون دواوين الدولة ، ويتمتعون بالجاه الظاهر، وتجرى عليهم الارزاق الوفيرة، وقد يصل بعضهم الى منصب الوزارة . ومعرفة النحو شرط أولى وضرورى لصناعة الكتابة، لا مسامحة فيه . فايا كانت الخطة التى ينتهى اليها أمره، فهو الآن فى سبيل الاعداد لها بتلقى النحو عن نحاة بغداد .

وقد تلقى الآمدى النحو على طائفة من شيوخ النحاة، منهم ابو موسى الحامض، سليمان بن محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٣٠٥)، والزجاج ابراهيم بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١١)، والأخفش الأصغر على بن سليمان (المتوفى سنة ٣١٥)، وابن السراج، محمد بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١٦)، ونفطويه، ابراهيم بن محمد الأزدى (المتوفى سنة ٣٢٣) . وقد ذكر ياقوت انه رأى سماع الآمدى على كتاب القوافى لابى العباس المبرد ، وقد سمعه على نفطويه سنة ثلاث عشر وثلثمائة [1] .

ولا نريد أن نقف عند هؤلاء الشيوخ، فلنكتف بهذا السرد لأسمائهم؛ ولكنا لا نكاد نذكر ابا موسى الحامض فيهم، حتى نذكر ما كان بينه وبين ابى بكر الصولى، صاحب كتاب أخبار ابى تمام، من عداوة ومكايدة، على النحو الذى يشير اليه

(١) معجم الأدباء ٨ : ٧٦

الصولى فى رسالته الى ابى الليث مزاحم بن فاتك، اذ يقول له : « وانت اعزك الله تشهد لى من بين الناس أن ابا موسى الحامض كان يثلبنى عندك وتنهاه، ويكثر من عيبى والطعن على سائر ما أمليته ، وانه لا فائدة فى شىء منه »[1] . فلنسجل هذه الملاحظة الآن، فقد نحتاج اليها بعد، حين ننظر فى «الموازنة»، وفى التماس الملابسات المختلفة التى لابست الآمدى فى كتابتها، و فى مكان كتاب الصولى منها .

انفق الآمدى فى دراسة النحو والسماع على شيوخه وقراءة كتبه المختلفة ما انفق من وقت وجهد، حتى بلغ منه المبلغ الذى ارتضاه، والذى جعله معدودا بين النحاه، فياقوت فى ترجمته له يلحق باسمه صفة «النحوى» ، والقفطى يترجم له فى كتابه الذى جعله فى تراجم النحويين[2] . ولكنا حين نريد أن نتعرف هذه الصفة فى أسماء كتبه التى تذكر فى تراجمه ، لا نكاد نجد بينهما ما يدل عليها دلالة صريحة، فانما هى كتب فى الشعر والنقد واللغة . وقد يكون هنالك فيما طوى ذكره من كتبه ماهو فى النحو، ولكن اكبر الظن انه لم يطو ذكره الا وهو غير ذى بال فى موضوعه .

فان صح هذا، وهو الأشبه عندنا، فما عسى أن تكون دلالته من الناحية التى نقصد اليها ، وهى تعرف الأسباب التى وجهت الآمدى الناقد تلك الوجهة التى نراها فى كتابه « الموازنة »؟

أحسب ان الدلالة القريبة لهذا هى أن تلك النزعة الأدبية التى جعلت تنفتح فى البصرة على تلك الحياة التى كان يمثلها فيها من الشعراء أمثال ابن لنكك والخبزأرزى ، ومن الرواة امثال المفجع وابى رياش ، لم تستطع الدراسات النحوية التى اخذ نفسه بها، وارتبط نفسه فى حلقاتها ، أن تطغى عليها ؛ وان تحوله من الرجل الأديب الذى يطرب للشعر ويهتز له ، ويحس بذوقه ووجدانه مواطن الجمال فيه فيتفتح قلبه لها، الى الرجل العالم الذى لا يرى فى الشعر الا اداة جامدة من أدوات صناعته ، ولا يكاد يعنيه منه الا مبلغ ما فيه من موافقة أو مفارقة لأصوله وقوانينه وفلسفته .

واذن فهل يكون معنى هذا ان دراسته للنحو هذه المدة الطويلة — فيما نفترض — كانت عبثا من العبث ، وانه لم يفد منها شيئا سوى أن أصبح فى اعتبار الناس

(١) اخبار ابى تمام، ص ١٠ — ١١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧
(٢) الانباه على انباه النحاة ١ : ٣٨٥ ط دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.

رجلا مثقفا بثقافة عصره ؟ أما انه ليس فى طبيعة الدنيا أن يذهب شيء مما يجرى فيها باطلا لا أثر له؛ فلكل شيء فيها أثره لا محالة، وسواء بعد ذلك أن يكون هو ما قصد اليه الانسان أم غيره. فان تكن دراسة النحو لم تستطع أن تحول الآمدى الى واحد من هؤلاء النحاة من أهل القرن الرابع ، الذين اجترفتهم نزعة التخصص والتعمق التى اشرنا اليها فى صدر هذا البحث ، فمضوا مع أصولهم وقواعدهم، يمدون أطنابها، ويعمقون جذورها واسبابها ، دون أن يقفوا عند روائع البيان يتملونها ويتذوقونها ، كما كان يفعل اسلافهم ، كالمبرد وثعلب ؛ اذا كانت دراسة النحو لم تصنع به هذا الصنيع ، ولم تحوله الى ذلك الرجل ، فانها لم تدع على كل حال أن تأخذه بروح الدقة والنظام ، والميل الى تعليل ما يصدر من أحكام ، وهو ما نراه فى كتابه « الموازنة » فلعل ذلك يرجع فى كثير منه الى هذه الدراسة النحوية فى هذه الصورة وذلك المنهج . وقد كانت هذه الدراسة — فيما نحسب — من أول الأسباب التى أقدمته بغداد، فلا جرم كان اثرها فى منهجه غير قليل .

وطبيعى انه وجد فى بغداد — الى جانب حلقات النحو — مجالس للأدب ، وانه استطاع أن يمضى فيما بدأه فى البصرة من الاتصال بالبيئات الادبية التى تعنى بالشعر انشاءا وانشادا ورواية ودرسا ، وهى بيئات الشعراء وبيئات الرواة . وقد كان ابن دريد يقضى اذ ذاك فى بغداد الشطر الأخير من حياته . وقد كان — كما قلنا — يعد فى ذلك الوقت شيخ رواة عصره . وكان رجلا راوية شاعرا معا، فيه ذوق الشعراء ودقة الرواة . وقد أدركه الآمدى فى بغداد فى هذه الفترة ، ووجد عنده ما كانت تتطلع اليه مطامحه الأدبية ، وما كانت تتجه اليه أحاسيسه الفنية ، ولعله كان المثل الذى يطمح أن يكونه .

والى هنا نرى الآمدى مزاجا من الشعر والرواية والنحو . فأما الشعر فمعناه الانفعال بصور الجمال الفنى ، واما الرواية فمعناها الالمام بصور العبارة الفنية ، أو هى الاحاطة بالوان الثقافة الفنية ، وأما النحو فمعناه عند الآمدى كما رأينا هذه الصفات العقلية المنهجية : دقة النظر ، ونظام الفكر ، وتعليل الرأى . وتلك

بهذه المعانى وهذا الترتيب هى عناصر الآمدى الناقد : الذوق الفنى، والثقافة الفنية، والنزوع العلمى .

— ٥ —

واذ لم يصلح الآمدى ليكون رجلا من رجال النحو ، على ما كان عليه نحاة ذلك العصر ، فقد انتفى احد الأمرين الذين افترضناهما غاية الرحلة الى بغداد : ان يكون عالما أو كاتبا ، واذن فلم يبق الا أن يكون الثانى . ولا ريب انه قد حصل من النحو القدر الضرورى — أو ما فوقه — لهذه الصناعة ، كما نرى انه حصل أثناء مقامه فى بغداد الوان الثقافة المختلفة التى يشترط فى الكاتب تحصيلها ، من شرعية ورياضية وغير ذلك ، على النحو الذى نراه مثلا فى مقدمة ادب الكاتب لابن قتيبة ، الى جانب ما كان له من ثقافة ادبية ممتازة .

وكذلك لا نلبث حتى نجد الآمدى كاتبا من الكتاب ، ولكنه لم يكن من كتاب دواوين الدولة ، كديوان الرسائل أو ديوان الخراج أو ديوان الزمام أو ما الى ذلك ، فقد كان دون الوصول الى هذه الدواوين عقبات وعقبات ؛ ولكنه كما يقول ياقوت — « كان يكتب بمدينة السلام لأبى جعفر ، هارون بن محمد الضبى ، خليفة أحمد بن هلال، صاحب عمان » . فلم يكن اذن كاتبا من كتاب الدولة — ولهذا فيما نرى اثره الذى سنبينه بعد — وانما كان من هؤلاء الكتاب الذين يديرون أمور السراة ويتولون شؤونهم وينظمون أعمالهم . وقد يكون هؤلاء الكتاب أقل فى المنزلة الاجتماعية من كتاب الدولة ، ولكن هذا المكان كان — فيما يبدو — اكثر ملاءمة لصاحبنا ، فقد كان صاحبه هذا الذى يكتب له رجلا من طراز آخر غير ذلك الطراز الذى نعرفه فى عامة سراة البغداديين وأغنيائهم .

كان أبو جعفر الضبى هذا رجلا سريا حقا بكل ما تحمله كلمة السراوة من معنى، من شرف الأصل ونبل المنزلة وعراقة الجاه ومعانى السؤدد . كان اسلافه ملوك عمان فى الدهر القديم ، وكان يجمع الى هذا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة ، والسمت والوقار وطهارة النفس ، وكانت داره ندوة من الندوات الادبية الرفيعة.

وقد وصفه علي بن عمر الدارقطني ، امام محدثي عصره ، بقوله : « استولى على الفضائل ، وساد بعمان فى حداثة سنه ، ثم خرج عنها ، فلقى العلماء بمكة والكوفة والبصرة. ورحل الى مدينة السلام سنة خمس وثلاثمائة، فعلت منزلته عند السلطان، وارتفع قدره ، وانتشرت مكارمه وعطاياه ، وانتابه الشعراء من كل موضع وامتدحوه واكثروا ، وأجزل صلاتهم ، وأنفق امواله فى بر العلماء والافضال عليهم، وفى صلات الاشراف من الطالبيين والعباسيين وغيرهم ، واقتناء الكتب المنسوبة . وكان مبرزا فى العلم باللغة والشعر والنحو ومعانى القرآن والكلام . وكانت داره مجمعا لأهل العلم فى كل فن ، الى ان توفى فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة »[1] .

هذا هو الرجل الذى اتيح للآمدى فى بغداد أن يتصل به ذلك النوع من الصلة، وهى صلة تجعله اكثر الناس اختلاطا به ومداخلة له. وهو — كما نرى — يعد من الشخصيات الفريدة، فى ذلك العصر، بهذه المآثر المختلفة له، وهذه النواحى القوية لشخصيته ، مما لا نستطيع معه الا القول بأنه كبير الأثر فى كاتبه الآمدى .

ولعل أول ذلك انه جنبه بالكتابة له ما كان معرضا له لو أن عمله كان فى الديوان ، كاتبا من كتاب الدولة ، من أسباب الغرور المقيت والدعوى العريضة ، والذهاب فى ذلك مذهب العجب والصلف ، والاكتفاء بذلك المظهر البراق عن التكمل بالعلم وألوان المعرفة ، الى غير ذلك مما نعرف من اخلاق عامة الكتاب ، وكان ذلك جديرا أن يصرفه عن أسباب المنزلة الأدبية التى بلغها. وأخرى انه أتاح له بهذه الصلة بيئة من أرفع البيئات وأبعثها لحوافز الطموح الأدبى والكمال العلمى . يلتقى فيها العلم والفن ، ويجتمع فيها الحديث والشعر ، ويلتزم فيها نوع من الوقار والتحفظ . وثالثه ان ابا جعفر الضبى كان بسمته ووقاره وعلمه وادبه وفضله مثالا لا بد أن يكون قد اجتذبه اليه ، كأنما كان يرى فيه الصورة الكاملة للرجل، فى ذلك العصر الذى اختلطت فيه القيم ايما اختلاط، واضطربت فيه معايير الرجال ايما اضطراب .

(١) تاريخ بغداد ١٤ : ٣٣

وهكذا نستطيع أن نرى فى هذا الذى اتيح للآمدى فى بغداد من عمل يكسب به عيشه ، عاملا جديدا فى تكوين شخصيته ، وفى انضاج ملكاته العقلية والفنية ، وفى اخذه باسباب الاتزان ، مما نحسب ان كان له أثر غير قليل فى الناحية النقدية التى نلتمس بهذا كله مقوماتها وموجهاتها عنده .

وكما لم نعرف متى جاء الى بغداد ، كذلك لا نعرف على وجه التحقيق متى تركها عائدا الى البصرة ، وفيم كانت هذه العودة . ولكن الشىء الذى نستطيع فى غير قليل من الطمأنينة أن نقطع به هو أنه كان بالبصرة قبل عام ٣٣٦ ، وهو العام الذى انتهت فيه امارة ابى القاسم البريدى على البصرة [1] ، فقد نقل ياقوت عن نشوار المحاضرة للتنوخى قصة حدث بها الآمدى ، جرت بينه وبين طلحة بن الحسين بن المثنى ، عن الخصومة التى كانت بين طلحة وبين أبى القاسم البريدى ، واشارته على طلحة أن يهرب من البصرة ولا يقيم [2] ، مما يدل على انه كان بالبصرة فى اثناء امارة ابى القاسم البريدى عليها ، وكان ذلك فيما بين سنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٦ . أما متى بدأت هذه الاقامة فليس لدينا ما يدل عليه ، الا اذا افترضنا انه لبث فى بغداد مصاحبا لأبى جعفر الضبى ، الى أن مات سنة ٣٣٥ ، فرحل بعد ذلك الى البصرة . وهو فرض قريب .

— ٦ —

وتبدأ الفترة الثالثة من حياة الآمدى منذ عودته هذه الى البصرة ، الى وفاته بها سنة ٣٧١ وهى الفترة التى برزت فيها شخصيته الادبية ، وحفلت باتتاجه القوى الغزير ، كما سنرى صورة من ذلك .

ولكن هذه الفترة لم تخلص تماما للتأليف والانتاج العلمى ، فقد اصطنع فيها الكتابة ايضا ، وكان ذلك فى الشطر الأول منها . قال ياقوت : « وكتب بالبصرة لأبى الحسن أحمد ، وابى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى ، وبعدهما لقاضى البلد

(١) انظر : تجارب الامم لمسكويه ٦ : ١١٢ ط مصر ، ١٩١٥
(٢) معجم الادباء ٨ : ٩٠

ابى جعفر بن عبد الواحد الهاشمى[1] ، على الوقوف التى تليها القضاة ، ويحضر به فى مجلس حكمه ، ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ، لما ولى قضاء البصرة ، ثم لزم بيته الى ان مات»[2] . وأبو أحمد المذكور فى هذا النص هو الذى اشرنا اليه منذ قليل ، انه كان من المناوئين لأمير البصرة أبى القاسم البريدى . وقد انتهى أمره بان قبض البريدى عليه ، « وكان من أمره ما كان » ، كما يقول الآمدى فى نهاية تلك القصة .

وقد ظل الآمدى يصطنع الكتابة فى البصرة الى سنة نيف وخمسين وثلاثمائة ، وكان اكثر ذلك كما رأينا فى مجالس القضاء ، وكان آخر عهده بهذه الصناعة حين صرف، ذلك العام ، محمد بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ، وولى على قضائها « رجل لم يكن عندهم بمنزلة من صرف به» ، كما يقول ياقوت . وقد قال فيه الآمدى قطعته الشعرية العابثة الساخرة ، التى تدل على شاعريته الأصيلة ، وعلى روح السخرية عنده ، كما تدل على مذهبه الفنى من ايثار السهولة واليسر وقرب المأخذ فى الشعر ، وتلك هى التى يبدؤها بقوله ، كما يوردها ياقوت :

رأيت قلنسوة تستغيـ ـث من فوق رأس، تنادى: خذونى

وبذلك ينتهى عهد اصطناعه للكتابة ، وتفرغ بعدها للعلم ، وقد تهيأت له الغاية الأخرى التى كانت ما تزال تساوره ، أن يكون عالما يبث العلم ويؤخذ عنه ، كما كان شيخه ابو بكر ابن دريد .

وهكذا انتهى الأمر بالآمدى . وأصبح عالما معروف الاسم مقصود المجلس فى البصرة ، وصار المرجع الذى يرجع اليه الطلاب والمتأدبون فى فنون الأدب المختلفة ، كما قال القفطى فى سياق ترجمته له : « واتسع فى الآداب وبرز فيها ، وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره ،بالبصرة ، اليه» ، وبذلك احيا مجالس الرواية الأدبية التى كانت البصرة حريصة على الا تزال ممثلة فيها ، وأخذ المكان الذى كان يحتله بها ابن دريد والمفجع وابو رياش فى هذا العهد الأخير لها ، وبه استطاعت البصرة أن تمد مجدها الأدبى التالد فترة من الزمن أخرى .

(١) هكذا جاء اسمه فى النص هنا، وفى موضع آخر (ص ٨١) ما يدل على ان اسمه هو : « ابو القاسم جعفر » ، كأن كلمة « القاسم » سقطت من النص فى هذا الموضع .

(٢) معجم الأدباء ٨ : ٨٧

(٣) الانباءه على انباه الرواه ١ : ٢٨٨

وكان من وجوه النشاط التى اتجه الآمدى اليها تأليف الكتب فى الموضوعات الادبية المختلفة . ومن آثاره التى بلغتنا أسماؤها كتب تدل هذه العنوانات على انها من صميم النقد الادبى، من ذلك كتابه « فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما » فهذه المسألة التى عالجها فى هذا الكتاب تعد من آصل مسائل النقد الأدبى ، اذ هى — كما يبدو — تتعلق بأصل الابداع الفنى . ووددنا لو أن هذا الكتاب وصل الينا ، لنعرف ماذا قال فيها ، وبأى أسلوب عالجها .

ومن هذه الكتب أيضا «كتاب فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر» . وقد ذكر ياقوت فى التعليق عليه انه « تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعانى التى تشترك العرب فيها ، ولا ينسب مستعملها الى السرقة ، وان كان قد سبق اليها ، وبين الخاص الذى ابتدعه الشعراء وتفردوا به » . وقد يكون بين موضوع هذا الكتاب والذى قبله صلة من حيث الأصل الأول فى الموضوعين . ولكن هذا الكتاب يعالج فى الواقع بحثا من الأبحاث التى أثارها فى جو النقد الأدبى مسألة السرقات الشعرية ، وهى المسألة التى عظم شأنها وكثر الكلام فيها فى الحركة النقدية التى ثارت حول ابى تمام .

ونستطيع أن نتبين مذهب الآمدى فى مسألة « الخاص والمشترك من معانى الشعر » فيما عرض له من ذلك فى كتابه « الموازنة » . فقد عرض لهذه المسألة فى موضعين : أولهما فى سياق الفصل الذى عقده لايراد «سرقات ابى تمام» اذ عرض لكتاب ابن ابى طاهر الذى خرج فيه سرقات ابى تمام « فأصاب فى بعضها وأخطأ فى البعض، لانه خلط الخاص من المعانى بالمشترك بين الناس، مما لا يكون مثله مسروقا»[1]، والثانى فى الفصل الذى عقده لايراد « سرقات البحترى » ، اذ عرض للكتاب الذى كتبه فى ذلك أبو الضياء بشر بن تميم، ونقد مذهبه فى السرق[2] . وجملة القول فى مذهب الآمدى فى السرق أنه «انما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر، لا فى المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عاداتهم ، ومستعملة فى أمثالهم

(١) الموازنة ، ص ١٠٠ ، ط حجازى بالقاهرة ، ١٩٤٤ — (٢) الموازنة ، ص ٣٢٠ . وقد عرض الآمدى لأبى الضياء قبل ذلك (ص ٤٥) بأنه «ذكر ما يشترك الناس فيه، وتجرى طبائع الشعراء عليه ، فجعله مسروقا » .

ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده ان يقال اخذه عن غيره» . فذلك هو راى الآمدى فى السرقة الأدبية، وقد قرره فيما نقد به كلا من ابن ابى طاهر وبشر بن تميم ، تقريرا جليا .

وكانما جعل الآمدى هذا الكتاب فى ايضاح ما تقع فيه السرقة ، وهو الخاص من معانى الشعر ، ومالا تقع فيه ، وهو المشترك منها ، وتفصيل ذلك وايراد شواهده وامثاله ، ومناقشة ما وقع فيه الخلاف منه .

وكذلك عنى الآمدى بنقد بعض الكتب التى وضعت فى عصره أو قريبا منه ، فى النقد الأدبى ، فكتب فى ذلك غير كتاب . من ذلك كتابه : « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر » . وقد قال ياقوت عن هذا الكتاب انه « الفه لأبى الفضل محمد بن الحسين بن العميد وقد قرأه عليه ، وكتب خطه سنة خمس وستين وثلاثمائة » . ومن هذه العبارة نرى كيف استطاع الآمدى ، بما أحرزه من منزلة ادبية رفيعة وصيت علمى ذائع . ان يتصل بأصحاب السلطان ، فاتصل بابى الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة . وكان هذا الكتاب مظهرا من مظاهر هذه الصلة .

وقد عرض الآمدى لقدامة فى غير موضع من كتابه « الموازنة » ، مما لعله يؤدى الينا فكرة ما عن كتابه هذا . عرض لبعض الاصطلاحات التى استعملها قدامة ، فنقدها ، كاستعمال كلمة «المتكافىء» للدلالة على المطابق ، واستعماله «المطابق» للدلالة على ضرب من ضروب الجناس . قال الآمدى — بعد اشارته الى هذا الصنيع فى كتاب قدامه « المؤلف فى نقد الشعر » — : « وما علمت أن أحدا فعل هذا غير أبى الفرج ، فانه — وان كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقب به ، وكانت الألفاظ غير محظورة — فانى لم اكن احب له أن يخالف من تقدمه ، مثل ابى العباس عبد الله بن المعتز ، وغيره ممن تكلم فى هذه الانواع وألف فيها »[1] . ومن ذلك أيضا استعمال قدامة لكلمة « المعاظلة » ، وذهابه فى اطلاقها مذهبا مخالفا[2]، اذ يقول الآمدى ، بعد أن أورد تعريفها الذى اطبق عليه العلماء ، : « الا ابو الفرج قدامة بن جعفر ، فانه ذكر ذلك فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر ، ومثل له امثله ،

(١) الموازنة ص ٢٦٠ — (٢) نقد الشعر ، ص ١٧٤ ط الخانجى ، ١٩٤٩

فغلط فى امثلة المعاظلة ، وقد ذكرت ذلك فى كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه[1] . ولعلنا نستطيع أن نرى فى هذا الحرص من الآمدى على اقرار المصطلح العلمى ، وتلك الكراهية لعبث قدامة به على ذلك الوجه ، مظهرا من مظاهر العقلية المنظمة ، وأثرا من آثار الدراسة النحوية ، كما سبق لنا القول فى هذه الناحية .

وهناك موضع ثالث عرض فيه الآمدى لقدامة فى الموازنة ، فى الجزء الذى لم يطبع منها بعد ، وقد أورد الدكتور محمد مندور نص عبارته فيه[2] . وهو يرد رأى قدامة فى أن المدح يجب أن يكون بالفضائل النفسية دون أوصاف الجسم فى البهاء والزينة . قال : «وقد غلط بعض المتقدمين فى هذا الباب ممن ألف فى نقد الشعر كتابا ، غلطا فاحشا ، فذكر ان المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ؛ وخطأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذاك ، فمدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم كلها : عربها وعجمها ، وأسقط اكثر مدح العرب وهجائها ، وقد بينت قبح غلطه فى هذا تبيينا شافيا مستقصى فى كتاب مفرد » .

فهذا هو كتاب الآمدى « تبيين غلط قدامة بن جعفر » قدر ما تؤدى الينا عنه هذه الاشارات المقتضبة ، على اننا نرى فى بعضها انه من الكتب التى سبقت فى التأليف كتاب الموازنة .

ومن هذه الكتب التى كتبها صاحبنا فى نقد بعض ما كان يكتبه علماء الأدب المعاصرون كتاب «الرد على ابن عمار، فيما خطأ فيه ابا تمام» . وابن عمار هذا الذى كتب الآمدى فى الرد عليه هذا الكتاب هو أبو العباس، أحمد بن عبيدالله بن محمد بن عمار القطربلى، المتوفى سنة ٣١٤ ، وكان أحد تلاميذ محمد بن داود بن الجراح[3] . وقد عرض له الآمدى فى « الموازنة » ، فى سياق المقدمة التى قدم بها الجزء الثانى ، فى أثناء كلامه عن تعصب المتعصبين على أبى تمام ، فقال : « وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح فى الجيد من

(١) الموازنة ص ٢٦١ — (٢) النقد المنهجى عند العرب، ص ١٠٧
(٣) انظر ترجمة ابن عمار فى تاريخ بغداد ٤ : ٢٥٢

شعره ، وطعن فيما لا يطعن عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ؛ ولم يقنع بذلك مذاكرة ولا قولا ، حتى الف فى ذلك كتابا ، وهو أبو العباس احمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار القطربلى ، المعروف بالفريد[1] . ثم ما علمته وضع يده من غلطه وخطئه الا على ابيات يسيره ولم يقم على ذلك الحجة ، ولم يهتد لشرح العلة ، ولم يتجاوز فيما نعاه بعدها عليه الابيات التى تتضمن بعد الاستعارة وهجين اللفظ . وقد بينت خطأه فيما انكر من الصواب فى جزء مفرد ، ان احب القارى أن يجعله من جملة هذا الكتاب فعل ذلك ان شاء الله تعالى . فالذى تضمن يدخل فى محاسن أبى تمام التى ذكرت انى اختم كتابى بها وبمحاسن البحترى»[2] . ثم يأخذ الآمدى بعد ذلك فى ايراد الابيات التى انكرها ابو العباس ابن عمار ولم يقم الحجة فى تبيين خطئها واظهار العيب فيها ، وهى ثلاثة ابيات افاض الآمدى فى التعليق على قول ابن عمار فيها ، مما يؤدى لنا ــ على أى حال ــ صورة من منهجه وأسلوبه فى هذا الكتاب الذى لم يصل الينا .

ومن هذه الكتب أيضا «كتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ» . وابن طباطبا المعنى هنا هو أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ، « شاعر مفلق ، وعالم محقق ، شائع الشعر نبيه الذكر ، مولده باصبهان ، وبها مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة» كما يقول ياقوت فى صفته[3] وقد ذكر بين ما ذكر من كتبه «عيار الشعر » هذا الذى كتب عليه الآمدى كتابه الذى لم يصل بعد الينا ، ولم نقع بعد على ما قد يمثله لنا .

أما كتاب عيار الشعر نفسه فهو كتاب من الكتب الجيدة ذات الشخصية الواضحة القوية فى الكلام عن الفن الشعرى . وقد بقيت لنا منه نسخة مخطوطة ، نرجو أن نوفق الى نشرها قريبا ، ان شاء الله[4] .

---

(١) كذا جاءت الكلمة (الفريد) فى النسخة المطبوعة ، وهى مصحفة عن « العزير »، فقد كان يلقب ، كما فى تاريخ بغداد ، بحمار العزير . وقد أورد الخطيب بيتين لابن الرومى فيه ، وهما :

وفى ابن عمار عزيرية ... يخاصم الدهر بها والقدر
ما كان لم كان ؟ وما لم يكن ... لم لم يكن ؟ فهو وكيل البشر

(٢) الموازنة ، ص ١٤٦ ــ (٣) معجم الأدباء ١٧ : ١٤٣

(٤) وقد نشر هذا الكتاب أخيرا بمشاركة الصديق الدكتور محمد زغلول سلام ، وأصدرته المكتبة التجارية بالقاهرة .

وكما كتب الآمدى فى هذا النحو من انحاء النقد الأدبى ، كتب فى الموازنات الادبية ، وهى باب واسع من أبواب النقد الأدبى عند العرب ، بدأ ساذجا ثم مازال يتعقد شيئا فشيئا ، اذ جعل يستجيب لمظاهر التطور المختلفة ، حتى بلغ به صاحبنا هذا المبلغ الرائع الذى نراه فى كتابه هذا الذى نعقد له هذا البحث ، كما يذكر له كتاب آخر لم يصل الينا ، اسمه « تفضيل شعر امرىء القيس على الجاهليين » .

فأما كتاب «الموازنة بين الطائيين» ، فهو أحد كتابيه اللذين وصلا الينا ، وثانيهما هو كتاب « المؤتلف والمختلف فى اسماء الشعراء وكناهم والقابهم وانسابهم وبعض شعرهم »[1] . وقد قال فى مقدمته تعريفا بموضوعه ومنهجه : « هذا كتاب ذكرت فيه المؤتلف والمختلف والمتقارب فى اللفظ والمعنى ، والمتشابه الحروف فى الكتابة ، من أسماء الشعراء واسماء آبائهم وامهاتهم، والقابهم مما يفصل بينه الشكل والنقط واختلاف الابنية . وانما ذكرت من الأسماء والألقاب ما كانت له نباهة وغرابة ، وكان قليلا فى تسميتهم وتلقيبهم، وكانوا اذا ذكروه ذكروه مفردا عن اسم الاب والقبيلة لشهرته» . وظاهر انه اتبع فى تأليف هذا الكتاب اسلوبا من اساليب علماء الحديث فى التأليف فى الرجال وتصنيفهم ، وقد تحدث فيه عن ستمائة وخمسة وتسعين شاعرا، يندرجون جميعا تحت الشريطة التى اشترطها ، ويقعون فى النسق الذى وضعه .

واذا كان كتاب الموازنة يكشف لنا عن ذوقه ورهافة حسه ومبلغ دقته ، فهذا الكتاب يكشف لنا عن علم بالأدب واسع ، ومعرفة بالرواية دقيقة ، واحاطة بدقائق التراث الادبى شاملة ، مما اتاح له أن يتبوأ ذلك المكان الذى تبوأه فى البصرة ، اذ انتهت اليه فيها رواية الأخبار والاشعار القديمة . وذلك فيما نرى عنصر من أصل العناصر فى تكوين شخصيته الناقدة التى انتجت لنا كتابه الخالد : « الموازنة بين الطائيين » .

---

(١) طبعته مكتبة القدسى بالقاهره سنة ١٣٥٤ هـ ، بتصحيح وتعليق الاستاذ ف ، كرنكو، وان كانت تعليقاته المنشورة ليست الا جزءا مما كتبه، وقد توسع فيها « بما يدل على عناية فائقة وجهد عظيم » كما يقول الناشر .

وبعد ، فلعلنا استطعنا فيما قدمنا أن نتبين شخصيـة الآمدى ومقوماتهـا وابر ز سماتها ونواحى نشاطها ، وأن نتعرف الصلات التى تربط بين ذلك كله وبين الناحية النقدية فيه . وبنا الآن أن نتلمس الملابسات التى لابست ابا القاسم فى الاتجاه الى وضع هذا الكتاب ، لنخلص من ذلك الى الكتاب نفسه .

ولقد أشرنا من قبل الى السبب الأعم الحافز الى اثارة هذا الموضوع الذى بنى عليه كتابه، وهو أن الكلام عن ابى تمام والخصومة حوله هو فى حقيقته وجه من وجوه الكلام عن قضية التجديد فى الشعر . وهى قضيـة متجددة دائما . وهذا الى أن تجديد أبى تمام يصدر فى معظمه عن ذلك النزوع العقلى الذى أخذ يغلـب على الحياة الاسلامية، وجعل يدعو الى تحكيم النظرة المتفلسفة المتعمقة الفاحصة. واذا كان هذا النزوع العقلى قد بدأ منذ القرن الثانى ، فانه ما زال ينمو ويتغلغل حتى أخذ فى القرن الرابع صورة بارزة قوية ، فلا جرم كان فى ذلك ما يقوى ذلك الحـافز الأول الى الكلام عن مذهب ابى تمام ، ومناقشة تلك القضية .

كما أشرنا من قبل أيضا الى حركة التأليف التى أثارتها هذه الخصومة ، وظلت ماضية متصلة الى ايام الآمدى ، وقد كان هو بطبيعة اتجاهه الى الدراسات الأدبية متصلا بهذه الحركة ، فلا جرم استطاعت أن تجتذ به اليها ، وتثير فى نفسه الرغبة الى المشاركة فيها ، بالمناقشة وابداء الرأى ، سواء بالحديث فى المجالس والمناظرة فى الاندية ، أم بكتابة الرسائل والكتب . وقد رأينا منذ قليل ان له كتابا كتبه قبل أن يكتب الموازنة فى الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام .

وهنا موضع الكلام عن أحد الكتب التى كتبت فى ايامه عن ابى تمام، وكانت تعبيرا عن تلك الخصومة واستجابة لها ، وهو كتاب « اخبار أبى تمـام » لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، المتوفى سنة ٣٣٥ أو سنة ٣٣٦ . وقد وضعه وهو يريد به الانتصار لأبى تمام من خصومه . ومثل هذا الكتاب لا ينبغى أن يفوت الباحث عن الاعتبارات المختلفة التى لابست تأليف الآمدى للموازنة ، ان يجعله فى باله .

وقد رجح ناشرو هذا الكتاب ، فيمـا قدموا له ، أنه وضعه فى آخر أيامـه ، وذلك اذ يقولون : « ونرجح ان يكون الصولى ألف هذا الكتاب فى ايام محنته التى اشرنا اليها ، أى فى أواخر ايامه ، حين خرج من بغداد مغضوبا عليه ، فهو يقول لأبى الليث مزاحم بن فاتك الذى قدم له الكتـاب : « ... ثم أرتنى عين الرأى بقية فى نفسك لم يطلعها لى لسانك ، اما كراهة منك لتعبى ، أو اشفاقا من الزيادة فى شغلى ، مع ما يتقسمنى من جور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان»

وأيام المحنة التى تشير هذه العبارة اليها هى التى خرج فيها الى البصرة ، بعد ان ضاقت بغداد عليه ، كما ذكر ذلك الخطيب وياقوت فيما أورداه ترجمة له[1] .

واذا صح هذا الفرض كان علينا أن نعرف تاريـخ رحيله من بغداد الى البصرة ليكون فى ذلك ما يعيننا فى معرفة الفترة التى كتب فيها كتابه . وليس هناك نص يذكر هذا التاريخ ، وانما نستنتجه استنتاجا من انه لم يشر الى أى شىء يدل عليه فى سياق ما كتبه فى كتابه « الأوراق » من اخبار الراضى بالله والمتقى لله ، مع انه لم يفته أن يسجل فى خلال ذلك حياته الخاصة ، واذن فان هذا الرحيل عن بغداد لم يحدث الا بعد عهد المتقى لله ، أى بعد سنة ٣٣٣ . واذن فكتاب « أخبار ابى تمام » انما كتبه الصولى فى فترة تقع بين هذه السنة وسنـة وفاته ، وهى ٣٣٥ أو ٣٣٦ . ويكون بذلك وثيق الصـلة بالآمدى ، لا من ناحية موضوعه فحسـب ، بل لأن الصولى كتبه بين عينى الآمدى وبصره ، فقد كتبه بالبصرة وشهد الآمدى مولده ، وذلك أجدر ان يثير فى نفسه التفكير فى موضوعه ، وترديد النظر فى مسائله .

على أن هذا الفرض ليس ، عندنا ، مما يطمأن اليه ، اذ كان لا يصح الا اذا صح أن حياة الصولى استمرت هانئة هادئة مستقرة لم يتخللها عناء ولم تعترضها محنة الا تلك التى اعترضت حياته فى آخرها، فحملته على الخروج الى البصرة ، وليس هذا — فيما يبدو — صحيحا . فقد تعرض الصولى غير مرة « لجور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان » ، وهو ما يزال فى بغداد : تعرض لذلك بعد عهد الراضى بالله ، كما يبدو ذلك واضحا فيما حكاه عن نفسه فى سياق ما كتبه من أخبـار المتقى لله ،

(١) تاريخ بغداد ٣ : ٤٣٢ ، معجم الأدباء ١٩ : ١١١

كما تعرض له قبل عهد الراضى ، على النحو الذى يعرضه علينا شعره فى مدح هذا الخليفة .

فما ينبغى اذن ان يكون لتاريخ كتاب الصولى شأن فيما نحن فيه من تلمس الملابسات التى كان لها أثرها فى اتجاه الآمدى الى وضع كتابه « الموازنة » وتأليفه. والواقع ان هذا الشأن للكتاب نفسه ايا كان زمان كتابته ومكانها . فقد كان الصولى والآمدى يمثلان فى الحياة الأدبية فى القرن الرابع طرفين مختلفين كل الاختلاف ، فى المزاج العقلى والطبع والخلق واسلوب الحياة ، فمن الطبيعى أن صنيعا يصنعه الصولى لابد ان يتردد صداه عند الآمدى فى الصورة التى يكيفها مزاجه وطبيعته .

وقد أشرنا من قبل ، عند الكلام على شيوخ الآمدى ، الى ما كان بين أحد شيوخه هؤلاء ، وهو ابو موسى الحامض ، وبين ابى بكر الصولى من منافسه ومحاسدة وبغضاء ، وأن الحامض كان ما يزال يقع فى الصولى نبزا له وتعريضا به . ويذهب الأستاذ محمد عبده عزام فى المقدمة التى كتبها لديوان ابى تمام الى ان ذلك ربما كان له اثره فيما كان بين الآمدى والصولى ، اذ يقول : « وربما كان لهذه التلمذة أثر فيما كان بين هذين الرجلين : الصولى والآمدى ، من عداوة ، حتى لكأنما اتخذا من أبى تمام ميدانا للجدل والمخاصمة»[1] . فان صح هذا الذى يستظهره الأستاذ عزام، وهو — فيما يبدو — قريب جار مع منطق الامور، فان ازورار الآمدى عن الصولى وسوء رأيه فيه شىء قديم ، وقد ظل كامنا منذ ذلك الوقت الذى كان يجلس فيه الى استاذه أبى موسى الحامض، وهو ما يزال بعد شاباغض الاهاب، قريب عهد بهذه البيئة الجديدة فى بغداد، مقبلا عليها معجبا بها، وانه ليستمع من استاذه — بين ما يستمع اليه — رأيه فى ابى بكر الصولى ، يعرض حينا ويصرح حينا آخر ، بلسانه الحاد وعبارته اللاذعة . حتى اذا ما ظهر كتاب الصولى عن ابى تمام كان من الطبيعى أن يثير ظهوره هذه الآثار الكامنة فى أعماق نفسه ، ويبتعث تلك البغضاء القديمة التى بقيت فى صدره ميراثا ورثه عن استاذه أبى موسى الحامض ، ويكون

(١) ديوان ابى تمام بشرح الخطيب التبريزى ١ : ٢٥ (المقدمة)، ط دار المعارف، ١٩٥١

ذلك من العوامل أو الملابسات التى دفعت به الى وضع كتابه الموازنة ، ولو على غير وعى منه ، وان تأخر عهده .

ولعله مما يؤازر هذا الفرض ويمكن له ما يذهب اليه الدكتور محمد مندور من « ان كثيرا من اقوال انصار ابى تمام (يعنى فى كتاب الموازنة) ما هى الا تلخيص لأقوال الصولى فى اخبار ابى تمام »[1] .

بل انا لنستطيع فوق ذلك أن نلمح فى كتاب الموازنة شيئا من أصداء هذه العداوة القديمة الموروثة ، على تراخى العهد ، فى غير موضع منه ، فنحن نشعر شعورا قويا باللهجة الساخرة التى يحيط بها الآمدى اسم الصولى حين يرد اسمه على لسانه — وقلما يذكره باسمه — كقوله ، وهو يتكلم عن بيت من شعر أبى تمام رابته روايته، ووقع فى خلده ان تصحيفا أصابه : «حتى رجعت الى النسخ العتيقة التى لم تقع فى يد الصولى وأضرابه ، فوجدت البيت فى غير نسخة مثبتا على هذا الخطأ»[2]. فهذه عبارة تنضح بالسخرية. وانه ليتضح لنا ذلك حين نعرف أن الصولى كان — فيما عرف عنه واشتهر به — عريض الدعوى فى كل ما يتصل بتحقيق الشعر . وقد كان فيما يكتب ما يحقق هذا الذى ذاع عنه ، كقوله مخاطبا ابا الليث : « وليس يجب — أعزك الله — أن تنظر الى اختلاف الناس فى ابى تمام ، واضطراب روايتهم لشعره ، فانهم بعد اتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها ، كما كانوا مختلفين فى شعر أبى نواس وأخباره ، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغى منه ، حتى ان النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم، وقد كانت قبل ذلك تباع بعددها دنانير، ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى وتسقط فلا تراد»[3] ففى هذه العبارة من ثقل الدعوى ما هو واضح جلى .

ومن هذه الاصداء التى نحسها فى كتاب الموازنة ، صادرة عن تلك الكراهية القديمة ، قوله فى سياق حديثه عن الشعر وأسباب ذوقه ووسائل نقده والحكم عليه: « وبعد ، فلم لا تصدق نفسك ايها المدعى ، وتعرفنا من اين طرأ لك الشعر . أمن

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ٨٣ ، ط مكتبة النهضة — (٢) الموازنة ، ص ١٩٢
(٣) أخبار ابى تمام ، ص ٥٧ — ٥٨

أجل أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء؟»[1]، كما يذهب الاستاذ محمد عبده عزام الى انه يعنى بذلك ابا بكر الصـــولى [2] ، وهو مذهب قريب سائغ لا تكلف فيه ان يكون بهذه العبارة انما ينظر الى الصولى فى تهكم وسخرية ، كما تدل على ذلك هذه الاشارة الى خزانة كتبه . وهى اشارة الى ما شاع فى الناس عنها من اعتداده بها ، واعتزازه بمحتوياتها ، وعنايته الشديدة بترتيبها وتنظيمها ، حتى أصبح ذلك موضع التندر من خصومه ومن اصحاب العبث والسخرية ، كما نرى فى هذه الابيات التى قالها فيه ابو سعيد العقيلى :

انمـــا الصـــولى شيـــخ ... أعلـــم النـــاس خزانـــة
ان ســـألناه بعلـــم ... نبتـــغى عنـــه الا بـــانه
قال : يا غلمـــان هـــاتوا ... رزمـــة العلـــم فلانـــة[3]

وبذلك نرى أن « أخبار ابى تمام » للصـــولى تعتبر من أدنى الملابســـات التى لابست الآمدى فى وضع كتابه « الموازنة » . ولعل الكتاب حين ينشر كاملا يمكن ان يؤدى الينا غير ذلك من الاصداء .

والى جانب حركة التأليف هذه كانت هنالك المجالس الأدبية التى تدور فيهـــا المناظرة حول ابى تمام والبحترى . وقد رأينا ما كان من مثل ابى رياش اليمامى فى ذلك . كما أن الآمدى يشير فى غير موضع من كلامه الى هذه المجالس ، فمن ذلك ما قاله فى سياق كلامه عن بيت ابى تمام :

الـــود للقـــربى ، ولكن عرفـــه ... للأبعـــد الأوطـــان دون الاقرب

« وقد عارضنى فى هذا البيت غير واحد ممن ينتحل نصرة ابى تمام » ثم أورد صورة من الحوار الذى دار بينه وبينهم فى ذلك[4] . ومن ذلك أيضـــا قوله ، بعد أن بسط رأيه فى هذا البيت :

رضيت، وهل أرضى اذا كان مسخطى ... من الأمر ما فيه رضـــا من له الأمـــر

(١) الموازنة ص ٣٨٦ ــ (٢) ديوان ابى تمام بشرح التبريزى ، ص ٢٣ (المقدمة)
(٣) معجم الادباء ١٩ : ١١١ ــ (٤) الموازنة ص ١٥٥

« وقد استقصيت القول فى هذا البيت ، وما ذكره النحويون وسيبويه وغيره فى معنى قد وهل ولخصته فى جزء مفرده وانما فعلت ذلك لكثرة من عارضنى فيه، وادعى الدعاوى الباطلة فى الاحتجاج لصحته »[1] .

فقد كانت مجالس العلم اذن حافلة بالمناظرة حول هذا البيت وذاك من شعر ابى تمام ، وكانت المناقشات ما تفتأ تدور حول ما يفيده هذا البيت من معنى ، ومبلـــغ الصلة بين لفظه ومعناه ، مرددة اقوال النحاة واللغويين فى التقرير والحجاج ، وكان فى هذه المناظرات ما يحفز الى التأليف فى موضـــوعها ، ويثير الرغبة فى تسجيلهـــا وتحرير القول فيها ، كما صنع الآمدى فيما دار حول ذلك البيت .

واذن فقد كان الجو فى بيئات البصرة الأدبية مغمورا بتلك الخصـــومة القديمة على النحو الذى رأينا صورة منه . ثم جاءت خصومة جديدة حول شاعر جديد هو المتنبى ، فزادت الخصومة القديمة حدة على حدة ونشاطا على نشاط . وبين مذهب المتنبى الأدبى ومذهب أبى تمام وشائج قربى ، فكان المحتجون للمتنبى والمعتذرون عنه يتخذون من أبى تمام ذريعة لهم، واذن فقد جاءت هذه الخصومة الأدبية الجديدة بمادة جديدة ، فزادت النار وقودا ، وأعـــادت الحرب جذعة ، بدلا من أن تصرف الناس عنها ، لتجندهم لها وتحشدهم فى ميدانها .

ولا ريب ان مثل هذا الجو كان جديرا بأن يثير الآمدى الى ان يسهم فى هذه الحركة الادبية النشيطة بعمل كبير حاسم، وهو الذى شغلت هذه الحركة مكانا ظاهرا فى حياته، وأخذت بنصيب غير قليل من تفكيره . وقد كانت الرغبة فى الموازنة بين الشاعرين قد حملته على أن يدون كل ما يراه رائعا من شعرهمـــا ، كل بازاء الآخر ، على مر الأوقات ، ليرى بوضـــوح فى آخر الأمر مجموعة محاسن هـــذا ، مقابلة بمجموعة محاسن ذاك ، على نمط دقيق منتظم ، كما يقرر هو ذلك عن نفسه فى موضـــع من كتابه[2] . كأنما كان يمهد منذ ذلك الوقت على هذه الصورة لوضـــع كتابه هـــذا :

(١) الموازنة ، ص ١٩١ ــ (٢) الموازنة ، ص ٤٤

« الموازنة بين الطائيين » .

— ٨ —

وهكذا وضع الآمدى كتابه هذا استجابة لهذه الحوافز الادبية القوية التى اتخذت صورا مختلفة، والتى كانت ما زالت تعمل فى نفسه وتدفع به وتوجهه، وان يكن صدره بما يشير الى ان شخصا بعينه قد رغب اليه فيه، وحثه على صنعه، اذ يقول : « هذا ما حثثت — ادام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد — على تقديمه من الموازنة بين أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، وأبى عبادة الوليد بن عبيد الله البحترى » . وليس يعنينا كثيرا أن نتلمس السبل الى معرفة هذا الرجل، فانما الشأن الأول عندنا فى هذه الدراسة هو تبين الملابسات الخارجية والنفسية التى لابست وضع هذا الكتاب ، وتعرف مقومات الشخصية التى أنشأته .

ولعل ما أسلفناه من سيرة الآمدى يبين لنا أن شخصيته كان يغلب عليها الطابع الادبى والنزوع الفنى ، فهو شاعر يحسن قول الشعر ، ويجيد التعبير عن مشاعره ، ويعرف كيف يسخر السخرية اللاذعة ، وهو — فى هذا القدر الذى بلغنا من شعره — شاعر مطبوع لا تكلف فى شعره ولا تعسف ولا تعقيد . كما رأينا أن الثقافة الادبية التى عرض لها او عرضت له قبل ان يترك البصرة الى بغداد انما كانت ثقافة أقرب الى الفن الخالص منها الى الدرس العلمى أو المعاناة العقلية ، فاكثر الرواة الذين كان يؤخذ عنهم الشعر القديم ويرجع اليهم فيه كانوا أيضا شعراء مطبوعين كابن دريد وابن لنكك والمفجع البصرى ، وكانوا فى شعرهم يؤثرون الديباجة الجيدة الرائعة والمعانى القريبة التى لا تكلف فيها ولا اجتلاب لها . ومن ذلك جرت نزعته الفنية وثقافته الادبية ابان نشأته الأولى فى البصرة فى مجرى واحد ، متساوقتين تغذو الواحدة منهما الاخرى ، حتى اذا مضى الى بغداد يلتمس لشخصيته أسباب التكمل فيها بطلب النحو والجلوس الى النحاة والاتصال بتلك الثقافات العلمية المختلفة التى كانت بغداد مركزا لها ، كانت له شخصيته الادبية الناضجة . ولكن

هذه الدراسة لم تخله بطبيعة الحال من آثارها، فأسبغت على هذه الشخصية رداءا علميا ، وأخذت عقله بالتنظيم والتحرير والتعمق وحب الاستقصاء . ثم جاءت صحبته لأبى جعفر الضبى فوسعت آفاقه ، وعدلت هذه المقادير فى نفسه ، ووازنت بين النوازع المختلفة عنده ، وهيأته لذلك المكان الذى استقر به أخيرا : مكان الناقد الأدبى المستقل الرصين المتزن ، على النحو الذى نراه فى كتابه هذا .

وقد رسم الآمدى خطة الكتاب على نحو أراد به أن يضع أمام القارىء المواد التى تمكنه من الفصل فى هذه الخصومة الشعرية على هدى وبصيرة ، فهو يبدؤه بنوع من المقدمة يذكر فيها بعض القضايا العامة فى هذه الخصومة ، ويحكى فيها ما كان يدور بين طرفى الخصومة من احتجاجات لها ومناظرات عليها ، كدعوى ان ابا تمام صاحب مذهب فى الشعر ، ومدى ذلك ، وقضية الشعر والعلم ، ومبلغ ما بينهما من تعاضد أو تعارض وتدافع، اذ كان أبو تمام شاعرا عالما ، الى غير ذلك مما تثيره « كل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى ، عند تخاصمهم فى تفضيل احدهما على الآخر ، وما ينعاه بعض على بعض » . وقد صرح هو فى هذه المقدمة ، أوما نعتبره نحن كالمقدمة ، بانه انما يفعل ذلك « ليزداد القارىء بصيرة وقوة فى حكمه ان شاء أن يحكم ، واعتقاده فيما لعله يعتقد احتجاج الخصمين به » . فقد وقف نفسه كما نرى منذ البدء فى موقف من يمد القارىء بمواد الخصومة ، ليكون القارىء نفسه هو الحكم فيها . أترى كان ذلك أمره فى مجالس القضاء حين كان من كتابها ؟

فاذا فرغ من هذه المسائل العامة ومن عرض وجهتى النظر المختلفتين فى كل منها ، أخذ فى صميم الكتاب ، وقد اختط لنفسه خطته فى تصميمه وبنائه على الصورة التى يعرضها فى بدايته ، اذ يقول :

« وانا ابتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، واذكر طرفا من سرقات ابى تمام ، واحالاته ، وغلطه، وساقط شعره، ومساوىء البحترى فى أخذ ما أخذه من معانى ابى تمام ، وغير ذلك من غلطه فى بعض معانيه . ثم أوازن

من شعريهما بين قصيدتين اذا اتفقتا فى الوزن والقافية واعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى ، فان محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك ، ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وافرد بابا لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وبابا للأمثال ، اختم بهما الرسالة »[1]

وبهذا التخطيط الذى رسمه الآمدى لكتابه وضعه فى جزأين كبيرين : أحدهما يوازن فيه بين الشاعرين من ناحية المآخذ التى أخذت على كل منهما ، مع خاتمة مجملة يبين فيها ما قيل من فضل هذا وفضل ذاك ، والآخر يوازن فيه بينهما من ناحية قدرة كل واحد منهما وأسلوبه فى معالجة المعنى الواحد وأدائه .

فأما جزء المآخذ فقد جعله فى بابين كبيرين ، وان كانا متفاوتين تفاوتا شديدا، قدر تفاوت الرجلين عنده فى المآخذ عليهما: أولهما خاص بابى تمام والثانى خاص بالبحترى . وقد صنف مساوىء ابى تمام فى سبعة فصول ، وهى : (١) سرقاته[2] ، (٢) ما غلط فيه من المعانى والالفاظ[3]، (٣) قبيح الاستعارات[4]، (٤) قبيح التجنيس[5]، (٥) ما يستنكره من الطباق[6]، (٦) سوء النظم والتعقيد ووحشى الالفاظ[7]، (٧) الزحاف واضطراب الوزن[8] . فأما مساوىء شعر البحترى فقد صنفها فى اربعة فصول وهى : (١) سرقاته[9] ، (٢) ما أخطأ فيه من المعانى[10] ، (٣) ردى التجنيس وقبيحه[11] ، (٤) اضطراب الاوزان[12] .

وأما الجزء الثانى وهو الخاص بالموازنة بين الشاعرين من ناحية الديباجة الشعرية والتعبير عن المعانى فقد كانت خطته التى اختطها، كما رأينا فى عبارته التى أوردناها، أن يوازن « بين قصيدتين اذا اتفقتا فى الوزن والقافية واعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى » . فقد كان يريد اذن ان يصطنع نوعين من هذه الموازنة : الأول موازنة فى الديباجة والصياغة دون نظر الى المعنى ، والآخر موازنة بين أسلوب وأسلوب فى التعبير عن المعنى الواحد . كذلك كان يقدر ، ولكنه حين أخذ يواجه الأمر ويضع

(١) ص ٤٥ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ١٢٤ (٤) ص ٢٢٨ (٥) ص ٢٤٨ (٦) ص ٢٥٦ (٧) ص ٢٦٠ (٨) ص ٢٧٢ (٩) ص ٢٧٧ (١٠) ص ٣٤٨ (١١) ص ٣٧٨ (١٢) ص ٣٨٠

خطته موضع التنفيذ ، وجد أن الموازنة فى الديباجة والصياغة دون اعتبار المعنى الذى صيغ له الشعر، ودون نظر الى غير الاتفاق فى الوزن والقافية واعراب القافية، خطأ لا مساغ له ، اذ لا بد مع ذلك « من اتفاق المعانى التى اليها المقصد ، وهى المرمى والغرض ، وهذا لا يكاد يتفق »[1] . لقد خدعت الرغبة فى التقسيم النظرى الآمدى عن حقيقة الأمر ، ولكنه لم يلبث على كل حال ان اكتشف هذه الخديعة ، ولم يكن بد من أن يعدل عن هذا النوع المحال من الموازنة، ومضى فى النوع الآخر .

ابتدأ هذا النوع بذكر ابتداءات القصائد، فصنف المعانى التى تشتمل عليها ، من الوقوف بالديار ، والتسليم على الآثار ، ووصف تعفية الازمان لها ، وبكاء الشاعر عليها ، الى غيره من المعانى والصور التى تتصل بهذا الموضوع . وبذلك تنتهى النسخة المطبوعة التى بين أيدينا من هذا الكتاب . ثم يبدأ فصلا آخر من فصول هذه الموازنة يعقده للجزء الثانى مما تشترك فيه القصيدة العربية، وهو الذى سماه «الخروج»، اذ ينتقل فيه الشاعر من الافتتاح الذى عقد له الآمدى الفصل الأول ، الى الموضوع الرئيسى الذى بنى القصيدة عليه وصاغها له . فاذا انتهى من هذين الجزأين المشتركين انتقل الى الجزء الثالث من أجزاء القصيدة، وهو موضوعها، وهذا الموضوع يندرج تحته كثير من الاغراض الشعرية ، وبدأ الآمدى منها بالمديح ، وبه تنتهى النسخة المخطوطة التى بين ايدينا ، ناقصة أيضا ، فلا تزال هناك بقية الاغراض الشعرية من الهجاء والرثاء والنسيب وما الى ذلك ، كما لا يزال هذا الباب الذى وعد الآمدى أن يجعله فى ذكر « ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ، ولم يسلكه صاحبه » ، ثم لا يزال هنالك فوق ذلك البابان اللذان قصد أن يجعلهما ختاما لكتابه، وهما بابا التشبيه والأمثال .

ومهما يكن من أمر فهذه هى خطة كتاب الموازنة ، وهذا هو الهيكل العام له، وهى خطة جيدة — كما نرى — فى تنظيمها وتقسيمها ، وهو هيكل تبدو فيه براعة الآمدى فى التبويب والتصنيف .

— ٩ —

أراد الآمدى بهذه الخطة أن يحقق ما قصد اليه بادىء ذى بدء، وهو أن يضع أمام القارىء ما يمكنه من الحكم فى الخصومة بين الشاعرين ، ويملكه الوسيلة الصحيحة

(١) الموازنة ص ٣٤٨

الى الفصل بينهما ، اذ كان هو لا يريد أن يقضى فى ذلك برأى ، أو يحمل القارىء على ما يذهب اليه فى ذلك من مذهب، وانما موقفه منها موقف الحيدة، فالأمر بينهما عنده أمر خلاف بين مذهبين ، قبل أن يكون أمر خلاف بين احسان واساءة ، أو بين جودة ورداءة. وفى ذلك يقول : « ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى، لتباين الناس فى العلم ، واختلاف مذاهبهم فى الشعر . . . فان كنت — ادام الله سلامتك — ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وان كنت تميل الى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة. فأما انا فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر »[1] . ويقول فى موضع آخر : « وانا اذكر — باذن الله — الآن المعانى التى يتفق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى، واقول ايهما اشعر فى ذلك المعنى بعينه فلا تطلبنى أن اتعدى هذا الى أن افصح لك بايهما أشعر عندى على الاطلاق ، فانى غير فاعل ذلك »[2]

فهل استطاع الآمدى أن يقف عند هذا الحد الذى التزمه، وان يلزم جانب الحيدة التى رسمها لنفسه ، فلا يفصح برأيه ، ولا ينصر جانبا على جانب ؟ ذلك مطلب ولا ريب عسير كل العسر ، ولا سيما فى المسائل الادبية التى تتصل بالوجدان أوثق اتصال . وانا لندرك مبلغ ما حمل الرجل على نفسه وهو يحملها على هذا المحمل ويريد أن يدفعها فى تلك السبيل . وانا لنتمثل هذا العنت حين نستمع اليه وهو يدعو الله أن يقويه فيما هو بسبيله ، وذلك اذ يقول فى موضع من كتابه : « وبالله استعين على مجاهدة النفس ، ومخالفة الهوى ، وترك التحامل ، فانه — جل اسمه — حسبى ونعم الوكيل »[3]

وانا لنعلم أن نزعة الرجل الأدبية كانت تجعله «ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق » ، وممن يرى أن كلام الأوائل وأسلوبهم هو المقياس الأول الذى ينبغى أن يقاس به الشعر ،

(١) ص ٤ — ٥ — (٢) ص ٣٨٣ — (٣) ص ٣٩٦

وتفضل به عبارة عبارة، كما يبدو ذلك فى غير موضع من كتابه، فهو بذلك يحترى الهوى ، « لأن البحترى أعرابى الشعر مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام» . [1] وبذلك كله نرى أى غاية صعبة قصدها ، وأى سبيل وعرة سلكها ، وأى أمانة ثقيلة احتملها ، حين رسم لنفسه أن يقف من الشاعرين موقفا وسطا .

وقد استطاع الآمدى بهذا المنهج الذى اختطه أن يحقق هذه الغاية الى حد غير قليل ، كما استطاع بهذا الذى أخذ به نفسه من القصد الى الانصاف أن ينصف ابا تمام فى غير موضع ، وان يقف من المتعصبين عليه موقف المدافع عنه ، فى مثل موقفه من أبى العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار القطربلى فى كتابه الذى أشرنا اليه من قبل، وقد جعله جزءا من الموازنة . واذا كان هذا الجزء لم يصل الينا ، فان فى حديث الآمدى عنه ما يدل على روح الانصاف التى كان يصطنعها أزاء هذه الخصومة .

وقد كان حديثه عنه فى سياق الحديث عن ابى تمام والأسباب التى أدت الى كثرة غلطه واحالته ، قال : « وافرط المتعصبون له فى تفضيله ، وقدموه على من هو فوقه من أجل جيده ، وسامحوا فى رديئه ، وتجاوزوا له عن خطئه ، وتأولوا له التأويل البعيد فيه، وقابل المنحرفون عنه افراطا بافراط، فبخسوه حقه، واطرحوا احسانه، ونعوا سيئاته ، وقدموا عليه من هو دونه ، وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح فى الجيد من شعره ، وطعن فيما لا يطعن عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ، ولم يقنع بذلك بمذاكرة ولا قولا حتى الف فى ذلك كتابا»[2] الى آخر ما أوردنا من ذلك النص قبل .

ومن مظاهر روح الانصاف وتوخى المعدلة له فى كتابه ما جاء فى الفصل الذى عقده عقب كلامه عن سرقات أبى تمام ، مناقشا فيه ما خرجه ابن ابى طاهر من ذلك ، «فأصاب فى بعضها واخطأ فى البعض» على حد قوله، اذ كان «مما نسبه فيه ابن ابى طاهر الى السرق ما ليس بمسروق، لأنه مما يشترك فيه الناس من المعانى والجرى على السنتهم، ومنه ما نسبه الى السرق والمعنيان مختلفان»[3] وقد ناقش ما جاء من هذا القبيل ، وابطل دعوى ابن ابى طاهر السرقة فيه ، ايثارا للانصاف ، وتوخيا للمعدلة ، بعد أن أورد ما يراه مصيبا فيه .

(١) ص ٤ — (٢) ص ١٢٤ — (٣) ص ١١١

وكما كان من انصافه أن أورد ما ذكره ابن ابى طاهر من سرقات ابى تمام مناقشا ما رآه مخطئا فيه منها ، كذلك كان موقفه من ابى الضياء بشر بن تميم ، فيما أورد من سرقات البحترى ،مما أخذه من ابى تمام خاصة ، فقد ذكر منها ما رآه جائزا ، وناقش منها ما رآه متعسفا [1]

وكذلك تبدو روح الانصاف عنده ظاهرة جلية فيما عمد اليه من الموازنة بين ابى تمام والبحترى فى المعانى الشعرية ، وانما تتبين هذه الروح على وجهها ونقدرها قدرها اذا عرفنا انه بحترى الهوى كما سبق القول، وكما يبدو فى مواضع من الكتاب مختلفة ، ومع ذلك فانه لا يعفى البحترى من النقد أحيانا فى هذه الموازنة ، كالذى نرى من ذلك فى نقد احد أبياته فى الابتداء بذكر الوقوف غير مترفق به ، وان شهد له بحسن اللفظ، وفى مناقشة المدافعين عن البحترى والمحتجين له والمعتذرين عنه مناقشة لا يتحرج فيها من أن يستشهد بشعر أبى تمام ، منوها به، غير ملق بالا الى نزعته البحترية [2]

فاذا انتقل الى الفصل الذى يلى هذا الفصل ، وهو « التسليم على الديار » نراه يعلق على أحد ابيات أبى تمام بهذه الشهادة القوية القاطعة فى نصرة ابى تمام : «هذا المصراع الأول فى غاية الجودة والبراعة والحسن والحلاوة، وعجز البيت أيضا جيد بالغ»[3]، وفى حين ذكر للبحترى فى هذه الموازنة اربعة ابيات ، قضى لاثنين منها بقوله : « وهذا ابتداءان جيدان » وسكت ، وللثالث بقوله : «وهذا ابتداء صالح»، وقضى على الرابع بقوله : «وهذا البيت ردىء» . فاذا ما انتهى من هذا الفصل كانت كلمته الأخيرة أن قضى لأبى تمام على البحترى ، اذ يقول : « فهذا ما وجدته من تسليمهما على الديار، وأبو تمام عندى فى قوله: (دمن الم بها فقال سلام) أشعر من البحترى فى سائر ابياته » [4]

هذه بعض ما نرى فى كتاب الآمدى من مظاهر الانصاف التى أخذ ابو القاسم بها نفسه ، منذ وضع نفسه من هذه الخصومة فى ذلك الموضع . وكأن الأصل فى هذا هو انصافه لنفسه أولا ، فله شخصيته الأدبية التى لا يمكن أن يهدرها ، وله ذوقه الفنى الذى لا يجوز أن يلغيه ، وبهذه الشخصية كان ينتصف احيانا من البحترى

(١) ص ٢٩٠ ـ ٣٤٧ — (٢) ص ٤٠٠ ـ ٤٠٥ — (٣) ص ٤٠٧ — (٤) ص ٤١٠

لأبى تمام ، وبها كان يناقش أيضا شعر أبى تمام ، مما جاء على خلاف مذهبه الفنى. ومن ذلك ما نرى من اعترافه ان شعر ابى تمام ليس جاريا كله ولا اكثره فى هذا المجرى الذى ينكره ، بل ان الاكثر يعد من الروائع الشعرية فى عصره ، وهو يقول فى هذا : « ... ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعانى مجاذبة ، ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب فى حسن ولم يفحش، واقتصر من القول على ما كان محذوا حذو الشعراء المحسنين، ليسلم من هذه الأشياء التى تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه ــ ولعل ذلك أن يكون ثلث شعره أو اكثر منه ــ لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين، وكان قليله حينئذ يقوم مقام كثير غيره ، لما فيه من لطف المعانى ومستغرب الألفاظ» [1] . فهو اذن لا يرفض ابا تمام جملة، كما كان ابو رياش يرفض الشعر المحدث جملة، وانما يرفض من شعره مالا يتفق وشخصيته الادبية .

فالآمدى فيما يقبل ويرفض جار مع شخصيته منصف لها . وليس يمكن القول بان فى رفضه مارفض من شعر ابى تمام خروجا على الانصاف الذى التزمه، اذ ما كان من الممكن أن نطلب الى ناقد أدبى أن يلغى شخصيته ويهدر مقومات مذهبه الفنى فيما ينقد من آثار وما يقرر من رأى . والناقد ما دام فى هذا فهو فى نصابه الطبيعى ، لا يمكن أن نرميه بالتعصب أو مجانبة النصفة . وكذلك الآمدى عندنا ، فهو بعيد عن التعصب ما وقف عند حدود مذهبه الفنى فى النقد ، وما وقف عند حدود خطته التى رسمها فى الموازنة بين الرجلين ، يورد لكل منهما ماله وما عليه .

— ١٠ —

فهل استطاع الآمدى أن يقف الى النهاية فى هذه الحدود المرسومة لا يخرج عليها ولاينحرف عنها ؟ لقد استراب المتقدمون فى هذا ، كالذى حكاه ياقوت فى سياق ترجمته للآمدى من قول ابى الفرج الببغا الشاعر : « كان الآمدى النحوى صاحب كتاب الموازنة يدعى هذه المبالغات على ابى تمام، ويجعلها استطرادا لعيبه ،

(١) ص ٤٠٧ — (٢) ص ٤١٠ — (٣) ص ١٢٣ ـ ١٢٤

اذا ضاق عليه المجال فى ذمه» . ثم قال فى سياق كلامه عن كتبه : «منها كتاب الموازنة بين البحترى وابى تمام فى عشرة أجزاء . وهو كتاب حسن ، وان كان قد عيب عليه فى مواضع منه ، ونسب الى الميل مع البحترى فيما أورده ، والتعصب على ابى تمام فيما ذكره . والناس بعد فيه على فرقتين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه، فانه جد واجتهد فى طمس محاسن ابى تمام ، وتزيين مرذول البحترى . ولعمرى ان الأمر كذلك . وحسبك انه بلغ فى كتابه الى قول ابى تمام : (أصم بك الناعى وان كان أسمعا) ، وشرع فى اقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ، فتارة يقول : هو مسروق ، وتارة يقول : هو مرذول . ولا يحتاج المتعصب الى اكثر من ذلك . الى غير ذلك من تعصباته . ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله ، لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام »[1]

واذن فلم يغن عن الآمدى ما رسم من خطة منصفة ، وما أبدى فى كثير من مواضع كتابه من تحر للنصفة ، وقصد الى المعدلة ، من أن يصبح غرضا لتهمة التعصب، يدفعه الى « طمس محاسن ابى تمام، وتزيين مرذول البحترى »، يتهمه بها غير واحد من المتقدمين ، على النحو الذى رأينا فى كلام ياقوت ، وفى حكايته عن ابى الفرج الببغا . كما رماه بها من المتأخرين المعاصرين الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه كتاب أخبار ابى تمام ، وعرضه للخصومة التى اثارها شعره ، والانقسام حول مذهبه ، اذ يقول : « وخلف هذا الانقسام ثروة جيدة من النقد الأدبى ، لم نظفر بمثلها فى أى عصر سابق ، فألف الآمدى كتابه ، الموازنة بين أبى تمام والبحترى يتعصب فيه للبحترى من وراء حجاب » .

فما هو الأصل فى هذه التهمة وأنى اتجهت اليه ؟ اتكون نوعا من التعصب على الآمدى من شيعة أبى تمام لما يبدو فى كتابه من ميل الى البحترى ؟ أم أن للأمر وجها غير هذا يمكن أن نلتمسه فى الكتاب ، وانه بالرغم من حرصه على أن يقف موقف الانصاف ويأخذ جانب الحيدة، وبالرغم من روح المعدلة التى تظهر بين الحين

(١) معجم الادباء ٨ : ٨٤

الحين فى كتابه ، فيما ينتصف به لأبى تمام من خصومه ، فانه لم يكن من الممكن أن يمضى فى هذا الى غايته ، فتلك — كما قلنا — غاية عسيرة كل العسر ، ولو حرص عليها كل الحرص .

وذلك فى الواقع هو ما يخيل الينا حين ننظر فى كتابه الموازنة نظرة مجتمعه تضم الاطراف المختلفة ، فنرى أن تهمة التعصب ليست تجنيا صرفا، كما يذهب الى القول بهذا الدكتور محمد مندور فى الفصل الذى كتبه عن هذا الكتاب[1]، بل ان لهذه التهمة ما يبررها ، فوق ما أشار اليه ياقوت من ذلك .

ذلك أن الآمدى لم يكد ينتهى من تصدير كتابه بخطة الحيدة التى رسمها، واقبل على ذلك الفصل الذى عقده لايراد احتجاج كل فريق ، حتى بدا واضحا أن الرجل لم يستطع أن يقمع ميله أو ينحى هواه فى هذه الخصومة ، فى هذا الوجه منها ، وذلك فى ادارتها وتنظيمها وتوجيهها ، فقد كان موقفه منها ، وان تحرز عن التصريح برأى فيها ، بادىء ذى بدء ، بعيدا عن أن يوصف بالحيدة المطلقة ، كما هو واجبه فى ادارة المناقشة ، بل كان موقف المتشيع لاصحاب البحترى ، المشجع لهم ، حين يعطى لهم الكلمة ، فيتركهم يقولون ما يشاءون ويبدءون ويعيدون ، المائل عن اصحاب ابى تمام الجائر عليهم، حين لا يأذن لهم فى عرض وجهة نظرهم الا بالجملة أو الجملتين، ثم يسارع فيعطى الكلمة لخصومهم : يمدون فى أطناب القول وتشقيق الكلام وافتراض الفروض والرد عليها، دون أن يأذن لأصحاب ابى تمام بمناقشتهم، فاذا اذن لهم ، وقلما يفعل ، فبكلمة موجزة يشيرون بها اشارة الى رأيهم . ثم يجعل للبحتريين الكلمة الأخيرة دائما . فهذا هو موقف الآمدى وقد أمسك بيده زمام المناظره يديرها وينظمها ، فاذا به فى ذلك يكشف عن نزعة التعصب التى يحاول سترها او قمعها .

ومن ذلك ما نراه، مثلا، فى الفصل الذى عقده للكلام فى « سرقات ابى تمام » ، اذ يحكى قصة دعبل الخزاعى فى سرقة ابى تمام معظم قصيدة مكنف فى رثاء ابى سلمى المزنى، مكتفيا بايرادها كانما هى قضية محكمة ، قد فرغ من القول فيها[2] . وليس الأمر كذلك . فهناك قول يحكيه الصولى فى كتابه « اخبار أبى تمام » فى هذه

(١) النقد المنهجى عند العرب ، ص ٧٨ ، ط مكتبة النهضة ، ١٩٤٨
(٢) الموازنة ص ٥٩ — ٦٠

المسألة . لا ريب عندنا فى أن الآمدى يعرفه، فكان من واجبه تحقيقا للنصفه التى اختطها وألزم نفسه بها أن يذكره الى جانب ما روى عن دعبل ، خاصة وانه ــ فيما يبدو ــ غير موافق لدعبل، اذ انه يرى (فى الفقرة السابقة) ان ابا تمام أخذ أحد ابياته تلك عن مريم بنت طارق ترثى اخاها ، أو عن جرير يرثى الوليد بن عبد الملك .

بل ان الآمدى وهو فى مكانه الذى اتخذه بين الخصمين لم يملك نفسه من أن يصرح برأيه ، وذلك حين قال صاحب البحترى : « انما صار جيد ابى تمام موصوفا لأنه يأتى فى تضاعيف الردىء الساقط . . . والمطبوع الذى هو مستوى الشعر قليل السقط لا يتبين جيده من سائر شعره بينونة شديدة ، ومن أجل ذلك صار جيد أبى تمام معلوما وعدده محصورا » ، فانه لم يلبث ان قال معقبا على ذلك مؤيدا له : « وهذا عندى أنا هو الصحيح، لأنى نظرت فى شعر ابى تمام والبحترى وتلقطت محاسنهما ، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات ، فما من مرة الا وانا الحق فى اختيار شعر البحترى ما لم اكن اخترته من قبل ، وما أعلم انى زدت فى اختيار شعر ابى تمام ثلاثين بيتا على ما كنت اخترته قديما »[1] .

وهكذا لم يكتف الآمدى بان يدير المناظرة ادارة تجعلها فى صالح أصحاب البحترى، حتى أخل فى صورة أخرى بحق المكان الذى اتخذه، فتدخل فى الخصومة مناصرا لهم مهاجما خصومهم بمثل هذه العبارة ، ولما يمض غير قليل على قوله فى ذلك التصدير : « فأما أنا فلست أفصح بتفضيل احدهما على الآخر » .

اليس فى مثل هذا المسلك الذى سلكه الآمدى فى هذه الخصومة ، وفى أول مجلس من مجالسها ، ما يبرر تهمة التعصب التى رمى بها ؟

وفى تضاعيف الكتاب تبدو هذه النزعة التى يكاتمها الآمدى ويقاومها جهده ، ولكنها لا تلبث أن تغلبه على أمره ، فتعلن عن نفسها على نحو ما، كما فى تعليقه على هذا البيت من شعر ابى تمام :

جارى اليه البين وصل خريدة ماشت اليه المطل مشى الأكبد

« . . . فيا معشر الشعراء والبلغاء ويا أهل العربية ، خبرونا كيف يجارى البين

(١) ص ٤٤

وصلها . وكيف تماشى هى مطلها ؟ الا تسمعون ؟! الا تضحكون ؟! »[1] . وهكذا نرى فى مثل هذه العبارات كيف ان الآمدى لم يغلب على أمره فى مكاتمته نزعته ضد ابى تمام وتحامله عليه ، فحسب ، ولكنه غلب أيضا على وقاره ورزانته وسمته، فترك هذه العبارات تنطلق منه ، ثم لم يلبث أن اردفها بعبارة قالها ابن المعتز فى بيت لمسلم الخاسر ، اذ يقول عنه : « هذا ردىء كأنه من شعر ابى تمام الطائى » .

الى غير ذلك مما حمل ياقوتا وغيره على اتهام الآمدى بالتعصب على ابى تمام فى كتاب الموازنة. وربما لم يقصد الآمدى الى شىء من هذا، ولكنها ــ على كل حال ــ الطبيعة التى لا تغالب مهما تحرز المتحرز وتحصن .

— ١١ —

وبعد فما هو منهج الآمدى فى نقده ، وما هى خصائصه وسماته البارزة ، كما تبدو فى هذا الكتاب ؟

يبدو أن الأصل الأول فى ذلك هو تلك النزعة الأدبية التى تنزع بالآمدى ــ كما قلنا ــ الى ايثار طريقة الأوائل والتزام عمود الشعر المعروف ، وبذلك كان يقوم نقده على تجريح ما خرج على هذا الاصل ، سواء فى المعانى الشعرية أم فى الصياغة ، فالتكلف والتعقيد والاسراف فى توليد المعانى والمبالغة فى الوصف والاكثار من التجنيس والطباق والقصد اليهما من العيوب التى اسقطت شعر ابى تمام عند الآمدى ، لأنها مجانبة لمذهب الأوائل وخروج عليه. فأما حين يقول مثلا :

أرامة ، كنت مألف كل ريم لو استمتعت بالأنس القديم
أدار الأنس ، حسنك التصابى الى ، فصرت جنات النعيم
لئن اصبحت ميدان السوافى لقد أصبحت ميدان الهموم
ومما ضرم البرحاء أنى شكوت ، فما شكوت الى رحيم
أظن الدمع فى خدى سيبقى رسوما من بكائى فى الرسوم

فمثل هذا عند الآمدى من جيد شعره ، لأن « هذا من أسهل الكلام وأسلس نظمه ، ومن أبعد قول من التكلف والتعسف ، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل

(١) ص ٢٤٨

البلاغة » . فالسهولة والسلاسة والبعد عن التكلف والتعسف ، وشبهه بكلام المطبوعين هو الذى اتاح لهذا الشعر ان يكون من جيد شعر ابى تمام . ولكن الآمدى يلحظ فى البيت الثانى شيئا من الاسراف ، فيقف عنده بين الاعجاب بما فيه من معنى لم يستطع أن ينكر حسنه ، والانكار لما فيه مع هذا الحسن من مبالغة ، وفى المبالغة خروج على مذهب الأوائل فيقول : « وقوله (فصرت جنات النعيم) معنى حسن ، ولكن فيه اسراف ان يجعل دارا — خلت من أهلها — دار بؤس ، — وهو بالك فيها — جنات نعيم » [1]

بل ان الآمدى لا يقف فى ايثار مذهب الأوائل وبناء نقده الأدبى عليه عند الجرى مع الطبع ومجانبة التكلف ، بل يرى فوق هذا أن يلتزم الشاعر عادة العرب وعرفهم السائد فى اعتبار الأشياء والتعبير عن المعانى ، فحين يقول ابو تمام ، من قصيدته فى مدح ابن ابى دؤاد :

ظعنوا ، فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت ، وذاك حكم لبيد
اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

فانه يعتبر من اخطائه أن يخالف عن سنة العرب فى اعتبار البكاء مخففا من لوعة الحزن ، وقد جرى بذلك العرف عندهم ، ومضى على السنة شعرائهم ومن سلك سبيلهم . وذلك اذ يقول فى التعليق على هذين البيتين : « وهذا خلاف ما عليه العرب ، وضد ما يعرف من معانيها ، لأن من شأن الدمع أن يطفىء الغليل ، ويبرد مرارة الحزن ، ويزيل شدة الوجد ، ويعقب الراحة ، وهو فى اشعارهم كثير موجود ينحى به هذا النحو من المعنى ، فمن ذلك قول امرىء القيس : . . . وقول ذى الرمة : . . . وقال الفرزدق : . . . وهو كثير فى اشعارهم ، ما عدل أحد منهم عن هذا المعنى ، وكذلك المتأخرون هذا السبيل سلكوا . . . فلو كان اقتصر على هذا المعنى الذى جرت به العادة فى وصف الدمع لكان المذهب المستقيم ، ولكنه أحب الاغراب ، فخرج الى ما لا يعرف فى كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم » [2] . فالأصل فى تخطئه هذا الشعر انه « خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها »،

(١) ص ٤٤٦ — ٤٤٧ — (٢) ص ١٨٥ — ١٨٨

أما ما جاء بعد هذا فانما هو لتفسير ما عليه العرب وتأييده ، كما هو ظاهر فى سياق العبارة .

ومن ذلك نقده هذا البيت من شعر ابى تمام :

سأحمد نصرا ما حييت ، وانني لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

ووجه العيب فى هذا البيت عنده أن رفع الممدوح عن الحمد مذهب لا تعرفه العرب ، اذ « ما فيهم من رفع أحدا عن أن يحمد ، ولا من استقل الحمد للممدوح »، ثم مضى يستشهد لهذا من شعر زهير والأعشى وغيرهما ، ثم قال : « فهذه هى الطريقة المعروفة فى كلام العرب » [1]

ومن هذا — فيما نحسب — كان مذهبه اللغوى : الا يتجاوز باستعمال اللفظ استعمال العرب له ، فلا قياس فى اللغة ولا توسع ، فذلك شىء لا نملكه ، ولا يجوز لشاعر يذهب بشعره المذهب العربى أن يخرج على استعمال العرب ، قياسا أو توسعا . فاذا استعمل ابو تمام كلمة « الجاهد » فى قوله :

فافزع الى ذخر الشؤن وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

فى معنى المجهود ، كان ذلك عنده خطأ لا مساغ له ، انما الوجه فى تأويل قوله : « بعض جهد الجاهد » ، « بعض جهد الحزن الجاهد ، أى الحزن الذى جهدك ، فهو الجاهد لك » ، فلكى تصح العبارة على مذهبه فى الاستعمال اللغوى يجب أن تكون كلمة « الجاهد » وصفا للحزن لا وصفا للمحزون بالرغم من السياق ، ومن المعنى الذى أراد الشاعر أن يعبر عنه ، ويصور به ألمه وجهده ، فى توديع صديقه على بن الجهم ، والا فقد أخطأ الشاعر فى وضع كلمة الجاهد موضع المجهود . ثم يقول : « وقد جاء أيضا فاعل بمعنى مفعول ، قالوا : عيشة راضية ، بمعنى مرضية، ولمح باصر ، وانما هو مبصر فيه . وأشباه هذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس فى كل حال يقال، وانما ينبغى ان ينتهى فى اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها »[2]

فذلك هو مذهبه فى هذه المسألة ، والذى يعنينا هنا هو تقريره وتقرير الصلة

(١) ص ١٨٣ — ١٨٤ — (٢) ص ٢٠٢

بينه وبين ذلك الأصل الأول فى شخصيته الادبية . وهو ــ كما قلنا ــ ايثار طريقة الأوائل ، فهو فرع من أصل .

واذا كان التزمت قد بلغ من الآمدى هذا المبلغ فى الاستعمال اللغوى ، حتى ما يجيز القياس فيها ، وان كان قياس صيغة على صيغة كما فى اطلاق صيغة فاعل على مفعول ، فهو من باب أولى يمنع أى توسع فى الاطلاق اللغوى ، ويوجب الدقة المطلقة فى التزام المعانى التى جاءت عن العرب . فاذا وصف ابو تمام الفرس بالصلف والتلهوق ، فى قوله :

ما مقرب يختـــال فى أشطانه ماكان من صلف به وتلهـوق

أخذ عليه انه وضع هاتين اللفظتين فى غير موضعهما الحق الذى نعته العرب لهما ، فقد استعمل الصلف فى معنى التيه والكبر ، « وهذا مذهب العـامة ، فأما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى ، وانما تقول : « قد صلفت المرأة عند زوجها اذا لم تحظ عنده ، وصلف الرجل كذلك اذا كانت زوجته تكرهه . . . والصلف الذى لا خير عنده . . . فهذا معنى الصلف فى كلامهم ، وعلى هذا قد ذم ابو تمام الفرس من حيث أراد أن يمدحه » . وكذلك الأمر فى التلهوق ، فهى ــ كما يقول ــ « لطف المداراة والحيلة بالقول وغيره ، حتى يبلغ الحاجة »[1]

وكما يدل هذا على مذهب الآمدى اللغوى ، فانه يدل من ناحية أخرى على دقته وقوة ملاحظته وحسه اللغوى اليقظ المتنبه ، وهذه أيضا من صفات الآمدى الظاهرة ، نراها فى غير موضع من كتابه ، وانه ليبلغ فى بعضها غاية بعيدة تكشف عن بصيرة لماحة وذوق مرهف وحس دقيق بمواقع الكلام واستعمال الالفاظ فى مواضعها ، كالذى نرى فى نقده استعمال ابى تمام لكلمة « العمر » فى هذا البيت:

مالا مرىء خاض فى بحر الهوى عمر الا وللبين فيـه السهل والجلـد

اذ يقول : « وهذا عندى خطأ ان اراد بالعمر مدة الحياة لانه اسم واحد للمدة بأسرها ، فهو لا يتبعض فيقال لكل جزء منه عمر . كما يقـال : ما لزيد رأس الا

(١) ص ٢١٩ ، وقد جاءت كلمة الصلف والتلهوق مقترنتين فى شعر للكميت فى مخلد بن يزيد المهلب ، قال :

أجزيهم يد مخلد وجزاؤها عندى بلا صلف ولا بتلهوق

(اللسان ٢ : ٢١٩) وكأن ابا تمام انما صدر عن هذا البيت .

وفيه شجة أو ضربة ، وماله لسان الا وهو ذرب فصيح ، لذلك لا يقال : ماله عمر الا وهو قصير . وانما يسوغ هذا فيما هو فوق الواحد ، مثل ان تقول : ماله ضلع الا مكسورة ، وماله يد الا وفيها اثر ، ولا رجل الا وفيها حنف » الى آخر هـذا الفصل[1] الذى يدل دلالة واضحة على يقظة الآمدى ودقته فى وضع الالفاظ مواضعها ، كما يدل على وضوح ذهنه وقدرته على الابانة وابراز الدقائق والفروق فى العبارات والتراكيب .

وما دمنا فى الكلام عن دقة الآمدى ووجوهها ومظاهرها فلا يفوتنا الاشارة الى لون آخر منها غير ما رأينا من دقته فى استعمال الالفاظ فى حاق معانيها ، ودقته فى وضعها مواضعها ، وهو الدقة فى ايراد المعنى وتأليفه وملاحظة ما قد يتخلله من خلل أو يعرض له من فساد . ونكتفى فى بيان هذه الناحية عنده بهذا المثل ، اذ يعلق على هذا البيت من شعر ابى تمام وينقده ، وهو فى صفة الخمر :

بقاعية ، تجـرى علينـا كؤسـها فتبدى الذى نخفى وتخفى الذى نبدى

وسنرى أن تعليقه عليه يدل على فهم دقيق وفطنة ثاقبة اذ يفسر صنيـع الخمر الذى ذكره ابو تمام ، فيقول : « ذهب فى هذا الى أن الخمر تخفى الذى نبديـه فى حال الصحو من الحلم والوقار والكف عن الهزل واللعب ، و « تبدى الذى نخفى » أى الذى نعتقده ونكتمه من ضد ذلك كله ، لأنه فى الطبيعة والغريزة ، والذى كنا نظهره انما هو تصنع وتكلف » ، ويمضى يوضح هذا بالأمثال يضربها ، وهو تفسير دقيق بصير كما نرى ، ولكنه انما يسوق هذا التفسير ليقرر شيئا آخر يكشف ما فى عبارة ابى تمام ، من فساد ، ذلك أن « كل شىء يظهره الانسان وليس فى اعتقاده ولا نيته فان الذى يضمره ويكتمه فى نفسه فهو ضده ، فاذا اظهر السكر اعتقاد المعتقد الذى هو الصحيح ، فان ضده مما كان يتجمل باظهاره يبطل ويتلاشى » ، واذن فهناك عمل واحد لا عملان ، فما بال أبى تمام يقول فى هذا البيت : « فتبدى الذى نخفى وتخفى الذى نبدى » أما الشطر الأول من قول ابى تمام : « فتبدى الذى نخفى » فصحيح ، وأما الثانى ففاسد ، « لأن تخفى معناه تكتم وتستر ، والذى قد أبطلته وأزلته لا يجوز أن يعبر عنه بانك أخفيته ولا كتمته »[2]

(١) ص ١٩٩ ــ ٢٠١ ــ (٢) ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣

وحسبنا هذا فى بيان دقة حس الآمدى وشدة فطانته فى تناول الآثار الأدبية وتحليلها ونقدها .

— ١٢ —

وتمد الآمدى فى نقده المبنى على ذلك الأصل والذاهب مع تلك النزعة ثقافة أدبية شاملة ، وذاكرة قوية ماثلة ، وقادرة على استحضار الشواهد والأمثلة ، وقد أتاحت له تلك الثقافة الادبية الاحاطة بصور الحياة العربية ومثلها ، ومكنت له من التغلغل فى دقائق تلك الحياة ، وبذلك كان كثيرا ما يكون نقده لهذا البيت أو ذاك فصلا ممتعا ودراسة عميقة مستقصية لهذه الصورة أو تلك من صور الحياة العربية كما تمثلها الآثار الادبية الماثلة فى ذاكرته ، كما فى نقده لهذا البيت من شعر البحترى:

قف العيس، قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى، ان شفاك سؤالها

فقد اعتمد فى نقد هذا البيت ، فى قراءته ، على ثقافته الادبية الواسعة ومعرفته الدقيقة بمثل الحياة العربية [1]

ومثل هذا أو قريب من دلالته هذه كثير فى كتابه ، وان لم يبسط القول فيه كما بسط القول فى هذا الفصل ، من ذلك ما أورده فى نقد بيت لابى تمام يذكر فيه الخيل، ويصورها فى صورة تنكرها المعرفة العربية والثقافة الادبية ، وذلك اذ يقول :

فى مكر تلوكها الحرب فيه وهى مقورة تلوك الشكيما

فقد جعل الخيل تلوك الشكيم فى الحرب، وهذا فيما نبه عليه الآمدى خطأ «لأن الخيل لا تلوك الشكيم فى المكر وحومة الحرب ، وانما تفعل ذلك واقفة لا مكر لها . . . وانما طرح ابا تمام فى هذا قلة خبره بأمر الخيل. الاترى الى قول النابغة :

خيل صيام ، وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

والصيام ههنا القيام. أى خيل واقفة مستغنى عنها لكثرة خيلهم فهى واقفة، وخيل تحت العجاج فى الحرب، وخيل تعلك اللجم ، قد أسرجت والجمت واعدت للحرب» [2]

(١) ص ٤٠٠ — ٤٠٥ والقراءة الاخرى «اوفى خطاها» — (٢) ص ٢١٦ — ٢١٧

ثم مضى الآمدى بعد ذلك يعرض بعض الشواهد فى هذا ، ويثير بعض التفاصيل والصور .

ومن ذلك أيضا ما نقد به بيتا للبحترى يصف فيه فرسا بأنه يسحب ذيله ، وهو قوله :

ذنب كما سحب الرداء ، يذب عن عرف ، وعرف كالقناع المسبل

يقول الآمدى : « هذا خطأ من الوصف ، لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا ، فكيف اذا سحبه ، وانما الممدوح من الاذناب ما قرب من الأرض ولم يمسها ، كما قال امرؤ القيس :

بضافه فويق الأرض ليس بأعزل

فقال فوق الأرض بقليل » . ولكن الآمدى لا يقف من نقده البيت والتعليق عليه عند هذا الحد ، فقد أراد ان يستطرد الى تحرير القول فيما وجه من هذا القبيل الى امرىء القيس فى بيت آخر له ، زعم بعض النقاد ، وسجل هذا الزعم ابن المعتز فى كتاب له ، انه أخطأ فيه ، اذ وصف ذنب الفرس بمثل ما جاء فى بيت ابى تمام ، حين جعله « مثل ذيل العروس » ، فأنكر الآمدى هذا المأخذ وناقشه ، ووجه وصف امرىء القيس التوجيه الذى يستند الى دقة فهمه ، كما يستند الى شواهد من الأدب القديم [1]

وهذا ولا ريب من آثار دراسته الأدبية الواسعة التى بدأها فى البصرة ، على النحو الذى رأينا وقد جعلت تنمو وتتسع ، كما انضجتها مشاركته المستمرة فى حركة النقد الأدبى ، قراءة ودراسة ومناظرة وتأليفا .

فاما دراساته العلمية التى اتاحها له ، على وجه واسع منظم، مقامه فى بغداد واخذه عن شيوخها ، فمن الطبيعى أن يكون لها هى أيضا أثرها فى نقده ، كما نراه فى هذا الكتاب، ومن مظاهرها فيه ما يرجع الى الدراسة النحوية التى قصد بغداد لها، ومنها ما يتصل بألوان المعرفة الأخرى .

(١) ص ٣٤٨ — ٣٤٩

أما معارفه النحوية فقد استطاع أن يستخدمها استخداما متصلا بالناحية الادبية ، ملتبسا بالذوق الفنى ، على النحو الذى نراه فى غير موضع من الكتاب ، مما هو جدير أن يخص ببحث على حدة، وانما نكتفى هنا بالاشارة الى بعض هذه المواضع ، ككلامه عن الوصف بالمصدر فى سياق نقده لبيت أبى تمام :

وليست بالعوان العنس عندى ولا هى منك بالبكر الكعاب

وافتراض انه « اراد بالعنس مصدر عنست المرأة تعنس عنسا وعنوسا ، فجعل المصدر وهو عنس وصفا للعوان»، وفى مناقشة هذا القول استطاع الآمدى أن يحقق القول فى مسألة الوصف والمصدر ، ويفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز فى وضوح وجلاء [1] . ومن ذلك حديثه عن قد وهل فى سياق نقده لهذا البيت من شعر أبى تمام :

رضيت، وهل أرضى اذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضى من له الأمر

وادعاء بعض المدافعين عن ابى تمام «ان هل هنا بمعنى قد، وانما أراد الطائى : رضيت وقد أرضى . كما قال الله تعالى : (هل اتى على الانسان حين من الدهر)، أى قد أتى »[2]

وفى هذه الابحاث النحوية التى يعرض لها الآمدى فى كتابه تتبدى لنا صورة جديدة من النحو ، اذ تجعله دراسة للأساليب وفروق ما بينها . وتبينا لخصائص الجمل ودقائقها ، فى أسلوب ناصع غاية النصوع . وليس يتسع هذا البحث ــ كما قلنا ــ لدراسة هذه الناحية فى كتاب الموازنة دراسة مستفيضة فلنجتزىء بهذه اللمحات السريعة اليها ، حتى يتاح لها أن تظفر ببحث مستقل جدير بها .

وكذلك شأننا فى النواحى الأخرى من دراساته التى اتاحتها بغداد له ، مما يتردد صداها فى كتابه ، وخاصة الناحية الفلسفية ، فلا نملك هنا الا الاشارة اليها ، والى انا لا ندرى على وجه الدقة مدى اتصاله بها ، فانما هى هذه المحاولة التى أراد فيها أن يطبق بعض المعارف والمقررات الفلسفية على درس الشعر ، كما صنع قدامة من قبل ، فاستعار من الفلسفة الكلام عن العلل الأربع : الهيولانية ، والصورية ،

(١) ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ــ (٢) ص ١٨٨ ــ ١٩١

والفاعلية ، والتمامية . وعقد لها هذا الفصل الذى يبدو شذوذا فى كتابه ، يحمل طابعا مختلفا عن طابعه العام[1]. ولكن مهما يكن من أمره فانما ذلك مظهر من مظاهر الاستجابة لروح العصر ، ونوع من التجاوب معها ، اذ كان ذلك النزوع الفلسفى يحتل مكانا ظاهرا من تلك الروح، فى البيئات العقلية جميعا. وحسبنا لنتبين ذلك أن نراه ينسب هذه المعارف الفلسفية الى شيوخ أهل العلم بالشعر ، فيقول فى صدر هذا الفصل : « وانا أجمع لك معانى هذا الباب فى كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر » .

طه الحاجرى

(١) ص ٣٩٣ ــ ٣٩٥

اللغة والمجتمع

رأى ومنهج

بقلم الدكتور محمود السعران

— ١ —

وظيفـــة اللغـــة

(١) يحاول علم اللغة العام[1] أن يجد طرقا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة، طرقا تصلح لدراسة جميع الاشكال الكلامية التى تصطنعها الجماعات البشرية على اختلافها ، وهذه الطرق لن تكون هى نفسها دراسة للغة مفردة من لغات البشر ، سالفها أو حاضرها أو قادمها ، ان هذه الطرق شىء أشبه بالألف باء الصوتية الدولية[2]، فهذه الألف باء لا يقصر استعمالها على لغة بعينها ، ولكنها قد قصد من وضعها أن تكون وسيلة صالحة لتمثيل أى نطق فى أى لغة ، فهذا الرمز أو ذاك من رموزهـا لا يمثل هذا الصوت أو ذاك فى هذه اللغة أو تلك ، ولكنه يمثل « نوعا » صوتيا عاما .

والمبدأ الذى يجب أن يراعى فى رسم تلك الطرائق المؤدية بدراسة اللغـة تلك الدراسة هو المحافظة على ما يدعوه دى جروت[3] اللغوى الهولندى « استقلال علم اللغة»[4] ، فلعلم اللغة موضوعه الفرد ، وان « موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة فى ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول فرديناند دى سوسير فى «محاضرات فى علم اللغة العام »[5]، ولذلك وجب أن تكون مناهج علم اللغة ووسائله وأسسه «الفلسفية»

---

(١) General Linguistics . . . . . .

(٢) International Phonetic Alphabet . . . . . .

(٣) De Groot . . . . . .

(٤) The autonomy of Linguistics . . . . . .

(٥) Ferdinand de Saussure : Cours De Linguistique Générale, Quatriéme édition, Payot, Paris 1949, p. 317
"la linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle - même. "

مستمدة من طبيعة موضوعه ، ومتلائمة وإياها. نعم انا لنستعين بعلوم أخرى فى تكويننا لنظرية عامة فى اللغة ؛ ولكن فرق بين هذا وبين أن ننظر الى اللغة من خلال مناهج علوم أخرى ، أو أن ننظر اليها على أنها فرع من علم آخر .

(٢) لقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة، أو فرع من علم النفس، أو فرع من الانثروبولوجيا الاجتماعية[1]، أو ... الخ. ، وخلاصة ما أدت اليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الافكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار و . . . الخ. وان « هنرى سويت » يقدم نوعا من النظرية الكلاسيكية فى اللغة اذ يقول : « ان اللغة هى التعبير عن الافكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات. »[2]

وادوارد ساپير يذهب نفس المذهب اذ يقول : « اللغة وسيلة انسانية خالصة ، وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية . »[3]

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون الى اللغة هذه النظرة، على الرغم من دراستهم لـ « الكلام الحى » ، ومن استعانتهم بعلم الاجتماع فى دراسة اللغة .

ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات الخ مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية فى أصلها . ولو جاز أن « الكلام » فى بعض استعمالاته تعبير عن «الفكر» فانه ليس كذلك فى جميع استعمالاته أو فى معظمها ؛ فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار فى لغة التحيات ، ولغة التأدب ، ولغة التدريب الرياضى والعسكرى مثلا ، كما سنرى .

ان أصحاب هذه النظرية فى اللغة ، على اختلافهم ، يرون أن :

---

(١) Social Anthropology . . . . . .

(٢) Henry Sweet : New English Grammar : "Language is the expression of ideas by means of speech-sounds combined into words."

(٣) Edward Sapir : Language, An Introduction to the Study of Speech ; New York, Harcourt, Brace and Company, 1921, P. 7 :

"Language is a purely human and non-instinctive method of communicating ideas, emotions and desires by means of a system of voluntarily produced symbols."

ويقول ساپير فى ص ٢١ من نفس الكتاب :

"Language, as a structure, is on its inner face the mold of thought."

ا — الوظيفة الأساسية للغة هى أنها وسيلة من «الاتصال» أو «التوصيل»[1] ، أو «النقل»[2] ، أو «التعبير»[3] عن طريق «الأصوات الكلامية »[4] .

ب — وأن ما « توصله » اللغة ، أو « تنقله » أو « تعبر عنه » هو الأفكار[5] ، والمعانى ، والانفعالات ، والرغبات ، و . . . الخ ، أو « الفكر »[6] بوجه عام .

ذهب هذا المذهب كثير من علماء اللغة ، لا سيما أولئك الذين تقوم دراساتهم للغة على أساس « منطقى »[7] ، أو « فلسفى » أو « نفسى » ، أو «رياضى»، أو « آلى » . يرى هؤلاء أن اللغة لا تعدو أن تكون مرآة ينعكس عليها الفكر ، أو أداة عاكسة للفكر ، أو « مستودعا » للفكر المنعكس ، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه ، الى أشباه هذا .

---

(١) Communication . . . . . .

(٢) Transmission . . . . . .

(٣) Expression . . . . . .

(٤) Speech - sounds . . . . . .

(٥) Ideas . . . . . .

(٦) Thought . . . . . .

(٧) ليس هذا الكلام قاصرا على اللغويين القدماء من يونان ورومان ، وعلى لغويى العصور الوسطى ، أولئك الذين خضعوا فى تفكيرهم اللغوى لمنطق ارسطو ولبعض التصورات الفلسفية ، ولكنه يصدق كذلك على كثير من المناطقة المحدثين الذين تعرضوا للغة ؛ ومن هؤلاء جفونز Jevons الانجليزى فقد قال فى كتابه :

Elementary Lessons of Logic, p. 237 ان اللغة تخدم ثلاثة اغراض :

(١) أنها وسيلة للتوصيل (٢) أنها مساعد آلى للتفكير (٣) أنها وسيلة للتسجيل والرجوع اليه . ويقول جفونز : « كانت اللغة فى نشأتها الاولى تستعمل فى الغرض الاول على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده . » وقد ناقش الأستاذ يسپرسن Otto Jespersen فى كتابه

Mankind, Nation and Individual from a Linguistic Point of View, P.P. 6-7

رأى جفونز فلاحظ أن الاستعمال الثالث للغة فى رأى جفونز لا يعدو أن يكون فرعا ثانويا من الاستعمال الاول وذلك « لانه عندما يدون الانسان مذكرة عن شىء ما ليرجع اليها من بعد ، ومن ثم يحضر فى ذهنه افكاره السابقة ، فهذا أمر لا يختلف فى جوهره عن الغاية الاولى للغة . فالانسان عند ما يقرأ مذكراته الماضية يكون هو نفسه ويكون شخصا آخر فى نفس الوقت » (ص ٦) اى أنه عندما يقرأ الانسان مذكراته الماضية يكون ثمة « توصيل » .

= ويقرر يسپرسن (ص ٧) أنه لا يستطيع ان يتبع چڤونز فى قوله ان اللغة فى نشأتها الاولى كانت تستعمل فى الغرض الاول — وهو كونها وسيلة للتوصيل — على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده . وكان يسپرسن ، قبل مناقشته رأى چڤونز هذا ، قد عرض رأيا شبيها به لهرمان پول Hermann Paul ورفضه. قال يسپرسن (ص ٥) : ,, ولن نقارب ابدا فهما تاما لطبيعة اللغة ما حصرنا انتباهنا فى وظيفتها العقلية بوصفها وسيلة لتوصيل الفكر . ولكن هذه النظرية الجزئية قد رآها (جماعة من) أبرز الباحثين . فهرمان پول فى خطابه البارع عن Völker-psychologie (الذى ألقاه فى ميونيخ سنة ١٩٠١) يقول عن غرض اللغة : « ان وظيفتها الاصلية ان تكون فى جميع الأحوال وسيلة لتوصيل Imparting شىء من الاشياء » . لا ، ما هذا بوظيفتها الاصلية، وما هو بوظيفتها الحالية . اما فيما يتعلق بنشأة اللغة فقد حاولت فى كتابى Progress in Language ثم أحدث من هذا فى القسم الاخير من كتابى Language ، حاولت ان أبين اننا نبدأ ان نحدس ليس الا ماذا كانت نشأة اللغة عند ما نرى ، بعد استقصاء تاريخها الى الوراء الى اقصى ما نستطيع ، ان اللغة المبكرة كانت اى شىء الا عقلية intellectual ، انها كانت حقا منزلا وسطا بين الغناء والكلام، انها بمجموعها من الاصوات الطويلة والتى تكاد تكون عارية عن المعنى كانت تعمل كمتنفس للاحساسات العنيفة أكثر من عملها على ان تكون تعبيرا مفهوما عنها ؛ وانها لم تكن فى اى حال من الاحوال تعتبر فى أساسها وسيلة لاخبار الآخرين هذا الشىء أو ذاك ، ولو أنها ، بطريق غير مباشر ، قد صارت فى الواقع آخر الامر الى ان تكون وسيلة للتوصيل . ،،

أما الغرض الثانى من اغراض اللغة الثلاثة فى رأى چڤونز — وهو أنها مساعد آلى للتفكير — فقد قال عنه يسپرسن (ص ٧) : ,, من الثابت ان امتلاك لغة من اللغات يساعد حقا التفكير الانسانى مساعدة جوهرية . ولكن علينا من ناحية اخرى الا ننسى ان جماعة من اعمق المفكرين طالما شكوا من أن اللغة التقليدية كانت فى حالات عائقا لهم عن التفكير فى شىء الى أعمق اعماقه . فهى بمفرداتها المحدودة . وبصيغها الثابتة قد اكرهت الفكر على ان يسير فى سبيل مطروقة ، حتى انهم اضطروا الى متابعة السير فى خطوط قديمة ، وانتهوا الى ان يكون تفكيرهم شديد الشبه بتفكير أقوام آخرين من قبلهم . ،،

وقد خلص يسپرسن من مناقشته رأى چڤونز بقوله انه لا يستطيع أن يتبعه فى اعتباره هذه الغايات العقلية الثلاث هى الغايات الوحيدة التى تستعمل من أجلها اللغة فاستعمال اللغة فى هذه الغايات لا يتحقق الا فى حالة المفكرين من الرجال والنساء ، ولا يتحقق عند هؤلاء الا فى أسمى لحظاتهم الاكاديمية (ص ٧) .

(الصديقى وزميلى الدكتور عبدالرحمن محمد ايوب، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ترجمة لكتاب يسپرسن هذا ظهرت سنة ١٩٥٤ بعنوان «اللغة بين الفرد والمجتمع» (ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية — مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة) . ولكننا لم نشأ أن نأخذ عن الترجمة بل أخذنا عن الأصل مباشرة ، فهذه الترجمة « بتصرف » ، وهذا التصرف يندرج تحته اختصار كلام المؤلف أحيانا ، واطالته أحيانا ، وكتابة بعض الفصول من جديد فى ضوء ما كتبه المؤلف أحيانا أخرى =

(٣) ولكن هل يجوز أن يعد هذا تعريفا صادقا للغة ؟ ان دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية [1] فى لغة من اللغات « الحية » لا تؤيد أمثال التعريفات السابقة للغة ، ولا توحى بها .

ولقد كان مالينوفسكى [2] العالم الانثروپولوجى فضل كبير فى تغيير النظر الى اللغة، فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التى جرى الاصطلاح على تسميتها بالمجتمعات « البدائية » أو « الفطرية » أو « الوحشية » ، أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع . ومن هنا كانت نظريته الهامة فى اللغة، والتى كانت بين عوامل تطور النظر الى علم اللغة. وصل مالينوفسكى بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات الى أن وظيفة اللغة ليست أنها مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل ؛ بل وظيفة اللغة هى أنها حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم ، هى أنها جزء من السلوك الانسانى ، أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر [3] . واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات =

لتكون مفهومة لدى القارىء العربى . ثم ان التعليقات التى أضافها الدكتور ايوب — وهى فى جملتها تعليقات قيمة نيرة تيسر فهم الاصل على القارىء العربى تيسيرا كبيرا فى معظم الاحوال — قد كتبت فى الاغلب مع الاصل دون فصل أو تنبيه ، فقد من العسير أن تعرف أين المؤلف وأين المعلق . وقد كان يسيرا على المترجم ان يضع تعليقاته فى الهامش مع النص على أنها من صنعته حتى لا تختلط مع التعليقات الاصلية للمؤلف ، كما كان عليه أن يشير الى النصوص التى اختصرها ، والى تلك التى أطالها حتى يكون القارىء على بينة . نرجو أن يتدارك الدكتور ايوب هذه المسائل فى طبعته القادمة لهذه الترجمة .

وقد ظهر سنة ١٩٥٥ كتاب لصديقى وزميلى الدكتور تمام حسان ، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بعنوان ,, مناهج البحث فى اللغة،، (ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية — مطبعة الرسالة ، القاهرة)، وقد عرض رأى يسپرسن فى وظيفة اللغة فى الفصل الذى كتبه عن « اللغة والكلام » (انظر بوجه خاص الصفحات من ٤٠ الى ٤٥ من كتاب الدكتور تمام) .

(١) Types of speech - function . . . . . .

(٢) Bronislaw Malinowski انظر الملحق الذى كتبه لكتاب «معنى المعنى» The Meaning Of Meaning من تأليف العالمين النفسيين الانجليزيين : C.K. Ogden و I.A. Richards

(٣) Malinowski, op. cit., p. 312 . . . . . .

"In its primitive uses, language functions as a link in concerted human activity, as a piece of behaviour. It is a mode of action and not an instrument of reflection."

« البدائية » بل انه ليلاحظ في أرقى الجماعات تمدنا .

واليك أنواعا من وظائف الكلام تبين بجلاء أن الوظيفة الأساسية للغة ليست كونها ضربا من توصيل الافكار و . . . و . . الخ . وأول ما نذكره من هذا

ا ــ **« المونولوج »[1] (الكلام الانفرادى)** بصوره المختلفه ؛ كالقراءة الأنفرادية بصوت عال ؛ وكتدوين الملاحظات التى لا يقصد بها الا الكاتب نفسه . والمونولوج يعرف أحيانا بـ « تحديث الانسان نفسه »[2] ، أو بـ « التفكير بصوت مرتفع »[3] . ان المرأة المصرية عند ما تخلو الى نفسها ــ سواء أكانت تقوم بعمل يدوى أم لا ــ وتنشد الأشعار الحزينة ؛ والنثر المسجوع ؛ باكية من فقدتهم من الاحباب ؛ لا ترمى الى « نقل » احساسات أو «أفكار» ؛ بل تستعمل اللغة بقصد التنفيس والتفريج عن آلامها وأحزانها[4] . وغريب كل الغرابة أن يرى « ساپير » أن هناك حتى فى هذه الوظيفة الكلامية ألا وهى المونولوج ، توصيلا للفكر ، يقول :ــ (المتكلم والسامع هنا محققان فى شخص واحد يمكن أن يوصف بأنه ينقل الأفكار الى نفسه .)[5]

ب ــ ومن أنواع الوظائف الكلامية التى لا نجد فيها نقلا للأفكار ، أو شيئا يمكن أن ينقل ، كثير من صور **استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك الجماعى**[6] . فاصطناع اللغة فى الاجتماعات الدينية كالصلاة ، والدعاء ، ومخاطبة الله أو « المعبود » أو أية كائنات أخرى مقدسة ، أبعد من أن يعد نقلا للفكر .

جـ ــ وكذلك فان ملاحظة **استعمال اللغة فى المخاطبات الاجتماعية التى لاتستهدف غاية** مثل لغة التحيات ولغة التأدب ، والكلام عن حالات ظاهرة كالجو ،

(١) Monologue . . . . . .
(٢) talking to one's self . . . . . .
(٣) thinking aloud . . . . . .
(٤) as releaser of forces . . . . . .
(٥) Language, P. 18 . . . . . .
(٦) Choric Behaviour . . . . . .

تؤيد وجهة النظر التى ترى أن تبادل الكلمات يمكن أن يكون غاية فى نفسه . وهذا الاستعمال للغة قائم فى الجماعات الوحشية والمتمدنة على السواء ، وهو ماثل فى جميع اللغات دون خلاف . هذا الاستعمال للغة هو فى أساسه صورة من صور العمل الاجتماعى ، ووسيلة من وسائله ، ذلك لأن كل كائن بشرى يجد فى نفسه الميل الى الاجتماع بسواه ، والاستمتاع بصحبة غيره ، والنفور من الجليس الصامت ، والكلام أقرب مستلزمات تحقيق هذا الميل .[1]

د ــ ومن الوظائف التى تؤديها اللغة مما لا شأن له اطلاقا بتوصيل الفكر أو التعبير عنه ، أنها كثيرا ما تتخذ بين الكبار والصغار على السواء ، وسيلة الى **اللعب بالأصوات** ، والى التلذذ والانتشاء والسرور . فنحن كثيرا ما نردد أصواتا وكلمات غير قاصدين الا المتعة بأصواتنا ، والانتشاء بلفتنا ، ودون أن يكون لدينا ما هو جدير بالسماع . وقد عبرت عن هذه الحقيقة تعبيرا بارعا « مدام دى ستايل »[2] ، ولو أن كلامها كان مقصورا على اللغة الفرنسية ، وهو لا شك صادق على كل لغة من لغات الارض دون أن يمنع هذا من احتمال تحققه فى الفرنسية بطريقة أحذق ، وبدرجة أكبر[3] .

(١) انظر قول مالينوفسكى ص ٣١٠ :ــ

"Speech is the necessary means of communion; it is the one indispensable instrument for creating the ties of the moment without which unified social action is impossible."

وترجمته : « الكلام هو الوسيلة الضرورية للتشارك ، انه الآلة الفريدة التى لا غنى عنها لخلق روابط اللحظة ، هذه الروابط التى يستحيل بدونها قيام العمل الاجتماعى الموحد . »

(٢) انظر كتاب يسپرسن السابق ص ٧ــ٨ . وقد نقل يسپرسن كلام مدام دى ستايل عن Mme de Staël : Gerber, Sprache als Kunst, I. 79 . تحدثت مدام دى ستايل عن اللغة الفرنسية قائلة : « انها ليست كما هى عند غيرنا مجرد وسيلة لتوصيل افكارها واحساساتها ؛ وشئونها ؛ ولكنها آلة يحب الانسان ان يلعب بها ، وهى تحرك النفوس كالموسيقى عند أقوام ، والخمور القوية عند آخرين . »

"elle n'est pas seulement comme ailleurs un moyen de communiquer ses idées, ses sentiments et ses affaires, mais un instrument dont on aime à jouer et qui ranime les esprits comme la musique chez quelques peuples et les liqueurs fortes chez quelques autres".

٥ ــ ومن ذلك أن اللغة كثيرا ما تستعمل **لاخفاء افكار الانسان** [1] كما يحدث أحيانا فى لغة السياسة وغيرها (انظر شيئا من هذا فيما يلى بعنوان « اللغة والحياة السياسية » وبعنوان « الكلام الحرام ») وكما يحدث أحيانا فى لغة اللصوص والخارجين على القانون بصفة عامة .

وهكذا نرى أن تلك النظرية الكلاسيكية فى اللغة التى تقصر وظيفتها على توصيل الفكر أو التعبير عنه ، نظرية لا تمكننا من أن نحلل جميع أشكال « السلوك الكلامى »[2] ، وأصح منها وأدق أن ننظر الى اللغة على أنها « وظيفة اجتماعية »[3] ، على أنها « طريقة من العمل »[4] ، فما من شك فى أن مما يعيننا على فهم طبيعة اللغة وجوهرها حق الفهم أن ننظر الى الدور الذى تقوم به فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة التى يؤلف بين أفرادها الحديث بلغة مشتركة ، وفى حياة النوع الانسانى عامة .

(١) ينسب الى تاليران Talleyrand الفرنسى تلك العبارة المشهورة وهى أن اللغة كائنة لتخفى أفكار الانسان ، وقد حسّن هذه العبارة Sören Keirkegaard بقوله ان اللغة يستعملها كثير من الناس لتخفى فقرهم الى الافكار .

وواضح ان عبارة تاليران لا يجوز أن تكون تعريفا لوظيفة اللغة ، فما ذكره ليس الا استعمالا واحدا من استعمالاتها الكثيرة . أما عبارة كيركجارد فليس فيها ما فى عبارة تاليران من تعميم فهى تشير الى استعمال خاص للغة غير متضمنة أن هذا هو الاستعمال الوحيد لها .

(٢) Speech Behaviour . . . . . .
(٣) Social Function . . . . . .
(٤) Mode of Action . . . . . .

— ٢ —

دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة

هذه الوظيفة الاجتماعية للغة كيف يتسنى درسها ؟

(١) ان الطرق التى اقترحت للقيام بهذه الدراسة تختلف باختلاف المدارس اللغوية ، وسنحاول فيما يلى أن نرسم خطوط طريقة يرتضيها كثير من علماء اللغة فى انجلترا خاصة . وهذه الطريقة صالحة للتطبيق على أية لغة من اللغات « الحية » لدراستها من الناحية « الوصفية »[2] . أما دراسة لغة من اللغات « الميتة » ، أو دراسة مرحلة أو أكثر من تاريخ لغة من اللغات فلذلك مناهجه الخاصة .

١ ــ هذه الطريقة تعد الكائن البشرى مركز دراسة اللغة ، ولا تعد ذلك المركز بعض العلاقات الرياضية[3] أو الآلية[4] ، أو المنطقية[5] ، أو مايشبه هذا مما تتسم به الدراسات اللغوية القائمة على أساس فلسفى أو منطقى ، أو نفسى .

هذه الطريقة تتخذ الكائن البشرى نقطة البدء فى دراستها للغة . ولكن كيف تستقى مادة دراستها ؟ هل تسجل أحاديث كل شخص فى الجماعة التى تتكلم بلغة مشتركة ؟ ان هذا على ما فيه من مشقة وضياع للوقت سيؤدى الى خلط كثير . هل تسجل كيفما اتفق كلاما يصدر عن هذا ، وكلاما يصدر عن ذاك ، وآخر تنطق به تلك ، وتتخذه مادة دراستها ؟ ان فى هذا ما فيه من اضطراب ولن يؤدى الى نتائج ذات بال . يتفق ذوو الدراية من علماء اللغة على أن العدد الأدنى للحصول على فكرة صحيحة عن اللغة هو اثنان من أفراد الجماعة الكلامية : متكلم ومخاطب .

(١) من أصحاب هذه الطريقة المتحمسين لها أستاذى ج . ر . فيرث وقد عرض رأيه فى محاضراته وكتاباته ؛ انظر على وجه الخصوص مقاله القيم « الشخصية واللغة فى المجتمع »

J.R. Firth : Personality and Language In Society. The Sociological Review (Journal of the Institute of Sociology, Ledbury, Herefordshire, England) Vol. XLII, Section Two, 1950, pp. 37 - 52.

(٢) Descriptive . . . . . .
(٣) Mathematical Relations . . . . . .
(٤) Mechanical . . . . . .
(٥) Logical . . . . . .

ويرى الاستاذ فيرث أن العدد الادنى فى هذا السبيل شخص واحد ، وان كان يسلم بان اعتبار الحد الادنى شخصين صالح للوفاء بمعظم الأغراض[1] .

ب ــ هذه الطريقة تؤرخ **للتطور اللغوى للشخص فى الجماعة** منذ ولادتــه ؛ لا بل انها تدخل فى حسابها أن الطفل يولد على طبيعة خاصة ؛ ومن أهم ما فى طبيعة الكائن البشرى مما يتصل بدراســة اللغة ؛ هو الجهــاز العصبى[2]، وبعض الصفات الوراثية ؛ وأعضاء النطق . ما نوع الجهاز العصبى الانسانى ؟ كيف تنشأ اللغة فى الجهاز العصبى ؟ أثمة عناصر وراثية تجعل الكائن البشرى ذا قدرة على اكتساب اللغة ؟ قد يجوز لنا أن نصف الانسان بأنه « حيوان لغوى »[3]، وانا لنلاحظ أن الطفل يميل الى أن يكون لغويا فهل للوراثة دخل فى هذا ؟ هل يولد الطفل وقــد وهب قدرة على تعلم لغة معينة : العربية أو الانجليزية أو الالمانية مثلا ؟ واذا كان الجواب بالاثبات فكيف نعلل أن أطفال المهاجرين الى جماعة لغوية مختلفة هؤلاء الأطفال الذين يولدون فى البيئة الجديدة ويعيشون فيها حياتهم ــ وقد انقطعت الأسباب بينهم وبين لغة آبائهم ــ يتعلمون لغة هذه الجماعة، ويتعلمونها بنفس السرعة التى يتعلمها بها أهلوها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أصحابها ؟ أم أن القدرة اللغوية الوراثية ، ان كانت ، فهى « عامة » ؟ ومن الملاحظ أن المتكلم بأى لغة لا يستعمل أعضاء نطقــه فحسب ، بل كثيرا ما يلجأ الى التعبير اليدوى[4] ، والى التعبير بملامح وجهه ، فهل لهذا دخل بماضى الانسان ، وبالتراث الانسانى ؟

هذه المسائل وغيرها، المتعلقة بالصلة بين طبيعة الكائن البشرى وصفاته الوراثية وبين سلوكه اللغوى ، مسائل أثارها بعض المحدثين من علمــاء اللغة ، وهم يدعون الى بحثها، ولكنها لم تبحث البحث الواجب، وينتظر

(١) المرجع السابق انظر ص ٤٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ ــ ٥١ .
(٢) Nervous System
(٣) Linguistic Animal
(٤) Hand Expression

أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها . ومن البين أن البحوث فى هذه الامور تستدعى الاهتداء بحقائق مستمدة من علم الأعصاب[1]، وعلم الوراثة[2]، وعلم الحياة العام[3] اكثر من الاهتداء بنتائج علم النفس .

هذه الطريقة تهتم بـ « **الشخص** »[4] و « **الشخصية** » اهتماما كبيرا . وان الدراسات الفسيولوجية ، والتشريحية ، والعصبية ، والطبية لتبين أهمية الجهاز العصبى كله «والغدد المفرزة للهرمونات»[5] فى تكامل الشخصية، وان مميزات الشخصية لتجد التعبير عن نفسها من خلال النظام اللغوى . ثم ان دراسة العيوب الكلامية[7] والاضطرابات اللغوية[8] ذات أهميــة كبرى بالنسبة الى هذا الموضوع . ولا شك أن الدراسات الكلينيكية[9] للأفازيا[10] قد أفادت اللغويين بما ألقته على اللغة من ضوء . ولكن فى دراسة هذه الحالات المرضية يجب أن نظل الشخصية عاملا هاما ذا صلة وثيقة بالموضوع . ان الاهتمام بالشخص والشخصية يفيد فى جوانب كثيرة من الدرس اللغوى ، وفى دراسة الأسلوب[11] بوجه خاص ، ولكن ثمة حقائق وخصائص لغوية « غير شخصية »[12] وعلى الباحث اللغوى أن يجرد الخصائص الشخصية من الخصائص غير الشخصية[13] .

ج ــ وهذه الطريقة اذ تهتم بالشخص وبالشخصية فهى لا تنظر الى الشخص

(١) Neurology
(٢) Genetics
(٣) General Biology
(٤) Person
(٥) Personality
(٦) Endocrine Organs
(٧) Speech Defects
(٨) Language Disorders
(٩) Clinical Studies
(١٠) Aphasia
(١١) Stylistics
(١٢) Impersonal
(١٣) هذه الفقرة عن :
J.R. Firth : Personality and Language In Society, pp. 50 - 51.

على أنه « مستقل » ، انما تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة ، فهى — كما تدخل فى اعتبارها مقومات الشخصية وطبيعتها التى لها علاقة باللغة : بتعلمها ، وباستعمالها وبتطويرها الخ — تقيم نظرتها على أساس من **العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوى للشخص** ، على أساس من العلاقات الاجتماعية التى يرتبط بها الشخص ، ومن القيود الاجتماعية التى تفرض عليه والتى تلزمه بسلوك لغوى معين فى حالات معينة[1] . ولا شك أن هذه العوامل والظواهر والعلاقات والقيود تختلف من مجتمع الى مجتمع ، وتختلف فى المجتمع الواحد باختلاف العصور ان الاساس الاجتماعى فى دراسة « اللغة » ، وفى دراسة السلوك اللغوى للشخص أساس على جانب كبير من الأهمية : فاللغة الانسانية فى نشأتها — سواء أكانت أحادية المنشأ أم متعددته ، وأيا كانت الطريقة التى نشأت بها — من صنع المجتمع[2] ، وفى المجتمع يكون استعمال اللغة ، وتعلمها ، وتطورها ، كما أن تأثيرها كائن فيه .

ولذلك فان أى نص كلامى — ملفوظا كان أو مكتوبا — لا يوصل الى معناه الحق الكامل بدراسته وحده مستقلا ، بدراسته من الناحية الصوتية ، ومن الناحية النحوية ، ومن الناحية المعجمية ، بل يجب أن يدخل فى تقدير معناه عناصر أخرى غير العنصر الكلامى ، عناصر أخرى تكون هى والعنصر الكلامى كلا متكاملا ، فمن الواجب الاهتمام بالمسائل الآتية :—

(١) ما للمشتركين فى الموقف الكلامى من خصائص متصلة به ، خصائص متعلقة بأشخاصهم وشخصياتهم ، وبالعلاقات القائمة بينهم . وهؤلاء المشتركون هم

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٩

(٢) انظر الكلام عن «أصل اللغة» فى كتاب «اللغة» لـ « فندريس » تعريب الاستاذين عبدالحميد الدواخلى ومحمد القصاص (نشر مكتبة الانجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠ م) ص ٢٩ — ٤٢ . وانظر الجزء الخاص بنشأة اللغة فى :

Otto Jespersen : Language
E.H. Sturtevant : Introduction to Linguistic Science.

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب للاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى موضوعه « نشأة اللغة » .

المتكلم والسامع — أو والساممان أو والسامعون — (أو هم فى حالة النص المكتوب الكاتب ومن يقرأ) وغير من يتكلم ويسمع (أو غير الكاتب ومن يقرأ) من الحاضرين .

ويندرج تحت هذا النصوص الكلامية للمشتركين ، والأحداث غير الكلامية التى تصدر عنهم أو التى يتخذونها كالاشارات وتعبيرات الوجه والانفعالات وما الى ذلك .

(ب) الموضوعات (= الأشياء) المتصلة بالموقف الكلامى ، كالمكان الذى يجرى فيه الكلام ، أو حالة الجو ان كانت متعلقة بالموقف الكلامى الخ .

(ج) أثر النص الكلامى فى المشتركين ، كالاقتناع ، أو الضحك ، أو الألم الخ[1] .

(٢) هذا عن الدراسة الوصفية للغة « حية » ، أما **دراسة لغة « ميتة » فى مرحلة من مراحلها** ، فهى وان كانت فى جوهرها دراسة وصفية الا أنها تختلف فى أمور عن الدراسة الوصفية فى الحالة الأولى ، اذ انه فى الحالة الثانية لا يتسنى للغوى الوقوف على كثير من الظروف التى كان يستعمل فيها الكلام ، ولذلك فهو فى حاجة الى الاستعانة بالمعلومات التاريخية عن المجتمع صاحب اللغة فى الفترة التى يدرسها ليتأتى له اعادة بناء شىء قريب من الظروف التى كان يستعمل فيها الكلام الذى يدرسه . ومن الثابت أن النتائج التى يصل اليها اللغوى أحيانا فى هذا المجال لا تكون دقيقة أو كافية .

(١) هذه العناصر الثلاثة هى عناصر التصور الذى يدعوه الاستاذ فيرث Context of Situation ، انظر المرجع السابق ص ٦ — ٩ ، وانظر تفسير الاستاذ فيرث لهذا التصور فى كتابات أخرى له هى :—

1) Speech (Benn, 1930) pp. 38 - 43.
2) Linguistics and the Functional Point of View (English Studies XVI. 1, February, 1934.
3) The Use and Distribution of Certain English Sounds (English Studies XVII. 1, February, 1935).
4) The Technique of Semantics (Transactions of the Philological Society, 1935, pp. 64 - 72).
5) Tongues of Men (Watts & Co., London, 1937) Chapter X.

وانظر عرض الدكتور تمام حسان لهذه الفكرة فى كتابه « مناهج البحث فى اللغة » ص ٢٦١ — ٢٦٩

وما من شك فى أن **الدراسة الوصفية لمرحلة قديمة من مراحل لغة لا تزال تجرى على الألسنة** ، تختلف كذلك عن الدراسة الوصفية للمرحلة الراهنة لهذه اللغة أو لسواها ، ففى الحالة الأخيرة يتاح للغوى — كما بينا — أن يدرك الحقائق « غير اللغوية » التى يحتاج اليها فى دراسة المعنى ؛ وهذه الحقائق يكون الوصول اليها فى الحالة الأولى عن طريق التصور استعانة بالمعلومات التاريخية كما هو الشأن فى دراسة مرحلة من مراحل لغة « ميتة » .

(٣) ثم ان **دراسة تغير المعنى** من مرحلة الى أخرى فى اللغة الواحدة تتبع منهجا تاريخيا له اعتباراته وشروطه الخاصة ؛ ومن أول هذه الشروط دراسة كل مرحلة من المراحل على حدتها دراسة وصفية قبل الانتقال الى الدراسة التاريخية أو التطورية [1] .

والدراسة اللغوية محوجة ، فى بعض جوانبها — كالمقارنة بين لغتين أو أكثر من بعض الوجوه — الى اصطناع منهج آخر هو المنهج المقارن [2] ؛

(١) دراسة اللغة فى فترة معينة من تاريخها توصف بالفرنسية بأنها :
Description أو Statique أو Synchronique
ويقابل هذا بالانجليزية : Synchronic (Synchronistic) أو Static أو Descriptive
وترجمة هذا بالعربية : سكونية (= ساكنة . استقرارية = مستقرة = حال الاستقرار)، او ثابتة (= حال الثبات) أو وصفية .
أما دراسة اللغة من حيث تغيرها من فترة الى أخرى فتوصف بالفرنسية بأنها :
Historique أو (Dynamique) Evolutive أو Diachronique
ويقابل هذا بالانجليزية Diachronic (Diachronistic) أو Dynamic أو Historical
وترجمة هذا بالعربية : حركية (= متحركة)، أو تطورية أو تاريخية .
وكان فرديناند دى سوسير ، العالم السويسرى ، أول من ميز تمييزا علميا بين هاتين النظرتين ، كما كان له فضل ادخال المصطلحين :
Diachronique و Synchronique
,, ولقد أبرزت محاضرات فرديناند دى سوسير (ولد سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩١٣) التى نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦ اهمية الفصل القاطع بين هاتين النظرتين : بين اللغة من حيث هى نظام ثابت ، وبين اللغة من حيث هى تغير لغوى . وأصر دى سوسير على ضرورة الفصل القاطع بين دراسة اللغة حال ثباتها ، وبين دراستها حال حركتها. كما بين أن كل دراسة من هاتين يجب أن يكون لها مناهجها الخاصة بها.،، عن :
Alf Sommerfelt : Recent Trends in General Linguistics (Diogenes, Number 1, English Edition pp. 64 - 70. A Quarterly Publication of the International Council For Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
(٢) Comporative Method . . . . . .

ولهذا المنهج ، شأن أى منهج ، شروطه واعتباراته ووسائله .

* * * *

بعد ذلك التعريف بوظيفة اللغة تعريفا مخالفا للتعريف « الكلاسيكى » لها ، وبعد هذا البيان الموجز لطريقة دراسة هذه الوظيفة ، نشرع فى تناول طائفة من المسائل الهامة التى تندرج تحت « اللغة والمجتمع » فنبيّن أنواعا من العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ، مبرزين أنواعا مختلفة من الوظائف اللغوية . وليس القصد من تناول هذه المسائل فى هذا المجال أن ندرسها دراسة مفصلة كاملة فهذا محوج الى فضل زمان ومكان ، ولا ينهض به حق نهوضه الا طائفة متعاونة من العلماء ؛ انما القصد أن نعرض تخطيطا للموضوع يبرز ماهية كل مسألة من المسائل ، ويوضح طرائق دراستها ، وينبه الى ما قد يكون فى دراسة بعض المسائل من فجوات . وقد نفصل أحيانا قليلة فى بيان بعض ما نذهب اليه على سبيل التمثيل . وسنرى أن هذا العرض ، ببيانه للدور الذى تقوم به اللغة فى حياة الفرد والجماعة والنوع الانسانى، يدنينا من فهم حقيقة « اللغة » ؛ وأنه يشرع للدراسة اللغوية ، لا سيما فى حالة العربية فصيحها وعاميها ، مجالات جديدة واسعة تصطنع فيها مناهج ووسائل حديثة دقيقة . وسنرى كذلك أنه عند بحث الموضوع الواحد يحوج الأمر الى أن نستخدم مع المنهج الوصفى المنهج التاريخى أو المنهج المقارن أو كلا المنهجين ، مع الاحتفاظ لكل بمجاله وشروطه ، أى دون الخلط بينهما أو بينها .

السلوك اللغوى للطفل

(١) من جوانب دراسة السلوك اللغوى للشخص ، ومن أول ما يهدينا فى سبيل فهم الوظيفة الاجتماعية للغة ، دراسة السلوك اللغوى للطفل : كيف يكتسب الطفل لغة الجماعة التى يولد فيها ويعيش ؟ هل يتعلمها دفعة واحدة أو أنه يتعلمها على مدى طويل ؛ وعلى مراحل متدرجة ؟ ما الظروف التى يتعلم فيها الطفل اللغة ؟ أهو يتعلمها وحده أم هو يتعلمها بعون ؟ واذا كان يتعلمها بعون فما حقيقة هذا العون ؟ أثمة مدة واحدة يستغرقها الاطفال جميعا لتعلم اللغة أم أن هذه المدة تتفاوت من طفل الى طفل ؛ أو من جماعة من الأطفال الى جماعة أخرى ؟ واذا كان تفاوت فى هذا الشأن فما أسبابه ؛ وما ظروفه ؛ وما نتائجه ؟ ثم هـذه اللغة التى يتعلمها الطفل ، ما دلالتها بالنسبة اليه ؟ وما دلالتها بالنسبة لمن حوله ؟ فيم يستعملها ، وما ظروف استعماله اياها ؟ الى غير هذا من عشرات الاسئلة .

ان أول ما نقرره فيما يتعلق بالسلوك اللغوى للطفل أنه لا توجد حتى الآن دراسة علمية كاملة موثوق بها لـ « لغة » الطفل قائمة على أساس لغوى . وأكثر ما كتب عن لغة الطفل قائم على أسس نفسية ، ومن وجهة نظر علم النفس على اختلاف مذاهبه ، وهو غالبا ما يستهدف الاهتداء الى خير الوسائل المعينة على تعليم اللغة للأطفال وللكبار ، وعلى تعليم الطفل لغة أجنبية ، كما أنه يرمى الى التوصل الى بعض الحقائق التى تعنى علم النفس .[1]

(١) فيما يلى بيان بطائفة من أشهر الدراسات المتداولة عن لغة الطفل :

Bühler, Charlotte : (1) The First year of Life ; New York, U.S.A., 1930 (Trans. from German)
(2) From Birth to Maturity ; Kegan Paul, London, 1937

Descoeudres, A. : Le Developpement de l'enfant, de deux a sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1948.

Gesell, A. & Others : The first five years of Life; Methwen & Co. Ltd., London, 1940

Gesell, A. : Studies in Child Development, New York, 1948.

Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ; Alcan Paris, 1937.

Grégorie, A. : L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes; Alcan, Paris, 1947.

Guillaume, P. : L'Imitation chez l'Enfant ; Presses Universitaires de France, Paris 1950.

Lewis, M.M. : Infant Speech ; Kegan Paul, London, 2nd ed., 1951.

McCarthy, D. : The Language Development of the Pre-School Child ; University of Minnesota Press, U.S.A. 1929.

Piaget, J. : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant. Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1923.

Piaget, J. : La Fonction du Symbole chez l'Enfant.

Seth and Guthrie : Speech in Childhood ; Oxford University Press, 1935.

Shirley, Mary : The first two years, a study of twenty five Babies. The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.

Stein, L. : The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methwen & Co., London, 1949.

Stern, W. : Psychology of Early Childhood up to the sixth year of age ; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

هذا عدا عشرات المقالات فى المجلات العلمية لا سيما مجلات علم النفس .

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب عنوانه ,, اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة ،، للأستاذ صالح الشماع (ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥) ، وهذا الكتاب هو الرسالة التى نال بها الأستاذ الشماع درجة الماجستير (قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وقد نشر ضمن سلسلة ,, منشورات جماعة علم النفس التكاملى ،، التى يشرف على اصدارها الدكتور يوسف مراد ، وقد كتب الدكتور يوسف مراد ـ وكان الاستاذ المشرف على الرسالة ـ مقدمة هذا الكتاب .

وقد ذكر المؤلف فى تمهيده (ص ١) والمقدم فى مقدمته (الصفحة الثانية) أن هذا البحث يطبق ,, المنهج التكاملى ،، . قال صاحب الرسالة (تمهيد ص ١) أنه لا يتقدم بأية نظرية جديدة ,, وأننا منذ أقدمنا على اختيار هذه الرسالة كان رائدنا بضعة توجيهات وخطوط عامة سلمنا بها دون نقاش وأخذنا أنفسنا بتطبيقها وفى مثل هذا التطبيق يكون التقدير النهائى لعملنا . وان أهم هذه الخطوط والتوجيهات ليهى فكرة « التكامل » التى نشأنا عليها . . . ،، . ثم ذكر (تمهيد ص ٢) أن تطبيق المنهج التكاملى يسر له ألا يتقيد بمدرسة دون أخرى فى دراسة ظاهرة معقدة كاللغة ، فاستفاد من شتى المذاهب والاتجاهات ، ولكنه اهتم اهتماما خاصا بمناقشة آراء ثلاث من مدارس علم النفس وهى مدرسة التحليل النفسى ، والسلوكية ، والجشطلتية ولم ينس جهود علماء آخرين .

. . . . . .

= وقال الدكتور يوسف مراد فى مقدمته (الصفحة الثانية) : ,, ويكفى أن نلقى نظرة سريعة الى اللغة لندرك على الفور أن دراستها لا يمكن أن تقوم الا على المنهج التكاملى اذ لا بد من تضافر عدد كبير من العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية لكى تنشأ اللغة وتتطور حتى تصبح أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين . ،، (لاحظ أن هذا الكلام يفهم منه أن صاحبه يرى أن وظيفة اللغة ، او وظيفتها الرئيسية على الأقل ، هى أن تكون « أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين » وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأى). ثم قال (نفس الصفحة) :

,, وقد أدرك مؤلف هذا البحث ، الاستاذ هادى صالح الشماع ، ضرورة تطبيق المنهج التكاملى فى دراسة نشأة اللغة وتطورها فى الطفولة . فبعد أن تحدث عن مناهج دراسة اللغة تناول الأسس البيولوجية للكلام ، واللغة عند الحيوان ، اى انه نظر الى اللغة من حيث هى مظهر من مظاهر السلوك العام وان دراسة المعالم الاولى للغة الانفعالية تعين فى فهم اللغة التصورية التى ترتقى تدريجا نحو مستوى التجريد والتعميم . وفى هذه المرحلة التى تتحول عندها اللغة من مستواها الانفعالى البحت الى مستواها التصورى نلمس ما بين العوامل الفسيولوجية والنفسية من تضافر وثيق .

وبعد أن تحدث المؤلف طويلا عن المادة الأولية للغة من صراخ وأصوات ومناغاة انتقل الى وسائل اكتساب اللغة مبرزا أثر العوامل الاجتماعية فى تطورها وارتقائها . ،،

والذى نراه ان هذا البحث يقوم فى جملته على أسس نفسية ، وهو صادر عن ثقافة نفسية ، وينظر الى لغة الطفل من وجهة نظر على النفس فى الأغلب ، وان اتبع ما يسمى المنهج التكاملى ، وان ذهب صاحبه الى أنه يؤكد على الجانب الاجتماعى توكيدا كبيرا (ص ١٦٧) ؛ والدكتور مراد ينظر الى هذا البحث على أنه ,, جدير بأن يحتل مكانة ممتازة بين المراجع العربية الخاصة بالعلوم السيكولوجية ،، (الصفحة الثالثة من المقدمة) .

وليس هذا البحث محاولة لوصف لغة طفل مصرى مثلا أو لتدوين ملاحظات عن لغة مجموعة من الاطفال الذين يتكلمون لغة واحدة ، ولكنه أشبه بالعرض لطائفة من أهم النتائج التى وصل اليها جمهرة من درسوا لغة الطفل على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم ولطائفة من أبرز الآراء التى ذهبو اليها مع محاولة الاختيار منها . فقيمة الكتاب ـ وليس هذا بالأمر الهين ـ أنه يقدم الى قراء العربية تعريفا من وجهة نظر صاحبه ـ بما وصلت اليه دراسة لغة الطفل عند جماعة من الغربيين . ولذلك فالكتاب يصلح ان يكون دافعا ومدخلا الى دراسة لغة الطفل . ونرجو أن يتبع هذا العمل أعمال أخرى بالعربية تحاول أن تدرس لغة الطفل ، أو جوانب من لغته ، على أسس لغوية . وهذه الدراسات يحتاج القائمون بها الى التزود بثقافة لغوية حديثة ، ولا يفى بالقيام بها التزود بنظريات علم النفس على اختلافها : يحتاجون الى دراسة علم اللغة العام لتكون لديهم فكرة صحيحة عن ماهية اللغة ، وعن طرائق دراستها ؛ وعن وسائل هذه الدراسة ؛ وهم محتاجون على وجه الخصوص الى اتقان علم الاصوات اللغوية نظرا وعملا فمن الضرورى أن تقوم دراسة لغة الطفل منذ أوائل مراحلها على وصف صوتى دقيق .

أما ما كتبه بعض علماء اللغة عن لغة الطفل على أسس لغوية فلا يبلغ أن يكون دراسة كاملة ، انما هو تخطيط لخير الطرق المؤدية الى هذه الدراسة ، وتدوين لطوائف من الملاحظات ، وتنبيه الى ما فى هذه الملاحظات من ثغرات : ان ما صنعوه هو محاولة لتفهم المشكلة ، وبيان لأهميتها ، ودعوة علمية الى بحثها أكثر من أن يكون حلا لها كاملا أو أشبه بالكامل .

(٢) ونأخذ الآن فى عرض مجمل لبعض الملاحظات الهامة التى توصل اليها طائفة من اللغويين فيما يتعلق بلغة الطفل .

١ ـ يرى جماعة من علماء اللغة المحدثين ـ ومنهم الاستاذ فيرث[1] ـ أن تتبع النمو اللغوى للطفل يجدر أن يكون مرتبطا بالتجارب الهامة التى تمر بها حياة الطفل ؛ وهذه التجارب الهامة ، فى رأى الأستاذ فيرث ، هى :ـ

١ ـ المرحلة الأولى ، مرحلة المهد [2] ، وهى منذ ولادة الطفل الى ما قبل استطاعته الجلوس .

٢ ـ مرحلة الجلوس[3] ، وفى هذه المرحلة يكون بدء الكلام[4] ، واللعب بالدمى وما اليها .

٣ ـ مرحلة الحبو[5] ، وفى هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئا ما ، لأن الحبو ينقله الى أبعد من مجلسه .

٤ ـ مرحلة السير بمساعدة[6] ، وفى هذه المرحلة ينتقل الطفل الى عالم أرحب .

٥ ـ مرحلة سير الطفل وحده[7] فى الأماكن القريبة من المنزل .

(١) J.R. Firth عن محاضراته فى علم اللغة العام بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن وقد استمعت اليها من ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م.

(٢) Nursery . . . . . .
(٣) The Sitting-Up Stage . . . . . .
(٤) Speech . . . . . .
(٥) Crawling About . . . . . .
(٦) Walking with Help . . . . . .
(٧) Walking alone . . . . . .

٦ ــ مرحلة السير خارج المنزل[1]، وفى هذه المرحلة يستشعر الطفل حرية لا يجدها فى المرحلة التالية .

٧ ــ مرحلة الذهاب الى المدرسة ، وهذا فى المجتمعات التى يكون بها « مدارس » ، أو مرحلة التربية الخاصة التى يتلقاها الطفل من بيئته لتأهيله لنوع من العمل فى المجتمعات التى ليس بها « مدارس » . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

ب ــ هذا ترتيب مقترح لسير « الدراسة » ، ولكن الترتيب الذى تسير عليه «الدراسة» شىء يختلف عن الترتيب الذى تقرر فيه نتائجها . ومن ثم فاننا ، فى عرض الملاحظات الخاصة بلغة الطفل ، سنتبع التقسيم الثلاثى الذى ارتضاه العالم الدنمركى الكبير « أوتو يسبرسن »[2] وهو أن النمو اللغوى للطفل يستغرق ثلاث مراحل هى :ــ

١ ــ مرحلة الصياح[3]

٢ ــ مرحلة البأبأة[4]

٣ ــ مرحلة الكلام[5] التى تنقسم الى فترتين (أ) فترة «اللغة الصغيرة»[6]، أى اللغة الخاصة بالطفل ، وفى هذه الفترة يكون الطفل من الوجهة اللغوية « متفردا » ، (ب) وفترة اللغة المشتركة[7] ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يأخذ خضوع الطفل للمجتمع وتأثره به فى الازدياد شيئا فشيئا .

والآن نشرع فى التعريف بالخصائص العامة للغة الطفل فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

---

(١) Walking Outside . . . . . .

(٢) Otto Jespersen : Language, Its Nature, Development and Origin ; P. 103 .

(٣) Screaming Time . . . . . .

(٤) Babbling time ; Cooing time ; Crowing time . . . . . .

(٥) Talking time . . . . . .

(٦) Little Language . . . . . .

(٧) Common Language . . . . . .

١ ــ مرحلة الصياح[1] :

وهذه المرحلة تمتد من مولد الطفل الى حوالى الاسبوع الثالث من عمره ، وقد تستمر الى حوالى الاسبوع السابع أو الثامن .

ان الطفل يقابل العالم ساعة يولد بصراخ وصياح ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن « جهازه الصوتى » ليس «كلاما »[2]، ليس من كلام جماعته ، ولا هو من كلام أى جماعة تتكلم بلغة أخرى غير لغة جماعته . وهذا الصراخ لا يدل وحده على أن الطفل لو قطع عن المجتمع كل القطع فسينطق يوما ما بكلام جماعته ، أو بكلام أى جماعة غيرها . ذلك لأن الطفل لا يتلهم لغة جماعته ، أو أية لغة ، الهاما ، ولا هو يبتكر النطق بها ، أو بسواها ، ابتكارا ، ولكنه يمر ، وهو فى مجتمع ما ، بمراحل طويلة وشاقة حتى يستطيع أن يتفاهم مع من حوله بلغتهم ، يمر بمراحل أولها هذه المرحلة ، مرحلة الصياح .

ان الصيحات التى تصدر عن الاطفال فى هذه المرحلة صيحات « عامة » تكاد تكون واحدة عند جميع الاطفال . وعلى الرغم من أن الصياح ليس « كلاما » ، وليس الأصل فيه أن الطفل يريد أن « ينقل » شيئا ما الى غيره ، الا أنه ، بالنسبة لمن حول الطفل من الكبار ، يحدث شيئا مما يحدثه الكلام . فهم « يقرأون » فيه شيئا ما ، ويهرعون الى الطفل عند سماعهم صياحه لازالة ما به من ضيق . وانه ليأتى وقت يلاحظ فيه الطفل أنه عندما يصيح فان شخصا ما يهرع اليه ويرضيه بشىء ما ، ولو كان هذا الارضاء بمصاحبته اياه ليس غير .

وعندما يدرك الطفل هذا فانه يستعمل الصياح استعمالا اراديا عندما يقع فى ضيق ، أو عندما يريد شيئا ما . وهكذا تغدو الصيحة عملا اراديا[3] بعد أن كانت

---

(١) انظر يسبرسن : المرجع السابق ص ١٠٣ ــ ١٠٤

(٢) Speech . . . . . .

(٣) Voluntary Action . . . . . .

فى أول أمرها عملا انعكاسيا[1] .

ولكن للصياح فائدة أخرى غير هذه ، هى فائدة فسيولوجية ، فهو تدريب لجميع العضلات والاعضاء التى سيستعملها الطفل ، فيما بعد، فى البأبأة، والكلام، والغناء، وتقول بعض المربيات ، وقد يكون فى كلامهن معنى ما ، ان الطفل الذى يكون أعلى صياحا يصبح عندما يكبر خيرا من سواه غناء .

٢ — مرحلة البأبأة : ٢

لا تبدأ هذه المرحلة قبل الاسبوع الثالث من حياة الطفل ، وقد لا تبدأ قبل أسبوعه السابع أو الثامن ، وهى تمتد الى حوالى نهاية السنة الاولى من عمر الطفل .

تصدر عن الطفل فى هذه المرحلة أصوات ، ومجموعات من الاصوات مثل ، ا ، آم، بَبَ، تَتَ، دَدَ الخ[2] . ولا شك أن هذه الاصوات ألطف مما كان يصدر عنه فى مرحلة الصياح ، وأشد ملاءمة لأغراض الكلام . والأصوات ، أو مجموعات الاصوات ، التى تصدر عن الطفل فى هذه المرحلة ، لا معنى لها .

والأصوات التى تصدر عن الطفل فى أوائل هذه المرحلة لا ينطقها قاصدا أو مقلدا للأصوات التى يسمعها ممن حوله ، انها نشاط عضلى خالص وبسيط كتحريكه أصابعه ، أو يديه ، أو ذراعيه ، أو رجليه . والطفل يجد من اللذة فى اصدار هذه الأصوات ما يجده من لذة فى تحريك تلك العضلات الاخرى . والدليل على ذلك أن الاطفال الصم البكم[4] تصدر عنهم أشباه هذه الاصوات وهم بطبيعة الحال لا يسمعونها ، ولا يسمعون كلام من حولهم ليقلدوه . ولكن اذا كانت حركات أعضاء النطق عند الطفل لا تحكم فيها ، ولا سيطرة عليها أول الأمر فانها تأخذ شيئا فشيئا فى أن تصبح أشد انتظاما ، فيعرف الطفل الصوت الذى يريد أن ينطقه ، ويكون فى وضع يمكنه من أن ينطقه بالضبط .

(١) Reflex Action
(٢) انظر بيسبرسن : المرجع السابق ص ١٠٤ — ١٠٥
(٣) aa ; am ; baba ; tata ; dodo. etc.
(٤) Deaf-Mutes

واذا كان الطفل فى أوائل هذه المرحلة ينطق أصواته غير قاصد ، وغير مقلد لأنه لا يسمع ، فانه يصل الى وقت تقوى فيه حاسة سمعه ، ويجد متعة أى متعة فى سماع الأصوات التى يخرجها هو نفسه . ثم تحدث خطوة بالغة الاهمية عندما يأخذ الطفل فى سماع مشابهة بين الاصوات التى تنطقها أمه أو مربيته وبين تلك التى ينطقها هو نفسه . ان الأم عندما تسمع طفلها يخرج صوتا أو مقطعا[1] فانها تقبل عليه مسرورة مكررة ما أخرجه من صوت أو مقطع، وعندما يدرك الطفل الشبه أو المماثلة بين ما ينطقه هو نفسه وبين ما ترددده أمه فانه يقع على منبع من المتعة لا يغيض . وهو يصل بعد ذلك الى المرحلة التالية ، عندما يحاول هو نفسه أن يقلد ما يقال له (وهذا يكون عادة حوالى نهاية السنة الاولى) .

ان الطفل فى حوالى نهاية فترة البأبأة يكون قد تمكن من نطق عدد كبير من الاصوات . وهو فى هذا الوقت يحب ان يكون سلاسل طويلة من مقطع واحد مثل تتتتتت .. ، و وَوَوَوَوَوَ .. ، و نِنِنِنِنِنِ .. و دَدَدَدَدَ .. الخ[2] .

ولقد حاول معظم من عنوا بتتبع لغة الطفل ترتيب الاصوات المختلفة التى ينطق بها الطفل فى هذه المرحلة ، وفيما يليها ، ترتيبا زمنيا ، ولكنهم لم يتفقوا فى هذا الشأن فى جميع التفصيلات . والشائع أن أول ما ينطقه الطفل «صوائت مفردة»[3] ، أو صوائت يسبق كلا منها «صامت»[4] واحد وذلك مثل لَ بَ رِ تَ الخ[5] . وان الاصوات الأولية التى ينطقها الطفل ، ان كنا نمثلها بالرموز الكتابية التى نمثل بها بعض أصواتنا ، فهذا من باب التجوز ، فانها ليست فى الحقيقة هى نفسها : فما نمثله من أصوات الطفل بـ « ل » و « ر » الخ ليس مطابقا لما نمثله من أصواتنا بهذه الرموز . ويتفق دارسو لغة الطفل على أن « الصوامت الشفوية[6] » (التى يرمز اليها بـ[7]) من

(١) Syllable
(٢) tatatatata.... wawawawawa..., nenenenene..., dododododo..., etc.
(٣) Single Vowels
(٤) Consonant
(٥) la, re, to etc.
(٦) Labial Consonants
(٧) P, b, m

الصوامت الاولى التى ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق[1] .

ومما يلاحظ أن الطفل فى مرحلة البأبأة قد تصدر عنه أصوات ليست من جملة الاصوات التى تتكون منها لغة الجماعة التى سيستعملها يوما ما . فالطفل المصرى مثلا قد تصدر عنه فى هذه المرحلة أصوات لا يسمعها ممن حوله (وذلك كالأصوات التى يرمز اليها كتابة بـ ٢)، وقد تصدر عنه أمثال هذه الأصوات فى أوائل مرحلة البأبأة حين لا يكون ثمة قصد الى احداث أصوات معينة ، أو الى تقليد أصوات معينة . ان الذى يحدث أن الطفل يحرك أعضاء نطقه تحريكا متحررا فيحدث أنها أحيانا تتخذ الأوضاع الخاصة بنطق هذه الأصوات فاذا بها تصدر عنه . وقد يحدث أن طفلا ممن كانت تصدر عنهم فى مرحلة البأبأة ، أو بعدها ، أصوات ليست من جملة الأصوات الرئيسية للغة الجماعة التى سيتكلم بها يوما ما ، يجد صعوبة فى تكوين هذه الأصوات نفسها فيما بعد عند ما يكون قد تعلم لغة جماعته وأخذ فى تعلم لغة أجنبية تستعمل هذه الأصوات . ومرجع ذلك الى أن الطفل فى مرحلة البأبأة ، وفى أوائل مرحلة الكلام، ينطق عددا من الأصوات أكبر مما تستعمله اللغة التى عليه أن يتعلمها ، ولكن تعلمه الطويل لهذه اللغة (بما فيه من كثرة سماع أذنه لأصوات محدودة ، ومن تقليده لهذه الأصوات ، ومن تصحيح الكبار للأصوات التى ينطق بها حتى تتفق مع أصوات لغتهم أو تقرب منها . . الخ) ينتج عنه أن تمرن أذنه على سماع أصوات خاصة ، وتمرن أعضاء نطقه على احداث أصوات معينة ، فاذا أراد أن ينطق أصواتا أجنبية عن تلك التى بذل مجهودا شاقا لتعلمها فان أعضاء نطقه لا تكون له طبعة سلسة .

---

(١) يقول يسپرسن (ص ١٠٥ من كتابه السابق) :
لقد فسر هذا بأن الطفل يستطيع أن يرى تحرك شفتى أمه وهى تنطق هذه الاصوات ، وهكذا يقلد حركاتها . ولكن هذا التفسير يتضمن أن الطفل يقوم بدرجة كبيرة من التفكير الواعى ، هذا الطفل الذى ينطق م أو م قبل ان يأخذ فى تقليد أى شىء يقوله له من حوله . وفضلا عن هذا فلقد قيل ان انتباه الطفل لا يكاد يتجه الى فم أمه بل هو مركز دائما على عينيها . ان الارجح أن السبب الحقيقى فى هذا هو أن العضلات الشفوية المستخدمة فى نطق ب أو م هى نفس العضلات التى دربها الطفل فى الرضاعة من ثدى أمه أو من زجاجة . وانه لمن المهم فى هذا الشأن أن نعرف الصوامت الأولى التى ينطقها الاطفال العميان أهى الصوامت الشفوية أم غيرها .

(٢) P ; V etc., ...

٢ — مرحلة الكلام : [1]

تبدأ هذه المرحلة من حوالى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل وتمتد سنوات طويلة . ولما كانت هذه المرحلة طويلة وتشتمل على فترات متغايرة متمايزة ، فقد رأى الأستاذ يسپرسن أن يقسمها الى فترتين : (ا) فترة اللغة الصغيرة و (ب) فترة اللغة المشتركة . والحق أن هذا التقسيم هو أيسر ما يمكن أن يكون لتقرير نتائج الملاحظة والدراسة ، ولكن الواقع أن الطفل فى تعلمه الكلام يمر فى كل فترة من هاتين بظروف كثيرة متغايرة قد يعتبر بعضها فترات مستقلة متمايزة .

ا ـ فترة اللغة الصغيرة :

والمقصود باللغة الصغيرة اللغة التى يحدثها الطفل لنفسه بتقليده تقليدا غير محكم كلام من حوله من الكبار . والطفل فى هذه الفترة « متفرد »[2] شيئا ما من الناحية اللغوية. فالكلام الذى ينطق به يبعد بعدا بينا عن « الأصل » الذى يحاول أن يقلده . وكثير مما ينطقه فى هذه الفترة لا يكون مفهوما الا فى نطاق بيئته الضيقة : أمه ، وأبيه ، واخوته ، ومن اليهم ممن يعيشون معه . وبديهى أن الأم، أو من يقوم مقامها ، هى خير من يفهم كلامه ، أما غير من حوله من صغار وكبار فقد يفوتهم كثير من معانى ما ينطقه . ان كلام الطفل فى هذه المرحلة يبدو تعسفيا حتى أنه لتمكن مقارنته برسوم الطفل الأولى للرجال والحيوان (فقد يقول أحد الأطفال المصريين «مَ» بدلا من «مَيَّه» ، و «آيَه» بدلا من كتكاتايَه» ؛ و«كَ» بدلا « اكرام » ، و « بِ » بدلا من « عيش » . . الخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

يأخذ الطفل شيئا فشيئا من التخلص من خواص لغته الصغيرة الفردية الى أن يصبح كلامه أشد انتظاما ، وأقرب الى كلام الكبار ، وأوضح عند من يحيطون به وعند الغرباء جميعا . ويستغرق الامر زمنا طويلا حتى يصير كلام الطفل « مثل » كلام الكبار ، أى حتى يتقن الطفل الكلام باللغة التى تتكلم بها جماعته .

---

(١) انظر يسپرسن : المرجع السابق ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) Individualist . . . . . .

فى أوائل هذه المرحله يكون كلام الطفل أشد انتظاما ، وان كان الطفل « يحرف » كثيرا من الكلمات العادية. ولكن العالم اللغوى يستطيع فى حالات كثيرة أن يكشف عن أسباب تحريفه للكلمات . وللطفل فى هذه الفترة « قوانينه » الصوتية الخاصة ، وقد يحوج الأمر الى عالم فى الأصوات اللغوية لفهم القوانين الصوتية الفردية لطفل من الأطفال .

ويلاحظ أن الطفل فى أوقات من هذه المرحلة (فى أوائلها خاصة) يجد صعوبة فى نطق بعض الأصوات عندما تكون جزءا من مجموعة ، أو مجموعـات ، من الأصوات ، بينما هو قادر على نطقها مفردة ، أو على نطقها عندما تقع فى مجموعة أو مجموعات صوتية أخرى . كما أنه لا يستطيع عادة أن ينطق سلسلة طويلـة متتابعة من المقاطع، وهو يفضل «الكلمات المكونة من مقطع واحد»[1] . وكثيرا ما ينطق الأطفال جزءا واحدا من الكلمة ، وهو غالبا ما يكون المقطع الأخير أو المقاطع الأخيرة منها ، وهذا يسمى بـ « الاختصار » أو « القطع »[2] . ومن المشاهد أن لغة الأطفال يكثر فيها « التضعيفات »[3] ، وليس المقصود بهذا تلك « التضعيفات » الموجودة بطبيعتها فى لغة الكبار ، بل تلك التى تكون من صنع الطفل نفسه ، فكثيرا ما يكون الأطفال كلمات من تلك التى يسمعونها ممن حولهم بأن يكرروا مقطعا واحدا من مقاطعها (بعض الأطفال الانجليز يقولون «پيپ» بدلا من «پنسل» ، و « كاك » بدلا « كرّى »[4]) كما أن بعض الأطفال يكررون كلمات كاملة (مثل « كنج كنج » و « رنج رنج »[5] بين الأطفال الانجليز) . وربما كان المرجع فى كثرة « التضعيفات » فى لغة الأطفال هو اللذة التى يستشعرها الطفل فى تكرار نفس الفعل العضوى حتى يصيبه الكلال[6] .

ومما يلاحظ أن الطفل يكون قادرا على ادراك نغم الكـلام الذى يسمعه قبل أن يفهم كلمة واحدة مما يقال له أو على مسمع منه بزمان طويل : فهو فى هذه المرحلة

---

(١) Monosyllables . . . . . .
(٢) Mutilation . . . . . .
(٣) Reduplications . . . . . .
(٤) "Pepe" instead of "Pencil" ; "Kaka" instead of 'Carrie' . . . . . .
(٥) King-King ; Ring-ring (=bell) . . . . . .
(٦) انظر المرجع السابق ص ١٠٨

يستطيع أن يميز بين الكلام الذى يوجه اليه بحب وعطف ، وبين ذلك الذى يوجه اليه بحدة وغضب، فتنبسط أساريره ويهش لسماع الكلام الأول، ويعبس ويجنح الى البكاء عند سماعه الكلام الثانى . وقد لوحظ أن كثيرا من الأطفال يستطيعون فى سن باكرة أن يدركوا النغمة[1] الصحيحة التى يقـال عليها شىء ما ، أو يغنّى عليها شىء ما[2] .

وهذا الحديث عن ادراك الطفل لنغم الكلام ينقلنا الى الحديث عن مسألة أخرى: ان الطفل لا يسمع أصوات اللغة مفردة ، ولكنه يسمع كلمات وجملا سواء أكانت هذه الكلمات والجمل موجهة اليه أم لم تكن بأن كان الكبار يتحدثون فيما بينهم على مسمع منه . وهو لا يتعلم الجانب الصوتى ، أى العنصر الخارجى ، للكلمات والجمل مستقلا عن معانيها المرتبطة بهـا ، أى عن عنصرها الداخلى ، ذلك لأن الجـانب الصوتى لأى كلمة ومعناها مرتبطان ارتباطا لا انفصام له بالنسبة للطفل ، كما هو الشان بالنسبة للكبار كذلك[3] .

وان الطفل يأخذ فى سن مبكرة فى ادراك أن للكلمـات مدلولات ، بل ان فهم الطفل لمعانى الكلمات دائما ما يسبق قدرته على أن ينطق هو نفسه نفس الكلمات التى يفهم معناها ، وغالبا ما يسبق هذا الفهم تلك القدرة بزمان طويل[4] (فالطفل قبـل أن يتمكن من نطق الكلمات يطلب منه مثلا أن يجلس فيجلس ، أو أن يقف فيقف، أو أن يحضر شيئا فيحضره ، أو أن يترك شيئا فى يده فيتركه وهكذا) .

وان الكيفية التى يكتسب بها الطفل معانى الكلمات على جانب عظيم من التعقيد والصعوبة ، فمن ذلك أن بعض الكلمات المختلفة المعنى متفقة صوتا ، وهذا من شأنه أن يوقعه فى الحيرة ، واذا كان الطفل يستطيع أن يدرك الكلمات التى تـدل على محسوسات يشار اليها وقد يستعملها (مثل : لبن — كرسى — تفاحة الخ) فكيف يدرك معانى الكلمات التى تدل على أمور معنوية ؟ ان فهمه لهذه الأخيرة يتأخر ، وغالبا ما يكون غامضا غير دقيق . ثم ان من الكلمات ما يستعمل استعمالا

---

(١) Tone . . . . . .
(٢) المرجع السابق ص ١١١ — ١١٢
(٣) المرجع السابق ص ١١٣
(٤) المرجع السابق ص ١١٢ — ١١٤

مجازيا ، وان الطفل ليتعثر فى ادراك هذه المعانى . ومما يصعب على الطفل ادراك معانى بعض الكلمات أن الكلمة قد يكون لها أكثر من معنى باختلاف بعض السياقات اللفظية التى تقع فيها ، أو باختلاف الظروف الخارجية المحيطة أو باختلاف النغمة التى تقال عليها ، أو لغير هذا . كما أن الطفل يجد صعوبة كبيرة فى ادراك فكرة الزمن التى تدل عليها بعض الكلمات . ولكن مما يعين الطفل على اكتساب المعانى أنه طلعة اذ يأتى عليه وقت من الأوقات يكثر فيه من السؤال عما لا يعرفه ، وعن أسمائه فيظل يردد « ما هذا ؟ » أو « ما اسم هذا ؟ » .

*****

يتعلم الطفل آخر الامر لغة جماعته . ومما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد ، وشدة تطلعه ، وما يجده من عناية من حوله من الكبار لا سيما الام . فالأم ، أو من يقوم مقامها ، تظل «تناغيه» وتكرر على مسمعه ، دون أن تمل ، الكلمات والجمل والعبارات والاغانى والاناشيد حتى عندما تعرف أنه لا يفهم عنها ، ولكنهما يجدان فى ذلك من المتعة ما يدعوهما الى الاستغراق فيه ؛ وهكذا يسمع الطفل الكلمات والجمل مرات ومرات بطريقة محببة . والطفل يجد من تشجيع من حوله على محاولاته الكلامية ما ييسر له الطريق . كما أن الطفل يتفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية فى نطق الاصوات ، أو فى صيغ الكلمات ، أو فى تركيب الجمل ، أو فى مدلولات الكلمات . فالأم والأب والاخوة والأخوات والأقارب والرفاق الكبار والخدم (ان كان ثمة خدم) لا يزالون يصححون له أخطاءه ، وان كانوا أحيانا يعملون على استبقاء بعض أخطائه استملاحا واستطرافا ، أو لغير ذلك من الأسباب ؛ وقد يصحح الطفل بعض أخطائه نتيجة لادراكه الخاص .

وللطفل قياسه اللغوى من النواحى الصوتية ، والنحوية ، والمعنوية ، فهو يقيس ما لم يسمع أو يدرك على ما سمع أو أدرك ؛ وهذا القياس يعين الطفل من جانب على تعلم اللغة ، كما أنه من جانب آخر يوقعه فى بعض الخطأ . ان الطفل فى مراحله الاولى لا يتهيأ له سماع جميع مفردات اللغة ، وكل صيغها وتركيباتها ، أو قد لا يذكر جميع ما يسمع ، أو قد لا يحضره جميع ما يعرف وقتما يريد ، كما أنه لا يتيسر له ادراك معانى جميع المفردات . فمن قياس الطفل النحوى أنه قد يسمع مثلا مذكر كلمة ولا يسمع مؤنثها ، أو قد يعرف مفرد كلمة ولا يعرف مثناها أو جمعها ، ولكنه يلحظ — ان كانت اللغة التى يتعلمها هى العامية المصرية — أن الكلمات المؤنثة

التى يعرفها تختم بتاء تضاف الى المذكر ، فاذا أراد نطق مؤنث «أخضر» قال «أخضرة» ، ومؤنث أحمر قال «أحمرة» بدلا من «خضرة» و«حمرة» وهكذا . وهو من كثرة سماعه لأسماء دالة على الجمع تنتهى بـ «ين» يعمم هذه الطريقة عندما يريد جمع كلمات لا تجمع فى المصرية بهذه الطريقة ، فيجمع « ولد » على « ولدين » مثلا وهكذا . وكثير من الاطفال المصريين يعممون طريقة النفى المستعملة فى حال الاسماء على بعض الافعال التى لا تنفى بهذه الكيفية فيقولون «مش جه» بدلا من «ما جاش» وهكذا .

ان **لكل طفل لغته** المميزة له ، لا بل ان لكل فرد لغته طفلا كان أو صبيا أو شابا أو كهلا أو شيخا ، ذكرا كان أو أنثى فى كل حال من هذه الاحوال . وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الاطفال الذين ينتمون الى جماعته الكلامية ، وان كان ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا . والاطفال يتفاوتون فيما بينهم فى سرعة تلقيهم للغة ، وفى سرعة تصحيحهم لاخطائهم اللغوية ، كما يتفاوتون فى عدد المفردات التى يعرفها أو التى يستعملها كل منهم ؛ وهم كذلك يتفاوتون فى دقة الابانة عما يريدون ، وفى مسائل أخرى غير هذا كله .

— ٤ —

اللغة مميز فردى ومميز طبقى

(ا) ان اللغة علامة مميزة للفرد . وأول ما يبدو من تمييزها هذا هو اختلاف « الاصوات » الطبيعية للأفراد ، هذا الاختلاف الذى يرجع الى أسباب عضوية . نعم ان « الصوت » الطبيعى يميز جماعة الاطفال من جماعة الراشدين، ويميز كلا من هاتين الجماعتين من طائفة الشيوخ ، كما أنه يميز ذكور كل جماعة من هذه من اناثها، ولكن الأمر لا يقتصر على هذا النوع من التمييز بل انه ليمتد حتى يميز كل فرد من سواه . وان للصوت الطبيعى بهذا الاعتبار وظيفة ، فنحن نميز الشخص بصوته، نعرف أن فلانا هو فلان بسماعنا لصوته دون رؤية شخصه . فالصوت بهذا الاعتبار يكاد يكون صنو الجسم ، فكما يتمايز الافراد طولا وعرضا ، وسمنا ونحافة ، وبياضا وسمرة . . الخ . فهم يتمايزون أصواتا . ولما لم يكن للفرد دخل فى هذه الخاصة اذ أنه ليس كاسبها ، ولكنه ولد عليها (وقد يتخذ صوت فرد من الافراد صفة غير تلك التى ولد عليها نتيجة مرض أو حادث . . الخ .) فكل منا على هذا الاساس يولد منفردا . وان الأصوات الطبيعية للأفراد من العوامل التى تكيف المواقف التى تتخذها ازاءهم ، فقد يكون فى صوت من الأصوات ما يدعو الى السخرية والزراية ، وفى آخر ما يدعو الى الاعجاب والاقبال ، وفى ثالث ما يدعو الى النفور والابتعاد ، وفى غير هؤلاء ما يوجب التوقير والاحترام ، وهكذا . ومن وظائف الصوت الطبيعى أن سماعه — ولو لم يكن صاحبه يتوجه الينا بالكلام، بل دون رؤيتنا لصاحبه — يدفعنا الى نوع أو أنواع من السلوك : فالطفل يسمع صوتا من خارج البيت يعرف فيه صوت أبيه فيتهلل ويستطير ويصيح ويهرع الى لقياه ، أو قد يصيبه شىء من خوف . ويتكلف الجد ان كان أبوه شديد الوطأة عليه . وقد يسمع مرءوس صوتا قادما من خارج فيدرك فيه صوت رئيسه فيتصنع الانصراف الى العمل مثلا . وقد يطرق سمعنا صوت جميل لشخص حبيب فنتأهب خفافا للقياه مصلحين من شأن مظهرنا مثلا . وقد يسمع الجندى صوتا يتكلم كلاما لا يفهمه فيرى فيه عدوه فيسرع الى سلاحه مستعدا للفتك به ، وينذر زملاءه بمقدم العدو . كل هذا وليس ثمة « تخاطب » ، أو « اتصال » ، أو قصد الى الاتصال .

ومما يميز لغة فرد من فرد ما يكون لكل متكلم من « لوازم » لغوية . و «اللازمة» اللغوية قد تكون كيفية من نطق كلمة أو كلمات ؛ وقد تكون عبارة يكثر من ترددها ؛ وقد تكون كلمة أو جملة ينطق بها فى ظروف معينة ؛ وقد تكون لفظة أو ألفاظا لا يستعملها نظراؤه ويستعملها هو تعالما أو تباهيا أو تواضعا أو مريدا غير ذلك ؛ وقد تكون عيبا عضويا فى النطق كاللثغة أو الفأفأة أو التمتمة ؛ وقد تكون جمعا بين شيئين أو أكثر من هذا ؛ وقد تكون أمرا آخر يكفى سماعه أو ذكره لتحديد شخص القائل أو المتحدَّث عنه .

ان «اللازمة» اللغوية علامة دالة على الفرد قد يغنى ذكرها عن ذكر اسم صاحبها، وهى أشبه بالسمة العضوية البارزة البادية كجحوظ العين ، أو ضخامة الأنف ، أو الغرابة فى شكل اليد أو الاصبع . . الخ . ومن « اللوازم » اللغوية ما يثير الضحك على صاحبها ، ومنها ما يبعث على الضيق به ، ومنها ما ينشر جوا من الأنس اليه وهكذا ، فللازمة اللغوية أثر فى تكييف العلاقة بيننا وبين صاحبها .

ذكرنا أن الفرد لا يأخذ لغة جماعته الهاما، أو وحيا، أو ابتكارا، ولكنه يأخذها عن طريق التعلم الطويل الشاق فى سنوات طفولته الأولى ؛ وهو لا يزال يضيف الى لغته ، ويعدل فيها الى أن يموت . فمن الخطأ أن نتصور أن لغة الفرد تثبت على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة التى يصل عندها الى القدرة على التفاهم مع الكبار باللغة العامة المشتركة .

ومما يبين أن **لغة الفرد فى تغير** دائم أن الفرد لا يحيط بجميع مفردات اللغة العامة فى سن معينة ، بل انه لا يزال يسمع ألفاظا جديدة يضيفها الى ما يعرفه . فهو فى كل دور جديد من أدوار حياته ، وفى كل تجربة من التجارب الهامة التى يخضع لها يسمع ما لم يكن قد سمع . ولسنا فى حاجة الى أن نذكر أنه فى كل حال من هذه الاحوال لا يسمع مفردات جديدة فحسب ، ولكنه يسمع كذلك تعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة . ان الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه كلمات وعبارات لا يعرفها ، ويسمع من أولاد من هم أدنى من أهله كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سنا — كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه أو أمه ، أو من اخوته الكبار وسائر

من اتصل بهم من قبل . هذا بطبيعة الحال بالاضافة الى ما يسمعه من جديد الالفاظ المتعلقة بالدراسة ونظامها ، وبالسلوك الذى يفرض عليه وما الى ذلك . وعندما يتصل فرد بفرد من الجنس الآخر تتكشف له كلمات وعبارات جديدة ، وطرائق من الحديث لم يكن له بها عهد . ومعروف أن المتزوجين من الرجال والنساء لا يزال كل منهم يسمع من قرينه مفردات وعبارات لم تكن من جملة ما يعرفه . وهكذا فلغة الفرد الواحد فى زمن من الأزمان تختلف عن لغته فيما سبق هذا الزمان وفيما لحقه أو يلحقه .

* * * *

(ب) **وكما ان اللغة علامة فردية مميزة فهى كذلك علامة « طبقية » مميزة .**

ففى الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين ؛ والمتعلمون يختلفون لغة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم ، وباختلاف مهنهم ، وباختلاف درجة ثرائهم وبسوى ذلك من الاسباب . ولغة الصيادين تختلف عن لغة النجارين وعن لغة الحدادين . . الخ . وكل من هذه تختلف عن لغة طلبة المدارس مثلا أو عن لغة الموظفين الحكوميين الخ . ولغة المسيحيين فى جماعة كلامية ما تختلف عن لغة من يدينون بالاسلام أو اليهودية مثلا من أفراد نفس الجماعة الكلامية . هذا بالاضافة الى مباينة لغة كل فرد من أفراد كل طائفة من هذه الطوائف للغة أى فرد آخر من أفراد الطائفة نفسها .

ان سماع فرد من الافراد وهو يتكلم لقاض بمستواه العقلى ، والمادى ، وبصفته الطائفية والمهنية . . الخ . وهكذا **فاللغة** قيد من القيود ، أو هى أشبه ، مع شىء من الفارق ، ببصمات الاصابع ، أو بالزى .

وان **تغيير الفرد للغته** المفصحة عن وضع طبقى معين حتى تصبح مثيلة للغة طبقة أعلى أو أدنى ، أو للغة طائفة أخرى من طوائف نفس الجماعة الكلامية لأمر جد عسير ؛ وهو يحتاج الى طول مران ، وتعلم شاق ، وحتى بعد هذا فقد تند عن الفرد ألفاظ أو تعبيرات تدل على أنه دخيل على هذه الطبقة الجديدة لا أصيل فيها .

وهذا يذكرنا بما صنعه برنارد شو فى مسرحيته « بيجماليون »[1] : فالأستاذ هيجنز[2] عالم الصوتيات اللغوية يلتقط بائعة الورد اليزا دوليتل[3] ، وهى فتاة فقيرة من أسرة متواضعة تتكلم اللغة اللندنية العامية ، ويتعهدها بالتعليم الصوتى واللغوى الشاق ، وبالتعويد على آداب السلوك الراقية ، حتى يصير حديثها كحديث سيدات الطبقة الأرستقراطية بلندن . ويقول برنارد شو فى مقدمة تأليفه هذا انه يقرر ، تشجيعا لأولئك الأشخاص الذين يتحدثون لهجات تقطعهم عن كل مركز رفيع ، أن ذلك التحول الذى أحدثه « هيجنز » فى بائعة الورد لا هو بالمستحيل ، ولا هو بالأمر غير المألوف . فكثير من ذوى الطموح من الرجال والنساء قد استطاعوا أن يكتسبوا « لهجة » جديدة راقية غير « لهجاتهم » الأصلية . وهو يقول ان كثيرا من العاملات والعمال بالمحلات الراقية بحى « وست اند » بلندن يتكلمون لغتين (وهو يقصد لغتهم الأصلية التى تنم عن وضع اقتصادى واجتماعى فقير حقير ، وتلك اللغة التى اكتسبوها من مخالطتهم الطبقة الأرستقراطية ومن تشبههم بهم فى حديثهم والتى يستعملونها فى مخاطبة أفراد هذه الطبقة وفى أدائهم عملهم على وجه العموم) . ولكنه يرى أن هذا التحول يجب أن يتم بطريقة علمية والا كانت الحالة التى ينتهى اليها الطامح الى اكتساب « لهجة » جديدة أسوأ من حالته اول الامر . وهو يحذر بائعات الورد اللائى يقرأن مسرحيته هذه أن يتخيلن أن فى استطاعتهن أن يصرن سيدات راقيات بالتقليد الذى لا معلم معه ، بل عليهن أن يتعلمن «الأبجدية» من جديد ، وبطريقة مخالفة ، من عالم صوتى قدير[4] .

وهذا ينقلنا الى **لغة حديثى الثراء** . فهؤلاء قوم ترفعهم الأموال التى انهالت عليهم فجاءة الى مستوى مادى أعلى . وهم يستطيعون أن يقلدوا الطبقة الراقية فى مجتمعهم بالتشبه بهم فى ظاهر المسكن والمأكل والملبس ، وباتخاذ ما يتخذون من أدوات الزينة ومن وسائل التنقل . . الخ ، وقد يبالغون فى ذلك مبالغة تكشف عن حقيقتهم . ولكن اذا كان اتخاذهم هذه المظاهر المادية ممكنا يسيرا ، فانهم لا يستطيعون أن

(1) Bernard Shaw : Pygmalion, Penguin ed., 1949 . . . . . .
(2) Higgins . . . . . .
(3) Eliza Doolittle . . . . . .
(4) Pygmalion, pp. 9 - 10 . . . . . .

يتحدثوا حديثهم ، أو هم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديثهم بنفس السرعة التى يتخذون بها مسكنهم ومأكلهم وملبسهم و . . الخ . ومعروف أن محاولتهم التشبه بلهجة الطبقة الراقية الأصيلة كثيرا ما تجعل منهم مادة للهزء والسخرية .

ان وجود طرائق مختلفة من الحديث تميز طائفة من طائفة فى الجماعة التى تتكلم لغة مشتركة حقيقة معروفة ؛ وهى قائمة فى كل مجتمع ، ونحن نصنف الناس على أساس منها . ان التغييرات التى تطرأ على أية لغة مشتركة حسب المستويات الاجتماعية يسمى كل منها «**لهجة طائفية**» أو «**لهجة طبقية**»[1] .

ومن ألوان اللهجات الطائفية الموجودة فى كل مجتمع تلك التى تسمى **اللهجة السرية** » أو « **الكلام السرى** »[2] . والمقصود بها تلك اللغة التى تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع ، وتهرب من عقابه ، وتحاول أن تخفى عنه أمرها ؛ وذلك كلغة اللصوص ، ولغة رجال العصابات ، ولغة الحشاشين ومن اليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم ، ولغة « القوادين » . . الخ . فالملاحظ أن كلا من هذه الطوائف وأشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها . والذى تلجأ اليه هذه اللغة فى الاغلب أنها تعطى بعض الكلمات المستعملة فى اللغة المشتركة دلالات جديدة، وتعتمد على الاستعمالات المجازية ؛ وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرفة أو غير محرفة ، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعا . وهذه التغييرات التى تلحق اللغة تغييرات عامدة . وقد لوحظ أن فى « اللهجات السرية » المختلفة فى الجماعات التى تتكلم بلغات مختلفة قسطا مشتركا من المفردات والتعبيرات ، لا سيما فى البلاد الأوروبية والأمريكية . ومن أمثلة اللهجات السرية أن بعض الحشاشين فى الاسكندرية يستعملون كلمة « سكر » بدلا من « حشيش » . وبعض اللصوص

---

(١) Class Dialect . . . . . .

(٢) Secret Language ; Underworld Speech. . . . . .

فى أمريكا يدلون على الجواهر [1] بكلمة « جليد »[2] ويدلون على الجواهر المسروقة بعبارة « الجليد الساخن »[3] .

---

(١) Jewels . . . . . .

(٢) Ice . . . . . .

(٣) Hot Ice . . . . . .

انظر فى هذا :

Margaret Shlauch : The Gift of Tongues, 3rd ed., 1949, p. 269. . .

— ٥ —

اللغة وأصحابها

(١) العلاقة بين البنيـــة اللغوية[1] والبنيـــة الاجتماعية[2]

من المسائل الهامة التى يخوض فيها علم اللغة العام مسألة بنية اللغة ومـدى تمثيلها للبنية الاجتماعية . معروف أن لكل لغة بنيتها الخاصة بها فهل هذه البنية تمثل تمثيلا صادقا البنية الاجتماعية للجماعة المتكلمة بها ، أو هل تمثل هذه البنية بدرجة معينة ؟ واذا كانت تمثلها فكيف يكون هذا التمثيل ؟ ومعروف ان أية لغة من اللغات لاتظل ثابتة بل هى فى تطور مستمر ، كما أن البنية الاجتماعية دائمة التطور ، ولكل نوع من هذين النوعين من التطور شروطه الخاصة به ؛ فهل كل تطور فى البنية الاجتماعية يقابله تطور ما فى البنية اللغوية ؟ أو بعبارة أخرى ما القوانين التى تحكم العلاقات الضرورية بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ؟

كان **انطوان مييه** [3] من أوائل من وجهوا اللغويين الى الكشف عن هذه القوانين فلقد رسم فى سنة ١٩٠٦ المنهج الآتى :—

„ انه من الواجب أن نحدد مع أى بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة ، كما أنه من الواجب أن نحدد كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية ، بطريقة عامـة ، فى تغيرات فى البنية اللغوية . ”

Il faudra déterminer à quelle structure sociale répond une structure linguistique donnée et comment, d'une manière générale, les changements de structure sociale se traduisent par des changements de structure linguistique.

ولقد أتى مييه نفسه بمثال يوضح فى رأيه العلاقة بين هذين النوعين من البنية فقال : ان اللغة الهندو أوروبية كان تصريفها[4] يصطنع « عوامـل صيغة »[5] كثيرة

---

(١) Linguistic Structure
(٢) Social Structure
(٣) Antoine Meillet
(٤) Flexion
(٥) Morphémes

جدا يمثل كل منها مجموعة من الخصائص ، وكانت تعطى الكلمة استقلالا ذاتيا كبيرا فى العبارة ؛ وذلك لأنها كانت لغة عقلية متفردة ؛ وهذه الصفة ذات علاقة بالبنية الاجتماعية للأمة الهندوأوروبية التى كانت جملة جماعات صغيرة كل منهـا على درجة كبيرة من التحرر عن سائرها[1] .

أما ف. **برونـدال** [2] فقد أقام علاقة بين وجود (الحروف)[3] وبين تقدم المدنية ؛ فقرر أن „ كل شىء يبين أن الحروف فى آسيا القديمة ، وفى افريقيا الشمالية ، وفى أوروبا كذلك ، هى أداة منطقية[4] لم تكتسب الا فى مرحلة من مراحل المدنية متقدمة نسبيا . ”[5]

وكثيرا ما نسب اللغويون وجود **الأقسـام الاسميـة** [6] الى عقلية « بدائية » ولكن الأبحاث الحديثة التى قام بها ل. هومبورجر [7] تدعو الى اعادة النظر فى هذه المسألة التى يبدو أنه قد أسىء فهم طبيعتها الحقيقية ولو فى حالة لغات الباانتو[8] على الأقل .

وفى رأى كثير من اللغويين أن من الميول العامة المرتبطة بتقدم المدنيات الميـل الى **التخلص من « الثنى »** — وهو عدد « مثنى »[9] — من اللغات التى كان موجودا فيها حتى لا يقوم الا التقابل بين المفرد والجمع ، وهو تقابل ذو طبيعة أشد تجردا ؛ كما أن من هذه الميول الميل الى **تشايب زمن الفعل على هيئته** للوفاء بحاجـات المجتمعات فى تطورها[10] .

---

(١) Jean Perrot : La Linguistique, (Que sais-je ? Paris) p. 126
(٢) V. Brondal
(٣) Prépositions
(٤) Instrument Logique
(٥) المرجع السابق
(٦) Classes Nominales
(٧) L. Homburger
(٨) Les Langues Bantoues
(٩) Concret
(١٠) Jean Perrot : La Linguistique pp. 126 - 127

ان هذه الامثلة وسواها مما قدمه اللغويون اثباتا لوجود علاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ، قد تكون قاصرة ، أو متعسفة ، أو لم تؤد اليها مقدمات علمية يقينية ، ذلك لأن البحث فى العلاقة بين هاتين البنيتين لا يزال فى أوائله ، وهو بطبيعته محوج الى فضل استقصاء ، وزيادة احتراز ، وان النتائج المرضية التى توصل اليها قليلة قلة بالغة . وأيا ما كان فلنا أن نقول مع جان بيرو [1] :

„ من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم وبحضارتهم المادية . . . . . وان

جانب العناصر الموروثة فى كل حالة من حالات اللغة لجد كثير . فالتغير الكامل فى مجتمع يصطنع لغة ما لا يستلزم بالضرورة تغيرا فى بنية هذه اللغة: فالمجتمع الروسى قد قلب أيما قلب فى القرن العشرين ، ولكن اللغة الروسية احتفظت ببنيتها القديمة. ولقد أدت مناقشة قامت فى الاتحاد السوفييتى فى سنة ١٩٥٠ واشترك فيها ج. ستالين الى هذه النتيجة : ان اللغة لا يمكن اعتبارها فى مجموعها بنية عليا [2] يحددها فى مجموعها البنية السفلى [3] الاقتصادية والاجتماعية . „

(ب) اللغـــة والجنس : [4]

هل ثمة روابط ضرورية بين اللغة والجنس ؟ أى هل تتمايز اللغـات بتمـايز الأجناس ، وهل التغيرات التى تطرأ على جنس من الأجناس لا بد أن يكون لهـا أثرها فى لغته ؟ هل نستطيع أن نستخلص من درسنا للغة ما أنها لغة جماعة مستطيلى الرءوس ، ومن درسنا لغيرها بأنها لغة جماعة مستديرى الرءوس ؟ هل نستطيع الحكم بأن هذه اللغة لغة راقية طيعة قادرة على التعبير عن لطائف الفكر ودقائق الحس لأن أصحابها ناعمو الشعر ، وبأن تلك متخلفة جامدة لا طاقة لها على التعبير عن المعنويات والمجردات لأن أصحابها مجعدو الشعر ؟ هل ثمة رابطة ضرورية بين الجنس و بين القدرة على اجادة لغة بعينها ؟ أتوجد علاقة بين المميزات الجنسية و بين

---

(١) Jean Perrot : La Linguistique p. 127 . . . . . .
(٢) Superstructure . . . . . .
(٣) Infrastructure . . . . . .
(٤) انظر فندريس : اللغة (تعريب الدواخلى والقصاص) ص ٢٩٥ ــ ٢٩٨
Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 283 - 355

قدرة الناس على التفكير ، وعلى التفكير بصورة خاصة ، وعلى التعبير عن تفكيرهم بطريقة معينة ؟

لقد أغرى بعض اللغويين بايجاد روابط بين اللغة والجنس ؛ واستغلت بعض المذاهب السياسية التعصب للجنس والزهو بلغته واتخذتهما ذريعة لفرض سلطانها على شعوب تنتمى فى رأيها الى أجناس أدنى من أجناس أصحابها ويتكلمون لغات أدنى من لغاتهم . فالعالم فردريك موللر Friedrich Müller مثلا قد أنشأ كتابـه "Grundriss der Sprachwissenchaft" [1] على أساس من هذه الفكرة، فصنف اللغات طبقا للمميزات الانثولوجية، فاستعرض لغات الشعوب المجعدة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الناعمة الشعر .

ولقد نتج عن الدراسات اللغوية المقارنة ونظرية العائلات اللغوية أن رأى كثير من الغربيين لغويين ومفكرين وساسة ، أن اللغات الهندو أوروبية أسمى من سواها كالسامية والحامية ، وأن ما سموه « الجنس الهندو أوروبى » أو « الجنس الآرى » أسمى الأجناس . والحق ، كما تقول مارجريت شلاوش Margaret Schlauch أن ما لحق كلمة « آرى » Aryan من اضطراب ومن اساءة استعمال ليدعو المرء الى التردد فى استعمال الكلمة ولو فى المعنى السائغ لها وهو اللغات المنحـدرة من الايرانية القديمة Old Iranian والهندية القديمة Old Indian [2] .

لقد بر ر كثير من البرامج السياسية المستهدفة اضطهاد الأقليات وقهرها، والقضاء على العدوان الأجنبى ، على أساس أن الجماعة الحاكمة أسمى جنسا من الجماعة المغلوبة على أمرها . وقد ذهب الألمان والطليان النازيون والفاشيون دفاعا عن نظامهم السياسى الى أن اللغات الهندو أوروبية على وجه العموم ، والألمانية والايطالية على وجه الخصوص ، خير الأدوات الممكنة للفكر الانسانى، والى أن سائر اللغات جميعا يجب أن تخضع أمامها ، وأن تفسح لها الطريق . ومن ثم فقد رأوا أن من الحق ، بل من المرغوب فيه، أن تشن الحروب على أولئك الذين اتفق أنهم يتكلمون لغات سامية أو حامية أو غيرها .

---

(١) Wien, 1876 - 1888. . . . . .
(٢) The Gift of Tongues ; p. 285 . . . . . .

والحق أنه لاعلاقة ضرورية بين المميزات الجنسية كلون الشعر وتجعده، وتموجه أو نعومته ، ولون العينين وهيئتهما، ولون البشرة، وشكل الرأس والجمجمة، وطول الجسم وهيئة العظام، وماالى ذلك، وبين قدرة الناس على التفكير ، أو على تعلم لغة من اللغات ، أو بين اللغة على وجه الاطلاق . وحتى اذا غضضنا النظر عن دلالة اختلاط الأجناس فانه « لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها الا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتتبادل . »[1] ان الانثروبولوجيين عندما يعثرون على جماجم آدمية ترجع الى عشرات الآلاف من السنين لا يستطيعون الا القول بأن أصحاب تلك الجماجم كانوا مستطيلي الرءوس[2] أو بأنهم كانوا مستديري الرءوس[3] وهم لا يستطيعون القول بأنهم كانوا يتكلمون — دون شك — لغة اعرابية متطرفة في اعرابها . ومن الأدلة التربية الحاكمة بفساد هذا الربط بين اللغة والجنس أن من اللغات ما يستفيض حتى يكون لغات جماعات تنتمي الى أجناس مختلفة ، وهذه الجماعات — على اختلافها في الجنس تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها ، وذلك شأن الانجليزية والعربية مثلا . فمن الفتوح والهجرات ما نشر لغات الفاتحين والمهاجرين بين شعوب لا تربطهم بالمتكلمين الأصليين روابط بيولوجية . والزنجي الافريقي الذي يربى منذ طفولته الباكرة في انجلترا في ظروف واحدة مع الأطفال الانجليز يتكلم الانجليزية كما يتكلمها أبناؤها ، واذا ربي طفل انجليزي في قبيلة زنجية افريقية كما يربى أبناؤها تكلم لغتهم تكلمهم اياها ، وما درى صوتا أو كلمة من الانجليزية ما لم يتح له تعلمها كما يتعلمها أي أجنبي منها .

(ج) اللغات المتخلفة : [4]

الحديث عن اللغة والجنس من الحديث عن « اللغات المتخلفة » بسبيل . فمن

---

(١) فندريس : اللغة (تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص) ص ٢٩٨ عن هويتني

D. Whitney : La vie du Langage, P. 231 (trad. de l'anglais), 3 è édit., Paris 1880

(٢) Dolichocephalic (= long - headed) . . . . . .

(٣) Brachycephalic (= round - headed) . . . . . .

(٤) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 285 - 287. . . . .

اللغويين من يصف بعض اللغات بالقصور في هذا الجانب أو ذاك ، ولهذا السبب أو لسواه ، عن الوفاء بحاجات المدنية الحديثة ، وعن المشاركة في أحداث العصر واتجاهاته وروحه ، وعن استيعاب العلم والفلسفة والفن . ومنهم من لا يقنع بهذا بل يتطرف فيرى أن أمثال هذه اللغات لن يقدر لها ، بطبيعة بنيتها ، أن تسمو الى رتبة اللغات « الراقية » فتصلح لما تصلح له . نعم ان من المسلم به أن بعض اللغات في اباننا هذه بعيدة عن التيارات الكبرى للأحداث ، وأقل قدرة من سواها على مجاراة مدنية العصر القائمة على الصناعة والآلات : فقد تستعمل هذه اللغات مفردات لا توائم حاجات العصر وروحه ؛ أو قد لا يكون فيها أسماء عامة بسيطة مثل « شجرة » أو « منزل » أو « خشب » ، هذه الأسماء العامة التي لا يتأتى بدونها تصور الشجرة العامة المجردة وما اليها ؛ وقد يكون نظم syntax هذه اللغات فارط التدقيق بحيث لا يحتاج الى هذا التدقيق ؛ وقد تستعمل تركيبات معقدة ومكررة ومعوقة للتعبير عن علاقة بسيطة ؛ ومن المسلم به أن النظم قد يؤدي الى صورة خاصة في التفكير وقد يؤثر في طرق الاستدلال[1] .

ولكن القول بوجود لغات متخلفة شيء والقول بأن هذه اللغات لن يتاح لها أن تعبر عما قد تعبر عنه اللغات الراقية شيء آخر . فهذه اللغات على هذه الصفة لأنها مرت بظروف تاريخية خاصة ، ولكنها في الوقت نفسه ليست ثابتة static فهي كأية لغة متحركة dynamic متطورة ، انها متغيرة والتغير الذي يصيبها دائم الحدوث وان اختلف سرعة وطبيعة وعمقا وفق ما يصيب الجماعة المتكلمة بها من التغيرات الحضارية . ان ما ينقص هذه اللغات من مفردات من أيسر ما يمكن اضافته ؛ ونظمها المعقد قد يبسط ؛ وبنية جملها قد تتغير مع مرور الأيام ؛ وما

= وفندريس : اللغة ص ٢٩٨ — ٣٠٢

(١) « ان اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعدل من العقلية ونظمها ؛ فعادة وضع الفعل في مكان بعينه دائما ، يمكن ان تؤدي الى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسي أو الألماني او الانجليزي خاضع للغة الى حد ما . فان اللغة اذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام واتاحت لها حرية الحركة . وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضييق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد اي شكل من أشكال اللغة . » (فندريس : اللغة ص ٣٠٢)

فى هذه اللغات من تمييزات كثيرة لا طائل من ورائها قد تطرح عند ما تنقطع الحاجة اليها ؛ والعجز عن التعبير عن المجردات يمكن التغلب عليه . ان اللغات « المتخلفة » قادرة ، عندما تواتيها الظروف المناسبة ، على التكيف السريع ، مصطنعة ما فى مواردها نفسها من امكانيات ، لتفى بحاجات المدنية الحديثة ، ولتنهض الى تجريدات الفلسفة الأوروبية المعاصرة . ويحكى فرانز بواس Franz Boas ان الطلبة الهنود الأمريكيين أمكن تعريفهم بالمثل العليا الأفلاطونية ولو أن لغتهم خالية من الأسماء العامة التى تستعمل دون «مغيّر»؛ فقد كان من اليسير تعليمهم أن يعزلوا كلمة « بيت » من تعبيرات تعنى « ذلك البيت هناك » ، أو « بيتى القائم هنا » و « البيت المصنوع من الخشب » ؛ وما من شك فى أن هذا شاق عليهم اذ تعودوا على أن يكون لكل اسم « مغيّر » modifier ، ولكنهم عندما عُوِّدوا على أن يحسوا بالحاجة العقلية الى الاسم « بيت » المجرد من المغير فقد قبلوا الاستعمال ، وساعدوا بهذا على دفع لغتهم الى الأمام .

(٤) اللغة والقومية

ان الوظيفة التى تؤديها اللغة فيما يتعلق بالقومية وظيفة على جانب كبير من الأهمية . فكل أمة تعتز بلغتها ، وتريد لها الحياة ؛ وتبدو أهمية هذه الوظيفة فى ألوان من الصراع الذى ينشب بين الأمم . فبعض الأمم المستعمرة تفرض على الأمم المحتلة أن تكون لغاتها — أى لغات الغاصبين — هى لغة التعليم فى المدارس وهى اللغة الرسمية فى المخاطبات الحكومية وفى المحاكم وفى سائر الأمور الرسمية . ومن أبرز الأمثلة على هذا فرض الايطالية فى ليبيا ، والفرنسية فى تونس ، والانجليزية الى حد ما فى مصر ، ولكن يلاحظ أن هذه الأمم تحتفظ بلغتها القومية فى البيوت ، ومن أفرادها من يعمل على تعليم صغاره اللغة القومية سرا كما كان الحال فى ليبيا أثناء الاستعمار الايطالى . ومن الأمثلة الرائعة على هذا احتفاظ البولنديين بلغتهم البولندية لغة قومية بينما كانت بلادهم مقسمة على ثلاث امبراطوريات فى القرن الثامن عشر . وعندما تثور الأمم المحتلة التى فرض عليها المستعمرون لغاتها مطالبة بالاستقلال السياسى يكون من أهم ما تطالب به استعمال لغاتها هى فى الأمور الرسمية وفى التعليم . ان العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها وتثبيت

هذه القومية واحيائها علاقة خطيرة الشأن ، حتى أنه لمن الممكن بعث لغة طال موتها ، فاسرائيل فى العصر الحاضر قد رأت أن من عوامل تجميع اليهود مختلفى الألسنة بعث اللغة العبرية .

ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية أن بعضها قد تتطرف وطنيته أحيانا فيتخذ مواقف عدائية نحو ما فى لغتها من كلمات دخيلة ، وقد تشتد هذه المواقف العدائية اذا نشب صراع بينها وبين أصحاب الكلم الدخيل سواء اتخذ هذا الصراع شكل الحرب ، أو التنافس الاقتصادى أو غير ذلك . وهذه المواقف العدائية تجاه الدخيل قد لا تقتصر على كرهه ، أو محاولة التقليل من استعماله ، بل لقد يمتد الى التطهير الواعى للغة القومية منه . ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث فى اللغة الألمانية فى القرن العشرين ؛ فعند ما أثبتت الامبراطورية الألمانية دورها فى الشئون الدولية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدث تطهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانية لها ، فحلت كلمة Spielhaus الألمانية محل كلمة Theater و Fernsprecher محل كلمة Telephon و Fahrkarte محل Billet وكلمة Abort محل Toilette الى غير ذلك من الكلمات . [1]

وربما كان الاعتزاز بالعربية التى «وسعت كتاب الله» هو الذى دفع كثيرا من المصريين أفرادا وهيئات فى أوائل القرن العشرين خاصة ، الى النفور من كثير من الدخيل الأوروبى ، والى وضع كلمات عربية تحل محلها قدر لبعضها أن يدور على الألسنة والأقلام ، وقدر لبعضها أن يموت .

ولكن من الأمم ما لا تتخذ هذا الموقف العدائى نحو ما فى لغتها من دخيل لأسباب خاصة بها ؛ وأقرب مثال على ذلك المتكلمون بالانجليزية . وذلك لأن اللغة الانجليزية بطبيعة تكونها وتطورها كثيرة الكلمات الدخيلة المستعارة من لغات كثيرة مختلفة قديمة ووسيطة وحديثة ، فاحساس المتكلمين بها نحو الاضافات الكثيرة التى تضاف اليها عن طريق الأخذ المباشر من لغات أخرى لا يعدو الغضب الرفيق .

---

(١) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues ; pp. 282-283

— ٦ —

اللغـــة والحيـــاة السياسيـــة

ان استعمال اللغة فى جوانب النشاط السياسى المختلفة ـ والسياسة وجه من وجوه الحياة الاجتماعية ـ محوج الى فصل دراسة من كلتا الناحيتين الوصفية والتاريخية . ودراسة هذه الوظيفة من وظائف الكلام من شأنها أن توقفنا على حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف ، أو هى لا تظهرها بنفس القوة والوضوح .

(١) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة **المصطلحات والتعبيرات التى يصطنعها كل نظام من الانظمة السياسيـــة** المختلفة دعاية لنفسه ، وتثبيتا لحكمه ، وفى تعامله مع نظام آخر يخالفه . فوسائل الاقناع الكلامية مثلا تختلف فى النظام الفاشستى الهتلرى أو الموسولينى عنها فى نظام ديمقراطى ؛ وهى تختلف فى هؤلاء جميعـا عنها فى النظام الشيوعى الروسى بوجه عام ؛ كما أنها فى النظام الاخير تختلف بعض الشىء زمن لينين عنها زمن ستالين وعنها بعد ستالين . ولكن هذه الوسائل ، على اختلافها باختلاف الانظمة السياسية ، وعقليات الشعوب ، والوضع الحضارى للأمة التى يوجه اليها الكلام ، وبغير ذلك ، قـد تشترك فى طائفـة من السـمات العامة .

(٢) ومن ذلك دراسة **لغـة الانتخاب** : فتدرس اللغـة المستعملة فى الحمـلات الانتخابية تحريضا على انتخاب مرشح وتنفيرا من انتخاب سواه ، مع بيان اختلافها باختلاف طبقة الناخبين والمرشحين ؛ واللغة المتصلة بالتقسيم الادارى للـدوائر الانتخابية ، وباعطاء الأصوات و « فرزها » واعلان نتيجة الانتخاب ؛ ولغة القوانين التى تصدرها الدولة فيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ ولغة الصحف والمجلات والاذاعة فى هذا الشأن ؛ وتعليقات الجماهير على كل أولئك ، وما سوى ذلك من جوانب استعمال الكلام الانتخابى . كل هذا يدرس وصفيا وتاريخيا فى اللغة الواحدة . ولو درس فى العربية المستعملة فى مصر منذ أول عهدها بالحياة الانتخابية حتى أيامنـا لاتضح لنا كيف ماتت كلمات ، وحيّت أخرى ، وتبدلت دلالات ثالثة ، ولظهر لنا كيف تغيرت وسائل الاقناع تمشيا مع ازدياد الوعى الانتخابى للجمهور المصرى نتيجة لما خاضه من تجارب ، ولتقدمه الحضارى بوجه عام .

(٣) ودراسة **لغة المراسيم** التى يصدرها رئيس الدولة فى الشئون السياسية ، كتكليف وزارة بالحكم ، أو اقالة وزارة ، أو افتتاح البرلمان أو تأجيله أو تعطيله على جانب من الاهمية . ولو نظرنا مثلا فى لغة مرسوم اقالة وزارة مصطفى النحاس (باشا) من الحكم سنـة ١٩٣٧ ، وفى لغة مرسـوم تكليـف الـوزارة التى وليتـه فى الحكم ، ثم فى لغة مرسوم تكليف مصطفى النحاس بالحكم مرة أخرى بعد ذلك ، وربطنا كل ذلك بظروفه لظهر لنا كثير من الحقائق عن الوظيفة التى يمكـن أن تؤديها اللغة . كما أن دراسة لغة « خطب العرش » تظهر لونا من ألوان استعمال اللغة فى الميدان السياسى .

(٤) وتحليل **المفردات والتعبيرات المستعملة فى الحروب** تمهيدا لها ، وأثناءها ، وبعَيْدها من شأنه أن يقدم لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها . فى الحرب العالمية الثانية اتخذت كلمة « الديمقراطية » لونا جديدا ، وتغيرت دلالة « الحلفاء » فبينما كانت تتضمن فى نظر «الغربيين» بغضا للروس لأنهم لم يكونوا «حلفاء» من قبل ، أصبحت أثناء الحرب الثانية تعنى ـ من جملة ما تعنيه ـ مشاركة الروس فى التخلص من عدو مشترك . كما أن عبارتى « العالم الحر » و « الأمم الحرة » كانتا أثناء الحرب تدلان على جملة الشعوب المعادية لألمانيا واليابان وايطاليا ولكن بعـد أن اشتدت « حرب الأعصاب » بين « الكتلة الشرقية » و« الكتلة الغربية » بعـد انتهاء الحرب أخذت هاتان العبارتان تنطويان على المعاداة للكتلة الشرقية . كمـا أن الكلمات الانجليزية المقابلة لـ « العرق ، والدم والدموع » التى وردت فى خطاب لونستون تشرشل ، أثناء الحرب ترمز عند الانجليز وعند كثير من حلفائهـم الى وجوب موالاة الجهود ، والدأب ، والصبر ، والتماسك لاحراز النصر .

(٥) وتذكر لغة الحرب بلغة « السلام » والدعوة اليه ، والتحذير من الانسياق الى الحرب .

(٦) وان تحليل **«التعبيرات الدلالية»[1] التى تصـحب الثورات والانقلابات** لأمر على جانب كبير من الأهمية والطرافة . فالحركات الثورية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية ، والثورة المصرية سنة ١٩١٩ تنعكس فى اللغة قيمها ومعنوياتها والدفع الذى

---

(1) Semantic Shifts . . . . . .

تحدثه . ويبرز ذلك ، أظهر ما يبرز ، فى أنها تميت كثيرا من الكلم اذ تميت أو تريد أن تميت كثيرا من التقاليد والأفكار والعادات ؛ وفى أنها تحيى وتخلق كثيرا من الكلم اذ كانت بطبيعتها الثورية تحيى وتخلق وتريد ان تحيى وتخلق كثيرا من القيم وطرق الحياة وفهمها ؛ وفى انها تغير دلالات كثير من الكلم اذ كانت بطبيعتها ملحقة التغيير فى كلا الميدانين الروحى والمادى .

ولو درسنا **أثر التاريخ الثورى لمصر الحديثة فى اللغة لاتضحت لنا حقائق كثيرة** فالثورة العرابية التى كانت تتضمن ، فى جملة ما تتضمنه ، احياء القومية المصرية أضافت الى كثير من الكلمات معانى الهزء والسخرية ، والى غيرها كـ « مصر » و « المصرى » و « الفلاح » و « الفلاحون » معانى الاعتزاز والفخار .

اما **ثورة** سنة ١٩١٩ فمن العبارات التى تذكر بها « الهلال مع الصليب » رمزا الى الأخوة والتماسك بين المصريين مسلمين وأقباطا ، ودعوة الى احباط التدخل الأجنبى للتفريق بينهما ؛ ومن ذلك اشارة المسلمين الى الأقباط بقولهم « اخواننا الأقباط » . ومما يلاحظ أن كثيرا من مواليد بعد الثورة قد سموا بـ « سعد زغلول » أو « سعد » وبـ « صفية » « أم المصريين » . وما من شك فى أن لغة الأغانى والأناشيد المصرية قد غيرها تغييرا كبيرا ثورة سنة ١٩١٩ ؛ وربما ساغ لنا القول بأن النشأة الحقيقية للأناشيد المصرية الوطنية مرتبطة بثورة ١٩١٩ . وقد غيرت هذه الثورة من أسلوب الصحافة خاصة ومن أسلوب التعبير الكتابى والكلامى عامة ، فأخذ يخلص من كثير من الزخرف والزينة والقيود التى لا طائل من ورائها ، ويسلس ويستقيم ، فان ما أحدثته الثورة من تنشيط وتحريك ، وما رفعته عن الناس من خمول ، وما ألجأت اليه من سرعة فى الفعل قد انعكس صداه فى اللغة . وان ما بين أيدينا من حقائق عن ثورة سنة ١٩١٩ يدل على أن أثرها فى العاميات العربية وفى العربية الفصحى فى مصر وفى سائر الأقطار العربية أثر خطير ينتظر من يكشف عنه فى تفصيله وجملته ، ومن يقومه التقويم الصحيح .

واما **ثورة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢** فلها كذلك ، شأن كل ثورة ، آثارها فى اللغة . فما أحدثته هذه الثورة من **الغاء الألقاب** قد حكم بالموت على كثير من الكلمات والعبارات من لغة الكتابة بوجه خاص . فلم تعد تستعمل ، بالنسبة الى

المصريين ، كلمات مثل « حضرة » و « أفندى » و « بك » و « باشا » ، و « صاحب العزة » و « صاحب السعادة » و « صاحب المعالى » و « صاحب الرفعة » و « صاحبة العصمة » و « البرنس » و « الأمير » و « الأميرة » و « سمو الأمير » و « سمو الأميرة » ، و « الملك » و « صاحب الجلالة » و « وجلالة الملك » و « الذات الملكية » و « الملكة » و « صاحبة الجلالة . . . » و « الملكة الوالدة . . . » الخ كما لم تعد تستعمل تصرفات كثير من هذه الكلمات والعبارات فى التأنيث والتثنية والخطاب والاشارة . وما من شك فى أن كثيرا من هذه الألقاب قد استمر فى لغة الأحاديث الخاصة بين طوائف من الناس ، فكثير من الأحياء من أصحاب هذه الألقاب ظلوا يخاطبون بألقابهم وبما يتصل بها من صفات ، اما لاصرارهم على أن يخاطبهم أتباعهم والمحافظون لهم بهذه الألقاب ، واما تأدبا من المتكلمين خشية أن يشعروهم بأن منزلتهم قد عراها النقصان ، واما لهذين معا ، أو لغير ذلك من الأسباب . والروايات كثيرة على غضب كثير من حملة هذه الألقاب أو امتيائهم — فى أوائل العهد بالغاء الألقاب خاصة — عندما يخاطبون مجردين من ألقابهم . وقد كان يحدث ، أول الأمر ، عندما تحوج الاشارة فى الكتابة الى أحد من حملة الألقاب أن يوضع اللقب بين قوسين ، أو أن يردف اللقب بكلمة « السابق » أو « السابقة » أو « سابقا » ، ثم أخذ الناس يكتفون بذكر الاسم مجردا عن اللقب فى الأغلب . ولكن ثورة الجيش ، وقد ألغت الألقاب المشعرة بالفوارق الطبقية الكبيرة ، أوجدت لقبا جديدا هو « السيد » (ومؤنثه « السيدة ») يطلق على المواطنين المصريين كافة ، وبهذا أعطت هذا اللقب دلالة جديدة لم تكن له . وهذا اللقب فى العربية فى مصر يختلف عن Mister فى الانجليزية ، و Monsieur فى الفرنسية و Her فى الألمانية فهذه الألقاب تطلق على السواد الأعظم من الانجليز والفرنسيين والألمان أولئك الذين لا يحملون ألقابا مثل Sir و Lord و . . . الخ . وباستعمال « السيد » بهذا المعنى استصلت معه عبارات مثل « سيادتكم » و « سيادة » فلان ، و « سيادته » عند الخطاب والاشارة .[1]

---

(١) تظهر دراسة لقب « السيد » وتصرفاته فى العربية دراسة تاريخية أن هذا اللقب ذو تاريخ طويل متطور ، اصطنعه العرب فى جاهليتهم واسلامهم واستعملته الأمم التى اتخذت العربية بعد اسلامها ، وبعض الأمم الاسلامية الناطقة بغير العربية ، وهو =

= لا يزال قائما فى ايامنا، واعطى فى مصر دلالة جديدة بعد ثورة الجيش سنة ١٩٥٢؛ وقد انتقل هذا اللقب من العربية الى بعض اللغات الاوروبية . وقد استعمل مؤنثة «السيدة» لقبا ، كما استعمل مثناه وجمعه مذكرين ومؤنثين « السيدان ـ السيدتان ـ السادة السيدات » .

ورد هذا اللقب فى الشعر والنثر وفى القرآن الكريم (والقرآن نفسه قد لقبه أبو اسحق الزجاج بـ « سيد الكلام » ؛ انظر لسان العرب مادة « سود ») وفى الحديث الشريف ، ولم يكن قاصرا على الفصحى . وتتبع استعمالات هذا اللقب فى العصور المختلفة يظهر أنه لم يكن فى عصر من العصور ذا دلالة واحدة بل هو فى العصر الواحد يدل على اكثر من معنى ؛ ولكن استعمالاته جميعا ينتظمها معنى التعظيم والتشريف والتفضيل والتبجيل ؛ وقد تكون الفضيلة التى يطلق بسببها هذا اللقب سموا فى الخلق أو براعة فى العقل ، أو شرفا فى النسب ، أو كمالا فى الجسم ، أو امتلاكا لغير هذا من أسباب السلطان والبروز . ولما كانت هذه المعانى هى الاساس فى اطلاقه اتضح انه يتأتى اطلاقه على كثير من القوى ؛ وعلى كثير من الاشخاص والحيوان والاشياء ؛ وهذا الذى كان .

كان «السيد» يطلق فى الجاهلية على «الملك» رئيس القوم ، سواء كان رئيس قبيلة او رئيس عشيرة أو ادنى من ذلك ، وعلى من يقدمه القوم على انفسهم ، وعلى من يتكلم باسمهم فى أمر من الأمور ، (قال زهير بن ابى سلمى فى معلقته مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن عوف :ـ

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

وقالت الخنساء عن أخيها صخر :

السيد الحجاج وابـ ... ـن السادة الشم الجحاجح)

وكان يطلق على غير رئيس القوم ان برزت فيه صفة يعلى مجتمعه من شانها كالشجاعة الفارطة ، وكالحلم البالغ ، واحتمال اذى الناس ، والاغراق فى السخاء ، ورجاحة العقل ، والتفوق فى المال . كما كان يطلق على كبير السن .

وممن أطلق عليه لقب السيد فى الجاهلية مولى العبد أى صاحبه لأنه مالكه ، واستمر استعمال السيد فى هذا المعنى طوال نظام الرق .

ويبين ما أثر من النصوص الجاهلية ان زوج المراة كان يلقب بسيدها (وجاء فى القرآن قوله تعالى « وألفيا سيدها لدى الباب » أى بعلها) .

وكما كان « السيد » يطلق على الشريف والوفيع والمالك من الاشخاص فلقد كان يطلق من قديم على « المسن » من المعز (قال الشاعر :

سواء عليه شاة عام دنت له ... ليذبحها للضيف أم شاة سيد

ومنه الحديث : ثنيٌ من الضأن خير من السيد من المعز) . =

= وكان الحمار الوحشى يسمى سيد انثاه ، وأطلق « السيد » على رئيس الجن :

جنٌ هتفن بليل ... يندبن سيّدهنّه

وفى القرآن الكريم استعمل السيد بمعنى الزوج (وألفيا سيدها لدى الباب) ، وسمى الله تعالى يحيى سيدا وحصورا أى أنه فاق غيره عفة ونزاهة عن الذنوب او بمعنى الرئيس والامام فى الخير ، أو لغير ذلك من أسباب التقديم .

وفى الحديث الشريف أن النبى (صلعم) سمى الله ـ تبارك وتعالى ـ «السيد» (جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال . «أنت سيد قريش ؟ »، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «السيد الله»، فقال: «أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طَوْلا»، فقال النبى (صلعم) «ليقل احدكم بقوله ولا يَسْتَجْرِينّكم») . وصفة الله جل ذكره بالسيد معناه الله انه مالك الخلق والخلق كلهم عبيده . ونحسب أن وصف الله و «الرب» والمعبود بالسيد أقدم من هذا . وهذا القول من الرسول تواضع وكراهة أن يمدح فى وجهه ؛ ولا شك أن الرسول (صلعم) كان يفضل ان يلقب بنبى الله ورسوله لا « بالسيد » هذا الذى كان يسمى به العرب رؤساءهم ، كما ورد فى بعض الأحاديث (فى لسان العرب مادة « سود » : وقيل فى معنى قوله لهم لما قالوا له انت سيدنا وقال قولوا بقولكم ؛ أى ادعونى نبيا ورسولا كما سماني الله ولا تسمونى سيدا كما تسمون رؤساءكم فانى لست كأحدهم من يسودكم فى أسباب الدنيا) .

وقد روى عن الرسول (صلعم) استعمال السيد فى بعض ما كانت تستعمله فيه العرب فقد روى أنه قال للأنصار « قوموا الى سيدكم » يقصد سعد بن معاذ ، وأنه سأل الأنصار مرة « من سيدكم » قالوا «الجد بن قيس على أنا نبخّله» قال: وأى داء أدوى من البخل ؟ » . وروى عن الرسول قوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ولما كان السيد فى الجاهلية لقبا يرفع من أشخاص ويضع من آخرين ، ولما كان الاسلام يدعو الى التسوية ، ويهدف الى القضاء على الغرقة فقد روى عن محمد (صلعم) أنه قال : « كل بنى آدم سيد : فالرجل سيد أهل بيته ، والمراة سيدة اهل بيتها . » وقال الرسول للحسن بن على : « ان ابنى هذا سيد وان الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . كما سمى الرسول على بن ابى طالب « سيد العرب » و « سيد المسلمين » ، ولقب الحسين بن على بأنه « سيد شباب أهل الجنة » ولقبه هو والحسن بأنهما « سيدا شباب أهل الجنة » وقال الرسول عن فاطمة الزهراء انها « سيدة نساء أمتى » أو « سيدة نساء هذه الأمة » أو «سيدة نساء العالمين» و «سيدة نساء أهل الجنة » . وهذه الأحاديث فى على وزوجته وولديه قد يميل بعض الباحثين الى الظن بأنها من صنعة الشيعة فى عصر متأخر .

كان الصحابة يخاطبون الرسول أحيانا بـ «سيدنا» ويشيرون اليه بـ «سيدى» ، وفى حديث عائشة أن امراة سألتها عن الخضاب فقالت : كان سيدى رسول الله (صلعم) يكره ريحه ؛ وهذا اللقب قد ينصرف هنا الى معنى السيادة تعظيما للرسول أو الى =

= ملك الزوجية ؛ وقد اطلق هذا اللقب على بعض كبار الصحابة ومن ذلك حديث أم الدرداء « حدثني سيدى أبو الدرداء » و « سيدى » هنا يصدق عليها ما يصدق على « سيدى » فى النص السابق. وقد رأينا فى الأحاديث النبوية السابقة أن من الصحابيات اللائى سمين بـ « سيدة » فاطمة الزهراء .

وفى **الشعر العباسى** امثلة تشهد باستعمال « سيدتى » و « سيدى » خطابا للمحبوب . قال أبو العتاهية :

الا ما لسيدتى مالها أدلا فأحمل ادلالها ؟

وقال البحترى :

سيدى انت ما تعرضت ظلما فأجازى به ولا خنت عهدا

ومن اشهر الاستعمالات الاسلامية للسيد وللسيدة ، وتصرفاتهما فى التثنية والجمع ؛ اطلاقها على العلويين والطالبين . وقد ظهر هذا الاستعمال بشكل مستفيض ابان اضمحلال الدولة العباسية ؛ وهو فى هذا شبيه بلقب « الشريف » . والارجح ان هذا الاستعمال السيد ومتصرفاته كان متأثرا بالأحاديث النبوية التى تلقب كلا من على ابن أبى طالب والحسن والحسين بالسيد، والتى تلقب فاطمة بالسيدة؛ ان صحت هذه الأحاديث ؛ وقد أوردنا بعضها فيما تقدم. كان العلوى أو الطالبى — ولا يزال يلقب «السيد» أو «السيد الشريف» أو «الشريف السيد». أحالت مادة Sharif فى دائرة المعارف الاسلامية فى وصف افراد من العلويين بلقب سيد على كتاب « عمدة الطالب فى أنساب على بن أبى طالب » لابن مهنى طبعة بومباى ١٣١٨هـ ص ٥١ سطر ١٦ ؛ ص ٥٢ س ٢ ، ص ٥٤ س ١٠ ، ص ٥٩ س ٢ ، ٦ ، ٩ ، ١٦ ؛ ص ٦٥ س ١٥ ؛ ١٧ ص ١١٧ ، ص ١٤٢ س ٧ ؛ ص ١٤٩ س ٩ ؛ وعلى « تاريخ الاسلام » للذهبى مخطوط فى ليدن 1721 الذى يضيف هذا اللقب الى الامام الثانى عشر على بن محمد f. 85 a . واحالت هذه المادة نفسها فى استعمال اللقبين « السيد الشريف » و « الشريف السيد » على نهاية الأرب للنويرى ط. القاهرة ١٣٤٢هـ، حـ ٢ ص ٢٧٧ سطر ١٢ ؛ وعلى « العقود اللؤلؤية » للخزرجى Gibb. Mem. Ser. ١٩١٣م، حـ ٢ ص ٣١٤).

وقد أطلقت « السيد » كذلك على **الصوفى ، والولى ، والجليل من الفقهاء** وأطلق جمعها « السادة » أو « السادات » على الجماعة من كل هؤلاء ، ومن ذلك « السادة الصوفية » ، و « السادات الأولياء » (انظر الشرجى : طبقات الخواص ، القاهرة ١٣٢١هـ ص ٢ س ٩ ، ص ٣ س ١ ؛ ص ١٩٥ س ٣ — عن دائرة المعارف الاسلامية مادة Sharif و « السادة الأعلام » (ابن حجر الهيتمى : الفتاوى الحديثة ص ١٢٤ س ٤ — عن دائرة المعارف الاسلامية مادة Sharif)

وتستعمل « السيد » لقبا فى **بعض البلاد الاسلامية التى لا تتكلم العربية** كايران وتركيا والهند والملايو . =

وبالاضافة الى « سيد » يستعمل فى فارس لقب « مير » (من « أمير ») وكان هذا اللقب شائعا فى تركيا والهند كذلك . أما فى مناطق من الملايو فيستعمل بالاضافة الى « سيد » لقب « حبيب » (بمعنى « محب » أى للنبى أو بمعنى « محبوب » اى أى محبوب منه) وهذا اللقب يستعمل كذلك فى مناطق من بلاد العرب .

أما « سيدى » ؛ وبالعامية « **سيدى** » فهو الآن شائع الاطلاق فى البلاد العربية والاسلامية المختلفة على الأولياء والأخيار (ومن ذلك فى الاسكندرية : سيدى جابر — سيدى ياقوت العرشى — سيدى أبو العباس . وسمعت فى بنغازى سيدى عبدالسلام — سيدى خليفة سيدى غريب . . الخ) ومن الواجب تتبع استعماله فى هذا المعنى من الناحية التاريخية . ومن الملاحظ ان « سيدى » بهذا المعنى كثير الورود فى كتاب ,, لواقح الانوار فى طبقات الأخيار ،، الشعرانى ، ط. القاهرة ١٣١٥هـ.

ومن استعمالات « سيدى » الحالية فى بعض البلاد العربية اطلاقه على الرؤساء تعظيما واحتراما ؛ واكثر من هذا شيوعا اطلاقه على كبير السن والمقام . وفى كثير من البلاد العربية يخاطب رب الاسرة لا سيما من يقومون على خدمته ، وزوجته كذلك فى بعض البلاد وفى بعض الأوساط بـ « سيدى » ؛ كما يشار اليه بنفس اللقب ، بينما تخاطب ربة الاسرة ويتحدث عنها ، من خدمها وممن يقل عنها شانا بـ « ستى » . وقد ذكر لى استاذى الدكتور طه الحاجرى انه فى ريف بنى سويف من صعيد مصر لا يخاطب الخادم « سيده » بـ « سيدى » بل يخاطبه بـ « يا عمى » ، أما العم الحقيقى اخو الأب فيخاطب ويتحدث عنه بـ « أبويا » فـ « أبويا على » معناها عمى على .

وفى مصر تستعمل « سيد » مضافة الى الضمائر المناسبة فى الأكثر بمعنى الجد (أبى الأب أو أبى الأم) ويقابل هذا فى المؤنث « ست » مضافة الى الضمائر المناسبة بمعنى الجدة (أم الاب ، أو أم الأم) وسمعت فى بنغازى « سيدى » بمعنى عمى أخى أبى .

وفى كثير من البلاد العربية يخاطب السائلون من يرجون «حسنتهم» بـ «يا سيدى» (ومن ذلك فى مصر : « حسنة يا سيدى » و «شىء لله يا سيدى») ان كان المسئول رجلا و «يا ستى» ان كان امرأة .

وتستعمل فى مصر عبارة « **سيدى يا سيدى** » فى أحوال خاصة كالتعريض بحسناء مختالة مزهوة .

ويستعمل فى معظم البلاد العربية مختصر لـ « سيدى » هو « سى » ، ومما هو جدير بالملاحظة أن « سى » فى مصر له حالات من الاستعمال ؛ ولا يجوز ان يحل محل « سيدى » فى بعض الحالات ؛ فلا يقال « سى ياقوت العرشى » ولا يخاطب الخادم رب الأسرة أو يتحدث عنه، وخاصة اذا كان رب الأسرة كبير السن بـ «سى أحمد» مثلا؛ وأكثر ما يستعمل فيه هذا اللقب احترام **الشباب** خاصة ؛ وقد تتحدث الأم نفسها عن =

. . . . . .

= اينها الشاب بـ « سي فتحي » وقد تخاطبه بهذا اللقب .

أما «سَيِّدُنا» (و «سَيِّدُنا» في العامية) فلا يزال كثير الاطلاق على الرسول (صلعم) وعلى الصحابة (سيدنا محمد ـ سيدنا أبو بكر ـ سيدنا عمر ـ سيدنا عثمان ـ سيدنا علي) وعلى الأنبياء والرسل والملائكة (سيدنا نوح ـ سيدنا يوسف ـ سيدنا موسى ـ سيدنا جبريل) . وقد لاحظنا أن اطلاق سيدنا على هؤلاء قديم . وفضلا عن هذا الاستعمال فان « سيدنا » تطلق في ريف مصر على معلم الصبية في الكتاب . و «سِتّنا» وهي مختصرة من « سيدتنا » ، تطلق في مصر على أمثال « خديجة » زوج الرسول ، وعلى أمثال « زينب » و « عائشة » و « نفيسة » ؛ ولكن لا يجوز أن تلقب احدى هؤلاء بـ « ستي » فلا يقال « ستي زينب » الخ .

وقد شاع في العصر الحديث في كثير من البلاد العربية التمييز بين المتزوجة والبكر ـ لا سيما في لغة الكتابة ـ بتلقيب الاولى « **السيدة** » وبتلقيب الثانية « **الآنسة** » ، وقد ذكرنا أن تسمية الزوجة بـ « السيدة » تسمية جد قديمة ترجع الى العصر الجاهلي.

أما **ستّ** » (مختصر سيدة) و « **ستي** » (مختصر « سيدتي ») و « **ستنا** » (مختصر « سيدتنا ») فهي كثيرة الاستعمال في كل البلاد العربية ، وقد أشرنا الى بعض استعمالاتها . ويبدو أنها ـ أو «ستي» على الأقل ـ قديمة الاستعمال ؛ وقد وردت في بيت لأبي العلا المعري في رسالة الغفران ، قال :

ست ان أعيـاك امرى فاحملينى زُقّفونا

وقد اطلق لقب « **السيد** » و « **سيدي** » **على جماعة من غير المسلمين** اشهرهم البطل المسيحي الاسباني رودريجو دياز Rodrigo Diaz da Vivar الذي لقب بـ « **السيد** » وغلب هذا اللقب على اسمه . وهو من أشهر أبطال فرسان قشتالة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نبيل قشتالي (ولد سنة ١٠٢٦م أو سنة ١٠٤٠م) ؛ وقد عاون صاحب قشتالة Sancho II على توسيع رقعة مملكته واصبح أمير جيشه بلقب Campeador (من اللاتينية Campeator التي كان العرب يكتبونها « الكنتبيطور » ـ يلاحظ أن النون في هذا الموضع تنطق ميما وهي بمعنى « مبارز » أو « براز ») عاون رودريجو بخالص نصحه صاحب نشتالة على أن يصبح حاكم مملكة « ليون » Leon وذلك بأسره اخاه الفونسو . ولكن بعد مقتل صاحب قشتالة تولى امرها أخوه الأسير الفونسو السادس ، وكان يحقد على رودريجو فنفاه خارج ممتلكاته . ومن ذلك الوقت أخذ رودريجو يحارب المسلمين او المسيحيين خدمة لطرف ثالث أو خدمة لنفسه . ثم عرض رودريجو خدماته على أحمد بن سليمان المقتدر صاحب سرقسطة Saragossa فضمه المقتدر الى جيشه هو وجنوده المرتزقة . وقد مات المقتدر في نفس السنة التي انضم اليه فيها رودريجو وجنوده؛ وتولى حكم سرقسطة بعده ابنه يوسف المؤتمن؛ وظل رودريجو في خدمة المؤتمن ، وتولى ابن آخر للمقتدر هو المنذر حكم مقاطعات اخرى. =

وقد اقتضى تحول مصر من النظام الملكي الى النظام الجمهوري حذف «ملكي» (أو « ملكية » وما اليها) من العبارات التي كانت ترد فيها صفة لها فأصبح يقال : « الجمهورية المصرية » و « القصر الجمهوري » و « الديوان الجمهوري » و «مرسوم جمهوري» و «جيش الجمهورية» و «ملاح الطيران الجمهوري» الخ .

وقد نتج عن قضاء ثورة الجيش على الاحزاب التي كانت موجودة قبل قيامها، وعن تحديدها للملكية الزراعية أن أصبحت بعض كلمات وعبارات تهمة يخاف الناس أن يوصفوا بها مثل « حزبي » ، أو « وفدي » ، أو « اخواني » (من « الأخوان المسلمين ») ، أو « اقطاعي » ، أو « من كبار الملاك » .

وقد كثر استعمال كلمة « **التحرير** » مع ثورة الجيش فهناك « هيئة التحرير » و « مديرية التحرير » و « جيش التحرير » . ومن العبارات والكلمات التي كثر استعمالها مع الثورة « الاتحاد والنظام والعمل » و « العزة » و « الكرامة » و «القومية العربية» و « التأميم » (بعد تأميم شركة قناة السويس بصفة خاصة).

واستعملت في مصر عبارات دالة على منظمات لم يكن لها وجود مثل « الحرس الوطني » .

= وما لبثت الحرب أن شبت بين الأخوين وقد تحالف المنذر مع مسيحيين هما ملك أرجون Argon وصاحب برشلونة . وسرعان ما أحرز رودريجو نصرا بينا على اعداء سيده المؤتمن على الرغم من تفوقهم العددي ؛ وغنم مغانم كبيرة ؛ وأسر صاحب برشلونة ثم أطلق سراحه متكرما ؛ ولما عاد الى سرقسطة استقبل استقبالا باهرا وأغدق عليه المؤتمن الهدايا ، وعلا شأنه في نظر المسلمين من جنده فأخذوا من ذلك الوقت يلقبونه بـ « سيدي » و (وهي بالعامية « سيدي ») وقد ترجمت الى الاسبانية بـ mio Cid (ويلاحظ أن قصيدة Cid ال المشهورة كانت تسمى أصلا El Cantar de mio Cid) وكثر استعمالها في الاسبانية بهذه الصورة او بحذف ضمير الملكية وهو mio (الكلام عن رودريجو مأخوذ عن مادة Sid دائرة المعارف الاسلامية) . ومن الاسبانية انتقلت كلمة « سيد » الى غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الملاحظ أن « السيد » كان يطلق في اسبانيا الاسلامية على المسلمين ؛ ومن ذلك « ابن السيد البطليوسي » العالم المشهور ؛ والكلمة بهذه الصورة ، أي بالألف واللام وبكسر السين » لا تستعمل في بلاد عربية شرقية كمصر مثلا ، وهي لا تزال تسمع في مراكش .

وكما يحدث فى كل الثورات والانقلابات فقد طرأ تغير على **اسماء الأعلام** كأسماء الشوارع والمحلات والأماكن والاشخاص ، فغيرت أسماء شوارع كثيرة كانت معروفة بأسماء أجنبية أو بأسماء مصريين اعتبروا أعداء للشعب كأسرة محمد على بأسماء تتلاءم والوضع الجديد كـ «طريق الجيش» و « طريق ٢٦ يوليو» و «ميدان التحرير» ؛ وأصبحنا نطالع على واجهات بعض المحلات والمنشئات « مطعم الجمهورية » « كازينو التحرير » ، « قهوة النصر » ، « سينما الجلاء » .

واذ كانت مصر لا تتعاون مع روسيا أيام الملكية فقد كان يحيط بكلمات مثل « روسيا » و « روسى » و « سوفييت » و « سوفييتى » و « الشيوعية » و «شيوعى» و «الماركسية» و «ماركسى» شىء من الخوف والغموض، ولكن هذا قد زال بعد ما قام من تعاون بين الدولتين حديثا .

(٧) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة **اللغة التى تستعملها الدول المتحالفة او المتجاورة او التى تربط بينها روابط اخرى** غير التحالف والتجاور أو فضلا عن أحدهما أو كليهما ، فى حديثها بعضها عن بعض ، وفى الاشارة الى ما بينها من صلات . ومن ذلك اللغة المستعملة فى مصر عن السودان ، وفى السودان عن مصر ، واللغة المستعملة فى العلاقات بين الدول العربية والاسلامية . فنحن فى مصر نشير الى السودان بـ « جنوب الوادى » و « الأخ الشقيق » ، والى السودانيين بـ « اخواننا السودانيون » ، ويصفون مصر فى السودان بقولهم « شمال الوادى » . ومن العبارات ذات الأثر فى الشعوب العربية والاسلامية « الرابطة الاسلامية » و « الجامعة الاسلامية » و « الجامعة العربية » و « العروبة » و « الأخوة فى العروبة » و « القومية العربية » و « الدفاع عن العروبة » و « فلسطين الشهيدة » و « وحدة اللغة » و « وحدة التاريخ » و « التاريخ المشترك » و « المؤتمر الاسلامى » ؛ وان لكل من هذه العبارات تاريخه الذى يجب أن يبين .

(٨) ومما يدخل فى لغة السياسة **لغة البيانات السياسية** التى تصدرها دولة باسمها، وتلك التى تصدر بالاشتراك بين دولتين أو أكثر ؛ **ولغة الاتفاقات الدولية** ؛ ولغة قطع العلاقات الدبلوماسية بين دولتين ، او لغة اعادة هذه العلاقات ؛ ولغة انشاء علاقات دبلوماسية بين دولتين لم تكن هذه العلاقات قائمة بينها ؛ ولغة طلب ابعاد

بعض الممثلين الدبلوماسيين ؛ ولغة الانذارات الدولية . . الخ .

(٩) كما أن **للمعاهدات والاتفاقات الدولية** ، حربية وسياسية واقتصادية وثقافية وللصلح ولعدم الاعتداء **لغتها الخاصة** بها . وهذه اللغة يكثر فيها أمثال «الصداقة» و «المودة» و «الأخوة» و «التحالف» و «المصلحة المشتركة» و «المصلحة المتبادلة» و « تبادل المنافع » و « العدو المشترك » و « تنمية الموارد » و « المساعدة على النهوض » و « اقرار السلام » و « تدعيم الاقتصاد » و « العدو المشترك » .. الخ. وهذه الكلمات والعبارات ، كما هى الصفة الغالبة على معظم المصطلحات السياسية تخفى الأفكار الحقيقية ، أو هى تدل عليها بطريق آخر ، طريق المجاز ؛ ولذلك قيل[1] انه ربما لا يبرر أى قسم من أقسام الكلام الانسانى قول من يقول ان الوظيفة الأساسية للغة هى « اخفاء » الفكر لا « اظهاره » كما يبرره استعمال الكلام فى المجال السياسى .

(١٠) وان **مخاطبة الجماهير التأثير السياسى** تنتظر أن تدرس الدرس العلمى الفصل . ودور « البلاغة » أو الفن الكلامى فى هذا المجال لا يقل عن دور الحيل النفسية التى يلجأ اليها الخطباء . ان دراسة لغة كيكرو (شيشرون) لا سيما فى خطبه الكتلينية دفاعا عن شرفه ومجده السياسى ، وهجوما على أعدائه وأعوانهم ، وفضحا لمؤامرتهم وخبثهم لتظهر كيف أمكن للغة فى استعمال خاص لها أن تحدث فى الجمهور تلك التأثيرات التى تركتها تلك الخطب فى نفوس مستمعيها . وخطب الحجاج بن يوسف الثقفى كانت آلة ارهاب ووسيلة ردع واخماد . وخطب مصطفى كامل وسعد زغلول كانت مثيرة للشعور القومى من رقدته ، وموقظة للنهضة المصرية ، ودافعة بها قدما .

ومن السمات العامة فى مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى استعمال الكلمات القديمة الغامضة المعنى ، والكلمات ذات الرنين والطنين ، وتلوين الكلام بلون دينى وذكر المقدسات، والاشارة الى الفضائل كالشرف والتضحية والاقدام ، وتمجيد المواقف المشهورة فى تاريخ الأمة ، واقتناص العبارات التى يمكن ثبوتها فى الأذهان

(١) انظر Margaret Selanch, op. cit., p. 290 . والقائل بأن وظيفة اللغة هى اخفاء الأفكار هو تاليران Talleyrand الفرنسى .

ودورانها على الألسنة والأقلام ، واقتباس المشهور المحفوظ من مؤثر الكلام. وقد لوحظ[1] فى استعمال الانجليزية الحديثة فى هذا المجال أن الخطباء يلجأون الى ضمائر قديمة مثل thee و thou و ye ، والى نهايات أفعال طال العهد على اهمالها (مثل giveth) ، والى تركيبات لم تعد مفهومة هذه الايام مثل ! Woe worth the day! ، والى عبارات من الكتاب المقدس وأنهم يتحدثون عن الدفاع عن « أبواب » المدينة gates أو « أسوارها » walls مع أنه لم يعد شىء من ذلك قائما ، وذلك عندما يقصدون الى التأثير فى الشعور أكثر من التأثير فى العقل .

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩

اللغة والحياة الاقتصادية

(أ) ان اللغة المستعملة فى الجوانب المختلفة والمستويات المختلفة للحياة الاقتصادية تقدم للباحث اللغوى مادة خصبة يؤدى تحليلها الى نتائج قيمة. وهذه المادة يستقيها من أبسط صور النشاط الاقتصادى — كالبيع والشراء فى أبسط صورهما وأضيق حدودهما — الى أشدها تعقيدا ، وأوسعها نطاقا كأعمال الشركات الكبرى ، وأعمال المصارف ، وأسواق الأوراق المالية ، والنظريات الاقتصادية . ويلاحظ أن هذه المادة تتفاوت بتفاوت طبقات المتعاملين ، وبالوضع الحضارى للمجتمع ، وبسوى ذلك من أمور ؛ وهذا التفاوت يتبدّى فى كل جانب من جوانب النشاط الاقتصادى .

(ا) **فطريقة العد** وما فى اللغة أو اللهجة من أعداد ، لا يزالان عند بعض القبائل فى مرحلة بدائية ساذجة ؛ وهما يبلغان عند أعظم الأمم حضارة درجة عالية من التفصيل والتعقيد ؛ وهذان يختلفان عند أصحاب اللغة الواحدة حسب حظ المتكلم من الثقافة .

(٢) **ولغة « المساومة »** تقدم مادة طريفة لدارس اللغة. ويلاحظ أن المساومة مرتبطة بالبداوة أو بألوان من البداوة ، وأنها تقل أو تكاد تتبلور فى ايماءات ، أو كلمات شديدة الايجاز ، أو أنواع من الاستفسار فى الأمم المتحضرة التى تحيا حياة معقدة . ويلاحظ انه فى معظم الأحوال تكون « المساومة » عنصرا أساسيا من عملية البيع والشراء ، ويكون المشترى والبائع على أهبة للمساومة مقدما ؛ وأن الاطالة فيها تكون أحيانا نوعا من الدخول فى علاقات عن طريق الكلام ، ولونا من التسرية عن النفس ومن تزجية الوقت . وان تصنيف لغة المساومة حسب طبقات البائعين ، وطبقات المشترين ؛ وحسب مزجة هؤلاء وأولئك وطبائعهم ، وحسب السلعة موضوع البيع والشراء لأمر واجب على الباحث اللغوى .

(٣) و **« المزايدة »** لها لغتها الخاصة بها ودراستها تظهرنا على وظائف للغة فريدة .

(٤) ودراسة حيل البائعين والمشترين والوسطاء ، وألوان مغالطتهم وخداعهم وأفانين غشهم كما تبدو فى تعبيراتهم اللغوية موضوع له أهميته .

(٥) أمّا « **الاعلان** » فلغته مجال فسيح للباحث اللغوى . ودراسته فى صوره المختلفة ، من أبسطها وأشدها سذاجة كنداءات البائعين الى أكثرها تعقيدا وفنية ، تظهر استعمالات للكلام لتحقيق غايات معينة من أهمها جذب الانتباه وحصره فى موضوع بعينه ، والتشويق والترغيب ، للحمل على التملك والاقتناء . ان لغة الاعلان تخاطب فينا غرائز وحواس تختلف باختلاف الموضوع المعلن عنه ، فكلام الاعلان عن مأكول أو مشروب يوجه الى حواس غير تلك التى يتجه اليها كلام اعلان عن سيارة أو آخر عن دواء ، وهو يثير غريزة غير تلك التى يثيرها هذا أو ذاك . وسيلاحظ فى لغة الاعلان اختلافها باختلاف الوضع الحضارى للأمة : فنداءات **البائعين الجائلين** فى الجماعات البدوية والقريبة منها يكثر فيها اللجوء الى المجاز والتشبيه والى السجع وغيره من ضروب الترصيع ويبرز فيها على الجملة الاطالة فى المناداة ، والتغنى والتلذذ بالكلام . أما المجتمعات التى قطعت من المدنية شوطا كبيرا وتعقدت أمورها ولم يعد لها من الوقت ما تضيعه فى النداء وفى الاستماع اليه ، وقل فيها دور البائعين الجائلين ، فنداءات هؤلاء فيها تقتصر على أوجز عبارة وأدلها .

ثم ان نداءات البائعين تختلف باختلاف حظ الجماعة وحظ البائعين أنفسهم من الذكاء والحيوية : فالجماعات المولعة بالكلام وبـ « الفصاحة » والفكاهة نجد فيها أمثلة رائعة على المناداة على السلع ، أما تلك المعروفة بالميل الى الاقتصاد فى الكلام ، والى الانطواء على النفس والى التزمت والتوقر ، والى النفور من الصراخ والضجيج فهى قليلة الحظ من الابتكار فى هذا المجال .

ومن النداءات المسموعة فى الاسكندرية ، بالعامية ، والتى يتضح فيها اللجوء الى التشبيه والمجاز ، والوصف بالجودة وصفا أشبه بالتغزل ، المناداة على السمك البلطى بـ « يا غَرِيم السَّلالة يا بَلْطِى » ، وعلى العنب بـ « يا بِيضِ اليمامْ يا عِنَبْ » ، وعلى البلح « الأمهات » الذى يسيل شهدا بـ « يا مِينْ يِجِيب الأَتَاجِرْ ! » وعلى الفول المدمس بـ « اللوز ! » وبـ « الزغاليل ! » . ومن

الملاحظ أن من البائعين من يتفنن فى خلق نداءات جديدة ، ولا يكتفى بترداد المحفوظ المتوارث منها ، ومن ذلك أنى سمعت فى الاسكندرية بائع « شمام » ينادى على سلعته وهو يحملق فى حسناء مارة أمامه ويعرّض بها بقوله : « مِنْ بَرَّه حِلْو ومِنْ جُوَّه شَهْد » ! ومن النداءات ما يكتفى بذكر اسم السلعة ومن ذلك فى مصر « حليب » ، أو بذكرها مسندة الى البلد الذى ينتجه مثل «أَسْيُوطِى يا بَلَحْ» و «فَيُّومِى يا عنب » ، أو كذلك مضافا اليه وصفها بالجودة مثل « الكتاكيت الفَيُّومى عال » . وقد لاحظت أن أكثر المنادين على السمك فى مدينة بنغازى بليبيا يكتفون بذكر الاسم مكررا سريعا « حُوت حُوت ! بُورِى بُورِى ! »

وكثير من النداءات على السلع فى مصر يخاطب العاطفة الدينية فيتردد فيها الصلاة على النبى والتغنى ببركته مثل « صَلاةُ النَّبِى عَلَيْكْ يا عنب » و «صلاة النبى أحسن » و « صَلِّى على النبى » و « صلى على المصطفى » و « صلى على الزَّين » و « البنى حارِسَكْ يا مِشْمِشْ » . وعبارة « يا سلامْ عليكْ يا » مردوفة باسم السلعة طريقة مألوفة من النداء فى مصر .

أما **الاعلان المسموع عن طريق الراديو** ، فى بعض الأمم فهو لا يسف الى طريقة البائعين الجائلين ، ولكنه فى أغلب الأحيان لا يكون جادا كل الجد ، انما يعتمد أكثر ما يعتمد على العرض الرزين المشوّق معا ، وقد يتخذ صورة حوار بين اثنين أو أكثر ، وقد تصحبه موسيقى ، وقد يظهر كله أو جانب منه فى صورة أغنية أو « مونولوج » .

أما تلك **الاعلانات المكتوبة** على واجهات المحلات ، أو المطبوعة فى أوراق خاصة توزع على الجمهور أو على أدوات معينة كالتقويمات ، أو فى الصحف والمجلات ، وتلك التى تشاهد فى السينما والتليفزيون فهى تشترك فى صفات لما كانت جميعا تعتمد على الكتابة وينفرد كل منها بصفات حسب طبيعته المتميزة . ولغة الاعلان بكل طريقة من هذه يجب أن تدرس أولا على حدة .

ان اللغة المكتوبة تخاطب العين وهى لذلك تعتمد على الخط واللون والرسم والتصوير والزخرفة والضوء ، ويجتمع توجيه الخطاب الى العين والأذن معا فى اعلانات السينما والتليفزيون .

ومن الملاحظ أن الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات تختلف باختلاف الأحياء فى المدينة الواحدة ، وباختلاف مستوى المحل والمترددين عليه . والمتطلع الى واجهات المحلات فى حى سيدنا الحسين بالقاهرة يجد مكتوبا على الكثير منها اعلانات تتصل بالجو الدينى لهذا الحى ومن ذلك « كُلْ كبدة وكلاوى زين ، وصلى على سيدنا الحسين » و « كُلْ كبده وكلاوى زين واقرأ الفاتحة لسيدنا الحسين » . وهذه العبارات المستعملة فى حى الحسين لا تستعمل فى محلات شارع فؤاد وميدان التحرير . فالمحلات « الراقية » تلجأ الى اعلانات فيها شىء من الجد والوقار ، ولكن هذا لا يحول دون استعمال الكلمات والعبارات الجذابة ، والغريبة أحيانا ، ومن ذلك تسمية محل : « من غير اسم » .

وثمة طبقات من المحلات والهيئات تلتزم الجد فى اعلاناتها ، ومن ذلك الصيدليات ، اما لأنه لايجوز لها أن تظهر صفة التنافس واما لسوى ذلك من الأسباب .

والاعلانات فى الصحف والمجلات والسينما والتلفزيون يكون الكلام جزءا منها ولا يكون كل شىء ، انه عنصر من كل متكامل — أو يجب أن يكون كذلك — فالرسم والصور والألوان وتنسيقها ، وتنسيق ذلك مع الكتابة له دلالته .

والاعلان من طريق السينما والتليفزيون امكانياته الخاصة اذ يجتمع فيه الكلام المسموع ، والتصوير المنظور ، وبهذا يستغل ما يمكن استغلاله من الفن الكلامى بالاضافة الى ما يمكن استغلاله من التصوير والتمثيل والغناء والموسيقى والرقص .

ومن أول ما يلاحظ فى لغة الاعلان المكتوب أنه يكثر فيه استعمال الحروف الكتابية وعلامات النقط والترقيم استعمالا مخالفا للمألوف فى الكتابة العادية . فالكلمة أو العبارة قد تكتب — فى العربية مثلا — مقطعة الحروف حرفا حرفا لا موصولة الحروف ، وقد تكتب بصورة تختلف عن صورتها العادية اما ملاءمة للمادة التى تكتب بها خشبا أو حجرا أو معدنا أو غير ذلك ، واما مراعاة للموضوع المعلن عنه ، أو لهذين معا . أما علامات النقط والترقيم فقد اكتسبت فى لغة الاعلان دلالات جديدة : فقد يبدأ الاعلان بعلامة استفهام ليس قبلها كلام ، أو بعلامة تعجب ، أو بهما معا ، أو بمجموعة من النقط الأفقية ، أو بمجموعة من النقط الأفقية تعقبها علامة استفهام أو علامة تعجب . ومن الملاحظ أن علامات الاستفهام

والتعجب كثيرا ما تضاعف متوالية فى الاعلانات المكتوبة .

ولا شك فى أن الاعلان — أيا كانت صورته — يراعى فيه مناسبته الموضوع المعلن عنه ؛ والأمثلة كثيرة على أن عدم التوفيق فى اختيار الاسم أو الاعلان يؤدى الى الفشل والكساد ، بينما يؤدى التوفيق فيه الى الشهرة والاقبال .

(٦) ان دراسة اللغة المستعملة فى وجه النشاط الاقتصادى ممنوجة كذلك الى دراسة ألوان من الكلمات والتعبيرات تمتاز بالجفاف بالقياس الى ما قدمنا الكلام عنه . فلا بد من حصر جميع المصطلحات الخاصة بكل وجه من وجوه هذا النشاط وتقويمها التقويم الصحيح ؛ ويدخل فى ذلك مصطلحات التعاقد والاستئجار والشحن والتأمين ، ومصطلحات المراسلات ، ومصطلحات التسجيل فى الدفاتر ، والمصطلحات المستعملة فى « الفواتير » وفى الشهادات الخاصة بجودة السلع وسلامتها ووزنها ، ومصطلحات التقاضى حال الخلاف . وما من شك فى أن دراسة مصطلحات النظريات الاقتصادية نفسها من ألزم الأمور وأهمها .

(ب) ولغة كل من الحياتين الزراعية والصناعية تمثل ألوانا من العلاقات بين اللغة والمجتمع بعضها يتمثل فى استعمال اللغة فى غير هذين المجالين ، وبعضها يتضح فيهما أجلى مما يتضح فى سواهما .

(١) من المعروف أن لكل من هذين الميدانين ، بل لكل فرع من فروعهما مفرداته الخاصة ، وأن من هذه المفردات ما لا يستعمله ولا يعرف مدلوله الا أصحاب هذين النشاطين وبعض من يقدر له الاتصال بهم فى شئونهما ، وان كانت هذه الظاهرة تحتاج الى من يدرسها دراسة مفصلة مستوعبة[1] . ولكن الأمر أبعد من هذا وأعمق ؛ فالغالب أن الكلام الذى يستعمله كل من أصحاب هذين النشاطين — بما فيه من تركيبات خاصة واستعارات وتشبيهات وأمثال ، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات ولو كانت من مفردات اللغة المشتركة الشائعة — دالٌ على عمله وعلى طبقته

(١) أورد الأستاذ على عبد الواحد وافى فى هامش ص ١٥١ من كتابه «اللغة والمجتمع» (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة نشر عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٥١) بعض مفردات خاصة بالصيادين والبحارة المصريين نقل بعضها من مقال للأستاذ ابراهيم محمد الفحام وسجل بعضها بنفسه من لغة بحارة رشيد .

الاجتماعية ، وان اختلفت الدلالة نسبة باختلاف الأفراد والظروف والعصور .

(٢) ومن شواهد اختلاف لغة أصحاب **الحرفة الواحدة باختلاف العصور** أنه عندما تكون الحرف والصناعات وقفا على أسر معينة يتوارثونها فان لهجاتهم تكون أشد تمييزا لهم منها عندما يسمح المجتمع لمن يشاء بالاشتغال بالحرفة أو الصناعة التى يختارها . وهكذا اذا قارنا بين كلام أصحاب حرفة معينة فى القرن التاسع عشر فى مصر بكلام المشتغلين بهذه الحرفة نفسها فى مصر اليوم فانا سنجد فروقا مردها الى هذا السبب نفسه فضلا عن تلك الراجعة الى التطور التاريخى العام .

(٣) **والأمثال التى يستعملها الزراع والصناع** ، بل كل فئة من فئات الزراع ومن فئات الصناع، من أطرف الموضوعات الجديرة بالدراسة . ومن هذه الامثال ما يستفيض فيصبح جزءا من « اللغة العامة » تستعملها الجماعة على اختلاف طبقاتها ، **ومنه ما يظل محصورا فى بيئته** لشدة لصوقه بها أو لغير ذلك من الأسباب . وهذه الامثال ، كسواها ، تتسم بميسم المحافظة والتوارث، الا أنه مما لا شك فيه أن التغيرات الكبيرة التى تصيب هاتين الطبقتين ، كالتوسع فى استعمال الآلات فى الزراعة، وكالانقلاب الصناعى ، لها آثارها فى استحداث أمثال جديدة وفى لهجتهم الخاصة على وجه العموم . ومن واجب الباحث اللغوى أن يربط كلا بأصله وسببه .

(٤) ومن الملاحظ أن **لكل من الزراع والصناع ، كالتجار ، رموزهم الكلامية** الخاصة بهم التى ينحصر فهم مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم، كما أن لهم تعبيرات كلامية تستهدف التهكم على غيرهم من سائر الطبقات الاجتماعية . وهذه الرموز والتعبيرات قد تكون من وضع أفراد منهم ، وقد تكون مأخوذة من لغات أجنبية ، وقد تكون استعمالا خاصا لكلمات وتعبيرات من كلمات اللغة العامة وتعبيراتها .

(٥) ومن أهم ما يجدر بدارسى اللغة الالتفات اليه ، والعناية به ، أن **الكلام فى كثير من وجوه النشاط الزراعى والصناعى يكون جزءا من العمل** : فحديث الفلاح الى بهيمته وآلته ، وغناؤه عند الحرث والرى والحصد ، وكلام الحداد عند الطرق والنفخ فى الكور ، وغناء « الفعلة » الذى يقوده رئيس لهم ، كل ذلك وأمثاله جزء من العمل معين على اتمامه . ومن الواجب أن يجمع كل صنف من صنوف هذا

النشاط اللغوى — فى كل لغة — وأن يفسّر موصولا بالظروف التى يستعمل فيها، وبالوظيفة التى يؤديها .

(٦) والصناعات والحرف من أهم أبواب **الاحتفاظ بالكلم القديم** ، كما أنها من أهم أبواب **دخول الكلم الحديث** أجنبيا كان أو أصيلا . ومن الملاحظ أن الجماعة التى تتغلب على لغتها لغة أخرى تحتفظ، بعد سيادة اللغة الطارئة ، بكثير من مفردات اللغة الأولى ، ومنها ما يتعلق بالحرف والصناعة والزراعة ، وخاصة اذا كان أصحاب اللغة المتغلبة أدنى شأنا فى هذه الأمور . فالعامية المصرية قد احتفظت بكثير من الكلمات القبطية المتعلقة بالزراعة (كأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية) وبالصناعة ؛ والعامية العراقية استبقت كثيرا من الكلمات البابلية والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

(٧) والصناعات وفنون الزراعة التى تأخذها جماعة عن أخرى تنتقل معها ، فى الأغلب ، أسماؤها الموضوعة لها فى **لغة المأخوذ عنهم** ؛ كما أنها تكون مثيرا الى **وضع كلمات جديدة** . وهكذا فالانقلاب الصناعى الحديث الذى كانت أوروبا مهدا له ، وتأثرت به معظم أمم العالم ، نقل معه الى كثير من اللغات كلمات من لغات أوروبية مختلفة . واذا نظرنا الى العربية فى مصر ، عاميها وفصيحها ، وجدنا فيها كثيرا من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية والألمانية واليونانية ، وغيرها ، المتصلة بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية الحديثة المأخوذة عن الغرب (مثل : ديزل — تنك — دريكسيون — ستبن — جير — بستن الخ) . كما أن هذا التأثر بالتطور الصناعى الحديث دعا الى تغيير مدلولات كثير من الكلمات العربية ، والى اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية خالصة . ولما اتخذت مصر الزى الأوروبى الحديث سرت فى لغة الخياطين المصريين كلمات غربية أكثرها من الايطالية (مثل : مَزُورا — فودرة — فرساليا — سكوندو بروفه الخ) .

اللغة والحيـــاة الدينية

(١) **الدين مجال تستعمل فيه اللغة بما لا تستعمل فى سـواه** فالدين وثنيا كان أو سماويا ، موحدا أو معدّدا ، قديما أو حديثا له بطبيعته أسلوبه المتفرد المستقل. فالعلاقة التى يقيمها الدين بين الفرد وبين قوة عليا فى يدها مصائر وأقدار ، ويجب لها القربى والخشوع : ولها آياتها وأحكامها ، وأقوالها وأعمالها ، وعقابها وثوابها ، ويضفى الايمان بها على النفس سكينة وصفاء ، ويهبها قوة ومضاء ، ويدفعها فى حالات الى التضحية بالنفس والمال والولد راضية مستبشرة ؛ هذه العلاقة لهـا لغتها ، لا فى الكلام المضاف الى المعبود وحده ، بل فى كل كلام متعلق بأى شـأن من شئونها .

والكلام « المقدس » عند كل جماعة نموذج رائع من نماذج البيان ؛ وهـو بالقياس الى الروائع الأدبية المأثورة عن أى جماعة فى العصر الذى يشهد الكـلام المقدس من أروعها أو هو أروعها على الاطلاق .

(٢) ومن أهم ما يلاحظ على لغة الدين استعمالها لكثير من **الكلم الغـامض** الخفى ؛ ومنه كلمات وعبارات مخلوقة غير مستعملة فى اللغة العامة (وذلك كاستعمال الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور القرآنيـة : يس ــ طسم ــ الم ــ الر ــ كهيعص الخ مما لا يعرف معناه على الحقيقة ، وأوله المفسرون والدارسون قديمـا وحديثا تأويلات كثيرة) . ومن ذلك استعمال كلمات قديمة ، واستعمال كلمـات من لغات أجنبية، وذلك كما تستعمل العربية فى لغة السحر والكهانة والتنجيم كلمات من أصول سريانية . والمطلع على **الشعر الدينى لأمية بن أبى الصلت الثقفى الجاهلى** يجد عشرات من المفردات لا يجدها عند سواه من شعراء العصر الذين لم يقولوا فيما قال[1] .

---

(١) أتيح لى دراسة الغريب فى شعر امية بن ابى الصلت من حيث تأثيره فى موسيقى الشعر فى رسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير ؛ (وموضـوعها : الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنيـة القصيدة) ، ولما كانت هـذه

. . . . . .

الرسالة لم تنشر بعد فانا انقل عنها فيما يلى ما كتبته فى هذا الموضوع سنة ١٩٤٧ ؛ قلت :

« المقول فى الايقاع الشعرى على أصوات الكلمات وطريقة نظمها ؛ والف الآذان الكلمات يفقدها كثيرا من قيمها الصوتية ، ومن هنا كان الشـاعر فى حاجة الى منبـع متجدد يستقى منه أصواتا خلابة ، وانه يقع على هذا المنبع فى غريب المفردات . وقـد تكون الغرابة نتيجة الجدة ، أو الندرة ، أو ان الكلمة أجنبية ، أو محلية ، أو صعبة ، أو مركبة ، أو غير مألوفة الاشتقاق . وخير مثال فى الشعر الجاهلى لاصطناع الغريب هو أمية بن ابى الصلت الثقفى .

أمية شاعر حكيم كان عالما بالحنيفية، واتصل بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقرأ الكتب الدينية القديمة ، فكره الأوثان ، واصبح موحدا يذكر الآخرة والحسـاب والثواب والعقاب . وكان يطمـع أن يكون هو ذلك النبى المنتظر فلما لم يكنه اغتـاظ وتأسف واشتد حسده للرسول وناصبه العداء ، ولذا قال فيه الرسول : « ان كاد امية ليسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه » .

ان شعر امية الدينى صادر عن ثقافة حنيفية يهودية نصرانيـة ، وهى ليست ثقافة سطحية ، فانه ــ كما تقول الروايات ــ كان يقرأ الكتب القديمة ويتعمقها ، فكان يعلم من الموضوعات الدينية وعنها ما لا يعلمه غيره من شعراء عصره . كان امية كثير الايراد للقصص الدينى ، ولم يكن بعض هذا القصص منتشرا بين العرب كما يتضح مما قاله ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (ص ١٧٦ ــ ١٧٧ تصحيح مصطفى السقا ــ ط. المعاهد مصر (الثانية) ١٩٣٢م) « وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : (وخان أمانة الديك الغراب) . وزعم أن الديك كان نديما للغراب فرهنه على الخمر وغدر به ، وتركه عند الخمار ، فجعله الخمار حارسا . وقوله فى الشمس :

ليست بطالعة لهم فى رسلها	الا معذبـة والا تجلـد

وقوله :

غيم وظلمـاء وفصـل سحابة	أيـام كفن واسـتراد الهـدهد
يبقى القـرار لأمـه ليجنهـا	فبنا عليه (عليها) فى قفاه (قفاها) يمهد
فيزال يـدلج مـا مضى بجنـازة	منها وما اختلف الجديد المسـند

وواضح أنه لا غرابة فى الفاظ (وخان أمانة الديك الغراب) وسائر الشواهد ولكن القصص هو الغريب .

ولما كان لكل جانب من جوانب الثقافة الفاظ موقوفة عليه ، وعبارات خاصة به ؛

. . . . . .

= فاننا نجد فى شعر أمية الدينى ألفاظا غير مألوفة عند غيره من الشعراء كان يحس بغرابتها الأقدمون ، وتناقلوا أمرها فيما بينهم .

وربما كان بعض هذه الألفاظ غير عربى الأصل اخذها عن الحبشية والسريانية والعبرية .

وتأثير أمية عن هذه الطريق يشبه تأثير الساحر والكاهن ؛ فكلاهما يورد كلمات وصيغا غير مألوفة يخطف بها السمع واللب ، فيخضع النفس لسيطرته ، ويتركها مبهورة معلقة ، فيسهل عليه توجيهها كيف شاء ؛ وقد يقتضى الأمر اختراع كلمات وتصريفات جديدة للوصول عن طريق موسيقاها الى السيطرة على النفوس .

واذا كان الكثير من المنسوب الى أمية غير صحيح النسبة اليه ، الا ان القدماء أنفسهم لاحظوا غرابة قاموسه الشعرى ؛ فايرادنا لشواهد من شعره تبيانا لهذه الغرابة لا يجوز أن يرد استنادا الى كثرة المنحول من شعره ، فالذى يهمنا ان الاغراب اللفظى عند أمية قائم مقرر — ولذا اسقطه علماء اللغة من الاستشهاد والاحتجاج بلغته على الكتاب — سواء كان ما نستشهد به من شعره صحيحا أو منحولا .

ولا يقتصر الأمر عند أمية على استعمال الفاظ غريبة عن العربية ، بل أن بعض الألفاظ العربية التى يستعملها ليست شائعة الاستعمال عند غيره من الجاهليين الذين وصلتنا أشعارهم . قال ابن قتيبة (ص ١٧٦ — ١٧٧) :

« وأتى بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب منها قوله . . .

. . . . . ومنها قوله :—

قمر وساهور يسل وينمد

وزعم أهل الكتاب أن الساهور غلاف القمر يدخل فيه اذا انكسف . وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، ويقول (وأبدت الثغرورا) يريد الثغر . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب . »

ونحن نورد فيما يلى ثبتا بالغريب فى شعر أمية مرتبا على حروف المعجم :

الأرخ — الأطوم (ديوان أمية بن أبى الصلت جمع بشير يموت — بيروت — ط. الوطنية ١٩٣٤ ص ٥٥) — أمط (ديوان ص ٤٦) — بداح (ص ٢٦) — بديد (ص ٢٦) — البيقورا (ص ٣٦) — تفنا (ص ٦٢) متلمد (ص ٢٤) الثأط (ص ١٨) و «ثأط» (ص ٢٦) — الثلل (ص ٤٧) — الجلاحمة (ص ٢١) — حاقورة (ص ٢٤) — حرمد (ص ٢٦) — حزجل (ص ٤٦) — الحش (ص ٥٧) — يخرمس (ص ٥٥) — مدسورا (ص ٣٦) — دسفانا (ص ٦٢) — دفعة (ص ٤٠) — « ذقطا » و «ذقطانا» (ص ٦٣) — رح رحارح (ص ٢١) — رذوم (ص ٤٥) — ساهور (ص ٢٥) — السراطمة (ص ٢١) — السرافيل (ص ٢٥) =

(٣) ان دراسة **كلام المعبود** موضوع غاية فى الأهمية فما فيه من الأمر المستعلى، ومن النهى المتنمر ، ومن الايجاز المقتصد اثباتا للقوة والاستعلاء ؛ وما فيه من أساليب الترغيب والترهيب ، والحجاج والتبيين ، وما سوى ذلك ؛ كل أولئك يتخذ صورة خاصة تشعر السامع (أو القارىء) أنه فى مجال الدين لا فى سواه .

(٤) وليس ثمة لغة دينية لا تبرع فى **استغلال الامكانيات الصوتية للغة** التى توضع بها ، كتتابع الأصوات ، والسجع ، والفواصل ، وتنغيم الكلام بحيث تحدث الأثر المطلوب اذ كان التأثير الصوتى من أهم المداخل الى النفس البشرية ؛ والأصل فى الكثير من الكلام الدينى أن يرتل وينشد موقعا منغما ، مصحوبا بموسيقى أو غير مصحوب ، ومصحوبا بموسيقى ورقص عند بعض الجماعات . وكثيرا ما ينتج عن الرغبة فى تحقيق أثر موسيقى معين أن تغيّر الكلمات عن صورها المألوفة .

ودارس شعر **عمر بن الفارض الصوفى** (٥٧٦ — ٦٣٢هـ) يجد من الشاعر حرصا على احداث آثار موسيقية غير تلك التى يحققها الوزن والقافية . وقد يبالغ

= سغورا (ص ٣٦) — السلاطح (ص ٢١) — السليطط (ص ٣٣) — سنفة (ص ٣٥) — شحيطا (ص ٥٠) — الشيزى (ص ٢٧) — صئبانا (ص ٦٢) — صاقورة (ص ٢٤) — صلقنا — (ص ٤٧) — الصوافى (ص ٢٥) — طخرورا (ص ٣٦) — الطرط (ص ٢٦) — عنكال (ص ٥٠) — أعلاط (ص ١٩) — عناص (ص ٢٤) — الفراريس (ص ٤٨) — قسيطا (ص ٢٦) — قوقة (ص ٣٦) — القومان (ص ٤٨) — القرق (ص ١٩) — الكتاب (ص ١٨) — تكرد (ص ٢٥) — الملاوثة (ص ٢١) — نؤخها (ص ٢٣) . »

(عن : محمود السمران : الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنية القصيدة ص ١٢٨ — ١٣٢ (نسخة على الآلة الكاتبة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية) . وقد اكتفينا هنا بذكر الكلمات الغريبة ولكنا فى الأصل أوردنا بعد كل كلمة النص الشعرى الذى وردت فيه ، وأشرنا الى موضعها من ديوان أمية فى الهامش لا بعد الكلمة مباشرة) .

(١) ومن ذلك ورود «يحضرون» و «ارجعون» بدلا من «يحضرونى» و «ارجعونى» فى قوله تعالى : ,, وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون . حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . ،، (المؤمنون آيات ٩٧ — ٩٩) . ومنه ورود « اطيعون » بدلا من « اطيعونى » فى قوله تعالى حكاية لقول نوح لقومه : « قال يا قوم انى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون » (نوح ٢ — ٣) .

ابن الفارض فى ذلك أحيانا الى درجة الاملال والاثقال ؛ وقد تكون صنعته الموسيقية ، فى جملتها ، صنعة لفظية سطحية صارخة ، فهو يكثر من الجناس ، ومن الكلمات المتوازنة وليس بينها جناس ، ومن تقطيع البيت أقساما متوازنة ، كما يلجأ الى التصريع فى أواسط القصيدة فى بيت أو فى بيتين متتاليين أو فى مجموعة متتابعة من الأبيات ، والى التكرار ، والى غير هذا من وسائل اللعب بالكلمات . ولكن له أبياتا رقت صنعتها الموسيقية ودقت فحسن ايقاعها فى الأذن ؛ ومن ذلك قوله :ـ

زِدْنِى بفرط الحب فيك تحيُّرا ... وارحم حَشًى بلظَى هواكَ تسعُّرا
واذا سألتك أن أراك حقيقةً ... فاسمح ، ولا تجعل جوابى : لَن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... صبرًا ، فحاذرْ أن تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة فمُتْ به ... صَبًّا ، فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ، ومَنْ ... بعدى ، ومَنْ أضحى لأشجانى يرى :
«عنى خذوا» وبى اقتدوا» ولى اسمعوا» ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى »
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سِرٌّ أرق من النسيم اذا سرى
وأباح طرفى نظرةً أمَّلتُها ... فغدوت معروفا ، وكنت منكَّرا
فغدَوْتُ مشتتَ بين جماله وجلاله ... وغدَا لسان الحال عنى مُخبرا
فكأدرِ لحاظك فى محاسن وجهه ... تَلْقَى جميع الحُسن فيه مُصوَّرا
لو أنّ كل الحُسن يكمل صورةً ... ورآه ، كان مُهَلِّلا ومكبِّرا .

ان دراسة موسيقى الكلام الدينى فى كل من موضوعاته المختلفة ، وفى كل لغة على حدتها ، موضوع خصب قيم .

---

(١) « ديوان ابن الفارض » نشر وطبع البابى الحلبى بمصر ؛ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣ ص ٦١ ـ ٦٢ . ومن ذلك قوله (ص ٦٥ ـ ٦٦) :

أنتمُ قروضى وتفلى ... أنتمُ حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى ... اذا وقفتُ اصلّى
جمالكم نصب عينى ... اليه وجهتُ كلّى
وسِرُّكم فى ضميرى ... والقلب طورُ التجلى
أنستُ فى الحىِّ ناراً ... ليلاً فبشّرتُ أهلى
قلتُ امكثوا فلعلّى ... أجِدْ هُدَاىَ لعلّى
دنوتُ منها فكانتْ ... نارَ المكلّم قبلى
نُودِيتُ منها كفاحاً ... رُدُّوا ليالىَ وصلى
صارت جبالىَ دكّا ... من هيبة المُتجلّى
ولاح سرٌّ خفىٌّ ... يدريه مَنْ كان مِثلى

= وصرتُ موسى زمانى ... منذ صار بَعضىَ كلّى
فالموتُ فيه حياتى ... وفى حياتى قتلى
أنا الفقيرُ المُعنّى ... رِقّوا لحالى وذلّى

ومن قول ابن الفارض فى تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك (الديوان ص ٨٦) :

سقتنى حُميّا الحب راحةُ مقلتى ... وكأسى محيّا مَن من الحسن جلّت
فأوهمتُ صحبى أن شرب شرابهم ... به سُرّ سِرّى فى انتشائى بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن ... شمائلها لا من شمولى نشوتى
ففى حانِ سكرى حانَ شكرى لفتية ... بهم تم لى كتمُ الهوى مع شهرتى

وفيها قوله (الديوان ص ٨٧) :

ولو أن مابى بالجبال وكان طو ... رُسيتا بها قبل التجلى لدُكت
هوىً عبرةٌ نمّت به وجوى نمت ... به حرقٌ أدواؤها بى اودت
نطوفان نوح عند نوحى كادمعى ... وابقاد نيران الخليل كلوعتى
ولولا زفيرى أغرقتنى ادمعى ... ولولا دموعى احرقتنى زفرتى
وحزنى ما يعقوب بث أقله ... وكلٌّ بلى أيوب بعض بليتى
وآخر ما لاقى الألى عشقوا الى الر ... ردى بعض ما لاقيت أول محنتى
فلو سمعت اذن الدليل تأوهى ... لآلام أسقام بجسمى أضرت
لأذكره كربى أذى عيش أزمة ... بمنقطعى ركب اذا العيس زمت

ومن قوله فى تائيته (الديوان ص ١٠١ ـ ١٠٢) :

جلت فى تجليها الوجود لناظرى ... ففى كل مرئى أراها برؤية
وأشهدت غيبى اذ بدت فوجدتنى ... هنالك اياها بجلوة خلوتى
وطاح وجودى فى شهودى وبنت عن ... وجود شهودى ماحيا غير مثبت
وعانقت ما شاهدت فى محو شاهدى ... بمشهده للصحو من بعد سكرتى
ففى الصحو بعد المحو لم اك غيرها ... وذاتى بذاتى اذ تجلت تجلت
فوصفى اذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها اذ واحد نحن هيئتى
فان دعيت كنتِ المجيب وان أكن ... منادى أجابت من دعانى ولبت
وان نطقت كنت المناجى كذاك ان ... قصصتُ حديثا انما هى قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى

وانظر من تائيته (الديوان ص ١١٢) الأبيات التى تبدأ بقوله :

مواطن افراحى ، ومربى مآربى ... واطوار أوطارى ، ومأمن خيفتى

الى قوله :ـ

فقد جمعت أحشاى كل صبابة ... بها وجوى ينبيك عن كل صبوة

ومما يمثل صنعة ابن الفارض الموسيقية قوله (الديوان ص ١٣٠) :

أذاد عن عذب الورود بأرضه ... وأحاد عنه وفى لقاه بقائى
وربوعه أربى اجل وربيعه ... طربى وصارف ازمة الأهواء
وجباله لى مربع ورماله ... لى مرتع وظلاله أفيائى
وترابه ندى الذكى ، وماؤه ... وردى الروى ، وفى ثراه ثرائى
وشعابه لى جنة ، وقبابه ... لى جنتى ، وعلى صفاه صفائى
حيا الحيا تلك المنازل والربى ... وسقى الولى مواطن الآلاء

(٥) وللغة الدينية أساليبها الخاصة فى **الرمز والمجاز** ؛ وكثير من تصويرها لو أخذ على ظاهره القريب لأوقع فى الغلط ، أو لم يحدث الأثر المقصود ؛ وهذا باب من أخطر الأبواب التى يمتحن بها المفسرون والفقهاء ؛ واعتماداً على ما فى لغة الدين من الرمز والمجاز توسع الباطنية وبعض الصوفية فى تفسير آيات من القرآن بحيث تلائم مذاهب خاصة ؛ ومن أوضح الأمثلة على هذا تفسير محيى الدين بن عربى لآيات قرآنية تفسيراً يؤيد مذهبه فى « وحدة الوجود » .

(٦) ومما تتصف به لغة الدين على وجه العموم أنها محافظة موغلة فى المحافظة، وأن ما يطرأ عليها من تعديل شىء جد طفيف ، وما يضاف اليها من وقت الى آخر شىء قليل نادر . ولا نعنى بذلك «الكلام» المضاف الى المعبود فهو بطبيعته مقدس، تحميه الجماعة أو تحاول أن تحميه من كل تغيير ؛ وانما نعنى الكلام الدينى المستعمل فى سائر المجالات الدينية فطبيعة « التقديس » تغلب عليه ولو كان من كلام البشر الذى لا يفترض الدين ابقاءه على صورة لفظية واحدة .

ومن تقديس الكلام الدينى أن الشعوب الاسلامية التى لا تتكلم العربية كالايرانيين والهنود والأندونيسيين والأتراك يرددون بعض عبارات دينية باللغة العربية .

وصفة التقديس وما تستتبعه من محافظة هى من أهم العوامل التى دعت الكنيسة القبطية فى مصر الى أن تحتفظ حتى اليوم باللغة القبطية فى كثير من طقوسها ومراسمها وعاداتها واحتفالاتها (كمراسم الزواج والممات . . الخ) مع جهل أكثر الأقباط الحاليين باللغة القبطية ، بل مع جهل بعض من يرددون هذه العبارات من رجال الدين بها .

ومن صفة التقديس أن المساس بالكلام الدينى مساسا غير لائق فى عرف الجماعة يؤدى بفاعله الى غضب ومقت ومصائب وأضرار ؛ وبعض ألوان هذا المساس قد يتغاضى عنه ، وينظر اليه على أنه شارة على طبقة وضيعة من الجماعة ، كلعنة الدين الجارية على ألسنة كثير من عامة المصريين « ينعل دينك » (= يلعن دينك). وربما كانت هذه العبارة فى أصلها بقية من العبارات المستعملة أيام تعدد

الأديان فى الجماعة ، وربما كان الأصل فيها سب أصحاب دين لأصحاب دين آخر . ومن ذلك عبارة « يا بن الذين آمنوا » وهى عبارة سب فى العامية المصرية ترجح لدينا أن الأصل فيها سب غير المسلمين للمسلمين ، لما كانت « الذين آمنوا » عبارة كثيرة التردد فى القرآن والحديث ، وربما يؤدى هذا الى فرض آخر هو أنها نبتت على ألسنة الأقباط المصريين سبّا لمن ترك دينه منهم الى الاسلام بعد الفتح العربى لمصر . ولا شك فى أن هذه العبارة وأمثالها يجب تعقب استعمالها تاريخيا للوصول الى أقدم استعمال لها والظروف المحيطة به حتى تفسر التفسير العلمى الصحيح . وهذه العبارة لا تختص الآن بسب أصحاب دين لأصحاب آخر بل يسب بها المسلم أخاه المسلم فقد تسمع فى مصر مسلما يقول لآخر : « اسكت يا بن الذين آمنوا » ! !

(٧) ومن جوانب **استعمال الكلام فى الشئون الدينية فى الاسلام** لغة الأذان ، والأدعية ، والصلوات ، وخطب الجمعة ، والأوراد ، والأذكار ، واللغة المستعملة فى الحج فى مراحله المختلفه ، كلغة السعى بين الصفا والمروة ولغة الطواف ولغة الرجم، ولغة الدعاء .

ومن ذلك اللغة المتصلة بالموت كالصلاة على الميت ، والكلام الذى يقال أثناء تشييع الجنازة ، وما يقال عند دفنه ، وبعده ، وفى التعزية وفى الشكر عليها . ومن العبارات المستعملة فى مصر فى مجال التعزية :

« البقية فى حياتك » ، « البقية فى دين محمد » ، « البركة فيك » « شكّر الله سعيكم » ، « أعظم الله أجركم » .

واللغة المستعملة فى عقد القران ، كتلاوة القرآن وكلمة « المأذون » ، وصيغة العقد ، وكلام المهنئين يبرز فيها طابع المحافظة ، والحرص على ترديد عبارات بعينها لتأدية وظائف خاصة .

وفى عبارات التهنئة فى كثير من اللغات لون دينى ومن ذلك فى مصر : (مبروك — مبارك — الله يبارك فيك الخ) .

ان دراسة اللغة المستعملة فى كل حال من هذه الاحوال كفيلة بأن تكشف عن

كثير من الحقائق اللغوية .

(٨) **ومن الملاحظ ان كثيراً من العبارات الدينية يجد سبيله الى السنة الجماعة في أحاديثهم العادية اليومية** ، وقد لا يتخلص من بعضها الملحدون منهم . وأشهر هذه العبارات يوجد في « **القسم** » فنحن نسمع في مصر بالعامية : وَاللهْ ـ والله ـ والله العظيم ـ وربنا ـ وِاللى خَلَقَكْ ـ وِالنَّبِى ـ وِحَيَاة النَّبى ـ وِشِبَّاكِ النبى ـ وِالمُصْطَفَى ـ وِالمُصْحَف ـ وِالمُصْحَف الشَّرِيف ـ وِالقُرْآن ـ وِالقُرْآنِ الكريم ـ وِالكعبة الشريفة وِالسَّيِّدَة زينب ـ وِسِيدْنا الحسين ـ وِالشَّرْسِى (من أبى العباس المرسى) وِسِيدى ياقوت العَرْشى (وهذان الأخيران كثيرا الاستعمال فى الاسكندرية) . ونسمع على ألسنة الأقباط : وِالنَّعَدْرَا ـ وِالصَّلِيب ـ والمسيح ـ وِستنا مريم ؛ ومن الملاحظ أنهم يتحاشون النطق بهذه الأقسام المسيحية أمام المسلمين ويستعملون فى حضرتهم « والله ـ والله العظيم الخ » .

والقسم بعبارات دينية خاصة هو الذى تستهل به شهادة الشاهد فى التقاضى ؛ ويستعمل بين جماعات كثيرة كوسيلة لفض المنازعات .

ومن الملاحظ أن القسم ـ والقسم بأساليب خاصة ـ يكثر على ألسنة النساء . وعلى الباحث أن يفرق بين ما يختص به الرجال وما يختص به النساء ، وما يشترك فيه الاثنان على حد سواء أو على خلاف فى الدرجة .

ومن العبارات الشائعة على ألسنة المسلمين المتكلمين بالعربية « لا حول ولا قوة الا بالله » ، و « استغفر الله » و « أعوذ بالله » و « اِتَّكِلْ على الله » .

ولغة السائلين جلها عبارات دينية وشعار دينية ؛ ومن عباراتهم المشهورة فى السؤال : لِلّه ـ أعطنا مما أعطاك الله ـ يا رب يا كريم ـ يا كريم ـ حسنة لله ـ شِى لله يا سيدى ـ شى لله يا أسياد . والرد على السائلين عند عدم اعطائهم من عباراته فى مصر : عَلَى اللّه ـ ربنا يِدِّيك ـ ربنا يرزقك ؛ وسمعت من ذلك فى ليبيا : ربنا ينتوب ربى يتوب ـ ينتوب .

ومما يكثر استعماله على ألسنة المصريات لأطفالهن الذكور فى ظروف خاصة : اِسْمِ

النَّبِى حَارِسَكْ وِصَايِنَكْ ـ اسم النبى حارسك ـ رَبَّنَا يْحَرِّسَكْ اُسْم اللّه عَلَيْكْ ـ ما شَاءَ اللّه . ويقولون فى ليبيا اظهاراً للاعجاب بطفل : « رَبِّى يِصُونْ » .

وقد تنتقل كثير من العبارات الدينية الى **لغة الغزل والتعريض بالنساء** ، ومن ذلك فى العامية المصرية :

يا دِينِ النَّبِى ! ـ اِسْمَ اللّه ! اِسْمَ اللّه عَلِيكِ ! ـ اسم الله عليها وعلى مَعْنِيِّتِهَا ! ـ يا جَمَالِ النَّبى !

وكلام « المبخرين » و « المنجمين » يقوم أكثره على عبارات دينية ؛ فالمبخر المصرى يقول وهو يعطر المكان ببخوره :

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِى ـ اِلْفَاتِحَه لِلنَّبِى الخ .

ومن الملاحظ فى أكثر البلاد الاسلامية **استهلال كثير من الكتب والخطب والأعمال** بعبارة : ,, بسم الله الرحمن الرحيم ،، . كما ترتل فى افتتاح كثير من الاحتفالات غير الدينية (كالاحتفالات بافتتاح أبنية أو معاهد) آيات من القرآن الكريم .

(٩) ومن جوانب دراسة الكلام الدينى دراسة **ما يقوله أصحاب دين عن أصحاب دين آخر** ، وخاصة ان كان هؤلاء وأولئك ينتمون الى نفس الجماعة ، ككلام المسلمين المصريين عن الأقباط ودينهم ، وكلام الأقباط عن المسلمين ودينهم .

ومما يلاحظ أن الأقباط ، لهذه الأيام ، يتحرجون فى الأغلب من ذكر العبارات الدينية المسيحية على ألسنتهم أمام المسلمين ، ولو كانت من أساليب القسم . كما أنهم يتحاشون بصفة عامة الرد على تحية المسلمين لهم « السلام عليكم » ؛ « وعليكم السلام » لأنها تحية الاسلام ، ويردون قائلين « سَعِيدَه » ، أو « مع السلامة » ، أو « نهارك سعيد » ، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم ، بينما يستعمل المسلمون المصريون بعض أساليب التحية التى يصطنعها الأقباط .

(١٠) ومما يتصل بدراسة لغة الدين دراسة **كلام الصوفية والزهاد والرهبان** ، كلامهم الخاص برياضاتهم النفسية وأحوالهم الدينية ؛ وكلامهم فى سائر الشئون بما فيها الشئون الدينية . ومن المعروف أن للصوفية ، على الخصوص ، رموزا كلامية قاصرة عليهم .

(١١) ودراسة **كلام النبيئين والزنادقة والملاحدة** عنصر من أهم عناصر دراسة اللغة الدينية .

(١٢) **والمواسم الدينية** — كالاحتفالات بمولد الرسول ، ومواليد « الأولياء » ، وعاشوراء ، وليلة القدر ، وشهر رمضان ، والعيدين — كلامهما الخاص ، بل ان كلا من هذه وأشباهها لينفرد بكلام .

(١٣) وثمة مجال كبير لدراسة لغة الحياة الدينية يتمثل فى دراسة **الكتابات عن الدين وما يتعلق به** ، كدراسة اللغة المستعملة فى الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلام . ومن واجب الباحث اللغوى كذلك أن يبين ما تلجأ اليه الفلسفة الدينية من أساليب الحجاج دفاعا عن مذهب وهجوما على آخر ، واثباتا لقضايا الدين ، وردا على المنكرين . . الخ ، وأن يدرس تطور ذلك كله وأشباهه على مر العصور .

الكلام المحرم[1]

(١) **لا يخلو مجتمع انسانى من تحريم موضوعات معينة ومن تجنب وتقنيع بعض العبارات والكلمات المتعلقة بهذه الموضوعات** . والبحث فى هذه العبارات والكلمات التى يتجنبها ويقنعها المتكلمون بلغة من اللغات يتعلق بأمور منها جمع العبارات والكلمات التى يصطنعونها بديلا مما يتجنبونه وجمع تلك التى يقنعونها ، وتحليل ذلك كله ، ومحاولة الوصول الى الأصول البعيدة والقريبة فى حياة المجتمع ، هذه الأصول الداعية الى هذا التجنب وذاك التقنيع .

وما تجنب كلمات وتقنيع أخرى أمرا قاصرا على من يسمون بالشعوب الوحشية أو البدائية أو الفطرية بل انه ماثل فى كل المجتمعات أيا كانت درجتها من المدنية . وما من شك فى أن كثيرا من دواعى تجنب بعض العبارات والكلمات واخفائها راجع الى التوراث ؛ وفى أن الأغلب أن سببها البعيد كان الخوف من بعض القوى غير المنظورة كالأرواح وطائفة من المقدسات عندما كان يظن أنها تتصرف فى حياة الناس وأنها قادرة على أن توقع بهم الضر ؛ واستمر أثر هذا الخوف القديم قائما فى نفوس أكثر البشر . كما أن الاعتقاد القديم بأن لبعض كلمات اللغة قوة سحرية ذو دخل كبير فى هذا الشأن .

ومن التعسف أن يحاول الباحث تفسير جميع ما يتجنبه ويقنعه مجتمع من المجتمعات من كلمات وعبارات بعوامل مستقاة من الحالة الراهنة لهذا المجتمع فلا شك فى أن جانبا من هذه العبارات والكلمات المرد فى تجنبه وتقنيعه الى عوامل قديمة متوارثة قد لا يكون من اليسير تعقبها وتحديدها على وجه اليقين ؛ ولكن ما من شك فى أن جانبا من هذه العبارات والكلمات المرجع فى تحريمه الى عوامل قائمة فى هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع .

ومن الملاحظ أن **كثيرا من المجتمعات يشترك فى تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة كالموت ، والأمراض الخطيرة والخبيثة ، والأرواح لا سيما**

---

(1) Taboo

الشريرة ، وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الانسانى وشىء مما يتصل بها من اعضاء . فكثير من الشعوب تستعمل عبارات لبقة بارعة تجنبا لاستعمال الكلمتين البسيطتين « يموت » و « يمرض » ، ففى الانجليزية مثلاً يستعمل بدلاً من الكلمة المقابلة ! « يموت » كنايات مثل passing on أو passing away أو being taken away . [١]

والعربية الفصحى فى الوقت الحاضر — وفى اعلانات النعى على وجه الخصوص — تتجنب كلمة « مات » وتستعمل موضعها « تتوفى الى رحمة الله » أو « توفاه الله » أو « أسلم الروح » أو « ذهب الى جوار ربه » الخ ؛ كما أنه يُدل فيها على «مات» بـ « قضى » أو « قضى نحبه » أو « رحمه الله » . وفى العامية المصرية قد أجيب سائلاً يسألنى عمن لا يعلم أنه مات بقولى « البقية فى حياتك » ، أو « الله يرحمه » .

ويتحرج كثير من الأمهات المصريات من ايراد كلمة « الحصبة » على ألسنتهن ويستعملن بدلاً منها « المبروكة » ! والسل من الأمراض التى تكنى عنه كثير من اللغات بالاشارة الى شدة السعال والبصق وضعف الصدر وغير ذلك .

والخوف من « الجن » و « الأرواح » و « الشياطين » و « العفاريت » غالب على معظم الشعوب . والمصريون لا سيما النساء يدلون على الجن بـ « الأسياد » ، كما يدلون عليهم أحيانا بـ « الاخوات » اشارة الى الاعتقاد السائد بأن لكل من الانس أخا من الجن ؛ وهم عندما يتوهمون أنهم قد يدوسون أحداً من الجان أو قد يقتحمون عليه موضعه يقولون مستأذنين « دَستورَكم يا مَبارَكين » ؛ كما يشيرون الى « العفاريت » أحيانا بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ان كثيراً من المجتمعات — أو كثيراً من الأشخاص فى كثير من المجتمعات — لا يزال يخشى ما كان يخشاه كثير من المجتمعات الانسانية القديمة من حلول الشر والضر نتيجة للتصريح بكلمات وعبارات تدل على الشر والضر كالموت والأمراض والشياطين . ومن مظاهر هذا تلك العبارات التى تطلقها المصريات لو لفظ أمامهن — ولو على سبيل الحكاية عن غريب — باسم مرض خطير كالسل أو الحمى «الشر بره وبعيد !»

---

(١) Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, p. 279.

أو « صَلّى عَ النَّبى ! » أو « تِفْ مِنْ بُقَكْ ! » أو « اللهم احفظنا ! » .

والعملية الجنسية ، وأعضاء الذكورة والأنوثة ، والحيض ، والتبرز والتبول يوجد لها فى كثير من اللغات كنايات تفادياً للتصريح بأسمائها ؛ وقد يكون شىء من ذلك من قبيل التأدب لا قبيل الخوف .

(ب) « اللائق » و « غير اللائق » من الكلام

ويتصل بموضوع « الكلام الحرام » تلك العبارات والكلمات التى يعدها مجتمع من المجتمعات « غير لائقة » فى مجالات خاصة ، والتى يرى فى النطق بها جفوة أو غلظة ، أو سوء أدب ، أو ما هو من ذلك بسبيل .

ومقاييس « اللياقة » و « عدم اللياقة » فيما يتعلق باللغة تختلف باختلاف العصور ؛ وهى فى كل عصر تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الواحد، وباختلاف اللهجات المحلية ؛ كما يشترك فى تحديدها عوامل أخرى كثيرة : فانه يسوغ بين جماعة من الذكور أو بين جماعة من الاناث النطق بعبارات وكلمات ولا يسوغ نطقها لو ضم المجلس شخصاً أو أكثر من الجنس الآخر ؛ وبعض ما يتكلمه الرجل وزوجته حال انفرادهما لا يستعمله أحدهما أو كلاهما فى ظروف أخرى ؛ وقد ينصح الصغار بتجنب عبارات وكلمات لا يكون فى تفوه الكبار بها غضاضة ؛ وقد يؤذن للرجال بنطق ما لو نطقت به النساء لكان غير لائق ، كما يؤذن للنساء بنطق ما لو نطق به الرجال لعد غير سائغ ؛ ويقع فيما يدور بين المريض وطبيبه من حديث كلمات وعبارات لا يوردها كل منهما على لسانه فى مجالات أخر .

ان مقاييس اللياقة وعدم اللياقة فى المجتمع الكلامى الواحد متعددة ومعقدة ، ومما يزيد البحث فيها صعوبة أنها تتداخل أحياناً مع ما ذكرناه من اعتبارات الخوف الداعية الى التحريم والتقنيع .

وهذه المقاييس متطورة بطبيعة الحال ؛ وعلى الباحث أن يستقصى العوامل المغيّرة لها ، وأن يبحث عن آثارها اللغوية . ومن أهم هذه العوامل انتقال المجتمع من الفصل بين الذكور والاناث الى اباحة الاختلاط بينهم ، فكثير مما كان غير لائق فى الحالة الأولى يرى عاديا فى الحالة الثانية . والملاحظ أن ما نالته المرأة فى

المجتمعات المتحررة المختلطة من استقلال اقتصادى ، وتقدم فى التعليم ، وسعة أفق فى التفكير قد أسهم فى تحرير كلامها ، وفى تخليصه من كثير من الصفات الأنثوية ؛ ومن ذلك أن كلمة Legs لا يحمر لها وجه الانجليزية خجلاً كما كان يحدث لجدتها فى عصر سابق[1] .

(1) Ibid, p. 280.

الضمائر والمستويات الاجتماعية

(١) يُظهر الكلامُ المستويات الاجتماعية لأصحاب لغة من اللغات بأكثر من صورة ومن أهم هذه الصور فى كثير من اللغات تصرف **الضمائر والصيغ « المسندة الى ضمائر »** . واللغات فى هذا الشأن متفاوتة فمنها ما لا يفصل ولا يميز فى الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعى للمتكلم والمخاطب والغائب ؛ ومنها ما يميز شيئاً من التمييز فى ضمائر الخطاب على وجه الخصوص ؛ ومنها ما يبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز والتعقيد فيتغير كل من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة المتكلم فى السلّم الاجتماعى من المخاطب والغائب .

(٢) وبنا قبل أن نشير الى ما تجرى عليه **العربية الفصحى** فى هذا المجال أن نزيل وهما من الأوهام قد يكون سببه احساس المتكلم بالعربيـــة ودارسهـــا على الطريقة التقليدية بأنها حريصة ، بصفة عامة ، على التمييز بين المذكر والمؤنث ، وعلى ربط كل من هذين بعدد معين « مفرد » ، أو « مثنى » ، أو « جمع » . قد يظن أن الضمائر يراعى فيها هذا اللون من التمييز ، ولكن الاستقراء يظهر أن هذا التمييز لا يتحقق فى حالة الضمائر كاملاً بيّنا ، كما أنه يظهر أن الضمائر اذا نظر اليها باعتبار التكلم والخطاب والغيبة لا تتفق جميعا فى خصائص واحدة بل يتميز كل منهـــا بصفات . وهذا شاهد بخطأ القول بأن لكل لغة « نظاما » واحداً تسير عليه جميع «أقسامها»، فالحق أننا نجد فى كل لغة مجموعة من الأنظمة ، كما قد نجد فى النظام الواحد تفريعات كثيرة أو قليلة .

فاذا نظرنا فى **ضمائر التكلم والصيغ « المسندة الى ضمائر التكلم »** فى العربية وجدنا أنه لا تمييز فى حالة المفرد بين المذكر والمؤنث (فانه يقال : أنا ــ كتبتُ ــ أكتبُ ــ فلأكتبْ ــ كتابى ــ لى ــ انى ــ اياى الخ فى حالتى التذكير والتأنيث) وأنه لا تمييز بين « المثنى » و « الجمع » وفى كل حالة بين ما هو مذكر ومـــا هو مؤنث ، بل هناك مجموعة من الضمائر والصيغ كل منها يستعمل لكـــل من المثنى

والجمع بنوعيهما (نحن ــ كتبنا ــ تكتب ــ فلتكتب ــ كتابنا ــ لنا ــ انا ــ ايانا الخ) . ونستطيع ان نقول ان العربية ــ بهذا الاعتبار ــ تسوّى شيئا من التسوية بين المتكلم والمتكلمة ، كما أنها تلغى بعض الفوارق بين المتكلمين والمتكلمتين والمتكلمينَ والمتكلمات .

أما فى **ضمائر الخطاب والصيغ المسندة الى ضمائر الخطاب** فالعربية الفصحى تميز بين المفرد والمثنى والجمع ، وهى تميز فى كل من المفرد والجمع بين المذكر والمؤنث ، ولكنها فى حالة المثنى المخاطب لا تميز بين مذكر ومؤنث (انظر الجدول التالى) .

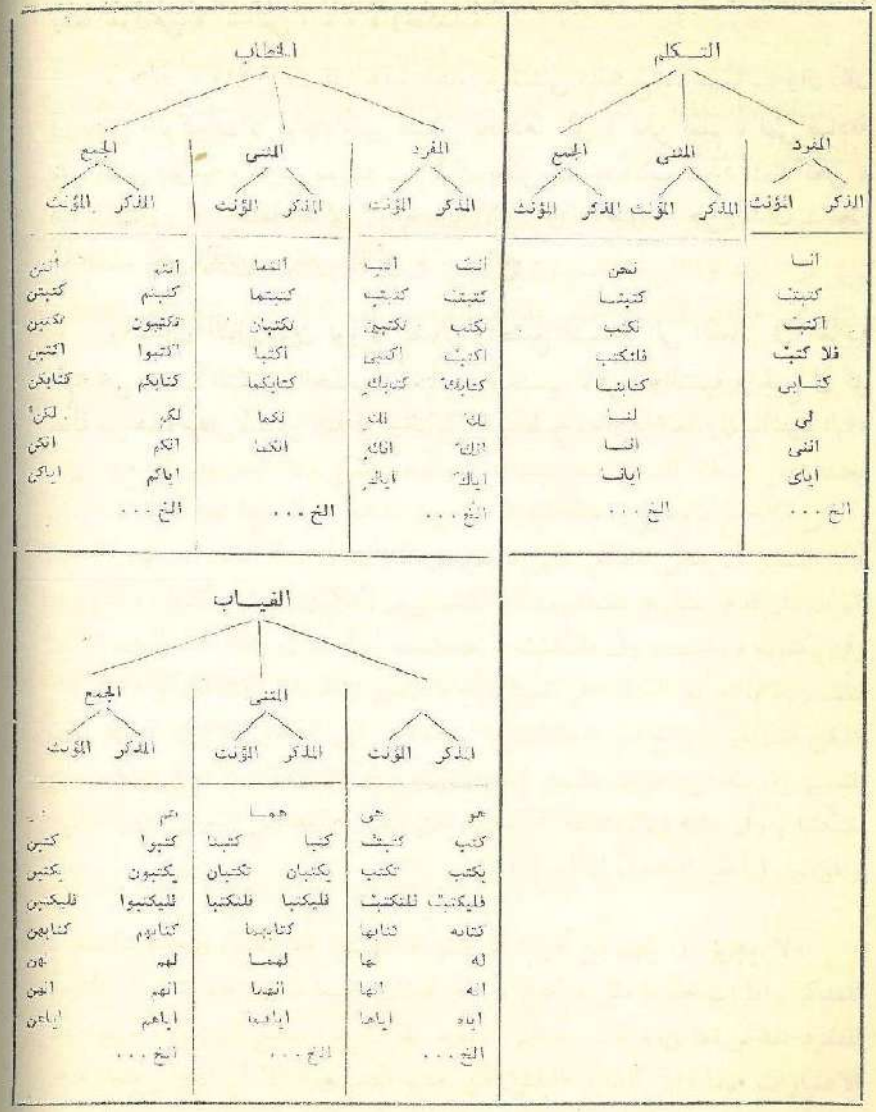
أما **ضمائر الغياب والصيغ المسندة الى ضمائر الغياب** فانها تظهر شكلاً آخر يختلف عن ضمائر التكلم وعن ضمائر الخطاب : فهى أولاً تميز بين كل من المفرد والمثنى والجمع ، وهى فى حالة المفرد تميز بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، ولكن هذا التمييز فى بعض الصيغ يتأتى عن طريق تغيرات فى بنية الكلمات جرى النحاة العرب على عدم اعتبارها ضمائر وذلك كالتمييز بين المذكر والمؤنث فى كَتَبَ وكَتَبَتْ ، وفى يكتبُ وتكتب ، وفى فليكتبْ و فلتكتبْ . أما فى حالة الغائبين الاثنين فصورة ما جرى العرف على تسميته بالضمير واحدة لكلا المذكر والمؤنث ، ولكن صور أنواع من الكلمات « المسندة » الى الغائبين الاثنين يلحقها تغيير للتمييز بين المذكر والمؤنث مثل كتبا وكتبتا ، ويكتبان وتكتبان ، و فليكتبا و فلتكتبا ؛ وفى حالة ضمائر جماعة الغائبين تراعى العربية الفصحى التمييز بين المذكرين والمؤنثين (انظر الجدول التالى) .

ولا يجوز أن يفهم من قولنا أن صورة الضمير قد تكون واحدة بالنسبة للمذكر والمؤنث جميعا مثل « أنا » ، أو للمثنى جميعا مثل « هما » ، أن « أنا » للمفرد المذكر تطابق « أنا » التى للمفرد المؤنث من جميع الوجوه وبجميع الاعتبارات فهما وان كانتا متطابقتين من حيث الصورة الا أن الأولى متميزة من الثانية من حيث الوظيفة ومن حيث علاقاتها بسائر الكلم فى التعبيرات التى تقع فيها ؛ فانه وان صح لكل من محمد وزينب أن يقول « أنا أعلم » الا أن محمداً يقول « أنا كريم » وتقول زينب « أنا كريمة » ، وهو يقول « أنا الذى . . . »

بينما تقول هى « أنا التى . . . » وهكذا .

و « نحن » وان كانت على هذه الصورة للمثنى والجمع بنوعيهما ــ وان كان فى بعض التركيبات لا يوجد مميز شكلى يحددها مثل « نحن نعلم » فهى صادقة على المثنى بنوعيه والجمع بنوعيه ــ الا أن بعض الاستعمالات تحدد أن « نحن » هنا للاثنتين ، أو لجماعة الذكور أو لجماعة الاناث وذلك مثل « نحن اللذان ــ نحن اللتان ــ نحن الذين ــ نحن اللائى » . . الخ .

والجدول التالى يبين توزع الضمائر والصيغ المسندة الى الضمائر فى العربية الفصحى حسب التكلم والخطاب والغياب ، وحسب الافراد والتثنية والجمع فى كل حالة من هذه وعلى أساس التذكير والتأنيث . ويتضح من هذا الجدول ما أشرنا اليه .



(٢) ونشرع الآن فى عرض تخطيط عام لدراسة الضمائر فى **العربية الفصحى من حيث اظهارها المستوى الاجتماعى المتكلمين والمخاطبين والغائبين** . ومن أوجب بنا على الباحث فى هذا الموضوع أن يدرس هذه الدلالة للضمائر فى كل عصر على حدة ، وأن يدرسها فى كل فن من فنون القول وفى كل وظيفة من الوظائف الكلامية على حدة ؛ وأن يراعى فى كل حالة سياق الكلام والوضع الاجتماعى للمتكلم بالنسبة الى المخاطب والغائب و ... الخ ؛ فمن الخطأ أن نستدل باستعمال الضمير استعمالاً خاصاً فى العصر الحديث على أن « العربية » تذهب هذا المذهب أو ذاك ؛ كما أنه من الخطأ أن نستخلص من دلالة خاصة للضمير نجدها فى شعر عصر من العصور أن هذه الدلالة تصدق على الضمير فى كل العصور وفى كل وظائف الكلام ، وأنها «لازمة» للأسلوب العربى وقد تظل على هذه الدلالة فى المستقبل كذلك .

١ — ان استخلاص الدلالة الاجتماعية للضمائر **فى العصر الجاهلى** تستلزم أن نميز بين أنواع كلامية بينة الاختلاف فندرس ذلك فى الشعر مستقلاً ، وفى الخطب مفردة ، وفى الأمثال على حدتها ، وفى كل من الوصايا والحكم وحده ، وفى الكتابة وحدها على ندرتها ، وفى لغة التخاطب العادى اذا صحت لنا نصوص فى هذا المجال . وقد يستوجب الأمر تفريعات خاصة بكل قسم من هذه الأقسام . والقراءة السريعة لنصوص العصر الجاهلى تؤدى بنا الى القول بأن عربية هذا العصر كانت تدل على المستويات الاجتماعية عن طريق الأسلوب العام واختيار الكلمات أما الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فلم يكن يلحقها تغيير .

---

(١) أمثلة من الشعر : قول النابغة فى مدح النعمان والاعتذار اليه مع اشارة الى « الوشاة » ولا تتغير فى ذلك كله ضمائر التكلم والخطاب والغياب :

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع
مقالة ان قد قلت : سوف أنالـه ؛ ... وذلك من لقـاء مثلك رائـع
لعمرى — وما عمرى على بهين ... لقد نطقت بطلا على الأقـارع
أقارع عوف ؛ لا أحـاول غيرها ... وجوه قرود تبتغى من تجـادع
أتاك أمرؤ مستبطن لى بغضـة ... له من عـدو مثل ذلك شـافع
أتاك بقول هلهل النسـج كاذب ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصـع
أتـاك بقـول لم أكن لأقـوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

وفى آخر القصيدة :

اتوعّد عبدا لم يخنك امانة ... ويترك عبدٌ ظالم وهو ضالع
وانت ربيع ينعش الناسَ سيبُه ... وسيفٌ أعيرتهُ المنيةُ قاطع
أبى الله الا عدلَه ووفاءه ... فلا النكرمعروف ولا العرف ضائع
وتسنقى اذاما شئتَ غير مُصَرَّد ... بزوراء ، فى حافاتها المسك كانع

ومن أبيات لدريد بن الصمة وفيها حديث عن قومه وموقفه منهم وموقفهم منه ومن اخيه وامه ، ورثاء لأخيه ؛ ولا تغيير فيها للضمائر أو للصيغ المسندة الى الضمائر لاظهار هذه المستويات المختلفة :ـ

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النصحَ الا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم انى بهم غير مهتد
وهل أنا الا من غزية ؟ ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد
دعانى اخى ، والخيل بينى وبينه ... فلما دعانى لم يجدنى بقعدد
أخ ارضعتنى أمه من لبانها ... بثدىٍ صفاء بيننا لم يُجَدَّد
نجَتْ اليه ، والرماح تنوشه ... كوقع الصَّياصى فى النسيج الممدّد
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت ... الى قطع من جلد بو مُجلّد
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت ... وحتى علانى حالك اللون اسود
فقال امرىء آسى أخاه بنفسه ... وبعلمُ أن المرء غير مُخلّد
تنادوا فقالوا أردت الخيل نارسا ... فقلت : اعبدُ الله ذلكم الرَّدى ؟
فان يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافا ولا طائش اليد

ومن مخاطبة عظيمين قول زهير :ـ

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الامر نسلم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شتى من افال المزتم

ولا نظن أن الضمير فى « تلادكم » القصد منه تعظيم هذين السيدين انما الأقرب اشارة الى العشيرة .

ومن للحديث عن الصاحبة ومخاطبتها قول عنترة :ـ

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى ... أنى امرؤ سأموت ان لم أقتل

والضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فى **الخطب والأمثال والحكم والوصايا** لا تظهر تغييراً بتغير المستويات الاجتماعية : لاحظ الضمائر فى خطبة قس بن ساعده الإيادى المشهورة (أيها الناس ! اسمعوا وعوا ؛ انه من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . الخ) وفى حكمه : (. . ولاتشاور مشغولاً وان كان حازما ، ولا جائعا وان كان فهما ، ولا ملهوراً وان كان ناصحا) .

ومن خطبة منسوبة الى عمرو بن معد يكرب الزبيدى يقال انه ألقاها امام كسرى أنو شروان يخاطبه فيها : (. . . فاجتبد طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، والِنْ لنا كنفك يلن لك قيادتنا . فانا الناس لم يؤرقنّ صفاتنا قراعُ مناقير من أراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من رام لنا هضما) .

ومن الأمثال الجاهلية :

(ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا) و (ذكرنى فوك حمارَىْ أهلى)

و (انحشأ لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك . وفى لغة الوصايا المنسوبة الى الجاهلية من والد الى بنيه، أو ابنه أو من والدة الى ابنتها أو ابنها لا تتغير الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر ومن ذلك الوصية المنسوبة الى زهير بن جناب الكلبى يوصى فيها أبناءه (يا بنىَّ قد كبرت سنى، وبلغت حُرْسامن دهرى، فأحكمتنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار . فاحفظوا منى ما أقول وعوه ، اياكم والخور عند المصائب والتواكل عند النوائب . . . الخ)

ب — **أما فى صدر الاسلام** فسنجد أن من الواجب دراسة استعمال الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فى القرآن وحده وفى الأحاديث النبوية وحدها ، وفى خطاب كل من المؤمنين والكافرين للرسول ، وفى رسائل النبى والخلفاء الى الملوك والأمراء والعمال وحدها ، فضلاً عن دراستها فى فنون القول الأخرى من شعر ونثر .

وفى لغة القرآن نميز بين المواضع التى يتكلم فيها الله تعالى باسمه ، من تلك التى يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة ، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه المؤمنين ومن خطابه الكفار ، ومن حديثه عن أولئك جميعا ، ونفصل خطاب المؤمنين له ، من خطاب الكفار له ، ومن خطاب الرسول اياه .

وسنلاحظ فى **تكلم الله جل وعلا باسمه** أنه يستعمل أحيانا ضمير المتكلم المفرد وأحيانا ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه وتفسير الاختلاف فى استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة فى هذا الشأن :

ومن تكلم الله جل وعز باسمه بضمير الجمع قوله تعالى : (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم . «سورة الغاشية») وقوله : (لقد خلقنا الانسان فى كبد . «سورة البلد») وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . « سورة البلد ») وفى نفس السورة : والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة)[1] .

---

(١) ومن ذلك :

(انا أنزلناه فى ليلة القدر)

(انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر) .

وفى سورة المطففين (اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)

وفى سورة التين : (لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .

وفى سورة النبأ : (الم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا) وفى نفس السورة (انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) وفى السورة نفسها (انا انذرناكم عذابا قريبا) .

ومن تكلم الله عز وجل باسمه بصيغة المفرد قوله تعالى فى سورة الفجر (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) . وفى سورة الليل آيات يستعمل فيها ضمير جماعة المتكلمين وفى آخرها آية يستعمل فيها ضمير المفرد المتكلم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى . . .) .

وفى سورة الأعلى يتكلم الله بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير الى ذاته بضمير المفرد الغائب لا بضمير الغائبين ثم يعود الى الكلام بضمير جماعة المتكلمين (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك لليسرى) .

والله تعالى يشير الى ذاته فى القرآن مصطنعا ضمير المفرد الغائب ومسندا الصيغ الى المفرد الغائب ولا نجد آية من الآيات يشير فيها الله الى ذاته بضمير جماعة الغائبين أو باسناد الصيغة الى جماعة الغائبين ومن ذلك ما ورد فى الآية السابقة وما نجده فى هذه الآيات من سورة عبس : (قتل الانسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره)[1] وان كنا نلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله فى التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين : (فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا . . الخ) .

نرى من هذا أن الله يتكلم باسمه مصطنعا ضمير جماعة المتكلمين مرة ، ومصطنعا ضمير المتكلم المفرد مرة ، ولكن التعظيم واعلاء الشأن لم يمثلا مرة فى

---

(١) ومن الأمثلة الشبيهة بهذا قوله تعالى : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقوله تعالى (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) و (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى . « سورة الأعلى ») . و (انه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد . « سورة البروج »)

القرآن ، ولا فى غير القرآن ، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين ، وقد يعترض على هذا بأن ضمير المتكلمين يطابق فى الصورة ضمير المتكلمين الاثنين والرد على هذا أن بعض السياقات تحدد أن المقصود بالضمير هو ضمير جماعة المتكلمين كما يتضح ذلك من قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . كما أننا نرى مما تقدم أن القرآن لا يستعمل ضمير جماعة الغائبين أو الصيغ المسندة الى جماعة الغائبين عند الاشارة الى الله جل شأنه ، ولا ضمير الغائبين الاثنين أو الصيغ المسندة الى الغائبين .

أما خطاب المؤمنين لله ودعاؤهم اياه فنجد أن القرآن يستعمل فيه ضمير المخاطب المفرد ومن أشهر الأمثلة على ذلك فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين)[1]

ومن ذلك قوله تعالى « وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (الأعراف آية ١٢٦ ـ قصة موسى وفرعون والخطاب فى « تنقم » لفرعون)

وأما خطاب الله للمؤمنين وحديثه عز وجل عنهم فهو مثل خطابهم اياه لا يستعمل فيها الا الضمائر المفردة كذلك . ومن أمثلة خطاب الله للمؤمنين وحديثه عنهم قوله تعالى فى سورة الأنفال (آيات ١٥ ـ ١٧) :

« يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم . » وقوله تعالى فى الأنفال آية ٧٢: « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم

---

(١) تجد فى شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى بيتاً يدعو فيه الله بضمير المخاطب المفرد :

لـك الحمد والنعماء والملك ربنا
فلا شىء اعلى منك مجداً وأمجد

ميثاق والله بما تعملون بصير » .

ومن حديث الله عن المؤمنين : (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا « سورة النبأ ») .

وننتقل الآن الى الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر التى يستعملها القرآن فى الكلام عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الكفار .

أما **خطاب الكفار لله** فتستعمل فيه صيغة المفرد فى الأغلب وصيغة الجمع أحيانا . وأمثلة هذا النوع قليلة فى القرآن ومنها :

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . » (ابراهيم آية ٤٤) ومنها : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون » (السجدة آية ١٢)[1]. ومنها قوله تعالى « حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » (المؤمنون آية ٩٩) .

وأما **خطاب الله للكفار** فأمثلته فى القرآن كثيرة نكتفى منها بقوله تعالى :

« فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا (سورة النبأ آية ٣٠) . وهذا الخطاب تستعمل فيه الضمائر والصيغ المادية .

وحديث الكفار عن الله يمثله قوله تعالى :

« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (البقرة آية ٢٦) . « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . . . . فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » (البقرة آية ٢٥٩)

---

(١) ومن أمثلة هذا النوع : «وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الأسفلين » (فصلت آية ٢٩) و : « . . . ويوم يناديهم اين شركائى قالوا آذناك ما منا شهيد » (فصلت آية ٤٧ و« قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون (المؤمنون ١٠٦ ـ ١٠٧) .

وفى الحديث عن عاد وثمود قال تعالى : « اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » (فصلت آية ١٤) .

اما حديث الله عن الكفار فمن امثلته :

« ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها احقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا » . (سورة النبأ) .

ومن رواية القرآن لكلام الكفار قوله تعالى :

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » (النبأ) .

وقوله تعالى رواية لكلام الكفار (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة ((النازعات))) .

والقرآن عندما يخاطب الرسول يخاطبه بصيغة المفرد ومن ذلك : « يس ، والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم)

و « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلا وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك ... الخ . »

ومن خطاب الله لرسوله وطلبه اليه أن يقول كلاما: «قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » .

والقرآن عند ما يتحدث عن الرسول فهو يتحدث عنه بصيغة المفرد « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ... الخ .» و «عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى» . (سورة عبس) .

حـ ـ واذا انتقلنا **الى الحديث النبوى وجدنا أن الرسول** يتكلم بصيغة المفرد دون تغيير ، ويخاطب المؤمنين والكفار على حد سواء مستعملاً الضمائر العادية ، كما أن كلام الناس من مشركين ومؤمنين للرسول لا يظهر فيه استعمالات خاصة للضمير أو للصيغ المسندة الى ضمائر .

ومن حديث الرسول (صلعم) عن نفسه :

« ان الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم . والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم

حقا والى الناس كافة . . . . . وانكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد .»[1]

والناس على اختلاف طبقاتهم كانوا عندما يخاطبون الرسول يخاطبونه مستعملين صيغة المخاطب المفرد ، واذا تحدثوا عنه تحدثوا بصيغة الغائب المفرد ، ولا يستعملون فى جميع ذلك صيغ تكلم خاصة بهذا السياق . والأمثلة النثرية على هذا كثيرة فى كتب الحديث ، ومن الأمثلة الشعرية قول قتيلة أخت النضر بن الحارث :

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والقوم فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقهم ان كان عتقا يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته ... بأعز ما يغلى به من ينفق [2]

ومن الحديث عن الرسول قول كعب بن زهير

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

وقول حسان بن ثابت يخاطب أبا سفيان من سادات قريش ويتحدث عن الرسول :ـ

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

ء ـ واذا نظرنا فى **كلام الخلفاء الراشدين** ، عن أنفسهم وفى

---

(١) وفى خطبة الرسول الجامعة فى حجة الوداع أمثلة كثيرة على حديثه عن نفسه بصيغة المفرد : (. . . واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتحكم بالذى هو خير ، أما بعد اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . . .) .

(٢) ومن ذلك قول كعب بن زهير :ـ

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وان كثرت فىّ الاقاويل

خطاب الناس على اختلافهم اياهم ؛ وفى حديثهم عنهم لم نجد استعمالات خاصة للضمائر[1] .

هـ ـ ان دراسة « الكتابة الديوانية » من أقدم عصورها كفيلة بأن تبين لنا الزمن الذى بدىء فيه باستعمال ضمير المتكلمين للمتكلم الواحد فى الرسائل عندما تصدر الرسالة باسم خليفة ، او باسم امير أو وزير الى من هو أدنى منه كما أنها كفيلة باظهار ما صحب ذلك من اكثار فى ألقاب التمجيد والتفخيم ، ومدى تأثر العرب فى ذلك بما كان من هذا لدى الأمم الأخرى ان كان ثمة تأثر .

---

(١) قال ابو بكر يوم بويع : « أما بعد فانى وليت عليكم ولست بخيركم . . . وان اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق ، وان اضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس انما انا متبع ولست بمبتدع فاذا رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فردونى . اطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

ومن خطبة عمر بن الخطاب اذ ولى الخلافة : « يأيها الناس انى داع فأمنوا . اللهم انى غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على اعدائك واهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم . . . » .

ومن خطبة عثمان بن عفان عقب أن بويع : « أما بعد فانى قد حملت وقد قبلت . الا وانى متبع ولست بمبتدع ، الا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا . . . » .

ومن خطبة لعلى بن أبى طالب بعد التحكيم : « . . . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هوازن :ـ

امرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد . »

ومن الأمثلة الشعرية على عدم استعمال ضمائر خاصة عند خطاب الخلفاء الراشدين قول الحطيئة المشهور يخاطب عمر :ـ

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
الفيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاعدل عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذى من بعد صاحبه ... ألقى اليك مقاليد الورى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فاحنن على صبية بالرمل مسكنهم ... بين الأباطح تغشاهم بها الغرر
أهلى فداؤك كم بينى وبينهم ... من عرض داوية يعمى بها الخبر

و ـ انا فى العصر الحديث نجد خطاب الملوك والسادة وما يصدر عنهم يختلف عما كان عليه الأمر أيام الجاهلية وصدر الاسلام فنحن المصريين كنا نشير الى الملك أيام الملكية بـ « مولانا » و « مولانا صاحب الجلالة » .

والمراسيم التى تصدر باسمه كانت تبدأ بمثل « نحن فؤاد الأول ملك . . . رسمنا بما هو آت . . . »

ولم يكن يسوغ فى مخاطبة رسمية مخاطبته باسمه بل يقال «يا صاحب الجلالة» «مولانا الملك المعظم» ؛ «جلالتكم» ؛ « ذاتكم الملكية الكريمة» الخ . ولكن للشعر لغته الخاصة فالشاعر يباح له أن يخاطبه باسمه وأن يشير الى اسمه مجرداً من كل لقب أو مقرونا بألقاب ، كما يباح له أن يخاطبه بضمير المفرد[1] ، ولذلك فقد أشرنا الى وجوب دراسة لغة الشعر دون الخلط بينها وبين لغة النثر .

ولكن اللغة العربية وان كثر فيها حديثا استعمال ضمير الجمع عند مخاطبة شخص عظيم أو عندما يكون المتكلم شخصاً عظيماً الا أنها لا تغير من ضمير المتكلم الذى يخاطب العظيم بيانا لأنه أقل منه شأنا أو لأنه ند له ؛ كما أن العربية لا

---

(١) ومن ذلك فى شعر شوقى :ـ (الشوقيات حـ ١ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٣ـ حـ ٤ طبعة ثانية مكملة نفس المطبعة سنة ١٩٥١) .

العلم والملك الرفيع كلاهما ... لك يا «فؤاد» جلالة ومقام
(ديوان حـ ٤ ص ١٠)

و : «فؤاد» حلبتك جيد النيل مائرة ... حلوت فى صوغها آباءك النجبا
ديوان حـ ١ ص ٨٤

ومن مخاطبة شوقى للملك فؤاد بكنيته ؛ وهى طريقة من خطاب الملوك لم تكن اذ ذاك تستعمل فى غير الشعر :ـ

انظر «أبا الفاروق» غرسك هل ترى ... بالغرس الا نعمة ونماء
ديوان حـ ٤ ص ٥٠

و : « أبا الفاروق » أقبلنا صفوفا ... وأنت من الصفوف هو الأمام
(ديوان حـ ٤ ص ٧٢)

ومن أمثلة مخاطبة شوقى للملك فؤاد معظما ومفخما قوله من بيتين أرسلهما فى برقية بميلاد (الأميرة) فتحية :

مولاى ! ان الشمس فى عليائها ... أنثى ، وكل الطيبات بنات
(ديوان حـ ٤ ص ٧٤)

وقوله فى مطلع قصيدة يهنىء بها الدكتور على ابراهيم بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠ :

يسد الملك العلوى الكريم ... على العلم هزئت أخاه الأدب
(ديوان حـ ٤ ص ٧٥) .

تستعمل ضمير الجمع الغائب عند الاشارة الى شخص ذى جاه .

وما هو جدير بالملاحظة أنه يكثر فى لغة التأليف سواء كان المؤلف كتابا علميا أو أدبيا ، أو مقالة أن يتكلم المؤلفون مصطنعين ضمير جماعة المتكلمين (ونحن نرى ـ قلنا ـ أشرنا . . . الخ) ولكن استعمال هذه الصيغة غير لازم فهم يستعملون الى جوارها صيغة المتكلم المفرد ؛ والدراسة التاريخية لاستعمال هذه الصيغة كفيلة بأن تضع أيدينا على النصوص الأولى التى استعملت فيها .

(٤) واذا تركنا العربية الى بعض اللغات الأوربية الحديثة وجدنا صورا أخرى من العلاقة بين الضمائر وبين المستويات الاجتماعية .

ا ـ **فالانجليزية** تستعمل ضميرا واحدا هو You عند خطاب أى انسان أيا كانت منزلته من المتكلم، وهذا الضمير هو نفسه الذى يستعمل عند خطاب أكثر من شخص، كما أنه هو الذى يخاطب به المذكر والمؤنث على حد سواء، وبينما الخطاب فى الانجليزية لا يراعى فيه التفريق بين الواحد وما يزيد عن الواحد ولا بين المذكر والمؤنث ، فان التكلم له ضميران أحدهما للواحد أو الواحدة (I) والثانى لما يزيد عن الواحد مذكرا أو مؤنثا أو غيرهما (We) ؛ والغيبة يفرق فيها كذلك بين المفرد وما يزيد عن المفرد وهى فى حالة المفرد تخصص ضميرا لكل من العاقل والعاقلة وما لا يعقل It - She - He أما فى حالة الجمع فهى تستعمل ضميرا واحدا هو They ومعروف أن لهذه الضمائر فى الانجليزية تصرفات حسب موقعها من الجملة ومدلالتها على الملكية .

وان كانت الانجليزية لا تستعمل فى الخطاب عادة الا ضميرا واحدا هو You وبذلك يمكن القول ، كما ترى مرجريت شلاوش[1] بأنها فى هذه الناحية « لا طبقات فيها » ، الا أنها تستعمل لخطاب المفرد أحيانا قليلة ضميرا خاصا هو (thou) وذلك فى الخطاب الجدى ـ كالكلام الدينى وألوان من الخطابة والشعر أحيانا . ان الانجليزية تعبر عن منزلة المخاطب من المتكلم عن طريق الأسلوب العام وانتقاء الكلمات ، ولا يزال يستعمل فيها ـ وان كان فيما مضى أكثر شيوعا ـ أسماء مجردة تذكر بعد ضمير الملكية المخاطب (your) عند خطاب الملوك

(1) The Gift of Tongues, p. 270 . . . . . .

والأمراء والأميرات وحملة الألقاب وحاملاتها وذوى المناصب الرفيعة مثل
Your Highness - Your Majesty Your Ladyship - Your Lordship
Your Excellency الخ .)[1]

ب ـ **أما الفرنسية** فمن المعروف أنها فى التكلم لا تميز الا بين الواحد وما يزيد عن الواحد دون تفريق يقوم على أساس التذكير والتأنيث (Nous - Je) وهذا النوع من التمييز هو الذى تراعيه فى الخطاب (Vous - Tu) ولكنها فى الغياب تضيف الى هذا التمييز التفريق القائم على أساس التذكير والتأنيث فللواحد والواحدة Elle - Il وما يزيد عن الواحد مذكرا Ils وما يزيد عن الواحدة Elles . والفرنسى عند ما يخاطب شخصا لا يألفه وان كان فى مستواه الاجتماعى أو شخصا يعلوه فى السلم الاجتماعى يخاطبه بضمير الجمع vous ، أما فى خطابه أصدقاءه ومن لا كلفة بينه وبينهم فهو يستعمل ضمير المفرد Tu

جـ ـ **والألمانية** أشد من الانجليزية والفرنسية تدقيقا وتمييزا فى ضمائر الخطاب للتعبير عن منزلة المتكلم من المخاطب : فالألمانى فى خطابه طفلا أو صديقا حميما أو شخصا يحس نحوه زراية واحتقارا يقول "du"، وقد يبدو غريبا استعمال ضمير واحد فى خطاب الصديق وفى خطاب من يحس المتكلم نحوه زراية ، ولكن هذا هو الذى تسير عليه الألمانية ؛ والألمانى اذ يخاطب غريبا عنه يعبر عما بينهما من بعد باستعماله الضمير Sie (وهذه الكلمة مطابقة شكلا وأصلا للضمير الذى يعنى « هم » they) ؛ أما اذا أراد اظهار الاحترام والطاعة فهو يوجه الكلام الى المخاطب مستعملا اسما غالبا (فيقول مثلا ما يقابل : هل فرغ السيد من احتساء قهوته ؟) .

(٥) ولكن هذا التفصيل فى الضمائر الذى نجده فى الألمانية وسائر اللغات

(1) ترى مرجريت شلاوش أن الضمير الذى يمكن أن يحل محل هذه الأسماء المجردة (مثل Excellency وما اليها) فى اللغات التى تميز بين الجنس هو ضمير المفردة المؤنثة She (هى) ؛ وأن الكلمة الاسبانية المعاصرة المقابلة لـ "You" مأخوذة من اسم مؤنث مرتبط بالتهذيب الذى يراعى فى دوائر البلاط والأوساط الراقية فـ "Usted" الاسبانية مختصرة من "vuestra merced" التى تقابل فى الانجليزية "Your graciousness" أو "Your mercy" .

(2) انظر المرجع السابق .

الأوروبية ، وفى العربية لا يقاس الى ما يوجد فى**بعض لغات الشرق الأقصى كاللغة اليابانية والكورية ولغة اللابو** • وهذه اللغات نفسها لا تتفق فى صورة واحدة أو متقاربة فى تعبيرها عن المستويات الاجتماعية انما يتمثل فى كل منها لون خاص به •

ا ــ **فاليابانى** عندما يشير الى فرد من أفراد الطبقة العليا يمنعه تأدبه من أن يستعمل صيغة المبنى للمعلوم البسيطة فهذه الصيغة تشعر أن أفراد الطبقة العليا مضطرون الى أن يؤدوا الأعمال بأنفسهم ، ولهذا فهو يختار ال causative voice معطيا اياهم بهذا دور الأشخاص الذى يعملون بواسطة عن طريق الأمر ، أو هو يختار صيغة المبنى للمجهول كما لو كان الحدث يقع من تلقاء ذاته[1] .

ب ــ **أما اللغة الكورية** فهى تعبر بالصيغة الفعلية عما اذا كان المتكلم شخصا رفيع المقام يخاطب شخصا أدنى منه ، أو شخصاً أدنى يخاطب من هو أعلى منه ، أو شخصاً يكلم قريناً (= مساويا) له ؛ كما ان هذه اللغة تعبر بصيغة الفعل فى الوقت نفسه عما اذا كان هذا الخطاب يحدث باحترام نسبى ، أو باحتقار ، أو بطريقة معايدة لا احترام فيها ولا احتقار[2] .

حـ ــ وأما **المتكلم بلغة اللابو** فعليه أن يحدد أولاً بعد المخاطب منه فى السلم الاجتماعى لأنه حسب هذا التحديد لا يغير ضمير المخاطب ليس الا بل يغير ضمير المتكلم كذلك وسائر الضمائر • وقد رتبت مرجريت شلاوش[3] عدد الصيغ التى على المتكلم بلغة اللابو أن يختار من بينها حسب المراكز الاجتماعية للأشخاص الثلاثة الذين يحتاج الى أن يعبر عنهم[4]، ونحن ننقل عنها هذا الجدول فيما يلى :ــ

(١) المرجع السابق p. 271
(٢) المرجع السابق pp. 271 - 272
(٣) المرجع السابق pp. 270 - 271
(٤) راجع ما يتعلق بالضمير فى الفصل الذى كتبه يسبرسن بعنوان Person فى كتابه The Philosophy of Grammar (p.p. 212 - 225)
وانظر بصفة خاصة الى كلامه عن « الشخص الرابع » . وراجع الفصول التى كتبها المؤلف نفسه عن الشخص والضمائر فى كتابه :
Essentials of English Grammar, p.p. 146 - 196

الشخص المتكلم	انا ؛ نحن	انتِ ؛ انتما انتم انتن	هو ، هى ؛ هما هن هم
تلاح يكلم تلاحا آخر	kita الجمع ; aku	êngkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصا أدنى باستعلاء	kita الجمع ; aku	êngkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصا أدنى بطريقة عادية	kitâ الجمع ; sahaya	awak, kamu	dia , ia
شخص حال يخاطب أقرانه برتبة	(tuan) hamba	(hamba) tuan	(hamba) tuan
جميع الطبقات فى خطابهم الاوروبيين	kita; sahaya kami	tuan	tuan
شخص من الطبقة التى تقل من طبقة النبلاء مباشرة يخاطب قرينا له			tuan , êncle'
رجل سامى لرئيسه	(dato') hamba (dato') sahaya	dato'	dato'
رجل سامى لراجا راجا لرجا آخر أعظم منه	patek	êngku tângku	êngku raja, tângku
رعية للسلطان	patek	tuan-ku	tuan-ku, yam-tuan
اللغة الأدبية	patek	sahabat beta	الاسم واللقب

ملاحظة : الصوت الممثل فى الجدول بالحرف e مثلنه المؤلفة فى الأصل بالحروف ə ونوقه ما يشبه رقم ٧ . ونظراً لتعذر هذا الحرف عندنا فقد عدلنا عنه الى الشكل المستعمل فى الجدول .

التطور اللغوى وصلته بالمجتمع

نتحدث الآن عن جوانب من تطور اللغة واللغات مبينين ما بين هذا التطور والعوامل الاجتماعية من صلات ؛ فنعرف بما يحدث من استمرار لغة على الألسن وانقطاع أخرى ، ومن ظهور « لغة عامة »[1] عن لهجة أو مجموعة من اللهجات (وهو يعرف بالتوحد اللغوى) ، ومن احتكاك بين لغات ولهجات يحدث آثاراً فيها مع بقائها جميعاً على الألسنة .

(أ) بقاء اللغات وموتها

توصف لغات بأنها « حية » وأخرى بأنها « ميتة » . والحق أن هذه الحياة وذاك الموت نسبيان يقاسان باستمرار استعمال هذه اللغات ، أو بانقطاع دورانها على الألسن . ان أية لغة من اللغات هى نظام معين من النظم الاجتماعية ، وهى بهذا الاعتبار خاضعة لتطور مشروط بتطور الجماعة التى تتكلمها ؛ وأية لغة باعتبارها نظاما من العلامات التعسفية المتواضع عليها لا يقوم لها وجود الا اذا استعملتها جماعة من الجماعات .

وأشهر ما يساق من الأمثلة على « موت » اللغات هو اللغة اللاتينية . ولكن اللاتينية لم تمت فى الحقيقة ، انها لم تمت من الناحية التاريخية ، بل أصابتها تغيرات عميقة أنتجت أشكالا[2] حديثة لها أبرزها البرتغالية[3] ، والقشتالية[4] ، ولغة قطالونيا[5] ، ولغة بروڤانس[6] ، والفرنسية ، والايطالية ولغة رومانيا[7] ، والاسپانية . وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أنا نحس اذا نظرنا الى الأشكال الحديثة

---

(١) Common Language . . . . . .

(٢) انظر فى هذا :
Jean Perrot : La Linguistique ; pp. 123 - 124
Jespersen : Mankind .....; pp. 44 -45

(٣) Portuguese . . . . . .

(٤) Castilian . . . . . .

(٥) Catalonian . . . . . .

(٦) Provencal . . . . . .

(٧) Roumanian . . . . . .

للاتينية بأنها لغات مختلفة .

ومن اللغات التى توقف الناس عن استعمالها اللغة الغالية[1] التى أخذت تزول شيئاً فشيئاً الى أن حلت محلها اللاتينية ؛ ومنها لغة كورنوال[2] ، وهى لغة كلتية الأصل كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية الى أن حلت محلها اللغة الانجليزية . ومن ذلك اللغة القبطية فى مصر ، والبربرية فى أقطار كثيرة من شمال افريقيا ، فقد حل محل هاتين اللغتين لغة العرب الفاتحين .

واللغة الهندوأوروبية العامة انبثق عنها عدد كبير من اللغات ، وكذلك الشأن فى اللغة السامية العامة ، وفى اللغة الاسكندناڤية العامة التى انبثق عنها الأيسلندية[3] ، واللغة الفورية[4] ، والنرويجية ، والسويدية ، والدانمركية . واللغة الجرمانية الغربية العامة ظهر عنها الانجليزية ، والألمانية ، والهولندية[5] .

(ب) التوحد اللغوى

(١) فى حياة اللغة ميلان متعارضان : أحدهما نحو التقسم الى لغات ولهجات ، والثانى نحو الوحدة المتزايدة الاتساع . وكلا التقسم والتوحد اللغويين فعل أحداث تؤثر فى الجماعات . ويرى بعض اللغويين ان الاتجاه نحو التقسم أقوى من الاتجاه نحو التوحد ، وأن الاتجاه الأول هو عملية التطور الطبيعية للغة ؛ ومن هؤلاء اللغويين « ويلد »[6] الذى يقرر أن اتجاه اللغة هو نحو « التنوع اللانهائى » وهؤلاء اللغويون يستشهدون على رأيهم بأدلة كثيرة من بينها أنه ما ظهرت لغة عامة الا تقسمت فى لغات كثيرة .

---

(١) Gaulish . . . . . .

(٢) Cornish . . . . . .

(٣) Icelandic . . . . . .

(٤) Fœric . . . . . .

(٥) فيما يتعلق بتصنيف اللغات وتطورها راجع ما كتبه انطوان ميبه بعنوان :
Introduction A La Classification Des Languages (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, Tome II, pp. 53 - 69)
وبعنوان :
Le Développement Des langues (op. cit., pp. 70 - 83)
وراجع ما كتبه فى الجزء الأول من نفس الكتاب بعنوان :
Convergence des Développements Linguistiques (pp. 61 - 75)

(٦) H.C. Wyld . . . . . .

ولكن «يسپرسن» يرى أن هناك قوى لايجوز التغافل عنها تعمل فى الاتجاه المضاد ، وأن ,, هذه القوى الموحّدة كانت فى العصور التاريخية أقوى فى حقيقة الأمر من القوى المقسِّمة ، وانها لكذلك فى الوقت الحاضر على وجه الخصوص ، وستكون كذلك يقينا فى المستقبل،،[1] . ومما يستشهد به يسپرسن أن عدد اللغات الآن ، وان كان أكثر منه فى بعض العصور الماضية ، الا أن عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة — فى عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاما لم يعرف من قبل — هو فى معظم الحالات أكثر أضعافا مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة . ومن أمثلته على هذا أن عدد من كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة ضئيل جداً بالقياس الى المائة والخمسين مليونا الذين يتكلمون الآن الانجليزية، والخمسة والسبعين مليونا الذين يتكلمون الآن الألمانية ، والعشرة ملايين الذين يتكلمون الآن الهولندية[2] . ثم يعود يسپرسن فيحترز بعض الاحتراز مقرراً أنه أيا ما كان الحال فالواقع أن الميل جد قوى نحو أن يكون عدد المتكلمين بلغة واحدة ونفس اللغة أكبر بكثير منه فى أى زمن مضى[3] .

(٢) أما **العوامل المعينة على ظهور لغة عامة وعلى نشرها** فكثيرة معقدة متشابكة . وذلك لأن الحياة الاجتماعية تقوم على العمل المشترك لقوى كثيرة مختلفة . وهذه العوامل تختلف طبيعة وقوة ودرجة ، فقد تكون سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو أدبية ، أو غير ذلك .

ودراسة ظهور اللغات العامة التى تكونت فى العصور التاريخية تبين أنه لم يحدث فى حالة من الأحوال أن كان ظهور اللغة المشتركة أو العامة راجعاً الى عامل فرد ، وانها لتبين كذلك أنه من العسير فى كثير من الأحوال معرفة أى العوامل كان أقوى أثراً فى تكوين اللغة العامة أو فى اذاعتها .

ولذلك فسنعرض فيما يلى أهم العوامل ذات الأثر فى تكوين اللغات العامة ونشرها ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن هذه العوامل لا بد من توفرها فى كل حالة .

---

(١) Jespersen : Mankind ..... ; p. 44 .
(٢) " : " ..... ; p. 45 .

١ — يعتبر التوحد اللغوى دائماً على **الاتصال والاختلاط وعلى الاشتراك فى الحياة** . والاتصال الفعال فى توحيد اللغة قد ينشأ عن حرب تسبب اختلاط سكان ينتمون الى أماكن مختلفة ذات لهجات مختلفة ، وقد ينشأ من عقد الأسواق الموسمية ، وعن المصاهرة بين أصحاب اللهجات المختلفة ، هذه المصاهرة التى يدعو الى قيامها ظواهر اجتماعية ونفسية . وللدين دوره الهام فى قيام اللغات العامة ، فالأعياد والاجتماعات الدينية الكبرى تؤلف بين الناس قاصيهم ودانيهم ؛ ومن ذلك أثر اجتماع عرب الجاهلية فى مكة خاصة فى ظهور اللغة العربية المشتركة ؛ وما كان لمعبدى دلفى[1] وأوليمپيا[2] فى اليونان — وكانا مزار جميع الهيلينيين — وللألعاب الأولمپية عند اليونان التى كان لها دلالة دينية . وللكنيسة دورها الهام فى توحيد اللغة فى كثير من البلدان، وان كانت أحيانا معرقلا للتوحيد اللغوى عندما تحتفظ بلغة قديمة .

ب — أما **الأدب** لا سيما الشفوى فمن أكبر القوى العاملة على تكوين اللغات العامة واستفاضتها . فالرواة والقصاص والمنشدون والمغنون كانوا ينتقلون بأدبهم من قبيلة الى قبيلة ومن بلاط ملك أو أمير الى بلاط غيره ، ولقد كانوا مضطرين فى كثير من الأحوال الى أن يستعملوا نوعا من الكلام العام يفهم جوهره أصحاب اللهجات المختلفة الذين يعرضون عليهم أدبهم ، وكثيراً ما كانوا يعمدون الى أن يسقطوا من كلامهم ما قد يستعصى على الادراك من عناصر لهجتهم المحلية ، وهكذا تتكون لغة أدبية عامة . ولقد وجدت فى أيرلندا فى العصور الوسطى لغة عامة من هذا النوع كان أعظم عامل فى ظهورها راجعاً الى تأثير القصاص[3] وهكذا كان النشأ فى لغة الأدب اليونانى القديم : نشأت كل فنون الأدب اليونانى — ما عدا المأساة — فى المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ؛ ولقد كان بين هذه المستعمرات تبادل قوى . ولغة هذه الآثار الأدبية لا تطابق لغة بلدة خاصة فهذه الآثار الأدبية لم تكن موجهة الى بلدة واحدة بل الى مجموعة من البلدان ، والى اليونان كلها فى واقع الأمر . نعم ان كل فن من فنون

---

(١) Delphi . . . . . .
(٢) Olympia . . . . . .
(٣) Saga-Men . . . . . .

الأدب اليونانى كانت لغته الخاصة مصطبغة بلغة ذلك الاقليم الذى ظهر فيه لأول مرة، ولكن مثقفى اليونان فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانوا يفهمون النصوص الأدبية اليونانية وان كانت مؤلفة بلهجات جد نائية .

وان أثر الأدب فى تكوين اللغات العامة وانتشارها يصحبه ظروف اجتماعية خاصة سياسية واقتصادية وغيرها . أما القول بأن لغة عامة قد كونها أديب واحد فهو قول غير صحيح . ومن ذلك الاعتقاد الذى كان سائداً أن الايطالية قد كونها دانتى[1] ، والانجليزية كونها تشوسر[2] ، والألمانية كونها لوثر[3] ، والدانيمركية كونها كريستيرن بدرسن[4] . فقد أظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفا . ولكن أهمية هؤلاء الأعلام أنهم دفعوا ما كان متحركا من قبل فقد اعتبروا نماذج أدبية ، وأخذ يقلد لغتهم أناس ما كانوا لولاهم ليتكلموا أو يكتبوا اللغة العامة .

حـ — وأما **الحالة السياسية** فذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالعمل على التوحد اللغوى أو على عرقلته . فاذا قدر لولايات كل منها مستقل ولكل لهجته أن تتحد تحت حكم واحد كانت الفرصة مواتية لظهور لغة عامة : فالحكومة الواحدة مضطرة الى أن تخاطب سكان البلاد أجمعين على اختلاف لهجاتهم ؛ كما أن مقر الحكم من شأنه أن يستهوى الطامحين من مختلف الولايات ، وهؤلاء سيجدون أنفسهم مضطرين الى التنحى عن كثير من خصائص لهجتهم المحلية . وقد لوحظ أنه حيث تكون الحكومة مركزية الى حد كبير تنتشر اللغة العامة ، وذلك شأن الامبراطورية الرومانية القديمة بلغتها اللاتينية الرسمية .

أما ألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة فهى مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة . فقد حدث حتى بعد ظهور اللغة الألمانية العامة — التى كان يعمل على ظهورها من قبل اتحاد ألمانيا ، قوى أخرى موحدة — أن اللغة العامية التى يتكلمها متعلمو الألمان حتى فى أيامنا هذه أكثر تلونا باللهجات

---

(١) Dante
(٢) Chaucer
(٣) Luther
(٤) Christiern Pedersen

المحلية اذا قيست بعاميات المتعلمين فى معظم البلاد الأوروبية الأخرى . ومن العوامل ذات الأثر فى ظهور اللغة الألمانية « لغة المحاكم »[1] السكسونية التى كانت تقلدها محاكم أخرى بما فيها محاكم النمسا[2] التى أصبحت شبه لغة كتابية عامة رسمية .

ثم كانت ترجمة لوثر للكتاب المقدس ، هذه الترجمة التى كانت كبيرة الأثر حتى فى البلاد الكاثوليكية ، بأسلوبها الحى الجديد الطبيعى ، وباختيارها للتعبيرات التى لم تكن ملكا خالصا لاقليم ألمانى بعينه . ولم يقتصر الأمر على لغة الكتابة فقد كانت ثمة عوامل تعين على نشر لغة الكلام العامة . ومن ذلك أن لغة الكلام الألمانية العامة قد أدخلتها فى المناطق الشرقية من ألمانيا طبقة عليا من طبقات المجتمع ، وكانت السلافية[3] لغة الكلام فى هذه الأقاليم من قبل . وكانت هذه الطبقة العليا تتكلم الألمانية بصورة بالغة الدقة ، اذ كانوا يحسون أن عليهم أن يتكلموا « كلاما صحيحا » وألا يرسلوا أنفسهم على سجيتها شأنهم فى بلد صغير فى سكسونيا[4] ، أو تورينجيا[5] أو باڤاريا[6] .

ء — ومن أهم العوامل المساعدة على تكوين لغة عامة وانتشارها فى المجتمعات الحديثة ، الخدمة العسكرية ، والمدارس والمعاهد والجامعات فهى تتيح الاتصال بين أشخاص من أقاليم مختلفة ذوى لهجات مختلفة ، وهكذا ينفسح المجال لظهور كلام مشترك .

أما السينما والاذاعة والصحافة فهى من أكبر وسائل نشر اللغة العامة فى العصر الحديث ، فكلامها المنطوق والمكتوب يوجه الى أصحاب اللهجات المختلفة ، فينهنه من حدة الاختلافات المحلية فى اللغة .

هـ — وظهور المدن الكبيرة قديما وحديثا — وقيامها راجع الى ظروف اجتماعية خاصة — خطير الأثر فى توحيد اللغة .

---

(١) Chancery-Language
(٢) Austria
(٣) Slavonic
(٤) Saxony
(٥) Thuringia
(٦) Bavaria

فالدور الذى قامت به أثينا وروما قديما فى تكوين اليونانية واللاتينية وإذاعتهما دور عظيم ولو لم تكن الاعتبارات السياسية وغير السياسية التى شاركت فى ظهور هاتين اللغتين فقد كانتا ستقومان بهذا الدور . ذلك لأن المدن تجذب جماعات من الناس من أقاليم متفاوتة متباعدة فضلاً عن اجتذابها أناساً من ضواحيها المتاخمة لها . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض ، وعن اختلاطهم بالسكان الأصليين أن تصقل لغة الجميع ، وأن ينتهى الأمر بأن يتكلم سكان المدينة الكبرى بطريقة لا تنتظر من موقعها الجغرافى ؛ فالكلام العام المشترك لأثينا لم يكن أتيكيا[1] خالصاً ، والكلام العام لروما لم يكن كلام سكان روما الأصليين ، والكلام العام للندن وباريس فى العصر الحديث ما هو بلندنى خالص أو باريسى خالص . ان هذه اللغات العامة ظهرت فى أثينا وروما ولندن وباريس ولكنها لم تظهر بفضل أثينيين ورومين ، ولندنيين وباريسيين[2] .

(ح) **آثار الاحتكاك بين اللغات واللهجات :**

(١) تحدث أحياناً اتصالات بين اللغات واللهجات نتيجة للاتصال بين الجماعات الناطقة بها دون أن ينشأ عن ذلك حلول لغة محل أخرى ؛ وهذه الاتصالات لها آثارها اللغوية فى اللغات التى يحتك بعضها ببعض ، وقد تكون هذه الآثار أقوى ظهوراً فى احداها . ومن ذلك كثرة الكلمات العربية فى اللغة الاسبانية نتيجة لفتح العرب اسبانيا واقامتهم بها قروناً . ومنه ما فى العربية الفصحى منذ الجاهلية من كلمات حبشية ورومية وفارسية وهندية وسواها لما كان من اتصالات مختلفة الوسائل بين العرب وبين أصحاب تلك اللغات . والدخيل الفارسى قد ازداد فى العربية بعد الاسلام خاصة ثمرة لازدياد الاحتكاك بين العرب والفرس . والفارسية نفسها أخذت من العربية بعد الاسلام وكان من أظهر ما استعارته مصطلحات عربية علمية ودينية . وكثر الدخيل اليونانى فى العربية لما نقل العرب الى لغتهم فلسفة اليونان وعلومهم . وفى العاميات العربية الحديثة كلمات تركية دخلتها بعد أن آلت الخلافة

(١) Attic . . . . . .

(٢) انظر فيما يتعلق بالعوامل المعينة على التوحد اللغوى :
Jespersen, Mankind... : pp. 46 - 86

وراجع ما كتبه أنطوان ميبه بعنوان :
Différenciation Et Unification Dans Les Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 110 - 129)

الاسلامية الى العثمانيين واستمرت فيهم قروناً . كما أن فيها كلمات أوروبية مختلفة الأصول ، وان غلب أصل هنا وآخر هناك ، نتيجة الاستعمار الأوروبى للعالم العربى الحديث ولسوى ذلك من الأسباب ، فتكثر فى العراق ومصر كلمات انجليزية الأصل ؛ وفى سوريا ولبنان وتونس والجزائر كلمات فرنسية ؛ وفى ليبيا كلمات ايطالية ؛ وفى انحاء من مراكش كلمات اسبانية . وقد أخذت العامية المصرية فى السنوات الأخيرة — ولا تزال — تؤثر فى سائر العاميات العربية على تفاوت فى الدرجة لمكانة مصر حديثاً من العالم العربى : ووسائل نشر المصرية فى سائر الأقطار العربية من أهمها الأفلام السينمائية المصرية وأكثرها بالعامية ، والأفلام المصرية تكاد أن تكون الأفلام العربية الوحيدة التى تعرض فى كثير من البلدان العربية لتخلف الفن السينمائى فى هذه البلاد أو لعدم قيامه أصلاً ؛ ومن وسائل نشر العامية المصرية ما فى الاذاعة والصحافة المصريتين من قصص وتمثيليات وأغان ومقالات بالعامية ؛ ومعروف أن لهاتين الوسيلتين أثراً فائقاً فى سائر الأقطار العربية . وثمة وسائل أخرى لانتشار العامية المصرية منها كثرة الوافدين على مصر من البلاد العربية لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، وللزيارة والاتجار والاقامة ، ومنها البعوث التعليمية المصرية وأهمها فى بلاد العرب السعودية ، والكويت ، واليمن ، والعراق ، والسودان ، وليبيا . ولقد نتج عن انتشار العامية المصرية فى سائر الأقطار العربية أن صار أهل هذه البلاد ، لا سيما المثقفون منهم وسكان المدن الكبيرة ، أفضل فهما للعامية المصرية من المصريين لعاميات البلاد العربية الأخرى .

وفى المجتمع الحديث الذى كثر فيه الاتصال بين الأمم وسهل ، نتيجة للانقلاب الصناعى ، والمخترعات الحديثة وسرعة المواصلات وازديادها ولسوى ذلك من العوامل ، نجد كلمات مشتركة بين كثير من اللغات الأوروبية أصلها ايطالى أو ألمانى أو انجليزى مثلاً ، فانتشرت فى هذه اللغات أسماء لوحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل Ampère - Volt - Ohm بل نجد كثيراً من الكلمات الأوروبية تنتشر فى لغات غير أوروبية كأسماء بعض المخترعات

والالآت مثل راديو ــ تلغراف ــ تلفون ــ تليفزيون ــ سينما ــ فيلم ــ پيانو الخ[1] .

(٣) ان كثرة المفردات الدخيلة نتيجة لما يحدث بين اللغات واللهجات من احتكاك أمر معروف مقرر من قديم وربما كان أبرز وأكثر ما ينشأ عن هذا الاحتكاك، ولكن النظر الى الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد تغير في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفي ضوء علم اللغة الجغرافي ونظرية الموجات اللغوية بصفة خاصة . ومن أهم ما أخذ المحدثون من اللغويين في الخوض فيه فيما يتعلق بهذا الموضوع هو **امكان تأثير الاتصالات بين لغات الجماعة التي يحتك بعضها ببعض في بنية اللغات .**

فمن العلماء من يرى أنه حيث تظهر في لغات متجاورة من الناحية الجغرافية سمات مشتركة لا يفسرها اشتراك هذه اللغات في أصل لغوي واحد فمرد ذلك الى تأثير بنية لغة منها في سائرها ؛ ومن ذلك أن الصوتين الصائتين ü و ö (الفرنسية e, eu, u) ودرجات مختلفة منهما تستعمل في مساحة تشمل الفرنسية، ولغات من المجموعة الجرمانية الغربية هي الألمانية ، والفلمنكية والهولندية . ومن الأمثلة التي يستشهد بها على تأثير النظام النحوي للغة في النظام النحوي لأخرى أو أكثر نتيجة للاتصال بينهما أنه في شبه جزيرة البلقان تظهر في اليونانية والبلغارية ولغة رومانيا والألبانية سمات مشتركة تميز كلا من هذه اللغات من سائر لغات عائلتها؛ ومن ذلك استعمال الفعل الذي يعني «يريد» لتكوين فعل دال على المستقبل (ففي اليونانية مثلا تستعمل عبارة thélô hina و thélô معناه « أنا أريد » ، وذلك كما في الفرنسية العامية أو المحلية il ne veut pas pleuvoir بمعنى il ne va pas pleuvoir) . ومن أمثلة الخصائص المشتركة بين اللغات المتجاورة غير المنتمية الى أصل لغوي واحد ، ما يلاحظ في معظم لغات الشرق الأقصى من التوسع في استعمال النغمات استعمالا وظيفيا للتفريق بين المعاني ، ومن أن التمييز بين الاسم والفعل في هذه اللغات تمييز جد ضئيل . وهكذا أخذ اللغويون يتحدثون عن وجود « تحالف » أو « اتحادات » بين اللغات فبدت أهمية

(١) راجع فيما يتعلق بالدخيل وأقسامه وكيفية دراسته الفصول الآتية التي كتبها ليونارد بلومفيلد في كتابه Language
1) Cultural Borrowing (pp. 444 - 460)
2) Intimate Borrowing (pp. 461 - 475)
3) Dialect Borrowing (pp. 476 - 495)

التصور الخاص بالتشابه (= التقارب = التصاهر) affinité بين اللغات الى جانب التصور الخاص بالأبوة بين اللغات[1] .

ولكن بعض اللغويين يميلون الى القول بأن الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات غير المشتركة في الأصل آثار محدودة لا سيما فيما يتعلق بالبنية اللغوية . فهم يلاحظون أنه أيا ما كان أخذ لغة من أخرى غير مشتركة معها في الأصل فان كلتا هاتين اللغتين يظل واضح العلاقة بأصله ؛ فمن اليسير أن نميز لغة سلافية من أخرى جرمانية . ويضيفون الى هذا أن نسبة الصفات المشتركة بين اللغات غير المنتمية الى أصل واحد الى ما حدث بينها من اتصالات ؛ أي الى تأثير بنية لغة في بنية غيرها ؛ قد يكون أخذا بالظاهر ، وربما كان التفسير الحقيقي أن هذه الصفات ظهرت في اللغة التي يفترض تأثرها بسواها نتيجة للتطور الخاص بها ــ هذا التطور الذي ينتج عن العمل المشترك لعوامل كثيرة تكون وحدانيته ــ دون أن يكون لاتصالها بغيرها أثر في ذلك ، أي أن هذه الصفات كانت ستظهر لو لم يكن هذا الاتصال[2] .

(١) انظر Jean Perrot : La Linguistique pp. 124 - 125 .
وانظر الفصل الخاص بـ :
Le Problème De La Parenté Des Langues
والفصل الذي عنوانه :ـ
Les Parentés De Langues
في كتاب أنطوان ميبه :ـ
Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 76 - 101; pp. 102 - 109.
وراجع ما كتبه ميبه في الجزء الثاني من نفس الكتاب
1) Le Vocabulaire Dans La Question des Parentés de Langue, pp. 44-46.
2) Sur Le Degré De Précision Qu'Admet La Définition De La Parenté Linguistique, pp. 47 - 52.
(٢) Jean Perrot ; op. cit.

ب - المصادر الفرنسية

1) Dauzat, Albert :
La Géographie Linguistique.
Paris, 1922.

2) De Sausure, Ferdinand :
Cours de Linguistique Générale.
Paris — Lausanne 1916 ;
Quatriéme édition, Payot, Paris, 1949.

3) Descœudres, A. :
Le Developpement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1946.

4) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ;
Alcan, Paris, 1937.

5) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes ;
Alcan, Paris, 1947.

6) Guillaume, P. :
L'Imitation chez l'Enfant ;
Presses Universitaires de France, Paris, 1950.

7) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De Paris — VIII) Tome I, 1921, nouv. tirage,
Paris, Edouard Champion, 1948.

8) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale. Tomell ;
1938, Nouvean Tirage, Paris, Librairie C. Klincksieck 1952.
(Collection Linguistique Publite Par La Société De Linguistique De Paris).

9) Perrot, Jean :
La Linguistique.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris 1953 (Que Sais-Je? 570).

20) Malinowski, Bronislaw :
Supplement to : The Meaning of Meaning, by C.K. Ogden and I.A. Richards.

21) McCarthy, D. :
The Language Development of the Pre-School Child.
University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.

22) Sapir, Edward :
Language, an Introduction to the Study of Speech.
New York, Harcourt, Brace and Company, 1921.

23) Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues
London, George Allen and Unwin Ltd., Third Impression 1949.

24) Seth & Guthrie :
Speech in Childhood.
Oxford University Press. 1935.

25) Shaw, Bernard :
Pygmalion.
Penguin ed., 1949

26) Shirley, Mary :
The first two years, a study of twenty five babies.
The University of Minnesota Press. U.S.A., 1933.

27) Sommerfelt, Alf :
Recent Trends in General Linguistics ; "Diogenes", Number 1, English Edition p.p. 64-70 (A quarterly publication of the International Council for Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)

28) Stein, L. :
The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methwen & Co., London, 1949.

29) Stern, W. :
Psychology of early child hood up to the sixth year of age; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

30) Sturtevant, E.H. :
Introduction to Linguistic Science.

31) Sweet, Henry :
A New English Grammar
Oxford, 1892-98.

10) Piaget, J. :
Le Langage et la Pensée chez l'Enfant ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris 1923.

11) Wartburg, Walter V. :
Problèmes Et Méthodes De La Linguistique.
Traduit de l'allemand par Pierre Maillard.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris, 1946.

هـ - المصادر العربية

١) ابن منظور الافريقى (جمال الدين بن مكرم)
لسان العرب
المطبعة الأميرية ــ بولاق ــ مصر

٢) أحمد شوقى :
الشوقيـــات
مطبعة الاستقامة بالقاهرة
الجزء الأول ١٩٥٣ ــ الجزء الرابع طبعة ثانية مكملة ١٩٥١ .

٣) أمية بن أبى الصلت الثقفى :
ديوان أمية بن أبى الصلت .
جمع بشير يموت ؛ بيروت ، المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٤

٤) تمام حسان :
مناهج البحث فى اللغة
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ــ مطبعة الرسالة ــ القاهرة ١٩٥٥

٥) صالح الشماع :ــ
اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة
ملتزم الطبع والنشر دار المعارف، مصر سنة ١٩٥٥ وهو ضمن سلسلة «منشورات جماعة علم النفس التكاملى » ــ وهو الرسالة التى نال بها صاحبها درجة الماجستير ، قسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة القاهرة

٦) عبد الرحمن أيوب (دكتور) :
اللغة بين الفرد والمجتمع
وهو تعريب بتصرف لكتاب أوتو يسپرسن Mankind, Nation...etc.
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ــ مطبعة لجنة البيان العربى ــ القاهرة ١٩٥٤

٧) على عبد الواحد وافى (دكتور) :
علم اللغة
الطبعة الثانية ــ مزيدة ومنقحة ــ القاهرة ١٩٤٤ الناشر مكتبة النهضة المصرية ــ مطبعة الاعتماد بمصر ،

٨) على عبد الواحد وافى (دكتور) :
نشأة اللغة عند الانسان والطفل
الطبعة الأولى ــ الناشر دار الفكر العربى مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧

٩) عمر بن الفارض :
ديوان ابن الفارض
نشر وطبع البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣

١٠) ڤندريس ، ج :
اللغة
تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص لكتاب :
Vendryes, J : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire, (1ére ed., Paris 1923).
نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠

١١) محمود السعران (دكتور) :
الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنية القصيدة .
رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٧ مكتوبة على الآلة الكاتبة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

معجم المصطلحات

(A)

Activity	نشاط
Human Activity	النشاط الانسانى
Action	فعل (عمل)
Reflex Action	عمل (فعل) انعكاسى
Social Action	العمل (الفعل) الاجتماعى
Voluntary Action	عمل (فعل) ارادى
Alphabet	الأبجدية ؛ الألف باء
Analogy	القياس
Linguistic Analogy	القياس اللغوى
Anthropology	الأنثروبولوچيا
Social Anthropology	الأنثروبولوچيا الاجتماعية
Aphasia	افازيا (الحبسة-العقلة)
Autonomy of Linguistics	استقلال علم اللغة

(B)

Babbling (Cooing ; Crowing)	البأباة
Behaviour	سلوك
Human Behaviour	السلوك الانسانى
Choric Behaviour	السلوك الجماعى
Linguistic Behaviour	السلوك اللغوى
Speech Behaviour	السلوك الكلامى
Biology	علم الأحياء (البيولوجيا)
Biological	بيولوچى
Brachycephalic (=round-headed)	مستدير الرأس

(C)

Clinical	كلينيكى
Communication	توصيل (اتصال)

Communion	تشارك
Comparative	مقارن
Comparative Method	المنهج المقارن
Comparative Study	الدراسة المقارنة
Concept	تصور
Conscious	واع
Consciousness	وعى
Consonant	صامت (صوت) ؛ الجمع صوامت أو صامتة
Labial Consonant	صامت شفوى
Cooing (Babbling)	البأباة (انظر
Crawling	الحبو
Crowing (Babbling)	البأباة (انظر

(D)

Deaf-Mutes	الصم البكم
Descriptive	وصفى
Descriptive Study	الدراسة الوصفية
Descriptive Method	المنهج الوصفى
Desire	رغبة
Development	نمو – تطور
Diacronic (Diachronistic)	حركى ؛ متحرك
Dialect	لهجة
Class-Dialect	لهجة طائفية ؛ لهجة طبقية
Dialect-Splitting	تقسم لغة فى لهجات
Dolichocephalic (=long-headed)	مستطيل الرأس
Dual	مثنى
Dynamic (see: Historical; Diacronic	تطورى

(E)

Emotion	انفعال

Emotional	انفعالى
Endocrine Organs	الغدد الصم (الغدد المفرزة للهرمونات)
Experience	تجربـة
Expression	تعبير
Facial Expression	التعبير بملامح الوجه
Hand Expression	التعبير اليدوى
Ethnology	اتنولوچيا
Ethnological	اتنولوچى

(F)

Feeling	شعور
Function	وظيفة
Social Function	وظيفة اجتماعية
Functional	وظيفى

(G)

Genetics	علم الوراثة
Gesture	اشارة

(H)

Historical	تاريخى
Historical Method	المنهج التاريخى
Historical Study	الدراسة التاريخية
Homophones	الكلمات المتفقة صوتا المختلفة معنى (أى التى بينها «جناس تام»)

(I)

Idea	فكرة (الجمع : افكار)
Imitation	التقليد
Imparting	توصيل (نقل)
Impersonal	غير شخصى
Indiyidual	فـرد

Individualist	متفرد
Infrastructure	البنية السفلى
Institution	نظام (من النظم الاجتماعية)
Intellectual	عقلى (ذهنى)
Integration	تكامل
Integrative Method	المنهج التكاملى

(L)

Language	اللغـة
Language Disorders	الاضطرابات الكلامية
Common Language	اللغة العامة ؛ اللغة المشتركة
Dead Language	لغة ميتة
Little Language	اللغة الصغيرة
Living Language	لغـة حية
Secret Language	اللغة (اللهجة) السرية ؛ الكلام السرى ؛ = لغة (كلام) اخارجين على سلطة المجتمع)
Undeveloped Language	لغة متخلفة
Linguist	عالم لغوى
Linguistic	لغوى (صفة)
Linguistic Change	التغير اللغوى
Linguistic Development	التطور اللغوى
Linguisti Family	العائلة اللغوية
Linguistic Parenthood	الأبوة بين اللغات
General Linguistics	علم اللغة العام
Logic	منطق
Logical	منطقى
Logical Instrument	أداة منطقية
Logician	عالم من علماء المنطق (الجمع : مناطقة)

(M)

Mathematics	الرياضة
Mathematical	رياضى
Mathematical Relations	العلاقات الرياضية
Meaning	المعنى
Study of Meaning (see: Semantics)	دراسة المعنى
Mechanical	آلى
Mentality	عقلية
Metaphor	المجـاز
Metaphorically	مجازاً ؛ مجازياً
Modifier	مغير
Monologue	مونولوج (الكلام الانفرادى)
Monosyllable	الكلمة أحادية المقطع (=الكلمة المكونة من مقطع واحد)
Mood	هيئة الفعل
Morpheme	عامل الصيغة (= دال النسبة)
Muscle	عضل
Muscular	عضلى
Mutilation	الاختصار او «القطع»

(N)

Negation	النـفى
Nervous System	الجهاز العصبى
Neurology	علم الأعصاب
Nursery stage	مرحلة المهد

(O)

Object	موضوع

(P)

Person	شخص
Personality	شخصية
Philosophical	فلسفى
Phonetics	علم الأصوات اللغوية
Phonetic, Phonetical	صوتى (صوتية)
Phonetician	عالم الأصوات اللغوية
International Phonetic Alphabet	الألفباء الصوتية الدولية
Preposition	الحرف (من أقسام الكلام)
Psychic	نفسى

(R)

Reduplication	التضعيف
Reflection	تأمل

(S)

Screaming	الصيـاح
Semantics	(علم) الدلالة
Semantic Shifts	التغيرات الدلالية
Sensation	احساس
Sentiment	عاطفة
Society	مجتمع
Social	اجتماعى
Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
Social Relations	العلاقات الاجتماعية
Sound	صوت
Speech	الـكلام
Speech Community	الجماعة الكلامية (الجماعة ذات اللغة الواحدة)
Speech Defects	العيوب الكلامية

الوظائف الكلامية	Speech-Functions
انواع الوظائف الكلامية	Types Speech-Functions
أعضاء النطق	Speech-Organs
الصوت الكلامى	Speech-Sound
لغة الخارجين على سلطة المجتمع	Underworld Speech
اللغة (اللهجة) السرية أو الكلام السرى	(Secret Language)
ثابت ؛ حال الثبات	Static
بنية	Structure
البنية اللغوية	Linguistic Structure
البنية الاجتماعية	Social Structure
البنية العليا	Superstructure
دراسة (علم) الأسلوب	Stylistics
مقطع	Syllable
رمـز	Symbol
سكونى ؛ ساكن ؛ استقرارى ، مستقر ؛ حال الاستقرار	Synchronic (Synchrontistic)
نظم	Syntax

(T)

الكلام الحرام	Taboo
التكلم (الكلام) ؛ التحدث	Talking
تحديث الانسان نفسه ؛ (المنولوج)	Talking to one's self
زمن الفعل	Tense
الفكر	Thought
نغمة	Tone
نقـل	Transmission

(V)

الحدث (النص) الكلامى	Verbal Action
الأحداث غير الكلامية	Non-Verbal Actions

(١) الجهر (٢) صوت الانسان (الصوت الطبيعى)	Voice
(صوت) مجهور	Voiced
(صوت) مهموس	Voiceless
صائت (صوت) الجمع «صائته» أو «صوائت»	Vowel
صائت مفرد	Single Vowel

صواب الخطأ

الواقع فى مقال «اللغة والمجتمع»

ص	س	الخطأ	صوابه
٧٩	٢ هامش	ص ٦ – ٩	ص ٤٢–٤٥
٨٠	الأخير	Comporative	Comparative
٨٢	قبل الأخير	a a	ä
٩١	٤ من أسفل	من التخلص	فى التخلص
٩٢	٦ من أسفل	بدلا	بدلا من
١٠١	الأخير	Shlauch	Schlauch
١٠٩	٩	يمند	تمتد
١١٤	٢	مؤنثة	مؤنثه
١١٥	٩	الله أنه	أن الله
١١٧	١٠	الأخبار	الأخيار
١٢١	١ هامش	Solnuch	Schlauch
١٢٥	١٠	البى	النبى
١٢٥	١٢	البنى	النبى
١٢٨	١٢	بمسيم	بمسم
١٣١	٤ من أسفل	المسند	المسند ؟
١٣٤	٧	تسعثرا	تسعثرا
١٣٤	٦ من اسفل	الحىٔ	الحىُ
١٣٩	١٠	للنبى	للنبى
١٥٠	٣ من أسفل ٨	اشارة	انه اشارة
١٥٢	٢ من أسفل	خطاب	خطاب
١٥٣	الأصل	وعنبا	وعنبا وقضبا

صواب الخطأ «بقية»

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	آذ ئاك	آذ ئاك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاءا	جزاءً
١٥٨	الأخير	الخبر	الخبر
١٦٠	٢	وسما	ومما
١٦٣	١٢	لوجا	لراجا
١٦٣	٣ من أسفل	بالخروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغويين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Langages
١٦٦	٣	الحضاضر	الحاضر
١٧١	١	العثمانين	العثمانيين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouveau	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publite	Publiée
١٨٣	٧ من أسفل	Linguisti	Linguistic
١٨٦	٢	Types	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المنولوج)	(المونولوج)

سيرة السنوسى الكبير

نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة لحفظ تراث الاستاذ الامام السنوسى

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ —

للدكتور محمد عبد الهادى شعيره

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال نقض المصادر وتجريحها ، وبدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسى فى عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التى أهملت والى جمعها لصيانتها من الضياع «وما أجدرنا — وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال — أن نعكف على جمع تراثها العلمى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى : فنعمل على صيانته من الضياع » وهذا واجب مفروض على جيلنا لسببين : أولهما ان كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثانى هو احساسنا ان أجيالنا لا تزال تحس الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى الفكرين من رجال الاصلاح فى أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسى من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقرى للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضى قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذى يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلته .

فالخدمة الكبرى التى يستطيع المؤرخون اسداءها هى أن يحفظوا آثار الماضى ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه

صواب الخطأ «بقية»

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	آذ ئاك	آذ ئاك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاءا	جزاءً
١٥٨	الأخير	الخد	الخبر
١٦٠	٢	و سما	ومما
١٦٣	١٢	لرجا	لراجا
١٦٣	٣ من أسفل	بالخروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغويين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Langages
١٦٦	٣	الححاضر	الحاضر
١٧١	١	العثمانين	العثمانيين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouvean	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publite	Publiée
١٨٣	٧ من أسفل	Linguisti	Linguistic
١٨٦	٣	Types	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المنولوج)	(المونولوج)

سيرة السنوسى الكبير

نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة لحفظ تراث الاستاذ الإمام السنوسى

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ —

للدكتور محمد عبد الهادى شعيره

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال نقض المصادر وتجريحها ، ويدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسى فى عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التى أهملت والى جمعها لصيانتها من الضياع ،وما أجدرنا — وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال — أن نعكف على جمع تراثها العلمى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى : فنعمل على صيانته من الضياع . وهذا واجب مفروض على جيلنا لسببين : أولهما ان كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثانى هو احساسنا ان أجيالنا لا تزال تحس الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى المفكرين من رجال الاصلاح فى أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسى من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقرى للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضى قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذى يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلته .

فالخدمة الكبرى التى يستطيع المؤرخون اسداءها هى أن يحفظوا آثار الماضى ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه

النور الحقيقى الذى يضىء للخلف أجيال السلف ، وكم من عصور ضاعت معالمها أو استظلت بضباب التقريب والشك بسبب تقصير الخلف فى الحفظ ، وقد فطن المؤرخون منذ آماد طويلة الى قيمة الحفظ والجمع فأفردوا لهذا الجمع سجلات خاصة جامعة مرتبة ، واعتبروا الجمع الدقيق المستقصى المرتب ترتيبا منهجيا أول مرحلة من مراحل الدراسة المنهجية السليمة .

ولا تقتصر العناية بالمصادر على الاجيال الحديثة والمعاصرة من المؤرخين الغربيين أو الشرقيين فقد كان القدماء يعنون بها ، وخاصة أجدادنا مؤرخى المسلمين ، فقد عنوا عناية خاصة بالأسانيد حتى اعتبروها فرعا من فروع العلم فى الحديث والفقه والتاريخ ، وقد قادهم احساسهم بأهمية الوثائق الاصلية خاصة من دون غيرها من المصادر الى أن ينقلوا الينا الشىء الكثير من سجلات الدواوين الحكومية أو من النقوش الأثرية، فاذا ضاعت أصول سجلات الدواوين والآثار ازدادت أهمية ما نقل المؤرخون منها ، وقد نقل الينا قدماؤنا فعلا كثيرا من الرسائل الديوانية والخطب والاحاديث والنقوش نقلا دقيقا فى الاغلب فأدوا لنا خدمة علمية لا تقدر بثمن .

ومثل هذا المنهج يجب أن يطبق على سيرة السنوسى الكبير مؤسس الحركة السنوسية تطبيقا تاما ، لا للأعتبارات السابقة فقط ، بل لأن الاهمال الشنيع بدأ يطغى على كثير من الاخبار، ويوشك جيلنا أن يقصر فى حق السلف الصالح، ماعدا بعض استثناء يسير، ويوشك أن يجهل بعض تاريخه بعد ضياع الشىء الكثير من الوثائق أثناء الحروب الايطالية واثناء الاحتلال الايطالى وأثناء الحرب العالمية الثانية ، وظروف ليبيا فيها لا تزال معروفة ، وقد عبث الايطاليون ببعض المكاتب العامة والخاصة وعوجل كثير من الناس عن الالتفات الى أوراقهم ،واستولى الايطاليون على وثائق كثيرة لم ينشروا الا القليل منها . ومع ذلك فقد كفر الطليان عن بعض ذنوبهم حين فطنوا فى ناحية من النواحى الى اهمية الجمع فسبقوا الى نشر الوثائق السنوسية التركية التى وجدوها فى أرشيف طرابلس عندما استولوا على المدينة عام ١٩١١ م. فنشروها تحت عنوان

Relatione fra Turchies e Senussi.
Documenti rinvenuti nell'Archivio di Tripoli (Ufficio Politico Militare)
(Apud Evans- Prichard : *The Senussi of Cyrenaica p. 92)*

وذلك فى عام ١٩١٢ (انظر أيف . بريتشارد ، السنوسيون فى برقة (باللغة الانجليزية) ص ٩٢ ، ط. اكسفورد ، ١٩٤٨) ، وكان لأهل ليبيا كذلك حظ يسير من العناية بتاريخ بلادهم مثال ذلك كتاب كتبه المرحوم السيد أحمد الشريف السنوسى (١٢٩٠ — ١٣٥١ هـ = ١٨٧٣ — ١٩٣٢) وهو (السراج الوهاج فى رحلة السيد المهدى من الجغبوب الى التاج) وهو كتاب لا يزال مخطوطا ، غير أن بعض المؤرخين (مثل الاستاذ الأشهب والدكتور فؤاد شكرى وشكيب ارسلان) قد استغلوا هذا المخطوط جميعا ، ولم يقل لنا واحد منهم أين يوجد هذا المخطوط، والمؤرخ الثانى الذى نشر الوثائق هو الاستاذ الاشهب وقد تضمن كتابه « برقة العربية أمس واليوم» ط. القاهرة ١٩٤٥) بعض الوثائق الخاصة بنصها أو بملخصها ، وحوى كتابه « المهدى السنوسى ط. طرابلس ١٩٥٢ » عددا من الوثائق الخاصة بالاستاذ الامام السيد محمد بن على السنوسى وجعلها على شكل ملحق فى آخر كتابه ، وهى عبارة عن ثمانية وثائق (من ص ١٤٧ — ١٥٤) ، وقد حرص مشكورا على أن يعطينا صورا جزئية لهذه الوثائق القيمة ، وكذلك درس الدكتور فؤاد شكرى هذا العصر السنوسى ومنه عصر الاستاذ الامام الكبير واستغل أكثر هذه الوثائق ومصادر أخرى قيمة منها ما هو شفوى ، ولنلاحظ دون غمط لحقه ولقيمة الروايات المنقولة عن المعاصرين ولشخصية أصحاب هذه الروايات أن الوثائق أوثق المصادر وأجدرها بحفظ الماضى ؛ وقد علمنا أن الدكتور فؤاد شكرى بدأ ينشر وثائق خاصة بالأسرة السنوسية ، ولكنا لم نطلع بعد على الجزء الأول الذى ظهر منذ وقت قريب . وقد تعرض لتاريخ هذا العصر آخرون غير شكرى والأشهب (مثل الاستاذ مصطفى بعيو وشكيب ارسلان والاستاذ الشنيطى) لكنهم صرفوا عنايتهم خاصة الى تصوير العصر لا الى البحث عن المصادر .

على أى حال نستطيع أن نقرر أن المصادر كثيرة بأيدى الأسرات القديمة التى اتصلت بالأسرة السنوسية خاصة [1] وانه لم ينتهى الى الآن جمع ما بأيديهم وما بأيدى غيرهم من الناس .

---

(١) مثال ذلك ما جاء فى باب المصادر من كتاب الاستاذ الاشهب « المهدى السنوسى » مجملا تحت عنوان « مخطوطات متنوعة للسيد أحمد الشريف وبعض كبار الاخوان السنوسيين (مخطوطا) » .

* * *

ويقتضى الجمع تضافر الجهود بطبيعة الحال ، ويحسن أن تبقى اللجنة العليا التى الفت لاحياء الذكرى المئوية قائمة بعد الاحتفال حتى تتم مهمة الجمع العلمى بعد أن فرغت من مراسيم الاحتفال ولتتم فى نظر العلم أيضا مهمة احياء الذكرى المئوية ومن الممكن ان تقوم الجامعة بنصيب فى ذلك أيضا ، والامكانيات كثيرة غير أن المهم هو الاتجاه الى هذه المهمة .

* * *

والمؤرخون يتحرون فى مثل هذا الجمع التفريق بين المصادر المباشرة من ناحية وبين المصادر غير المباشرة التى هى من قبيل الدراسات الوصفية، والمصادر المباشرة وحدها هي المقصودة بهذه الدعوة أو بهذا المقال ، لانها الأساس لكل دراسة تأتى بعد ذلك ولأن من حق السنوسية على « الوطن الشرقى »[1] أى على مصر بحسب تعبير السيد المهدى ابن الامام ، وعلى (الوطن الغربى) قياسا على التسمية الاولى، وعلى الاوطان الشرقية والغربية من أوطان العروبة والاسلام . من حقها أن يؤسس تاريخها على أصول منهجية سليمة .

ومع ذلك فقد تجمع بعض الكتب التاريخية بين ايراد المصادر المباشرة وبين الدراسة وهذا هو ما فعله الاستاذ الأشهب فى كتابيه « برقة العربية » و « المهدى السنوسى » ، وهذا هو ما فعله أيضا الاستاذ الدكتور فؤاد شكرى فى كتابه «السنوسية دين ودولة» وفى كتابه الذى ينشره الآن بوثائق الأسرة .

والأفضل فى المرحلة التى بلغتها دراسة العصر السنوسى الآن هو افراد مجموعة خاصة للمصادر المباشرة لتكون الدراسة فيما بعد أيسر وأسهل .

والجمع محتاج الى ترتيب ، والعادة المتبعة هى أن ترتب الاخبار المجموعة بحسب درجة الوثوق ، وبحسب الموضوع ، وبحسب التعاقب الزمنى . ولا بأس من الشرح :

أما من حيث درجة الوثوق فمؤلفات الامام تأتى فى الدرجة الاولى ، ثم يوازيها

(١) انظر الاشهب « المهدى السنوسى » ص ٥٨ نقلا عن رسالة من رسائل المهدى .

وقد يليها فى الدرجة الوثائق سواء كانت صادرة عن الامام أو عن الاخوان أو واردة أو كانت متداولة مع ممثلى السلطان العثمانى أومع الدول الاجنبية أو العربية، ويأتى بعد ذلك أو مع ذلك النقوش سواء كانت تأسيسية أو تبريكية ، ثم يأتى فى المرحلة الثانية بعد هذا كله ما كتبه المعاصرون أو من يكادون يشبهونهم من أهل البلاد أو من الاجانب باعتبارهم شهود عيان أو ناقلين مباشرة عن شهود العيان .

أما الترتيب من حيث الموضوع فان المادة المجموعة تبوب بحسب المواضيع التى تثيرها .

أما الترتيب الزمنى فترتيب عام يطبق على الوثائق وعلى مصادر شهود العيان وعلى الترتيب الموضوعى على حد سواء .

والجمع بعد ذلك عملية شاقة يتوقف نجاحها على الظروف بالنسبة للوثائق التى توجد لدى الافراد . أما وثائق الدول التى اتصلت بالسنوسية فالاغلب أن تكون محفوظة وأن تكون الدول قد نشرتها على عادة الدول فى النشر ، فيكفى الرجوع الى المنشور أو الى أرشيف وزارات الخارجية باذن خاص . أما بالنسبة للأفراد فهم اذا وجدوا تشجيعا وتقديرا تطوعوا بما عندهم عن رضى وتبرعوا به . وهؤلاء الأفراد هم أسرات الاخوان وأفراد الأسرة السنوسية نفسها ، وكذلك يجب الاهتمام بالآثار المادية التى بقيت من هذا العصر مثل الزوايا وتصميمها وصورها كما يجب الاهتمام بما يكون قد بقى من الآثار الشخصية التى تركها الامام والاخوان ، وهكذا .

وآخر مرحلة فى عملية الجمع هى نشر المصادر المجموعة بأنواعها ، ونشر كتب الامام وكتب الاخوان وكتب أفراد الأسرة وكتب من عاصروا السنوسية فى عصرها الاول . تحت اسم مجموعة الوثائق والمصادر الخاصة بتاريخ السنوسية .

* * *

ونحن نتساءل عادة فى حياتنا اليومية عن نتيجة الشىء قبل أن نقدم عليه . فماذا تكون نتيجة الجمع ؟ هل يغير الجمع ما نعلمه عن السنوسية ؟ وأنا اعتقد أن الجمع سوف لا يقلب ما نعرفه رأسا على عقب ، وسوف لا يغير منه الا أيسر اليسير ، والواقع

أن بين أيدينا كتبا مؤلفة فى تاريخ السنوسية جيدة الطبع كاملة الصـورة كثيرة الاخبار ، وفيها ما يكفى للتعريف بالسنوسية ، وأهم هذه الكتب بالنسبة للعصر الأول ثلاثة ، كتاب الاشهب ، وكتاب فؤاد شكرى ، وكتاب بريتشارد . اذن فما فائدة الجمع ؟

الجمع يفيد فى تدعيم ما هو متعارف الآن عن طريق النقل والوثائق اليسيرة ، وهو يفيد فى عدم تعريض المعروف الآن الى الشك والغموض بعد تراخى الاجيال على أساس أنه من أقوال شهود العيان ، وشهود العيان يتعرضون للجرح والتعديل، فان أدى الجمع الى تدعيم المتعارف فقط فقد أدى المقصود منه كاملا . والجمع فى آخر الأمر دين يجب أداؤه للسلف ارضاءا للكرامة الثقافية فى مجتمع حريص على أن يثبت عزته الثقافية وحرصه على اتباع هدى الآباء الصالحين .

ومع ذلك فان الجمع المرتب حرى فيما نعتقد بأن يجدد الموضوع وأن يجنب المؤلفين فى المستقبل كثيرا من المشقة ، لاننا نرى الكتب الموجودة ينقل بعضها عن بعض وتجد بعضها غير مطلع على كل الاخبار ، فتجد فى بعض الكتب مالا تجد فى البعض الآخر ، وتجد التضارب قائما فى كثير من المسائل حتى فيما لا يجب التضارب فيع مع قرب العهد ووجود الأحفاد على رأس الدولة وسعة مجال البحث . وخير دليل على فائدة الجمع يظهر حين تجد بعض المؤلفين يعتمد على الرواية من شاهد عيان مع وجود الوثائق الرسمية الدقيقة . وستزول اكثر هذه النقائص حين يتم الجمع .

ولم يفت أوان الجمع بعد ، فلا تزال الزوايا قائمة وخاصة الزوايا القائمة فى دواخل البلاد ، ولا زال فى استطاعتنا أن نستعين بشيوخ الزوايا وأن نزور الزوايا نفسها ، ولا يزال البيت السنوسى قائما ، وكذلك أسر كبار الاخوان ، وليس على المؤرخ الذى يبتغى الجمع الا أن يتفرغ له ، وأن ينظمه ، وأن يرتحل بنفسه ، خصوصا اذا كان على صلة شخصية بالاسرات والبيوتات القديمة التى عاصرت الأستاذ الامام الكبير ، وقد يحتاج المؤرخ كذلك ، بل هو محتاج حتما ، الى الارتحال حيث يوجد أرشيف وزارات الخارجية التى اتصلت بلادها بليبيا . وهذا الارشيف لا يفتح عادة للباحثين بالنسبة للتاريخ القريب ، أما عصر الأستاذ الامام الكبير فعصر يستطيع الباحث أن يطلع على أرشيفه فى وزارات الخارجية لبعدعهده

فان وثائق القرن الماضى الرسمية قد نشرتها وزارات الخارجية الا النادر .

والجمع يتطلب نفقات كبيرة ، فهل يساوى ما نجمعه كل ما يمكن أن تنفقه ؟ هل يساوى هذا شيئا ونحن نعلم أنه لا شىء أكذب من التاريخ ، ولا شىء أصدق من التاريخ فى آن واحد ؟ نعم ، نحن نعلم أن التاريخ لا ينصف المغلوبين مثلا ، اللهم الا بذكر ما أظهروا من بطولة ، ونحن نعلم أن نظرة التاريخ تتغير بتغير العصور بالنسبة لحادث معين أو عصر معين وهكذا ، ومع ذلك فالبحث فى ذاته غذاء عقلى يتمتع به الباحثون ويعيش عليه كثير من القراء ، ويترتب عليه خلق عزة ثقافية واتجاه عقلى خاص مهذب ، وكل هذا على فرض أن البحث لن يصل الى شىء كثير. ومع ذلك فان انقاذ بضع عشرات من الوثائق قد يخلق ضوءا خالدا على الزمان يستضىء به التاريخ السنوسى ، وخاصة عصر الأستاذ الامام المؤسس الجليل صاحب الغرس الأول . وانقاذ بضع عشرات من الوثائق يساوى فى نظرنا نحن المؤرخين شيئا كثيرا لا يقدر بمال .

ويتحتم علينا بحسب ما اقترحنا أن نضع تبويبا مبدئيا للأخبار والمصادر والوثائق على أن يكون من الممكن عند تمام الجمع ادخال التعديلات عليه، وأتوقع أن يكون التعديل على التبويب المقترح المبين فى هذا البحث شاملا بقدر ما عندى من الأمل فى الحصول على المزيد من الوثائق . والتبويب الذى نقترحه مبنى على ما طالعناه من المصادر :ـ

١) مؤلفات الامام الاول ، ومؤلفات رجال الاسرة والاخوان ، والأدب المتصل بأصل السنوسية .

٢) الوثائق الخاصة بالزوايا ـ التوجيه الدينى ـ والتنظيم العام .

٣) الوثائق العامة الدبلوماسية .

٤) نظام المجاهدين .

٥) مكتبة الجغبوب ومعهدها .

٦) المراجع الهامة .

المؤلفـــات

كتب الامام المطبوعـــة

١) **المسائل العشر** المسمى **بغية المقاصد و (فى) خلاصة المراصد**
ويشار اليه باسم « **البغية** »

كتبه عن المؤلف مولاه عبد الملك بن احمد بن الشفيع العباسى وانتهى منـه يوم الجمعة المبارك ١٩ جمادى الاولى ١٢٦٤ ٠

وطبع باذن الحفيد (الملك الحالى) عام ١٣٥٣ هـ٠ مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة ادارة محمد عبد اللطيف حجازى ــ فى ١٩٣ صفحة
وصححه باذن الحفيد ، عبد النبى سعيد الحسينى ٠

ونظن هذا الكتاب غير كتاب: بغية السول فى الاجتهاد والعمل باحاديث الرسول»

٢) **السلسبيل المعين فى الطرائق الاربعين ٠**

من نسخ عبيده محمد يحي بن المرحوم السيد محمد على بن احمد بن عيسى الوفائى ، وكان تمام نسخه فى ٢٠ جمادى الاولى ١٣٤٥ هـ٠
وطبع بهامش الكتاب السابق فى نفس المطبعة وفى نفس التاريخ ــ بهوامش ١٩٣ صفحة . وتوجد نسخة مخطوطة من الكتاب لدى المستشرق ما سينيون

٣) **ايقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن**

ويشار اليه أحيانا باسم « الايقاظ » فقط ٠
طبع باذن الحفيد فى نفس المطبعة فى ١٣٥٧ هـ٠ ١٩٣٨ م٠ ــ فى ١٥٣ صفحة، وقد طبع أيضا بالمطبعة الثعالبية بالجزائر عام ١٣٣٢ ، وتوجد هذه الطبعـة بدار الكتب المصرية : الخزانة التيمورية رقم ٢١١ أصول ٠

٤) **شفاء الصدر بارى المسائل العشر**

طبع باذن الحفيد بالمطبعة المحمودية التجارية بالقاهرة ١٣٦٠هـ٠ ١٩٤١م٠ فى ٧٥ صفحة ٠
(والأرى هو العسل)

٥) **الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية ٠**

طبع على نفقة الحفيد ١٣٤٩ هـ٠ بمطبعة الشباب بمصر ٠
عن نسخة كتبها محمد بن أحمد بن أبى القاسم التواتى ، وكان تمام نسخة يوم الجمعة رابع ذى الحجة ١٢٩٣هـ٠
وقام على تصحيحه محمد حبيب الله بن الشيخ سيدى عبد الله بن مايأبى الحكنى نسبا الشنقيطى اقليما المدنى مهاجرا ٠

ملاحظة :ـ

قد رأيت هذه الكتب بنفسى بفضل كرم صديق فاضل من علماء ليبيا.

٦) **المسلسلات العشر (ة)**

ويرد عنوانه أيضا ، المسلسلات العشرة فى الاحاديث النبوية ٠
وهو مطبوع أيضا كالخمسة السابقة لكنى لم أجده ولا أعرف سنة طبعه ، ولم يرد فى الابحاث الخاصة التى اطلعت عليها ذكر لسنة طبعه ٠

* * *

كتب الامام غير المطبوعة

٢/١ الفهرستان

اسم عام يطلق بصيغة المثنى هذه على كتاب مطول ، وعلى مختصره بحسب ما ورد فى صدر كتاب « السلسبيل ص ٣، وقد أشرنا آنفا الى السلسبيل ..

(أ) الكتاب المطول هو :ـ

الشموس الشارقة ويشار اليه أيضا باسم ، الشموس الشارقة فى أسماءمشايخ المغاربة والمشارقة ، ويشار اليه أيضا ، باسم الشموس الشارقة فيما لنا من اسانيد المغاربة والمشارقة .

(ب) الكتاب المختصر هو :ـ

البدور السافرة ، بحسب ما ورد فى صدر كتاب «السلسبيل ص٢» ولم يذكر هذا الكتاب أحد من المؤلفين المحدثين وقد أورد صاحب هدية العارفين ذكرا لهذا الكتاب . وسيرد ذكر كتاب هدية العارفين وما سجل من كتب الامام .

(ج) ويتصل بهذين الكتابين كتاب آخر فى نفس الموضوع ورد ذكره فى كلام المؤلف فى صدر السلسبيل ، طرائف منتخبة من الشموس الشارقة ومختصرها . . . لتكون قريبة المنال غير مماطلة النوال . . .

٣) **المنهل الرائق فى اسانيد العلوم وأصول الطرائق .**

وقد قال الأشهب (السنوسى الكبير ، ص ٨١) انه مطبوع ولكنى لم أره وأرجح انه لم يطبع .

(٤) **عجالة فى أول من ألف فى فن الحديث تصلح لان تكون مقدمة للموطا .**

وقد قيل انه طبع (الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ٨١)

٥) **مفاتيح الايد من مرويات ابى زيد .**

وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى مراسلات رآها الأشهب (السنوسى الكبير، ص ٨٢) .

٦) **رسالة جامعة من افعال السنن وأقوالهم (نظم) .**

وقد ذكر الأشهب (السنوسى الكبير ، ص ٨٢) انها توجد الآن بمكتبة جلالة الملك الادريس .

ملاحظة :

لم يصف أحد هذه المخطوطات ، ولا عرفنا بها أحد تعريفا علميا ، الا أن بعض

المؤلفين أشار اليها ، وخاصة قائمة وردت فى آخر كتاب الايقاظ المطبوع بمصر ولا شك ان حفيد الامام وهو الملك الحالى هو الذى وضعها ، وقد أشارت هذه القائمة الى الكتب رقم ٦، ٤، ٣، ٢/١ ــ أ أما ٢/١ ــ ب فقد أخذناه عن نص كتاب السلسبيل ، أما الكتاب رقم ٦ فقد نقلنا اسمه من عند الاستاذ الأشهب من كتاب « برقة ص ١٨٠ ».

كتب غير مطبوعة محفوظة بمكتبة جلالة الادريس

١ ــ هداية الوسيلة فى اتباع صاحب الوسيلة .

٢ ــ طواعن الاسنة فى طاعنى أهل السنة .

٣ ــ رسالة فى مسألتى القبض والتقليد ، وقد اقتبس الاشهب فقرات منها (السنوسى الكبير ، ص ٧٣) .

٤ ــ رسالة السلوك .

٥ ــ شذور الذهب فى محض محقق النسب .

(انظر عن ذلك ص ٨٣ من « السنوسى الكبير » تأليف الاشهب)

وعلى هذا يكون مجموع المعروف من الكتب الى الآن مطبوعا وغير مطبوع ستة وسبعة وخمسة والكل ثمانية عشر كتابا ، وسنرى بعد ذلك مجموعة أخرى .

كتب أخرى مجهولة

ينسب الى الامام بحسب ما أورده الاستاذ الاشهب فى كتاب « برقة . . . » أكثر من اربعين كتابا ، وهو قول نميل كل الميل الى تصديقه ، لانه قول تدل الظروف على جواز صحته ، فالامام كما نعلم ليس صاحب طريقه فقط ، ولا داعيا فقط، ولا مصلحا فقط، بل هو الى جانب ذلك صاحب مذهب فقهى متكامل على أساس المالكية، وهو أيضا منشىء نظام تعليمى كامل، فهو الذى أسس معهد الجغبوب وزوده بمكتبة عظيمة، وزوده كذلك بمناهج دراسية قيمة، نرجو أن يتاح لنا مقارنتها بالمناهج الازهرية فى وقتها ، ومثل هذا القدر من المؤلفات ينسب الى أحد أجداد المؤلف ،ونشير هنا الى الشريف/محمد بن محمد يوسف السنوسى (المتوفى فى ٨٩٥هـ ومشهده بتلمسان بالجزائر) .

وقد حدثنى الأستاذ الأشهب أنه رأى بنفسه فى صدر شبابه نحو مائة كتاب كلها للامام وكانت فى مكتبة لبعض أهله ، وقد ضاعت هذه المكتبة •

وحدثنى الاستاذ الاشهب أيضا أن من هذه الكتب كتبا فى المساحة وغير ذلك من العلوم وقد اطلعنا على فهرس اسماعيل باشا البغدادى الذى طبعته وزارة المعارف التركية فوجدناه ينسب فعلا للامام عددا كبيرا من الكتب ، ووجدنا ما قاله الاستاذ الاشهب صحيحا مع أن الاستاذ الاشهب لم يكن اطلع على الفهرس المذكور حين حدثنى هذا الحديث • والحق مع ذلك أن قوله نحو مائة كتاب قد لا يعنى نفس الرقم بالضبط •

وسنورد هنا اسماء الكتب المنسوبة للامام الواردة فى هذا الفهرس •

ويدل تصفح بعض الكتب المطبوعة على سعة اطلاع وأسلوب عربى قويم متين مبين ، وعلى نضوج عقلى لا يتهيأ مثله الا لمثله من أئمة الدين ، وبالكتب اشارات وأخبار كثيرة تنفع فى تاريخ الطرق وفى تاريخ الفقه وفى تتبع الحركات الدينية والسياسية الاسلامية وفى معرفة شخصية الامام نفسه من حيث هو امام

والكتب الآتية منقولة عن : اسماعيل باشا البغدادى : هدية العارفين ، أسماء لمؤلفين وآثار المصنفين ، طبع وكالة المعارف الزكية ، استانبول ١٩٥١ ، فى مجلدين:

١ ــ الأجنة الدانية القطاف بمفاخر السادة الأشراف ، وهى منظومة أولها :

ان المودة فى القربى هى الأمل يجزى به ويفوق الاجر والعمل

(مطبوع رقم ٣٩٤٧ تاريخ بدار الكتب المصرية) •

ولم يذكر هذا الكتاب فى كتاب هدية العارفين الذى ننقل عنه هنا ، وباقى الكتب الآتية منقولة عن الهداية •

٢ ــ ازاحة الأكنة فى العمل بالكتاب والسنة •

٣ ــ اشراق الشموس (هكذا) السنة اليقنية على تراكم غياهب اعتراضات الأربعينية •

٤ ــ الأصولية فى العمل بالكتاب والسنة •

٥ــ تحف المحاضرة فى آداب التفهم والتفهيم والمناظرة •

٦ ــ تحف المنيفة (هكذا) المشتملة على زبدة ما الجهابذة (هكذا) بعض محقق مذهب الامام أبى حنيفة •

٧ ــ التحفة الشريفة فى أوائل مشاهير الامهات الحديثة •

٨ ــ رسالة الفلاح فى الفتح والنجا ح•

٩ ــ رسائل فى ختم كتب السنة ومسند الامام مالك والشافعى وشرح البسملة فى اثنى عشر علم (هكذا) وغير ذلك •

١٠ ــ ريحانة الحبوب فى عمل السطوح والجيوب •

١١ ــ سيف النصر والتوفيق وغاية السلوك والتحقيق •

١٢ ــ كتاب عصمة الرسل •

١٣ ــ فحم الاكباد فى مواد الاجتهاد •

١٤ ــ قرة عين أهل الصفا فى صلوات المصطفى •

١٥ ــ لوامح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن •

١٦ ــ مجموع مسانيد الامام أبى حنيفة •

١٧ ــ مختصر المواهب البارية •

١٨ ــ مفتاح الجفر الكبير •

١٩ ــ منظومة السلوك الى ملك الملوك •

ولعل هذه المنظومة هى التى أشار اليها الاستاذ الاشهب تحت اسم « رسالة السلوك » دون وصف آخر ، وذكر انها مخطوطة بمكتبة جلالة الادريس •

٢٠ ــ المواهب السرية فى منتقى الاوضاع الحرفية •

٢١ ــ مواهب القيوم فى تذييل روضة الفهوم •

٢٢ ــ نزهة الجنان فى أوصاف مفسر القرآن •

٢٣ ــ الكواكب الدرية فى اوائل الكتب الأثرية .
٢٤ ــ بغية السول فى الاجتهاد والعمل باحاديث الرسول .
٢٥ ــ مختصر بغية الطلاب فى علم الأنساب .
٢٦ ــ مختصر مسند الامام أحمد :

فاذا أضيفت هذه الستة والعشرون كتابا الى الثمانية عشر كتابا الاخرى كان مجموع كتب الامام أربعة وأربعين بالكمال والتمام .

وأتمنى أن يحذو الباحثون حذوى فى تحقيق كتب الامام ، لعلنا نصل الى غير هذه الكتب .

ونأسف مع ذلك لاننا لا نعرف أسماء الكتب الباقية ، وندهش كيف يضيع لامام مثله هذا العدد الكبير من الكتب ولا يبقى من كتبه الا البضعة عشر كتابا التى ذكرناها، ويعزى بعض هذا الضياع الى المحن التى أصابت ليبيا فى أوائل القرن الميلادى الحاضر ، ويكفى أن تعرف أنه لولا عناية الحفيد أثناء اقامته بمصر لظلت الكتب الستة المطبوعة مجهولة أيضا .

ويحسن أن تجمع هذه المخطوطات من مظانها وأن توصف وصفا دقيقا ، وأن تطبع طبعا متينا يقوم عليه جماعة من علماء البلاد وهم بحمد الله كثيرون ، وأرجو أن يتهيأ لبعض العلماء انتخاب مختارات مقتبسة من كتب الامام ، للتعريف بشخصيته : وأسلوبه ، واتجاهه الفكرى ، ونزعته التجديدية ، وتعمقه فى العلوم الشرعية ونحوها ، ليكون هذا المنتخب موردا سهلا يوضع بين أيدى الطلاب فى المدارس الليبية خاصة والمدارس العربية بوجه عام .

اضطراب المؤلفين المحدثين فى ذكر الكتب التى نسبوها للامام (ر)

نسب الاستاذ الأشهب للامام خمسة كتب مطبوعة وأربعة غير مطبوعة، وجاء فى الموجز الذى طبعته اللجنة العليا لأحياء الذكرى المئوية أن المطبوع ثمانية أما غير المطبوع فقد أشير اليه فقط دون عدد . وذكر الشنيطى فى كتابه : أن للامام كتابين غير مطبوعين على حين ذكر الاستاذ الاشهب أن غير المطبوع نحو الثلاثين ، وقد ذكر الدكتور شكرى ستة كتب مطبوعة وثلاثة غير مطبوعة ، كل ذلك دون اشارة

صريحة لمؤلفات أخرى ، ثم ذكر الدكتور شكرى فى مكان آخر (ص ١٥) كتابا باسم الفهرسة وقد علمنا آنفا أن اسم الفهرسة يطلق على كتابين وأنه يجب ان يذكر بصيغة المثنى، وهكذا لم يتفق المؤلفون على عدد المطبوع ولا على عدد غير المطبوع وقد عرفنا مما سبق هنا عدد المطبوع بالضبط (وهو عبارة عن ستة كتب) وعدد المشهور من غير المطبوع مما ذكر أو أشير اليه (وهو عبارة عن سبعة كتب أخرى)، ولم نستبعد أن يكون للمؤلف كتب أخرى كثيرة كما قال الاستاذ الاشهب فى كتابه « برقة . . . » ، وقد تحقق حدس الاستاذ الأشهب بما تحقق لنا من معرفة بعض الكتب المجهولة فلا عن هدية العارفين .

ولا يقف الامر عند هذا الحد ، بل يختلفون فى بعض الالفاظ فى عنوان كتابي « المنهل . . والمسائل العشر . . » فيضيف بعضهم صفة أخرى بين لفظى المنهل وبين الرائق. فيروون المنهل الروى الرائق ويروون المنهل المعين الرائق ويروون أيضا المنهج الرائق (قارن موجز اللجنة ص ١٥ والاشهب ، برقة ص ١٨٠ والشنيطى ص ٩/٣٨، وشكرى ص ٤١) .

ويقع نحو ذلك الخلط فى عنوان « كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد وخلاصة المراصد فيروى العنوان مرة . . . خلاصة المحاصيل ومرة . . . اخلاس المراصد، ولا شك أن هذا الخلط يسير لا أهمية له اطلاقا ، وانما تأتى أهميته بتراخى الزمن واهمال طبع الكتب ثم ضياع آثارها وعندئذ يتطرق الشك الى وجود الكتب ذاتها أو الى مقدار ذيوعها على الاقل .

فائدة طبع المؤلفات

وفائدة الطبع هو احياء التراث وحض الناس على تداوله وفهمه والتفريع عليه أو ليس من الغريب ألا نجد عرضا شافيا لآراء الاستاذ الامام الدينية مع أن كلام المؤرخين عن دوره السياسى والاجتماعى وكذلك عن التنظيم الادارى كلام طويل مسهب ، وقد ذكرت أنه يستحسن أن تقتبس من هذه المؤلفات منتخبات توضع بين أيدى الطلاب ، فهي من المنتخبات التى يستطيع الاعتزاز بها كل عربى فى الوطن الليبى وفى الاوطان الشرقية والغربية بحسب التعبير الموفق الوارد فى كلام الامام المهدى (ص ٥٨ كتاب المهدى السنوسى للأستاذ الاشهب) .

مؤلفات الاخوان

المعروف أن الامام السنوسى أنشأ معاهد للعلم وفتح باب الاجتهاد فى الدين

وشجع روح البحث فيه ، وكانت هذه النقطة محور الابتكار والأصالة فى تاليف وفى شخصيته ، وحولها انقسم الناس الى فريقين ، فريق الشيخ الامام محمد عبده الذى يؤيد الاجتهاد ويرى السنوسى الكبير أهلا له قادرا عليه كل القدرة، ومن هذا الفريق أيضا جمال الدين الأفغانى ، ثم فريق الشيخ محمد عليش الذى انكر على السنوسى وعلى جمال الدين أيضا طريقتهما .

ومن الطبيعى أن تؤتى الشجرة المباركة ثمارها ، وأن يظهر من الاخوان من يسير على سنة الاستاذ الكبير فى حياته وبعد مماته ، ولا تتصور قط مع وجود مكتبة الجغبوب ومستوى التعليم العالى بمعهد الجغبوب ومع قيام السيد بنفسه بتعليم المتقدمين من الاخوان الا يكلفهم أستاذهم ببحث كثير من المسائل لتكون على الاقل موضع حديث فى مجتمعاتهم وسمرهم ومناقشاتهم .

وقد تضيع هذه الابحاث أو لعل أكثرها قد ضاع .

ونحصى هنا ما وصل اليه المؤرخون من هذه المؤلفات، وتتوقع عند الجميع أن تظهر مؤلفات أخرى تضاف الى هذه فتزيدنا معرفة بالماضى ، وكل هذه المؤلفات من حقها أن تنشر هى أيضا على نحو ما تنشر كتب الامام . فهم غرس يديه ، وهم صدى شخصيته ، وهم صيغة الاستجابة لهديه .

(أ) رسالة كتبها السيد عمر الأشهب أسماها « رسالة البسملة والقبض » وهى موجودة لدى الاستاذ الأشهب ، وسبب تأليفها حسب قول الاستاذ الأشهب أن المؤلف احتاج الى أن يرد على شيخ ببنغازى أنكر على السيد السنوسى وهو مالكى المذهب قراءة البسملة فى الصلاة ، واسم الشيخ المعترض هو الشيخ بدر الدين وابنه الشيخ مصطفى موظف (اليوم) بالجمارك السعودية الحجازية (انظر الأشهب . . . برقة . . ص ١٤٦)

(ب) دون الشيخ محمد بلو (هكذا) الدرناوى خبر زيارته للسيد بقصر العزيات، وقد وقعت هذه الزيارة فى ٢٠ ربيع الاول ١٢٧١ ــ ١١ ديسمبر ١٨٥٤ ، وقد عثر أحد الأخوان على ورقة وجدت بزاوية درنة ضمن أوراق قديمة وجدت عند ورثة الشيخ محمد بلو الدرناوى . وفى هذه الورقة اشارةالى توقع غزوايطالى، ويمكن الاستدلال علىصحة هذه الورقةباشارة الى نفس الموضوع فى كتاب السيد احمد الشريف (انظر الدكتور شكرى

ص ٣٤) ، ولا يعرف بالطبع عنوان هذه الرسالة .

(ج) يقول الاستاذ الأشهب فى كتاب « برقة . . . » (ص ١٣٨) انه وقف على بعض أوراق ــ مذكرات ــ رفاقه « ويقصد هنا السيد الكبير » .

وقد ذكر المؤلف نفسه فى باب المصادر أن لديه مخطوطات متنوعة للسيد أحمد الشريف وبعض كبار الاخوان السنوسيين ، وقد ينصرف بعض مدلول هذه الاشارة الى الاخوان ايضا فى ايام الامام الكبير .

(د) كان السيد عبد الرحيم المغبوب وهو من قبيلة زمورة المصراتية من خير التلاميذ والاخوان وقد أسماه الأمام بالمحبوب وكان عالما شاعرا انتدبه الامام لمهام كثيرة وسفارات كثيرة ، ولا يعقل قط ألا يكون ترك شيئا ، وهو على الاقل قد قدم تقارير عن سفارته أو ضمن رسائله هذه التقارير . فهل نقع له على شىء (انظر الاشهب . برقة . . ص ١٤٨/١٤٩) .

(هـ) السيد على عبد الحق ، أديب السنوسية وأصله من قوص من صعيد مصر. وقد ذكر الاستاذ الاشهب أن السيد مصطفى عبد المتعال الادريسى اطلعه عام ١٩٢٩ على رسالة للسيد على عبد الحق فى الفرائض ، وذكر الاستاذ الاشهب كذلك أن له شعرا يملأ ديوانا ضخما لو جمع ونشر (الاشهب ، برقة ص ١٥٠) لكان سجلا قيما لمدى النهضة الادبية فى ذلك الوقت .

(و) رسائل الشيخ على الليثى (الاشهب ، برقة . . . ص ١٥١) الى الامام من مصر .

(ز) رسائل عبد الله فكرى باشا من مصر الى السيد الامام ، وقد نشر بعضها فى الآثار الفكرية (انظر الاشهب : برقة ــ ص ١٥١) .

(ح) شعر الاخوان ، وكان للشعر عندهم منزلة ، وجمع هذا الشعر يفيد فى تاريخ الحركة الادبية كما يفيد فى فهم بعض المواقف التاريخية ، ولا يكاد أحد من الاخوان يعجز عن قول الشعر ، وانما يختلفون فى الاكثار والاقلال (انظر الاشهب . برقة . . ص ١٦٨) على سبيل المثال عند بريتشارد ص ١٧ وكذلك مصطفى بعيو ، دراسات فى التاريخ الليبى ، الاسكندرية ١٩٥٣ ص ٦٤ ، وكذلك الشيخ محمد عثمان الحشائشى ص ٨٨) . وقد روى الاشهب قصيدة شعرية قيمة للشيخ على عبد الحق القوصى يخاطب فيها

الامام طالبا رضاه (انظر : السنوسى الكبير ، ص ١٤٩) .

(ط) نثر الاخـوان ، ومن هذا النثر الخطب كخطبة السـيد عمران بن بركـة الفيتورى فى رثاء الامام الكبير(انظر الاشهب، برقة . . . ص ١٧٣/١٧٥ ثم السنوسى الكبير ص ١٣٨ وما بعدها)

(ى) السيد فالح الظاهرى ، له رسالة ترجم فيها لأستاذه وشيخه ، وقد اقتبس بعضها الاستاذ الاشهب (السنوسى الكبير ، ص ١٤/١٥) .

(ق) مخطوط قديم فيه ذكر لسفر الامام من المغرب الى المشرق الاسلامى وقـد اقتبس الاشهب عبارات منه (السنوسى الكبير ، ص ١١)

(ل) فالح بن محمد بن عبد الله بن فالح الظاهرى المهنوى ، اجتمع بالامام فى مكة فى ١٢٦٨ ثم لزمه من هذا الوقت ورحل معه عام ١٢٧١ الى ليبيا ، ثم اهتم فالح بتاريخ ليبيا وقام بتنقيح كتاب : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، وكان الكتاب عاميا ركيك العبارة فصححه وزاد عليه ، والكتاب أصـلا من تأليف احمد بك حسين النائب الأوسى الانصارى .

الرسـائل المتبادلة بين الاخوان

وقد كان اتباع الامام يتراسلون فيما بينهم ويتذاكرون أحيانا أخبار الدعوة وقد يحسن جمع هذه الرسائل ، ومنها .

١ ــ رسالة من السيد فالح الظاهرى الى العلامة السيد احمد الريفى ، اقتبس الاشهب بعضها (انظر السنوسى الكبير ، ص ٦٣) .

(٢) الوثـائق

الزوايـا

(أ) مواقع الزوايا معروفة ، وقد أورد بريتشارد فى كتابه السنوسية فى برقـة (بالانجليزية) (ص ٢٤/٢٥) قائمة باسماء الزوايا منقولة عن الكولونيل دى اوجستينى ، وقد ذكر ١١٠ زاوية ، منها زوايا فى الحجاز وتونس ومصر .

ولسنا نحتاج من كل ذلك الا الى معرفة الزوايا الأولى التى أنشئت فى عهد السيد الكبير . وقد ذكر الدكتور شكرى (السنوسية دين ودولة) أن عدد زوايا برقة التى أنشئت أيام المؤسس هى ١٨ زاوية فى برقة وحدها ، وأربعة فى غير برقة، والمجموع ٢٢ زاوية (انظر شـكرى ٣٥) ، ولكن سياق الكلام فى نفس الفقرة

يجعلنا لا نطمئن الى هذا العدد . أما بريتشارد فيذكر أن عدد الزوايا القائمة فى برقة بحدودها الاصطلاحية هو ٤٥ زاوية اذا حسبنا النوفيلية والكفرة ، وان الراجح أن ٢١ زاوية منها أسست فى عهد السنوسى الكبير أو قبل ١٨٦٠م. ، وان المهـدى أسس فى أيامه ٢٢ زاوية أخرى وأن السيد أحمد الشريف أسس زاويتين (راجع ص ٧٠) ولا يحصى بريتشـارد فى هذا العدد الزوايا الطرابلسية أو التونسية أو المصرية أو الحجازية التى أسست أيام السنوسى الكبير ، ونحتاج أيضا الى أن ننظر مرة أخرى فى توزيع الزوايا من الناحية الجغرافية والقبلية ، كما نحتاج الى معرفة التصميم الذى اختير لبناء الزوايا الأولى والى معرفة النقوش أن وجدت نقوش فى هذه الابنية .

(ب) الزوايا ونظامها الادارى والمالى والتعليمى والحربى :ــ

فى هذا الباب توضع الوثائق الخاصة بالتأسيس والنظـام والادارة الجـارية .

ولدينا من هذا النوع من الوثائق ما يلى :ــ

١ ــ نص بخط السيد محمد المبخوت مؤيد بأقوال رؤساء الزوايا المروية عنهم .

٢ ــ نص بخط السيد محمد أبو فارس عند ابنه السيد سعد ، وكان الاب شيخ زاوية أم حفين وكلا النصين خاص بنظام الزوايا بحسب قول الاسـتاذ الاشهب (برقة . . . ص ١٩٦ ــ ٢٠١) وهما نصان هامان جدا ، وكنـا نود لو أوردهما الاستاذ الأشهب بنصهما ، أو أنه اختط خطة الحاقهما فى ملحق خاص بآخر كتابه كما فعل فيما بعد فى كتاب المهدى السنوسى . وفى النصين معلومات كثيرة عن بناء الزاوية ، وتكاليف البناء ، وحرم الزاوية وحدودها ، وتعيين الشـيخ وما يتقاضاه ، ومن يتبعه ، وما واجباته ، وما امتيازات الزوايا ونحو ذلك . وبفضل هاتين الوثيقتين كتب الاشهب فصلا من خمس صفحات يعد من أهم الفصول .

النظام المالى للزوايا

ويتلخص النظام المالى للزوايا فى قاعدة الاكتفاء الذاتى ، وتحقيق هذا الهدف عن طريق التعاون اعتمادا على المجهود العادى الذى يقوم به الاخوان أنفسـهم ، وعلى التجارة التى يشترك فيها رئيس الزاوية باسم الزاوية ، وعلى الخدمات التى تتلقاها الزوايا من سكان المنطقة (حراثة يوم وحصاد يوم ودراس يوم) . أما من حيث المصرف فللزاوية كفايتها من محصولها ، والباقى من الدخل المتحصل يحمل الى الزاوية الرئيسية للتصرف فيه .

وتجد هذا النظام موضحا فى اسهاب كثير فى جل الكتب العربية غير أننا نحتاج

الى وثائق تدعم الاخبار المتصلة به تدعيما تطمئن اليه النفس بعد تطاول السنين والأجيال .

والحاجة الى الوثائق فى هذا الباب ماسة جدا .

التوجيه الدينى

ومن الوثائق التى يشير اليها المؤلفون رسائل بعث بها الامام الى أهل النواحى ، فيها توجيه ووعظ جزل الأسلوب أخاذ العرض صادق الحماسة ، ومثل هذه الوثائق يجب نشرها كاملة ، أما المؤلفون فلا يستطيعون بحكم ضرورات العرض المنهجى ان يوردوا مثل هذه النصوص كاملة ، وكل ما يستطيعونه هو أن يخصصوا لهـا ملاحق فى آخر الكتاب ، وهم لم يفعلوا ذلك الا فى نطاق محدود .

ولدينا من هذا النوع الوثائق الآتية :ـ

١) كتاب بعث به الامام الى اهل وجنقة (وجنجة أيضا) مخاطبا العمدةالافضل.. الشيخ فرج الجنقاوى يكلمه فيه عن انشاء زاوية فى تزر وهى من بلاد واداى (أشار اليه الدكتور شكرى فى كتابه السنوسية دين ودولة ص ٤٥ـ٤٦ ، وأورد بعض نصه . . .

ونشر الاشـهب فى (السنوسى الكبير) القـاهرة ، ١٩٥٦ ص ١٥١ نص الرسالة كاملا وتاريخها ٤ محرم ١٢٦٦ ، وانظر نفس الكتاب ص ١٠٠)

وقد رأى حسنين فى رحلته أصل هذا الكتاب فى الكفرة واقتبس منه شيئـا واختصر فيه ولم يورد النص كما هو (احمد حسنين : صحراء ليبيا)

٢) كتاب من السيد محمد بن على السنوسى الى الاخوان يتضمن ارشـادات دينية بالتوجه الى الله والفناء فى ذاته ، ولم يرد فيها تاريخ (انظر ، الاشهب المهدى السنوسى ص ١٤٩ ، السنوسى الكبير ، ص٨٨ ، ٨٩)

٣) كتاب دورى من السيد محمد بن على السنوسى الى بعض الاخوان بالتزام المجاهدات والرياضات وباعمار البواطن بالمشاهدات ، ولم يرد فيه تاريخ (انظر ، الاشهب ، المهدى السنوسى ص ١٤٩ ، ١٥٠) (وانظر ، الاشـهب السنوسى الكبير ، ص ٨٧) .

٤) كتاب من السيد محمد بن على السنوسى الى بعض الاخوان بتعمير الظواهر بالآداب والبواطن بمراقبة الله تعالى ، الى أن يغيب الشاهد فى المشهود الذى هو الله ، الى ان قال : ورتبة اخلاص خواص الخواص التبرى من الحـول والقوة وهى رتبة الكمال من أهل الفتوح »، ولم يرد فى الكتاب تاريخ (انظر الاشهب ، المهدى السنوسى ص ١٥٠ ، ١٥١) .

٥) كتاب أحد مقدمى السنوسية عام ١٨٨٩ هو السيد الحبيب بن عمار شـيخ زاوية النجيلة فى مدح الهجرة والحض عليها ، منقول عن الترجمة الفرنسية لتعذر وجود الاصل (انظر ، شكرى ، السنوسية ص ٤٦ ، ٥٤) ، وهـذه الوثيقة متأخرة طبعا عن عهد المؤسس بنحو عشر سنوات .

٦) رسالة للاخوان بمكة مع ذكر محمد بن ابراهيم الغمارى ، واسـماعيل بن رمضان ووهبه فيها نعى الامام ، نعاه اليهم ابنه وخليفته المهدى ، (انظر ، الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٢٧/١٢٨)

٧) رسالة من الامام الى الشيخ ابراهيم الرشيدى خليفة الامام بمكة ينهى فيها عن الخوض فى الأمور الاعتقادية والخروج بذلك عن الطريقـة ، (انظر ، الاشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٤٥ وما بعدها) وفى الرسالة توجيهات لطيفة .

٨) ملحق خير » هو عنوان لكلام كتبه الامام موصـيا بالرفق ولين الجانب ، وهذا الملحق موجود بظهر رسالة لم يخبرنا الأشـهب بما فيها ، وهو الذى رآها (انظر الاشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٥٤ .

٩) رسالة من الامام الى ابنه المهدى بالتفرغ لله قلبا وقالبا ، بدون تاريخ، (انظر الأشهب ، السنوسى الكبير ، ص ٩٠)

وثائق خاصة بتنظيم الزوايا

١) وثائق موقعة من كبار الاخوان (عبد الرحيم بن أحمد عبد الرحيم المحبوب (المغبوب) وأحمد عبد القادر الريفى، وعلى بن عبد المولى، ومحمد المدنى بن مصطفى بن حامد وأحمد التواتى ، وحموده بن أحمد المقعـاوى ، ومحمد

القسنطينى ومحمد بن عبد الكريم) ببيعتهم الى امامهم ، ولم يرد فيها تاريخ (انظر ، الاشهب المهدى السنوسى ص ١٤٧) •

٢) كتاب من السيد محمد بن على السنوسى الى والى طرابلس المشير محمد أمين باشا ، بمناسبة تولية ابنه ولاية بنى غازى ، ولا تاريخ فيها (انظر الاشهب ، المهدى السنوسى ص ١٤٨) • (وانظر ، الاشهب ، السنوسى الكبير ص ١٣٩|١٤٠) •

٣) رسالة من الامام السيد محمد بن على السنوسى الى حاكم فزان « ولدنا مصطفى باشا قائمقام فزان حالاً » عقب زيارة قام بها « بحسب تعبير الامام « ولدنا الشيخ أحمد بن أبى القاسم التواتى » الى القائمقام ، والامام يخبر القائمقام أنه أرسل للدعوة بناحيته « ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع » على أن يقيم بزاوية (واو) وتتناول الرسالة أيضا شرح الغرض من سفر الشيخ أحمد بن أبى القاسم التواتى : وهو الحصول على بعض كتب غير موجودة فى خزانة الامام ــ التاريخ ٣ شوال ١٢٧٣هـ (انظر الاشهب، المهدى السنوسى ص ١٥١ ــ ١٥٢) (وانظر : الاشهب ، السنوسى الكبير ص ١٤١|١٤٢) •

٤) رسالة كالسابقة من الامام الى حاكم فزان بدون تاريخ (انظر ، الاشهب، السنوسى الكبير ، ص ١٤٢|١٤٣) •

٥) رسالة من السيد محمد بن على السنوسى الى « ولى نعمة ايالة فزان ولدنا مصطفى باشا « ردا على كتاب سبق من مصطفى باشا ، وفى الرسالة اشارة الى « الزاوية التى أعنتم (والخطاب لمصطفى باشا) عليها ووفقتم فى أمورها وهى التى بوادى (واو) • وفى الرسالة أيضا شكر على هذه العناية ، وفى الرسالة أيضا توصية بالعناية بأمر الزوايا « التى تحت ايالتكم مثل زاوية مرزق وسوكنة وخصوصا زاوية واو » ، ولم يرد فى الرسالة تاريخ (انظر ، الاشهب ، المهدى السنوسى ، ص ١٥٢|١٥٣) •

٦) رسالة من السيد محمد بن على السنوسى الى حاكم بنغازى : «عزيزنا الاجل الافخم محمد باشا صالح » • وفى الرسالة اشارة الى « هذه الزوايا التى حدثت بهمة حفرتكم (أى حضرة حاكم بنغازى) ومنة جنابه والدكم وفى

الرسالة أخبار بأن الامام رتب « لكل واحدة خليفة يقوم فيها • • • » ورجاء بأن يقوم الحاكم كما قام أبوه من قبل بحماية حرمها وصيانته ، وعدم التعرض لمقيم بها ، وأن يقوم الحاكم بالنيابة عن الامام «بخفارة هذه البنية» وفى الرسالة اشارة الى رحيل الامام دون ذكر لوجهة السفر • ولم يرد فى الرسالة تاريخ (انظر ، الاشهب ، المهدى السنوسى ص ١٥٤|٩٥٣) • (انظر ، الاشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٤٣ وما بعدها) •

٧) كتاب بتاريخ ١٨٥٥ أرسله السيد محمد بن على السنوسى الى بعض شيوخ سديدى من قبيلة العواقير بشأن انشاء زاوية مسوس • والكتاب يوجد عند الاستاذ الاشهب وقد أطلع هو الاستاذ بريتشارد عليه ، وذكر ذلك بريتشارد بنفسه • والكتاب يدل على أن من بين الاخوان جماعة من البنائين والنجارين •

٨) كتاب وجده الطليان بزاوية توكره ، اطلع عليه M. Colucci وذكره فى كتابه

Il Regime della Proprieta Fondiaria nell'Africa Italiana vol. I Libia, Bologna 1942

ويذكر الخطاب توقع وعود بخدمات من جانب البدو ، وهذه الخدمات هى دفع صدقات على السائمة والمحاصيل ، وتقديم جمال لحمل الامداد الى الجغبوب ، ومساعدة الزواية فى البذر والبناء والحفر ، وتعهد بعدم القيام بمثل هذه الخدمات لزاوية أخرى ، وتعهد بحماية الزواية ، واحترام سكانها وضيوفها •

٩) رسالة من السيد عبد الله التواتى الى الامام بتاريخ ٢٨ صفر ١٢٦٥ بشأن الارض التى تبنى عليها احدى الزوايا (انظر ، الاشهب ، السنوسى الكبير ، ص ١٥٣) •

١٠) رسالة من الامام الى السيد عبد التواتى ، وكيل الامام بمكة ، بشأن أرض لبناء زاوية ، وفيها اشارة الى اهتمام الامام بأمر الشيخ على عبد الحق القوصى ، والشيخ ابراهيم الرشيدى وكانا بصعيد مصر ، والرسالة بدون تاريخ (انظر ، الاشهب ، السنوسى ، الكبير ، ص ١٥٢) •

١١) رسالة من الامام الى وكيله السيد عبد الله التواتى ، بشأن أسلحة خاصة بالامام ، وبشأن زواج أحد الاخوان ، وبشأن بناء الزوايا ، بتاريخ ٢٩ شعبان ١٢٦٤ (انظر، الأشهب، السنوسى الكبير، ص ١٥٣، ١٥٤)

١٢) حديث للامام سجله محمد بن الشفيع بخط يده وارخه بغرة شعبان عام ١٢٧٠ • والحديث خاص بالسلاح وادخاره لوقت الحاجة ، وقد سجلت الرسالة أسماء من سمعوا هذا الحديث (انظر ، الاشهب ، السنوسى الكبير ص ١١٤)

(٣) الوثائق العامة والوثائق الدبلوماسية

من الوثائق العامة

١) كتاب المهدى للاخبار بوفاء والده (الاشهب ، برقة • • ص ١٧٥)

٢) الفرمان السلطانى من عبد المجيد الأول حمله من استنبول سيدى عبد الرحمن المغبوب (انظر بريتشارد ، السنوسية فى برقة (باللغة الانجليزية ص ٩١) وكان ذلك حول ١٨٥٦ قبيل وفاة الأمام بعدة سنين، وينبه بريتشارد على أنه لم ير الوثيقة، وقد تضمن الفرمان أيضا عدة امتيازات منها الاعفاء من الاموال الاميرية• ويوجد فرمانمشابه لهذافى عهد المهدى ذكر بريتشارد أن ملخصه محفوظ فى دائرة سجلات الاراضى فى بنغازى فى صورة تبليغ من والى طرابلس الى والى بنغازى •

من الوثائق الدبلوماسية

نحن نعرف أن السنوسية كانت على علاقة طيبة بالدولة العثمانية ، وقد نشرت ايطاليا الوثائق العثمانية التى كانت محفوظة فى طرابلس ، ولا بد من نشرها مرة أخرى بالعربية ، ومن المحقق أيضا أن الدول الاخرى وخاصة فرنسا احتفظت بوثائق لا بد من نشرها أيضا •

Relatione fra Turchi e Senussi. Documenti rinvenuti nell'Archivio di Tripoli (Ufficio Politico Militare) 1912.

(٤) نظام المجاهدين

كانت السنوسية فى أصلها دعوة عامةسبيلها الهداية والايمان، ولكن السلم الذى

هو أساس من أسس الاسلام الأولى سلم يقترن دائما بنظام جهاد يحميه ، دون نية للالتجاء الى القوة ، فلا اكراه فى الدين ولا اكراه فى الدعوة• ولم تخض السنوسية فيما بعد حربا جهادا بالسيف الا مضطرة فقط •

لقد كان الامام الاول عالما قبل كل شىء هاديا الى النور الذى يملأ القلوب ، ومع ذلك لا بد أن يكون اهتم بفكرة الجهاد •

وعلى أساس وثيقة من عهد ابنه المهدى اطلع عليها السيد الاشهب ولم ينشرها نستطيع أن نتساءل هل صنع البارود فى الجغبوب • قال الاستاذ الاشهب أنه اطلع على كتاب من المهدى الى خليفة زاوية الطيلمون السيد مصطفى المحجوب بأن يرسل اليه ترابا من جهة معينة من جهات الطيلمون لفحصه والنظر فى امكان استعماله فى صناعة البارود (انظر ، الاشهب ، برقة • • ص ١٧٩ ــ ١٨٠) واذا كان من الممكن أن يفحص التراب فى الجغبوب نفسها فمعنى ذلك انه كان بها من يعرفون هذه الصناعة • (وانظر الاشهب ، السنوسى الكبير ، ص ٤٧) •

قال الاشهب ان الامام الأول كان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا ، وأن يحتفظوا به فى مخازن خاصة ، وانه جعل بالجغبوب مخزنا للسلاح والبارود ، ولعل الأستاذ الأشهب نقل هنا من بعض الوثائق دون أن يذكرها (انظر الاشهب ، برقة • • • ص ١٧٩) •

(٥) مكتبة الجغبوب ومعهدها

روى بريتشارد فى كتابه « السنوسية فى برقة » (ص ١٧) عن المؤلف الفرنسى دوفريه الذى جاء الى ليبيا بعد وفاة الامام بنحو عشر سنين أنه كان بمكتبة الجغبوب ثمانية آلاف مجلد •

وقد عرض الاشهب أيضا لموضوع المكتبة (برقة • • ص ١٢ ، ص ٤٨٤) وذكر عبث الطليان بها عبث البرابرة الذين لا يعرفون للعلم أية حرمة ، وعرض فى مكان آخر (ص ١٩١) للمكتبة وكثرة مخطوطاتها ونظام النسخ والنساخ بها ، ونظام التعليم ، ونظام تموين المعهد •

ونحن نحس أن الاستاذ الاشهب ينقل بعض التعبيرات عن الوثائق أو عن رؤساء الزوايا ولكنه لا يذكر مرجعه •

ولا يذكر الاستاذ الاشهب أى رقم تقديرى للكتب التى كانت بالجغبوب ، ولكنه ذكر نحو خمسة آلاف مجلد نجت أثناء الاحتلال الايطالى ووصلت آخر الامر لمكتبة الاوقاف فى بنغازى ، وذكر كيف ضاع أكثرها أثناء الحرب ، وهذه الاخبار تشعر بأن الرقم الذى ذكره دوفريه هو أقل رقم ممكن لمجموع الكتب التى وجدت أيام الامام الكبير فى الجغبوب • ولا تزال مكتبة الاوقاف قائمة الى الآن ، ومن الخير أن تضم الى الجامعة وأن يفرد لها فى مكتبة الجامعة مكان خاص •

١) تذكر رسالة من السيد محمد بن على السنوسى الى حاكم فزان أن الامام بعث بعض الاخوان الى فزان للحصول على بعض كتب لا توجد فى خزانته ، وقد أشرنا الى هذه الرسالة فى مكان آخر (ولكن انظر ايضا الاشهب، المهدى السنوسى، ص ١٥١ ــ١٥٢) •

٢) وقد تكلم على مكتبة الجغبوب أيضا بورتون فى ص ٢٤ ــ ٢٥ من كتابه •

Richard Burton : Personal Narrative of a pilgrimage to al medinah & meccah (Memorial Edition) 1893 vol. II

مظان الوثائــق

أتوقع أن نجد كثيرا من الوثائق لدى جلالة الملك فهو صاحب الفضل أولا فى طبع ما طبع من كتب جده ، وهو الحفيد الذى شارك فى مصير السنوسية منذ أول هذا القرن •

وتدل أنباء المؤرخين على أنه توجد وثائق لدى السيد صفى الدين السنوسى وآل السيد احمد الشريف السنوسى وآل المنتصر وآل مصطفى المحجوب والسيد عبد الله عابد السنوسى وآل الاشهب •

تعبير الوثائــق

حاولت هنا أن أحصى كل ما استشهد المؤرخون به من وثائق ، ولم أحذف شيئا عرفته ، ولكل احصاء دلالة • ويدل هذا الاحصاء على أن تاريخ العصر السنوسى الاول لا يزال يحتاج الى الوثائق ، وليس من الانصاف أن ينقل المؤرخون بعضهم عن بعض مع امكان البحث عن الوثائق وجمعها ، وأنت ترى الوثائق التى بين أيدينا

لا تكاد تصل الى الثلاثين وأنت ترى أيضا أن محفوظات وزارات الخارجيــة من الوثائق لم تستغل الى الآن •

ولسنا نحتاج الى المقالات المدبجة ، ولا الى ترديد ما سبق اليه بعض المؤرخين بقدر حاجتنا الى الوثائق الرسمية الاصلية •

(٦) المراجع الهامة الخاصة بأصل السنوسية

والمراجع نوعان : مباشرة وغير مباشرة •

ونثبت هنا فى باب المراجع المباشرة كل ما كتبه السيد احمد الشريف أولا ، فانه كتب ما كتب وبين يديه المصادر والســجلات ، على حين كــانت الظروف لم تكد تتغير، وكان النظام الاول لا يزال يومئذ متبعا• وكتابات السيد احمد الشريف تمثــل الجانب العربى • وكذلك يأتى بعده فى المنزلة ما كتبه محمد بن عمثان الحشائشى ، وقد زار الحشائشى البلاد بعد وفاة المؤسس ببضع سنين • ويمثل وجهــة النظر الاوروبية مؤرخ فرنسى وصل الى البلاد حول نفس التاريخ وهو دوفريه •

أما المتأخرون فلا يجب الاعتداد بأقوالهم الا بمقدار ما يقدمون لنا من وثائــق جديدة مهما تأخر الزمن، مثال ذلك ما كتبه الاستاذ الاشهب فان قيمته الحقيقة الباقية هى فيما نشر من نصوص الوثائق ، وهو من هذه الناحية يعتبر من الذين قاموا الى الآن ببعض حق التاريخ الســنوسى • أما الاستاذ شــكرى والشنيطى وبريتشارد فانهم يعتبرون من كبار الدارسين لهذا العصر من أهل صناعة الاجتماع والتاريخ ، وهم من الذين حاولوا أن يضعوا هذا العصر فى قالبه التاريخى ، وعلى هذا القياس تستطيع أنت أن تعرف بنفسك قيمة المؤلفات الكثيرة التى تجدهــا ماثلة فى أبواب المصادر فى كل ما كتب عن السنوسية •

1) Duveyrier, H. La Confrérie musulmane de Sidi Mohammed ben Ali es-Sanoussi et son domaine grographique. en l'anne 1300 de l'Hégire - , 1883 de notre ére ; Paris 1881 (١

Riun, Louis : Marabouts et Khouan, Alger 1884 (٢

(٣

Le Chatelier, A. : Les confréries musulmanes du Hedjaz, Paris 1887

(٤ Muhammad Uthman al Hashaishi : Voyage au pays de Senoussis à travers la Tripolitaine et les pays Teuareg Paris 1 ére édition 1903 2°éd. 1912.

وقد قام برحلته عام ١٨٩٦ ولقى السيد المهدى •

اما النسخة العربية فلا تزال مخطوطة ، ومنها نسخة على الآلة الكاتبة بمكتبة بلدية الاسكندرية وعنوانها ، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو النفحات المكية فى أخبار الدولة الطرابلسية • وتوجد نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، اشار اليها الاشهب (السنوسى الكبير ، ص ٥)

(٥

Dr, C.C. Adams : The Sanusiya Order. (Part x in Handbook on Cyrenaica edited by the British Military administration).

٦) احمد الشريف السنوسى (مخطوط) (١) السراج الوهاج فى رحلة السيد المهدى من الجغبوب الى التاج •

(٢) الانوار القدسية فى مقدمة الطريقة السنوسية طبع استامبول عام ١٢٣٩ — ١٣٤٣هـ• وقد طبع نفس الكتاب بمصر بمطبعة الجريدة بدون تاريخ تحت اسم آخر هو الدره الفردية فى بيان مبنى الطريقة السنوسية •

(٣) الكوكب الزاهر فى سماء مجلس الظلام العاكر (مخطوط)

(٤) الفيوضات الربانية فى اجازة الطريقة السنوسية الأحمدية الادريسية بمكتبة تيمور رقم ١٤٨ مصطلح الحديث ، بدار الكتب المصرية ، طبع استانبول •

خاتمـــة

أردت بهذا البحث لفت النظر الى أن الظروف قد أضاعت الشى الكثير من سجلات العصر السنوسى الاول ، وأنه قد آن الاوان لجمع ما تبقى ، ثم لنشره مع حفظ الأصول فى متحف خاص يمكن أن يسمى بمتحف الوثائق • واردت لفت النظر أيضا الى ان الاشارات الى الكتب والوثائق اشارات تنقصها الدقة ، ولهذا يحسن ان تجمـــع وتميز بأرقام وأوصاف خاصة •

وللتدليل على قلة ما عندنا من الوثائق استقصيت جميع الوثائق التى ذكرت فى أشهر المؤلفات الخاصة بالسنوسية ، وجعلت هذا الاستقصاء تعبيرا عن قلة ما وصل الينا ، ليكون فيه حض على جمع الوثائق •

ويكفى أننا أشرنا الى ٢٦ كتابا مجهولا لم يذكرها مؤرخو الامام • ففى هذا دليل قاطع على أن تراث الامام العلمى آخذ فى الاندثار •

وأردت من جهة أخرى أن تمتد العناية الى مؤلفات الامام ومؤلفات الاخـوان ففى مؤلفاتهم فكرة لا تزال الى اليوم تتمسك بها ، هى التمسك بجوهر الدين لا بشكلياته ، وهى فكرة يحتاج كل عصر الى أن يتعلمها وأن يتعمقها ، فان كان هذا البحث قد أظهر ما أردت فهذا ما كنت أبغى ، وبالله التوفيق •

بنغازى اكتوبر ١٩٥٦

محمد عبد الهادى شعيرة
استاذ التاريخ بالجامعة الليبية
استاذ التاريخ بجامعة عين شمس

فترة حاسمة من تاريخ المغرب

موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين فى افريقية ونقلتهم الى مصر

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مقدمـــة

يعتبر ظهور الدولة الفاطمية حدثا عظيما فى تاريخ الاسلام بوجه عام وفى تاريخ المغرب أو افريقيا الشمالية جميعا بوجه خاص . وذلك أن ما فشل العلويون فيه — وهو المطالبة بحقهم فى وراثة تركة النبى وهى الخلافة فى المشرق — قد نجح الفاطميون فى تحقيقه فى المغرب نجاحا كانت له آثاره الحاسمة فى تقرير مصير هذه البلاد لأمد بعيد . فبلاد المغرب ظلت منذ تمام فتحها ودخولها فى الاسلام جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية العربية ، يخضع لوالى مصر فى كثير من الأحيان ، ويتبع الخلافة فى دمشق — رغم بعد الشقة — فى بعض الأحيان . ولكن كان من نتائج سوء الادارة الأموية واستبداد عمالها أن قامت البلاد بسلسلة من حركات العصيان — التى يمكن ان تكون استمراراً لثورات عهد الفتح الأول — لقيت الدولة كثيرا من المشقة فى اخمادها . ولم تكن لهذه الحركات الثورية صبغة سياسية ليس غير بل انها اتخذت طابعا دينيا باعتناق البربر من أهل البلاد لمذهب الخوارج المعارض للدولة ، والذى يطالب بالمساواة التامة بين جميع المسلمين دون اية تفرقة عنصرية . هذا الى جانب الحركات الدينية الانفصالية ، التى يسميها الكتاب زندقة أو ارتدادا عن الاسلام ، والتى قامت فى الأقاليم المنعزلة مثل جبال غمارة (الريف) أو جبال برغواطة (أطلس) ، والتى نشأت فى أول أمرها نشأة خارجية .

هاتان الصفتان هما اللتان تميزان أحوال المغرب خلال العصر الأموى وهما :

المقاومة العنيدة المعبرة عن السخط على سوء الادارة وفسادها ، وانتشار المذهب الخارجى الذى كان يؤيدها ويؤكد شرعيتها • ترتب على ذلك أن أصبح احتفاظ الدولة العربية بولايتها المغربية البعيدة من الأمور الصعبة ؛ وفى الفترة التى كانت الأسرة الأموية تلقى خلالها مصرعها على أيدى العباسيين ، سادت الفوضى السياسية فى البلاد التى أصبحت مثلا أنظار اللاجئين من المشرق والمغامرين وأصحاب المطامع الأنانية • ولكن ما أن تم الظفر للعباسين حتى عاد المغرب من جديد الى « أنس الطاعة » : فخضع عبد الرحمن بن حبيب بافريقية للمنصور ، وحتى عبد الرحمن الأموى الذى استقل بأسبانيا اعترف هو الآخر بالخلافة الجديدة وخطب فى أول أمره للعباسيين؛ فالخلافة كانت — حتى ذلك الوقت — واحدة لا تتجزأ ، اذ لم يتكلم الفقهاء فى امكانية تعددها الا فيما بعد ، وأمام الأمر الواقع • ولكن خضوع المغرب لخلفاء بغداد كان صحيحا من الناحية النظرية فقط، فالحقيقة أن سلطان العباسيين لم يتعد افريقية أى تونس • أما المغرب الأوسط فلم يكن خاضعا لأمراء القيروان ، رغم قيام بعض هؤلاء — مثل عبد الرحمن بن حبيب — بحملات بعيدة ضد قبائل زناتة بأرض تلمسان ؛ ولم يكن من الغريب أن قامت امارة الرستميين الخوارج بتاهرت حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى (٨ م) وكذلك امارة المدراريين بسجلماسة بعيد هذا الوقت • وعلى ذلك فلا مجال للكلام عن خضوع المغرب الأقصى حيث قامت هرطقة برغواطة بأطلس وقام الأدارسة بفاس •

هذه الحالة التى هددت بانفصال المغرب عن مركز الدولة جعلت بغداد تفكر فى ايجاد حل مناسب لمواجهة المشكلة ، فرأت أن تسند ولاية افريقية والمغرب بشكل وراثى لأسرة قوية تقيها متاعب تقلب الأحوال هناك • وفعلا ظلت افريقية بين أيدى أفراد من أسرة المهلب بن أبى صفرة من عهد المنصور (سنة ١٥١ = ٧٦٨) الى عهد الرشيد (سنة ١٧٨ = ٧٩٤) • وفى سنة ١٨٤ = ٨٠٠ رأى الرشيد أن يستمر فى السياسة التى رسمها جده ، فعهد بافريقيه الى ابراهيم بن الأغلب ، واتفق معه على أن تستغنى الولاية عن المساعدة المالية السنوية التى كانت تدفعها مصر • وعلى أن تقدم — على العكس من ذلك — مبلغا سنويا الى خزانة بغداد[1] • وهكذا

(١) انظر ابن الاثير، ج ٦ ص ٦٢ — ٦٣

أصبحت افريقية وراثية فى أسرة الأغالبة ، وصارت أشبه بمملكة مستقلة لا تربطها ببغداد الا روابط رقيقة من ولاء للخليفة ، ودفع مبلغ زهيد لبيت المال •

وبذلك تحددت العلاقة بين المغرب وبين الخلافة ، وشهدت البلاد نوعا من الاستقرار بفضل هذا النظام الجديد ، ساعد على انتشار الاسلام واستمرار تعريب البلاد بشكل منتظم مطرد • فالأغالبة — رغم أنهم كانوا أمراء لكل بلاد المغرب من الناحية النظرية على الأقل — قبلوا الأمر الواقع وتركوا جيرانهم المناهضين للخلافة فى هدوء • فلم ينهكوا قواهم فى صراع ضد أمراء تاهرت أو أمراء فاس• ومع أن ذلك لم يكن فى صالح الخلافة فقد كان فيه خير للاسلام : فاذا كانت القيروان عملت على انتشار السنة وخاصة المذهب المالكى فان تاهرت نشرت الاسلام فى المغرب الأوسط وحتى الصحراء على المذهب الاباضى ، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج الذى لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى أطلق عليه حديثا اسم « المذهب الخامس »[1] ؛ وهذا يفسر كيف أن امارة سجلماسه الصفرية كانت تدين بالولاء لخلافة بغداد • وكذلك كان الحال بالنسبة لفاس ، فرغم أن الأدارسة من العلويين الا أنهم لم يكونوا شيعة من حيث الاعتقادات ؛ ولو كانوا كذلك ، فهم معتدلون بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة ، ولذلك يطلق الكتاب على دولتهم اسم الدولة الهاشمية[2] مثلهم فى ذلك مثل العباسيين • وعلى ذلك قامت فاس بدور مهم فى نشر الاسلام السنى فى المغرب الأقصى ، وجهدت صادقة فى القضاء على هرطقات البربر فى جبال مراكش • وهكذا بفضل هذه المجهودات المنفردة فى افريقية والمغرب الأقصى اشتركت الدول الثلاث — دون خطة مرسومة — فى نشر الاسلام السنى بالمغرب بالشكل الذى يوجد عليه حتى اليوم •

من كل ما تقدم يمكن أن نقدر مدى الانقلاب الذى حدث فى المغرب من أقصاه الى أقصاه بعد نجاح الدعوة الشيعية فى أرض كتامة ، وبعد ما حدث من خروج هؤلاء لغزو افريقية وقلب الأغالبة باسم الفاطميين ، ثم من القضاء على مملكة الخوارج بتاهرت وامارتهم بسجلماسة ، وما حدث من بعد من انهاء حكم الأدارسة فى فاس ؛ وقطع علاقة المغرب بالمشرق وبالخلافة ببغداد • فقد خاب أمل أهل

(١) انظر G. Demonlynes, Les Institutions Musulmanes, p. 38

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ١ ص ١٠٠

البلاد بل والذين أقامـوا صرح الدولة الجديدة بسـواعدهم فى حـكم الائمة المعصومين ، واتضح لهم أن ما نودى به من انتهاء عهد الجور والفساد ، وحلول عهد العدل والاصلاح لم يكن الا سرابا. فالى جانب البدع الدينية الجديدة من اعلان عصمة الامام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام ــ مما لا يمكن أن يقبله شعب نشـأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيـال ــ انتهـج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعى فى أول الأمر ، فاشتطوا فى جمع الضرائب ، وتفننوا فى تنويعهـا حتى فرضوا على الحجـاج جميعا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج[1] . وعلى ذلك لم يكن من الغريب على شـعب افريقية بل والمغرب جميعا أن يكره ذلك الحكم الذى جمع الى جانب مفاسـده الدينية ، مساوىء سياسية وأعباء مالية بغيضة .

وعرف الفاطميون هذا التباعد الروحى بينهم وبين الشعب منذ البداية وأحسوا بعدم الاطمئنان فى مستقرهم الجديد ، فاتخذوا الاجراءات المناسبة لمواجهة الموقف. والظاهر أن هدفهم لم يكن هو الاستقرار فى افريقية بل انهم اعتبروها خطوة أولى أو مرحلة فى الطريـق الى المشرق أى الى مصر والحرمين وبغداد[2] . ولتحقيـق هذا الهدف الأبعد أخذوا يعدون العدة من تجميع الموارد البشرية والمالية ، فكان من الطبيعى أن يستمروا فى سياستهم المالية الجائرة التى ضـج منها أهـل البلاد . وهكذا تركزت سياستهم المؤقتة فى افريقية فى نقطتين : أولاهما العمل على فتح مصر ، وثانيتهما اعتصام الأسرة فى مكان حصين يكفيهم شرور تقلبات الشـعب المعادى لهم . وفعلا قام أول جيش فاطمى بمحاولة فتح مصر سنة ٣٠١ = ٩١٢ بعد أربع سنوات فقط من دخول عبيدالله القيروان، وقريب هذا الوقت (ما بين ٣٠٠ ــ ٣٠٣=٩١٣ ــ ٩١٥) تم اختيار موقع المهدية على بعد ستين ميلا من القيروان لتبنى فيه مدينة ملكية حصينة . وبعد أن تم بناء تحصيناتها عبر المهدى الذى نسبت

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٦٠ (أحداث سنة ٣٠٩) .
(٢) انظر سيرة جوذر (نشرة كامل حسين وشعيرة) ، ص ١١١ حيث يبعث المعز لجوذر بعض الدنانير المضروبة فى مصر ويرجـو أن يطول عمره حتى يحج معـه ويعطيه مما يضرب له ببغداد .

اليه عن اطمئنانه فقـال : « أمنت على الفاطميـات »[1] . وفـعلا قامت المهديـة بدورها هذا خير قيام فحمت القائم ثم المنصور من خطر الثورة الخارجيـة التى تزعمها أبو يزيد وشعب افريقية بعد أن كانا قاب قوسين من الهلاك أو أدنى . أما عن النقلة الى المشرق فانها تحققت على عهد الرابع من خلفائهم وهو المعز لدين‌الله بعد ٦٤ عاما من دخولهم القيروان ؛ اذ خرج المعز سنة ٣٦١ = ٩٧٢ من افريقيـة وفى نيته ألا يعود اليها ، فتقدمت موكبة توابيت آبائه وأجداده الذين لم يشأ أن يتركهم فى أرض المهجر المؤقت .

رحل الفاطميون اذن من افريقية وتركوا أمرها لبنى زيرى الصنهاجيين بعد أن خلقوا فى المغرب حالة من القلق الروحى الشديد هى التى وصفها جورج مارسيه بحق بأنها «الأزمة الفاطمية»[2] . فالمذهب الشيعى لم يستطع (Georges Marçais) أن يغرس جذوره بعمق فى أرض السنية الخالصة ــ التى اتخذت فى جهـات شكل مذهب الخوارج المتزمتين ؛ فكان من الطبيعى أن تعود الأمور الى مجراها المعتاد ؛ وهذا ما حدث فى مصر أيضا بعد مائتى عام كان المذهب الاسماعيلى فيها هو المذهب الرسمى ، اذ عادت السنة الى عهدها الأول على يدى صلاح الدين . فبعد ثمانين عاما من خروج المعز الى مصر (أى سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨) أعلن رسميا الغاء المذهب الشيعى من افريقية على عهد المعز بن باديس ، وقطعت الدعوة للفاطميين بل وأعلنت لعنتهم من أعلى المنابر ، وذلك بعد قيام حركات شعبية عنيفة ضد الشيعة ومقاطعة الناس للمساجد .

هذه العودة الى السنية كانت ــ بالنسبة للمغرب ــ ذات نتائج أهم وأخطر من النقلة الى التشيع على أيدى عبيد الله وخلفه . فلم يقتصر الأمر على قطع العـلاقة بالفاطميين فى مصر ، بل انتهى الى قلب الاوضاع فى افريقية رأسـا على عقب من النواحى السياسية والاقتصادية والبشرية انقلابا كانت له آثاره الدائمة وصـداه البعيد فى كل المغرب حتى المحيط الأطلسى . فقد قرر الفاطميون الانتقام من البلاد التى عاشوا فيها لحظات من المجد وفترات من الخوف ، والتى نزعت النقـاب عن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١ ص ٣٦
(٢) انظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 132 et suiv.

وجهها الحقيقى وكاشفتهم العداء . فأطلقوا عليها قبائل هلال وسليم فأحلت بها الخراب الاقتصادى والفوضى السياسية . فترك بنو زيرى ، داخل البلاد الى السواحل حيث داهمهم خطر النورمانديين من صقلية ، واستدعى الأمر تدخل البربر من المرابطين ثم الموحدين الذين ضموا افريقية الى املاكهم ووحدوا المغرب جميعا مع الاندلس ورحلوا العرب الى المغرب الأقصى وبذلك تم تعريب المغرب جميعا فى القرن الثانى عشر الميلادى ورغم انقضاء سلطان العرب ، وانتهى دور القيروان كعاصمة سياسية ومركز حضارى . وانتقل مركز الثقل من افريقية الى المغرب الأقصى الذى قام يحمى الاسلام ضد الخطر النصرانى المندلع من صقلية ومن اسبانيا . وهكذا قدر للمغرب الذى استقل تماما عن المشرق أن يعرف أعظم فترات مجده السياسى والحضارى على عهد الدولتين الوطنيتين الكبيرتين ، دولتى المرابطين والموحدين ، وبذلك أصبح له طابعه الخاص وصفاته المميزة .

البلاد : ليبيـــة

خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب الاسلامى ، نأمل أن نلقى بعض الأضواء على موقف « ليبيا » الحالية فيما بين دخول الفاطميين القيروان واستقرارهم فى القاهرة . والحقيقة أن المعلومات ليست كثيرة عن هذه الفترة ، وذلك طبيعى فهى فترة اضطراب عام وقلق روحى لا تدع مجالا مناسبا للانصراف الى الكتابة . وحتى النذر اليسير الذى كتبه المعاصرون من المغاربة لم يصل الينا بل ضاع معظمه وسط هذه الدوامة الهائلة فلم يبق لنا منه الا نتف فى كتب المتأخرين . هذا عن المغرب بصفة عامة ، أما عن ليبيا بالذات فالأمر ليس بأحسن من ذلك بل هو أشد وأعسر : فالمنطقة الواقعة ما بين مصر وافريقية لم تحظ هى الأخرى الا بالقليل النادر من اهتمام هؤلاء الكتاب، وربما كان لهم العذر فى ذلك ، فالبلاد لم تكن فى الحقيقة الا طريقا موصلة أو منطقة فاصلة بين البلدين اللذين حبتها الطبيعة بظروف أسخى وأكرم . ولكن ليس معنى هذا أن المنطقة لم تكن مهمة أو أنها لم تقم بدور خطير فى هذه الأحداث الجسام ، فحسبها مدينتاها الكبيرتان « الأزليتان » : برقة (أو أنطابلس) وأطرابلس . أما برقة التى أعطتها تربتها الغنية ذات اللون الأحمر اسم « المدينة الحمراء »[1] مثلها فى ذلك مثل مراكش وغرناطة ، فاشتهرت بزراعاتها ومراعيها، كما كانت تعتز بجبلها الدائم الخضرة ، الكثير المياه والبساتين . أما عن

(١) البكرى ، المسالك والممالك ، طبعة De Slane ص ٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة

شهرتها الحالية فى تربية الماشية ، فهى تركة العهود الماضية . فالمعروف أن اكثر ذبائح أهل مصر والاسكندرية كان من غنم برقة « لعظم خلقها وكثرة شحمها ولذة لحمها »[1] .

وأما طرابلس الميناء البحرى والمدينة التجارية ، وأكبر حواضر ليبيا ، فكانت تتباهى بكثرة أسواقها وفنادقها وحماماتها[2] . هذا اذا تركنا ما كان من الذكر لأجدابية ذات البساتين والنخيل والحمامات والفنادق الكثيرة ، والاسواق الحافلة المقصودة[3] . أو ما كان لسرت المدينة البحرية الكبيرة التى اشتهرت كسوق مهم رغم ما عرف به أهلها من سوء معاملتهم[4] على عكس أهل طرابلس الذين وصفوا بأن « لهم سمح فى تجاراتهم ، وأنهم أحسن الناس معاملة ضد أهل سرت »[5] . أما عن صحراواتها وهضابها وبواديها وما فيها من محلات العرب والبربر ، فلا يمكن اهمالها ، كما قد يظن ، فقد كان لها دورها فى توجيه تاريخ البلاد ، كما كان لها نصيبها فى تحمل المصير المشترك . وهنا لا يمكن السكوت عن جبل نفوسة ومدنه الكثيرة وقراه التى تزيد على ٣٠٠ قرية[6] ، ولا عن مدينة غدامس الصحراوية الكثيرة النخل والمياه ، والتى تخصصت فى دباغة الجلود فذاعت شهرة الجلد الغدامسى[7] . أما زويلة فكانت سوق الرقيق الذى يمير افريقية بالعبيد وبمنتجات

بيروت، ج ٤ ص ٣٨٨ ، الادريسى طبعة Dozy ، ص ١٣١ ؛ وانظر محمد الطيب بن احمد ادريس الأشهب، برقة العربية امس واليوم، طبع القاهرة ١٩٤٥، ص٣٩؛ وكذلك مصطفى عبد الله بعيو ، المجمل فى تاريخ لوبيا ؛ ص ٢٦ وهامش ١ (عن مدينة المرج حاليا) .

(١) انظر كتاب الاستبصار، طبعة جامعة الاسكندرية، ص ١٤٣

(٢) انظر البكرى الذى ينقل عنه المتأخرون ، ص ٧ — ٨ . وحتى بعد خراب البلاد على ايدى بنى هلال وبنى سليم ظلت طرابلس المدينة الوحيدة التى يجد فيها المسافر حماما حتى يصل الاسكندرية (القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٤)

(٣) بكرى ، ص ٥ .

(٤) بكرى ، ص ١٥ ، ١٧ .

(٥) غاب الاستبصار ، ص ١١٠ .

(٦) بكرى ، ص ٩ ، وانظر الادريسى ص ١٠٥ .

(٧) البكرى ، ص ١٨٢ ؛ الاستبصار ، ص ١٤٥ ؛ القلشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٠٨ .

بلاد السودان[1] .

وأول ما نلاحظه أن اسم « لوبية » الذى اتخذته البلاد الآن فى شكل « ليبيا » ، ليس له ذكر فى مصادر هذه الفترة ، وان كانت مصادر عهد الفتوح الأولى تذكره ما بين الحين والحين مصحوبا باسم مراقية . وان لم تبين ماهيته بوضوح . فالطبرى مثلا لا يذكر لوبية عند كلامه عن فتح انطابلس وبرقة[2] . أما ابن الأثير الذى ينقل عن الطبرى ويضيف اليه ، فانه يذكر لوبية ومراقية ولكن ليس بمناسبة افتتاحهما أو دخول العرب فيهما وانما بمناسبة الكلام عن بربر لواته . فيقول ان أصل البربر من نواحى فلسطين وانهم ساروا الى الغرب حتى انتهوا الى لوبية ومراقيه ومنها تفرقوا فى أنحاء المغرب . وفيما عدا ذلك يذكر : « أنها كورتان من كور مصر الغربية »[3] دون أن يحدد موضعهما ولو بشكل تقريبى . ترتب على ذلك أن المتأخرين من أصحاب الموسوعات لم يستطيعوا أن يحددوا بشىء من اليقين موضع « كورة لوبية ومراقية » . فاكتفى ياقوت بالقول ، بشكل عام ، ان لوبية مدينة بين الاسكندرية وبرقة ، ثم عاد وبين أن الاسم يرجع الى أصل يونانى وقد أطلق على الجزء المعروف قديما من شمال القارة الافريقية ، كما أطلق على القارتين الأخريين اسما أوروبا وآسيا[4] . أما القلقشندى فانه اكتفى بالظن فقال : « والظاهر أن لوبية غربى مريوط ، وأن مراقية غربى لوبية ، وهى آخر الديار المصرية من جهة الغرب »[5] . واذا أخذنا بهذا الرأى يكون اسم لوبية قد أطلق على جزء من صحراء مصر الغربية وهذا مقبول حسب مفهوم الكلمة عند اليونان ، وهو ما أخذ به الكتاب العرب ، وذلك ما يؤيده حديثا اطلاق اسم الصحراء الليبية على صحراء مصر الغربية وامتدادها فى ليبيا جميعا .

ويرجع الفضل للمقريزى الذى يبين بوضوح أن آخر حدود مراقيه الغربية هى مدينة برقة نفسها وذلك عند المنطقة التى ينحرف فيها الطريق نحو الجنوب بحذاء

(١) انظر البكرى ، ص ١٠ وتابع ؛ ياقوت ، معجم البلدان (طبعة De Goeje) ج ٣ ص ٩٦٠ — ٩٦١ .
(٢) الطبرى ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٣ ص ٢٢٧ .
(٣) ابن الأثير ، طبع القاهرة ١٣٥٦ هـ ، ج ٣ ص ١٣ .
(٤) معجم البلدان ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ص ٣٤١ . وانظر
CH. - André Julien, Hist. del'Afrique du Nord (Des orgines à la Conquête Arabe) Paris 1951, p. 9.
(٥) صبح الأعشى ، ج ص ٣٩١ .

ساحل خليج سرت أى نحو أجدابية[1] . وعلى ذلك فاذا كانت مدينة برقة خارجة عن نطاق كورة لوبية ومراقية ، فان هذه الكورة أو مراقيه على الأقل كانت تشمل المنطقة الشرقية من ولاية برقة الحالية . ويؤيد ذلك ما ينقله المالكى فى رياض النفوس بشأن انسحاب زهير بن قيس البلوى من افريقية عقب استشهاد عقبة بن نافع فيقول: «فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثم خرج الى مصر ، فوصل الى لوبيا ومراقية وذلك سنة خمسة وستين ، فوجد يزيد قد توفى وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة ، ومروان ابن الحكم أميرا بالشام[2] . واذا ما عرفنا أن زهيرا لم يعد الى مصر عقب انتصار كسيلة بل انه رابط فى برقة الى أن ولاه عبد الملك على افريقية[3] ، اتضح أن المقصود بلوبيا ومراقيه هو ولاية برقة بصفة عامة . واذا ما عرفنا أيضا أن من المرجح أن تكون الأجزاء الشرقية من اقليم برقة وكذلك الأجزاء الشرقية المحيطة بمدينة قورينا القديمة (شحات حاليا) كانت قد ضمت معا منذ القرن الثانى الميلادى تحت اسم « مَرْمَرِيكا »[4] ، ادمجت فى مصر اتضحت صحة تحديد المقريزى «لمراقية» ، التى هى تعريب لاسم « مرمريكا »[5] ، من أنها كانت تشغل الجزء الشرقى من اقليم برقة ، وتبين أن العرب ورثوا التقسيم الرومانى القديم للبلاد .

نستنتج من كل ذلك أن التسمية الحديثة للبلاد وهى « ليبيا » ذات أساس تاريخى صحيح مثلها فى ذلك مثل برقة أو طرابلس . وهذا لا يتعارض مع يذكره القلقشندى أو ابن تغرى بردى من أن لوبية أو لوبية ومراقية « كورة من كور مصر الغربية »[6] ، فالجزء الشرقى من برقة على الأقل كان محسوبا من الديار المصرية[7] ،

(١) الخطط ، ج ص ١٦ (وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهى برقة . . . فاذا بلغت آخر أرض مراقية عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير فى الرمل وانت متوجه الى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك الى افريقية وعن يسارك من أرض مصر الى أرض الفيوم منها . . .) .
(٢) المالكى ، رياض النفوس ، طبعة القاهرة ١٩٥١ ، ج ١ ص ٢٩ .
(٣) ابن الأثير ، (طبعة ١٣٥٦ هـ) ج ٣ ص ٣٠٩ ؛ وانظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٥ وتابع .
المغرب ، ص .
(٤) انظر مصطفى بعيو ، مجمل تاريخ ليبيا ، ص ٤١ . وانظر عن ضم برقة وطرابلس الى مصر على عهد روما وبيزنطة
M.A. Chcira, La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 63 ex note 3
(٥) المالكى ، رياض النفوس ، هامش ١ ص ٢٩ (لحسين مؤنس) .
(٦) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٩٠ ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة مصر ، ١٩٣٢ ، ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
(٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

بل وأكثر من هذا كانت الاسكندرية وبرقة تكونان فى أوائل القرن الرابع الهجرى « مديرية » واحدة لها واليها المستقل عن والى مصر[1] .

وعلى كل حال لا يتكلم الكتاب الا عن ولايتى برقة المتاخمة لمصر وطرابلس المتاخمة لافريقية، وكل منها تعتبر نظريا على الأقل من أعمال الولاية المجاورة لها. والحقيقة أن الحدود بين هذه البلاد جميعا ليست الا اعتبارية ، ترسم الآن فى خطوط على الخرائط ولا يوجد لها أثر على الطبيعة ، فكل منها امتداد طبيعى للأخرى[2] . ولكن اذا كانت مدينة طرابلس قد اعتبرت أول مدينة افريقية[3]، فان الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسرت التى كانت مع أجدابية تتبع الخلافة العباسية وتكون مثل برقة عملا من أعمال مصر[4] .

هذه كانت حالة مدن ليبيا الرئيسية ــ الساحلية منها أو القريبة من الساحل ــ من الناحية الادارية والسياسية عند استيلاء الفاطميين على افريقية . أما الهضاب والصحارى والبوادى فلا يعرف موقفها بالضبط ، الا أن قبائلها كانت تتمتع بحرية فعلية ، ولم يكن لحكومة القيروان أو لحكومة الفسطاط سلطان عليها ، مثل ذلك قبائل جبل نفوسة الخارجية غربى طرابلس ، وقبائل لواتة وهوارة التى كانت تقيم فى صحراء طرابلس وتسبب للمدينة كثيرا من المتاعب .

الفترة الأولى

أول ما يلفت النظر هو أنه بمجرد استقرار الفاطميين فى افريقية ، وقفت مدينتا

(١) انظر عريب بن سعد القرطبى (صلة تاريخ الطبرى، طبعة مصر، ص ٣١) الذى يورد أن برقة كانت تابعة لوالى الاسكندرية القاسم بن سيما سنة ٣٠١ ؛ وانظر ابن تغرى بردى حيث يقول أن أهل لوبية ومراقية أجلوا الى الاسكندرية سنة ٣٠٤ = ٩١٦ خشية العسكر الفاطمى (النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٦) أو ان عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة سنة ٣٠٢ = ٩١٤ (ج ٣ ص ١٧٣) .

(٢) أنظر P. A. Hubac, Tunisie (coll. l'Union Fr.) p. 7

(٣) ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢ ص ٢١٧ ؛ صبح الأعشى، ج ٥ ص ١٠٤ (ينقل عن ياقوت)، ج ٥ ص ٩٩ . ولهذا السبب انضوت طرابلس تحت حكم الفاطميين دون أى مجهود بمجرد دخول أبى عبد الله القيروان، اذ أرسل قوة من رجاله الى طرابلس أحضرت أخاه أبا القاسم الذى كان مستقلا بها وكذلك أم المهدى عبد الله . أنظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٤٥

ليبيا الكبيرتان موقفا غريبا بالنسبة للحكومة المركزية التى تتبعها كل منها . ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول اذا عرفنا أن البلاد جميعا كانت تحاول جاهدة وبصفة مستمرة ان تتخلص من سلطان جارتيها الكبيرتين وأنها عملت ــ منذ القدم ، وما بين الحين والحين ــ على أن يكون لها كيانها الخاص وشخصيتها المستقلة ، وأنها كانت تنجح فى ذلك فى كثير من الأوقات . انتهزت المدينتان اذن فرصة الانقلاب السياسى الذى حدث فى المغرب ، ورأتا أن تجربا حظهما فى التحرر ، فثارتا فى وقت متقارب على حكومتيهما . وبدأ الاضطراب فى ولاية طرابلس والخروج على الفاطميين سنة ٢٩٨ = ٩١١، فثارت قبائل هوارة بقيادة أبى هارون الهوارى، وتحالفت معها فى العصيان جماعات من زناته ولماية ، وزحف الجميع الى المدينة وضربوا حولها الحصار . ولكن عبيد الله المهدى تمكن من تشتيت شمل الثوار فأخرج اليهم قائده أبا زاكى تمام بن معارك الاجابى الذى قتل منهم مقتلة عظيمة ، وبعث برؤوس القتلى وآذانهم الى رقادة حيث نصبت[1] . ورغم الحملات التأديبية والانتقامية التى وجهها عبيد الله ضد لماية وزناتة فان هذه الثورة كانت تمهيدا لثورة المدينة نفسها بعد سنتين . ففى سنة ٣٠٠/٩١٢ــ٩١٣ أعلن الطرابلسيون العصيان وقتلوا الحامية الكتامية وانتخبوا قائدا منهم هو محمد بن اسحق المعروف بابن القرشى . ووجه المهدى لحرب المدينة الثائرة جيشا بقيادة ابنه أبى القاسم ، الذى كان قد حضر لتوه من حرب العصاة فى بلد كتامة ، كما وجه اسطولا بحريا يتكون من ١٥ مركبا حربية . وقاومت طرابلس مقاومة شجاعة استمرت أشهرا وأظهر أهلها ضروبا من البسالة والبطولة . فما ان وصلت الحملة البحرية حتى أخرجوا اليها مراكبهم التى نجحت فى احراقها والقضاء على من فيها من المقاتلة ، وبذلك سجلوا أوائل مفاخرهم كبحارة مهرة . أما أبو القاسم فانه اتخذ طريق البر وعرج على منازل قبائل هوارة ، ثائرة الأمس ، فأوقع بها ثم نزل على طرابلس وشدد الحصار عليها . ولم تستلم المدينة بالأمان الا بعد أن نفد منها القوت حتى أكل الناس الميتة . وقبض أبو القاسم على زعماء الثورة وعلى رأسهم محمد بن اسحق ، وصحبهم معه الى القيروان حيث

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

شهر بهم[1] ، أما عن أهل طرابلس فأنهم أغرموا كل نفقات الحملة وترك أمر تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم الى القائد خليل بن اسحق — الذى سيفتخر فيما بعد بمذابحه فى أهل صقلية — وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها[2] .

وفى نفس هذا الوقت ثارت برقة، ولكن ضد حكم العباسيين الذين أنهوا حكم الطولونيين فى مصر . وينهم من رواية ابن تغرى بردى[3] أن الفاطميين كان لهم يد فى تدبير الاضطراب اذا أثاروا الأعراب فى المنطقة فخرج هؤلاء يهاجمون حدود مصر . وكان ذلك بمثابة التمهيد لثورة المدينة نفسها التى اتهمت بأن أغرقت فى الدم ؛ اذا اعتبرت هذه الثورة خيانة من المدينة التى تعد ثغرا يحمى مصر من الخطر الشيعى المحدق بها ، وأخمدت دون رحمة أو شفقة ، وانتقم من الثوار انتقاما يعبر عن الغيظ والتشفى — الذى يذكر بانتقام عبد الرحمن الداخل من الثوار العباسيين سنة ١٤٦/٧٦٣ — فقطعت أنوفهم وآذانهم وأرسلت الى المشرق[4] .

وشجعت ثورة برقة عبيد الله فعمل على الاسراع فى محاولة غزو مصر . ففى السنة التالية (٣٠١/٩١٣) بعث بقائده حباسة بن يوسف على رأس قواته نحو المشرق ، وكانت الحملة نزهة عسكرية : اذ دخل حباسة مدينة سرت بالأمان ودون مقاومة بعد أن فر من كان بها من الجند العباسى ، وبعث بالنبأ سريعا فأعلن فورا من أعلى منابر افريقية . وتابع حباسة تقدمه فدخل أجدابية بالأمان أيضا وهربت الحامية العباسية . وأتبع ذلك بدخوله برقة التى راحت ضحية انتقام الفاطميين بعد ان كانت بالأمس فريسة انتقام العباسيين ، فقتل من أهلها عدد كبير ،ثم أغرم الأحياء مغارم ثقيلة بلغ بعضها مائة الف مثقال فى يوم واحد . وكانت حجة حباسة فى تنكيله بالبرقيين أنه انتقم لما لحق الامام عبيد الله بالمدينة من الاهانة ، عندما دخلها وهو

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ؛ وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥ ؛ وأنظر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى ، ص ٣٧) الذى يكتفى بذكر انه فتح طرابلس وأخذ منها أموالا عظيمة ؛ وانظر التيجانى، الرحلة ، طبعة تونس ١٩٢٧ ، ص ١٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٨ .

قادم من مصر ، اذ سرقوا ماله وشتموه ولطموه[1] . ووصل حباسة الى الاسكندرية بعد أن هزم جيشا عباسيا فى حدود برقة ، ولحق به أبو القاسم بن عبيد الله واتجه الاثنان نحو الفيوم ولكنهما اختلفا فعاد حباسة مخالفا وانسحب الأمير الفاطمى أمام قوات العباسيين[2] .

وعند عودة أبى القاسم (سنة ٣٠٢/٩١٤) مر ببرقة فخرج أهلها لاستقباله وتهنئته بالسلامة . ورد ولى العهد الفاطمى على تحيتهم بأنه ما عاد من مصر الا لطلب حباسة ليعاقبه على ما فعله بهم، وأمرهم بتجديد ما أصاب المدينة من الهدم والخراب، ثم ترك لديهم حامية من كتامة وعاد الى والده . ولكن ما ان عرفت عامة الشعب بفشله فى مصر، وباقتراب الجيش العباسى الذى كان يتعقبه، حتى قامت الى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها وأعلنت الثورة[3] . واضطر عبيد الله المهدى الى أن يسير الجيوش من جديد ضد برقة بقيادة أبى مدين بن فروخ اللهيصى . وقامت المدينة طوال عام ونصف عام وهى محاصرة أشد الحصر، ولم تستسلم الا بعد أن فنى أكثر أهلها وذلك فى سنة ٣٠٤/٩١٦ — ٩١٧ ، فاستصفيت أموال من بقى منهم وأرسل

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ؛ الطبرى (طبعة ١٣٥٨) لا يذكر الا دخول اصحاب عبيدالله الذى يسميه «ابن البصرى» برقة وطردهم عامل السلطان عنها (ج ٨ ص ٢٥٦) ؛ اما عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى، ص ٣٤) فيقول انه وردت كتب التجار بدخول الشيعة برقة وعظم ما احدثوا فى تلك الناحية. وانظر المقريزى (اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٣ — ٨٤ وهامش ٢) حيث يوجد نص يظن — رغم عدم وضوحه — أنه متعلق بهذه الحادثة. هذا النص يقول انه بعد خروج المهدى من مصر « خرج عليه عدة من اللصوص بموضع يقال له « الطاحونة » فاخذوا بعض متاعه ومنه كتب وملاحم كانت لآبائه فعظم امرها عليه . فيقال انه لما خرج ابنه ابو القاسم ، فى المرة الأولى ، الى الديار المصرية أخذها من ذلك المكان . وانظر ابن الاثير (ج ٨ ص ٣٢ ، ٣٤) الذى يجعل قيادة حملة سنة ٣٠١ الى أبى القاسم بن المهدى ، ويجعل مسير حباسة الى الاسكندرية سنة ٣٠٢ (كما هو موجود فى الطبرى) ، وهذا ما لا يتفق مع رواية ابن عذارى المغربية التى أخذنا بها .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٣٦ ؛ وقارن ابن الاثير ، ج ٨ ص ٣٤ ؛ وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٤٠ ؛ وانظر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٧٣) الذى يقول ان عسكر الخليفة أجلى حباسة عن الاسكندرية وبرقة .

زعماء الثورة الى المهدى فأمر بقتلهم[1] . وظل أبو مدين بن فروخ واليا لبرقة الى حين وفاته فى سنة ٣٠٦/٩١٩ وهى السنة التى دخل فيها الجيش الفاطمى الى مصر للمرة الثانية[2] .

وهكذا دخلت مدن ليبيا تحت الحكم الفاطمى وضمت الى افريقية ، وعين لها العمال والجباة والقضاة من الاسماعلية[3] ، الا أن خضوعها ظل مؤقتا كالمعتاد . أما البوادى فرغم أن الفاطميين كانوا يكتفون منها بالركون الى الهدوء والسكينة بعد دفع ما هو مقرر عليها من الأموال ، فانها عمدت كعادتها الى اثارة الاضطراب ومهاجمة المدن والحضر كلما وجدت الى ذلك سبيلا . ويعبر عن ذلك ما ينسب الى المعز من أنه أوصى بلكين بن زيرى بألا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا السيف عن البربر وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا[4] . ففى سنة ٣١٠/٩٢٢ — ٩٢٣ ثارت قبائل نفوسة فى منطقتها الجبلية المنيعة ، والخارجة أبدا على السلطان بزعامة رجل يدعى «أبو بطة» . وعندما سير اليهم عبيد الله قائده على بن سليمان تمكنوا من مفاجأة قواته التى انهزمت أمامهم ، واضطر القائد الى الالتجاء الى مدينة طرابلس . وسير المهدى أمدادا جديدا الى على بن سليمان الذى عاود ضرب الحصار حول المنطقة الثائرة ، ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة[5] . وفى سنة ٣١٦/٩٢٨ اضطرب البربر فى منطقة برقة فسار اليها أبو القاسم بن عبيد الله وضرب الحصار على حصنهم المعروف بأغزر وتمكن من هدم أسواره على المدافعين الذين أحرقوا أمتعتهم وعرقبوا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس المستميت[6] .

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٤١ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥٤ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٦٧ (يكتب أبو مدينى بدلا من « أبو مدين ») .
(٣) هناك ذكر لبعض عمال وولاة وقضاة طرابلس وبرقة فى هذا العصر فى كتاب ابن عذارى (انظر البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١) .
(٤) انظر ابن خلكان (طبعة ١٩٤٨ ، ترجمة بلكين بن زيرى) ، ج ١ ص ٢٥٧ .
(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٣ .
(٦) هنا لا يمكن التأكد من صحة نص ابن عذارى (البيان ، ج ١ ص ٢٧٢) والارجح أن النص محرف وأن المقصود بموضع هذه الواقعة ليس برقة اذ تتمته أن هواره هوارة ولاية خضعتا اثر ذلك فأمنهم ابو القاسم الذى سار الى تاهرت . وعلى ذلك ليس من البعيد أن يكون حصن اغرر المذكور فى المغرب الأوسط .

وفى نفس هذه السنة كان أبو يزيد الزناتى « صاحب الحمار » وثائر أوراس الكبير ، الذى كاد أن يقضى على ملك الفاطميين ، لاجئا فى مدينة طرابلس وذلك فى ابتداء أمره . وكان قد خرج من تقيوس (من بلاد الجريد) — حيث بدأ دعوته وهو يعلم الصبيان — اثر مقتل عاملها الفاطمى بتحريض منه ، وخشية على نفسه ، فعزم على الابتعاد عن البلاد وقرر القيام بفريضة الحج . ولكن ما ان وصل الى طرابلس حتى وصلت فى أعقابه كتب المهدى فى طلب جماعة من البربر ممن حامت حولهم الشبهات ، فرأى أبو يزيد أن يهرب وعاد الى تقيوس مستترا حيث بدأ عمال عبيد الله فى البحث عنه[1] . وظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة من القضاة والجباة فلا تذكر النصوص اضطراب منطقتها الا سنة ٣٢٢/٩٣٤ . ففى هذه السنة توفى عبيد الله المهدى والظاهر أن القبائل المحيطة بالعاصمة الغربية وجدت فى موته فرصة مواتية للتحرر من سلطان العبيديين . قام بزعامة الثورة رجل من العرب يعرف بابن طالوت القرشى ، وادعى أنه علوى وأنه ابن المهدى ، فأسرعت قبائل البربر بتصديقه والتفوا حوله ، وسار الدعى الفاطمى الجديد بأنصاره الكثيرين نحو مدينة طرابلس ، ولكن نجحت حاميتها بمساعدة الطرابلسيين من رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة وأضعفت ايمانهم بالدعى ، فثاروا به وقتلوه ، وبعثوا برأسه الى الامام الجديد أبى القاسم[2] . وما ان انتهت الثورة فى منطقة طرابلس حتى سير القائم جيشا الى برقة حيث أنضم اليه جزء من حاميات كتامة هناك ، وتابع الجميع سيرهم نحو الاسكندرية فدخلوها ولكنهم انهزموا بعد ذلك أمام قوات الاخشيد[3] .

ولا يذكر الكتاب شيئا عن ليبيا بعد هذه الأحداث الى نهاية عهد القائم (٣٣٤/٩٤٦) وكذلك خلال عهد المنصور (٣٣٤—٣٤١/٩٤٦—٩٥٣) أى أثناء تلك الفترة التى شغلها الصراع ضد أبى يزيد اليفرنى الزناتى ، رغم ان منطقة طرابلس كان يتردد فيها صدى الثورة المندلعة من الجنوب التونسى المتاخم لها . ولكن لما كانت الحرب

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٧٣ ؛ وانظر المقريزى (اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٩) الذى يحدد بدء خروجه بسنة ٣١٦ على أيام المهدى .
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٠٧ (ينقله المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٨) .
(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٠٧

حتى نسب بعض الكتاب مقتله الى رفقاء هذه الليالى بعد أن سكروا وعربدوا عليه [1] .

أما موانى ولاية برقة فقد ازدادت أهميتها العسكرية الاستراتيجية مثلها فى ذلك مثل طرابلس . فبينما ازدادت أهمية طرابلس بعد أن أصبحت من قواعد أسطول صقلية ، استرعت موانى برقة أنظار المعز لوقوعها فى الطريق البحرى الى مصر ولامكان استخدامها للتدخل فى شئون جزيرة اقريطش (كريت) . فعندما عجزت الخلافة العباسية ومصر عن حماية مسلمى الجزيرة طلب هؤلاء المساعدة من المعز . ورأى المعز أن يستفيد من الموقف الى أقصى حد فيتخذ من تدخله فى شئون كريت ذريعة للتدخل فى شئون مصر ، ودبر خطة للعمل المشترك بينه وبين الاخشيديين . هذه الخطة كانت موضوع خطاب رسمى بعث به المعز الى صاحب مصر ونقله أبو حنيفة النعمان بن محمد الفقيه الاسماعيلى فى كتابه المسمى بالمجالس والمسايرات [2] .

حث المعز فى هذا الخطاب أبا الحسن على الأخشيد على الجهاد وامداد أهل كريت بالمراكب ، ولفت نظره الى أن تدخل الاسطول الفاطمى — تلبية لدعوة الكريتيين المسلمين — لا يستدعى تخليه عن هذا الواجب ، بل ربما كان من المصلحة أن يعمل الاسطولان سويا . وهو بعد أن طمأن الاخشيدى على مراكبه وأعطاه المواثيق والعهود طلب منه أن يبعث المراكب المصرية الى مرسى « طبرقة » [3] من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش . وحدد المعز موعد اجتماع المراكب المصرية بالمراكب الفاطمية فى مرسى برقة الشرقى هذا فى أول ربيع الثانى (من سنة ٣٥٠) . وختم المعز خطابه هذا بأنه سيرسل — على كل حال — أساطيله لمساعدة المسلمين فى الجزيرة سواء وافق الاخشيدى أم لم يوافق .

كل هذا يبين أن ليبيا تمتعت بنوع من الاستقرار والرخاء كما احتلت مكانا مرموقا فى السنوات الأخيرة من عهد الفواطم بافريقية ، وأن ذلك كان نتيجة طبيعية

(١) انظر ابن خلكان، ترجمة محمد بن هانى ، ج ٤ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٢) انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله، طبعة القاهرة ١٩٤٧ ، الملحق الاول ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
(٣) هذه الكلمة موجودة فى النص فى شكل « طبنة » وهذا غير صحيح فطبنة من مدن الزاب ، ولهذا وضعنا بدلا منها « طبرقة » اى ميناء برقة الشرقى فهذا اقرب الى الصواب .

لتوجيه سياسة الخلفاء وجهة مشرقية ولا سيما على عهد المعز الذى تم على عهده فتح مصر .

الفترة الثانية :

وفى يوم ٢١ من شوال سنة ٣٦١/٩ أغسطس ٩٧٢ خرج المعز لدين الله من المنصورية قاصدا مصر وفى نيته عدم الرجوع الى المغرب. ولم يسر المعز نحو المشرق مباشرة بل أقام حوالى شهرين فى قرية سردانية القريبة من القيروان انتظارا لاجتماع رجاله وتمام عدده [1] . وفى يوم ٢٠ من ذى الحجة / ٣ اكتوبر رحل المعز عن سردانية بعد أن استخلف على البلاد يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى . وتقول الرواية ان المعز عرض التفويض فى أول الأمر على قائده أبى احمد جعفر بن على ولكن هذا طلب أن يتمتع بما يشبه الاستقلال التام عن الخلافة « لبعد ما بين مصر والمغرب» حتى أغضب المعز. أما بلكين فانه تحفظ عندما عرض عليه الاستخلاف ثم قبله بشريطة أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ، ويولى الخبر لمن يثق به ، وأن يجعله قائما بين أيديهم لمواجهة العصاة بينما يكون الامر لهم [2] .

ويغلب على الظن أن هذه الرواية موضوعة فيما بعد ، وأنها تعبر عن الحالة الراهنة وقتذاك وعما اتخذه المعز من الاجراءات لضمان بقاء افريقية تحت سلطانه . فهو لم يجعل بلكين يستبد بالبلاد رغم ما أعطاه من سلطات واسعة ، بل جعل الى جانبه عاملا لجباية الأموال هو زيادة الله بن القديم ، وعاملين على الخراج هما عبد الجبار الخراسانى وحسين بن خلف الموصلى [3] ، وكان هؤلاء يتبعون المعز مباشرة بطبيعة الحال .

ويؤيد هذا الرأى ما تنسبه الرواية السابقة الى المعز من أنه كان يعرف ان المسألة ستنتهى بانفراد بلكين بالأمر اذا ما تطاولت المدة [4] . ولهذا السبب أيضا لم يكن تقليد بلكين شاملا لكل الأملاك الفاطمية فى المغرب ، وذلك أن المعز أخرج لليبيا جميعا من امارته بما فيها مدينة طرابلس التى كانت تتبع افريقية فى معظم الأحيان

(١) انظر ابن خلكان، ترجمة المعز، ج ٤ ص ٢١٤ ؛ ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٤٥ .
(٤) المقريزى، اتعاظ الحنفاء ، ص ١٤٣ .

والتى كانت تعتبر أول مدنها الشرقية .

وهكذا انشأ المعز ولاية جديدة تتكون من طرابلس وسرت وأجدابية ، وفصلها عن افريقية وعهد بولايتها الى أحد قواد كتامة وهو عبد الله بن يخلف الذى كان أسيرا عنده[1] . ولا شك أن هذه السياسة من جانب المعز كانت تهدف الى استرضاء كتامة ، رجال دولته ، باطلاق ذلك الزعيم واقطاعه النصف الغربى أو ما يزيد على النصف من ليبيا ، ثم العمل على الحد من نفوذ بلكين الصنهاجى حتى لا يفكر فى استغلال مركزه وتقوية نفوذه خشية جاره القوى . وكذلك كان الامر بالنسبة لصقلية التى ثبت فى ولايتها بنى أبى الحسين من أبناء الحسن بن على مؤسس أسرة الكلبيين بالجزيرة[2] .

ترتب على هذا الاجراء الذى أريد به اقامة التوازن بين نواب المعز ان انقسمت أملاك الفاطميين المغربية الى ثلاث ولايات منفصلة هى : افريقية (التى ستصبح تونس فيما بعد) وما بين برقة وقابس (التى أصبحت ليبيا الآن) ثم صقلية (التى انفصلت عن أملاك الاسلام بعد أن استرجعتها أوروبا بعد قليل) ، وكان ذلك تمهيدا لقيام أسر مستقلة فى كل منها .

وسار موكب المعز الضخم نحو مصر بأحمال الذهب والفضة ، يتقدمها توابيت اسلافه ، وتحيط بها قواته وحاشيته ، ووصل الى طرابلس عن طريق قابس . وفى طرابلس انتهزت فرقة من رجاله ، كان قد ساءهم أن يهاجروا الى المشرق ، الفرصة فهربوا الى جبال نفوسة ، واعتصموا بالمنطقة الخارجة أبدا على القانون ، وفشلت

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ؛ وانظر الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص ١٧٣ .

(٢) نلاحظ هنا أن ابن الاثير (ج ٨ ص ٢٤٥ الذى ينقله المقريزى فى اتعاظ الحنفاء ص ١٤٤) يقول أن المعز عهد بالجزيرة الى الحسن بن على ولكن الحسن كان قد مات فى سنة ٣٥٤\٩٦٥ (أنظر سيرة جوذر ، هامش رقم ١٣٢ ص ١٨٧) . أما الذى ولى الجزيرة بعده فهو ابنه احمد الذى توفى قبل مسير المعز الى مصر ثم ابنه الثانى ابو القاسم الذى ظل يليها من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٧٢ (انظر حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ، ص ٦٣) . ولزيادة المعلومات انظر الفصول الخاصة ببنى ابى الحسين فى Michele AMARI, Storia dei Musulmani di Sicilia : (عن بداية الحسن بن على ج ٢ ص ٢٣٧، ٢٧٥ وعن اسرة بنى الحسن فى الجزيرة ابتداء من صفحة ٢٧٩) .

مجهودات المعز فى استرجاعهم[1] . وتابع الموكب الملوكى سيره مارا بسرت وأجدابية والمعز يقيم بعض الأوقات فى بعض المواضع ، ويجد السير فى بعضها الى أن وصل برقة فى ١٤ جمادى الاول سنة ٣٦٢/٢٠ فبراير سنة ٩٧٣ ونزل بالقصر خارج المدينة[2] بموضع يعرف بمياسر[3] . وهناك فقد المعز شاعره المشهور محمد بن هانىء الأندلسى ، ويظن أنه اغتيل لمغالاته فى مدح المعز حتى اتهم بالكفر ، وذلك فى اواخر رجب/ابريل[4] . وفى برقة أيضا توفى عم المعز وهو يوسف بن القائم[5] . كما توفى مولاه جوذر الصقلبى فنقل الى القصر حيث دفن بجامعة[6] . ووصل المعز الى الاسكندرية فى اواخر شعبان/مايو ، ودخل القاهرة فى رمضان بعد رحلة استغرقت حوالى العام .

وبمجرد أن استقر بلكين فى امارته أظهر جدارة بالمنصب الكبير : فهزم الثوار الذين ظنوا أن الفرصة سنحت للتحرر من سلطان القيروان فى باغاية وفى تاهرت كما قهر زناته قرب تلمسان . والظاهر أنه شعر أو كان يشعر بقوته ومكانته فبدأ يمارس سلطاته كأمير مستقل دون أن يقيم وزنا لعمال الخليفة الفاطمى . وهكذا انتهى أمر زيادة الله بن القديم الذى كان قد عينه المعز على جباية الأموال الى الموت أو الاغتيال سنة ٣٦٦/٩٧٦ — ٩٧٧ فى سجن عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى آل اليه تدبير دولة بلكين[7] . أما صاحب الخراج حسين بن خلف فانه كان قد ثار سنة ٣٦٤/٩٧٤ — ٩٧٥ على بلكين وجمع حوله البربر — ربما فى نفس الوقت الذى بدأ فيه النزاع بين زيادة الله وعبد الله الكاتب[8] .

ورغم هذا ظل الامير الصنهاجى يحافظ على الشكليات : من اظهار الخضوع

(١) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفاء، ص ١٨٦ .
(٣) سيرة جوذر، ص ١٤٧ .
(٤) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٥ ؛ وانظر ابن خلكان (ترجمة ابن هانىء) ، ج ٤ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٥) المقريزى، اتعاظ الحنفاء، ص ١٢٧ .
(٦) سيرة جوذر، ص ١٤٧ .
(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٨ ؛ ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٥ .
(٨) ابن الاثير، ج ٨ ص ٣٤٦ (النص هنا غير واضح بشكل اكيد ولكن هذا هو التفسير المقبول) .

والولاء للخليفة بالقاهرة كلما تطلبت الظروف . فعقب وفاة المعز سنة ٣٦٥/٩٧٦ أرسل بلكين بعثة الى القاهرة تحمل الى الخليفة الجديد العزيز بالله هديته وتهنئته بالولاية ، وتؤكد له الطاعة[٥] . هذا وسيسير أبناء بلكين على هذا المنهاج كلما اعتلى خليفة جديد عرش مصر .

وفى سنة ٣٦٧/٩٧٧ ــ ٩٧٨ قام عامل بلكين وهو عبد الله الكاتب بارسال اكثر من ٤٠٠ ألف دينار كان قد جمعها فى السنة السابقة قهرا من أهل القيروان الى القاهرة ، ربما لشراء رضاء الخليفة عنه ولاقناعه بأنه ليس بأقل غناء من عامله الذى مات فى سجنه . ورغم أن العزيز أمر برد المال الى أصحابه الا انه أظهر رضاءه عن بلكين فلم يكتف بأن جدد له تقليد ولاية افريقية بل ولاه أيضا على الجزء الغربى من ليبيا ، فأضاف اليه طرابلس وسرت واجدابية وما يتبعها من الاعمال[٢] . وعهد بالقيادة العسكرية لأملاكه الليبية الى أبى الفتوح يحيى بن خليفة المليانى ولكنه عزله بعد شهور[٣] . وهكذا فاتت العزيز حكمة والده المعز من فضل هذا الجزء من ليبيا عن افريقية ، واخراجه عن سلطان بلكين ، فزادت قوة هذا الأخير الذى كان يظهر الطاعة « مجاملة ومراقبة لا طائل وراءها » كما يقول ابن الاثير[٤] .

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٧٩ .
(٢) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٦٣ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ (لا يذكر الا طرابلس ونواحيها فقط)، وانظر .
G. Marçais, La Berbérie Musulmane. p. 158.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢٩ .
(٤) الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ . هذا ولو أن يوسف بلكين عمل فى السنة التالية ٣٦٨\٩٩٧ على ان يؤكد حسن ثقة العزيز فيه ، فقام باسمه بحملة كبرى فى بلاد المغرب فوصل بجيوشه الى فاس واستولى عليها ودخل سجلماسة ، وطرد عمال بنى أمية الاندلسيين ، وهدد سبتة الاموية ثم عاد الى البصرة وخربها وكانت للامويين أيضا . ثم طارد زناته اعداء الصنهاجيين حتى الجأهم الى الرمال فى اقاصى المغرب، واخضع برغواطة فى جبال اطلس وقتل متنبيهم صالح بن عيسى ، وظل مقيما بالمغرب الى سنة ٣٧٣\٩٨٣ . وخلال تجواله هذا فى المغرب كانت الخطابات الرسمية ترد اليه على البريد من القاهره تثنى على حسن بلائه ضداعداء سادته المقيمين فى مصر (انظر ابن الاثير ، ص ٢٦٤ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٨) . ولكن عندما وصلته هناك رسالة من مصر تطلب منه اختيار وارسال الف فارس من ابطال صنهاجه ، كتب يعتذر بلزومهم له فى حربه ضد الامويين امراء الاندلس ، وهدد بأن يترك المغرب اذا ما أصر الخليفة . واكتفت القاهرة بالسكوت وعدم الرد (ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢٠) . ومات يوسف بلكين فى =

ورغم ان المنصور بن بلكين الذى ولى فى أوائل سنة ٣٧٤/٩٨٤ عقب وفاة والده، قام بارسال البعثة التقليدية الى القاهرة تحمل ولاءه وطاعته للخليفة بصفته الأمير الجديد للولاية التى ورث امارتها عن والده ، وتطلب بالتالى تقليد الخليفة وعهده ، ورغم أن الهدية التى حملها المبعوث كانت ثمينة تحوى من الدواب والأمتعة والطرف ما يقدر الكتاب ــ بشىء من المبالغة ــ بمليون دينارا[١] ، فان اتجاه المنصور الى التحرر من سلطان مصر واعتقاده فى استقلاله وسيادته كان واضحا منذ البداية . ويعبر عن ذلك خطبته التى خطبها فى أعيان القيروان الذين ذهبوا لتعزيته وتهنئته بمدينة أشير حيث كان يقيم . فهو بعد أن وعدهم بالخير والاحسان اليهم ، على عكس ما نهج عليه والده وجده من سياسة القهر والعنف ، قال : « وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (ويشرح ابن الاثير ذلك بأنه يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب) لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[٢] . ومع هذا فان كتاب التقليد الذى يستهين به كان مهما بالنسبة له ، فهو يقوى من سلطانه ويؤكد شرعيته ، وعلى ذلك فعندما وصل فى سنة ٣٨٢/٩٩٢ سجل من العزيز بالله بولاية العهد لابنه باديس سر بذلك سرورا عظيما وجاءته الهداية من كل مكان[٣] . حدث ذلك بعد اضطرابات كتامة سنة ٣٧٦/٩٨٦ ــ ٩٨٧ ، وسنة ٣٧٨/٩٨٧ ــ ٩٨٨ بتحريض العزيز وقهر المنصور لهم[٤] .

اواخر سنة ٣٧٣\٩٨٤ وهو فى طريقه من امام سبتة الى سجلماسة التى دخلها خزرون بن فلفول الزناتى وقتل بها عامل بلكين (ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤١) .
(١) ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ؛ ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤ .
(٢) ابن الاثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٣ . وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 160
هنا يظهر أن جورج مارسيه استند الى الترجمة الفرنسية لبيان ابن عذارى دون ان يرجع الى النص فهو يترجم كلمة « حمير » التى يقصد بها ملوك اليمن الحميريين بكلمة «حمير ânes » ويترتب على ذلك انه يغير فى المعنى بحيث يصبح « وورثوه عن آبائهم واجدادهم ولكن اجدادهم كانو حميرا »
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥٢ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٢، ٢٧ ــ ٢٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٤٥ــ ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 160 - 161

وتوفى المنصور بن بلكين سنة ٣٨٦/٩٩٦ وهى نفس السنة التى توفى فيها العزيز بالله ، ولا ذكر لليبيا الغربية التى ضمت الى دولة صنهاجة ، ولا للجزء الشرقى منها الذى ظل تابعا لمصر . ولكن بولاية باديس بن المنصور وخلافة الحاكم الفاطمى تغيرت الأمور الى حد كبير . فبعد أن كان مركز الصراع بين العزيز والمنصور فى المغرب الاوسط حيث سار دعاة القاهرة يؤلبون كتامة فى منطقة سطيف ضد تابعها القوى ، انتقل مسرح هذا الصراع الى ليبيا الغربية ومنطقة طرابلس، وذلك رغم تبادل تجديد العهد والبيعة ،وتبادل الهدايا الذى أصبح أمرا شكليا وتقليديا[1] . ففى سنة ٣٨٩/ ٩٩٩ قامت زناته بالمغرب الأقصى والأوسط بقيادة زيرى بن عطية صاحب فاس وثأرت لنفسها من الهزائم التى ألحقها بها يوسف بلكين وابنه المنصور من قبل . فزحف ابن عطية الى تاهرت ، وهناك حاصر يطوفت عم باديس ، ثم هزم الجيشين اللذين اخرجهما باديس لانقاذ تاهرت وأولهما بقيادة عمه حماد صاحب أشير، وثانيهما بقيادة كاتبه محمد بن أبى العرب. وخرج باديس بنفسه للقاء زيرى بن عطية، وعرج فى طريقه على طبنه حيث كان فلفل بن سعيد حفيد خزرون الزناتى الذى قاتل جده بلكين فى سجلماسه[2] وابن سعيد الذى لجأ سنة ٣٧٩/٩٨٩ — ٩٩٠ الى والده المنصور فأكرمه وقربه وولاه طبنة من بلاد الزاب[3] .

وطلب باديس من فلفل بن سعيد الخروج معه ولكن هذا اعتذر وطلب توليته طبنة، اقطاع أبيه، حتى يضبطها فولاه اياها . ولكن ما أن بعد باديس حتى تملكت فلفل العصبية والعداوة القديمة فمضى يفسد فى البلاد حتى باغاية . كل هذا وجموع زناته تلتف حوله ، وكذلك أعمام باديس الساخطون عليه ، حتى طمع فى امتلاك القيروان .

وعاد باديس من حملته والتقى بفلفل وتمكن من هزيمته قرب مرمجنة بعد قتال مرير راح فيه أكثر من ٧ آلاف رجل من زناته وزويلة . ولكن الثائر الزناتى اعتصم

(١) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٢) انظر فيما قبل هامش ٤ ص ٩٧ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٥٧

بالصحراء ، ثم اتجه الى منطقة طرابلس[1] . وطوال سنة ٣٩٠/١٠٠٠ ظل فلفل رافعا راية العصيان ، ولكنه لم يستطع أن يواجه قوات باديس فى معركة منظمة ، وخاصة بعد أن انفض عنه كثير من أتباعه ولا سيما عمومة باديس فلم يبق معه منهم الاماكسن وابناء محسن وباديس الذين قتلوا أثناء الصراع فيما بعد[2] . وعلى ذلك اتبع فلفل فى ثورته فنا حربيا معروفا لدى البربر وهو يتلخص فى الفرار والاقسام بالصحراء أو الجبال أمام قوات الأمير اذا ما طاردته ، ثم العودة الى مهاجمة المدن والمناطق العامرة بعد رجوعها .

ومع أن حوادث هذه الفترة مختلطة متداخلة يصعب على الباحث توقيتها بشكل دقيق فانه يمكن ترتيب أحداث ليبيا على الوجه التالى : أثناء انشغال الامير الصنهاجى بثورة زيرى بن عطية فى المغربين الأوسط والأقصى ، وخلال ثورة فلفل وانضمام الأمراء الصنهاجين اليه ، خرجت مدينة طرابلس على باديس سنة ٣٨٩/٩٩٩ عن طريق تدخل الخليفة الحاكم ، الذى رأى أن يصطاد فى الماء العكر ،فاتصل بنائب باديس بها وحرضه على الخروج على سيده . وأعلن الوالى خلع طاعة باديس وطلب ارسال قوة فاطمية للدفاع عن المدينة ولضبطها . وصدرت الأوامر من القاهرة الى والى برقة وهو يانس الصقلى الذى كان من أخصاء الحاكم بالمسير على رأس جيش لاستلام المدينة ، وتم ذلك فى السنة التالية[3] .

وهكذا كان على باديس أن يواجه تدخل الحاكم الى جانب عصيان فلفل . وبدأ يستفسر عن الغرض من دخول القوات الفاطمية طرابلس ، وعن شرعية عمل يانس . ولما لم يجد جوابا شافيا أرسل جيشا بقيادة جعفر بن حبيب تمكن من قتل يانس وهزيمة رجاله خارج المدينة ثم ضرب الحصار عليهم بعد أن اعتصموا بها[4]. حدث ذلك وفلفل بن سعيد ثائر فى المنطقة يراوغ قوات الامير الذى كان يتتبع أنباء

(١) ابن الاثير، ٩ ص ٦٣ — ٦٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥٩ — ٦٠ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٦١ ؛ ابن خلدون (الترجمة) ، ج ٢ ص ١٧ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٦٤ ؛ وانظر احمد النائب الأنصارى ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٤ — ٩٥ .

تحركاته عن طريق عماله فى تلك الجهات . وفى ٢٣ من رجب ٣٩١/١٩ يونية ١٠٠١ وصلت كتب عامل قابس تذكر أن الثائر مر من طريق قابس فى اتجاه طرابلس . وفعلا وصل فلفل بينما انسحب القائد الصنهاجى الذى خشى الوقوع بين الزناتين من خارج طرابلس والفاطميين من داخلها ، وتفادى طريق قابس فاتجه نحو الجبل جنوبا، وخرج وفد من الطرابلسيين برئاسة واليها فتوح بن على وهو من قواد يانس لاستقباله وفتحوا له الأبواب[1] . ولما كانت الحامية الفاطمية المحصورة بطرابلس قد طلبت النجدة من مصر ، جهز الحاكم جيشا بقيادة يحيى بن على الأندلسى ، أخى جعفر بن على قائد المعز لدين الله ومنافس بلكين ، وبصحبته زيدان الصقلى الذى كان اليه تدبير شئون الحملة . ومر الجيش فى الطريق ببرقة حيث كان عليه أن يتزود منها بالمال . وأصيب يحيى بخيبة أمل مريرة اذ كانت خزانة برقة خاوية ليس فيها أموال ، فكان ذلك سببا فى تمرد الجند وعدم انتظامه ،وواصلت الحملة طريقها فوصلت فى ربيع الأول سنة ٣٩٢/يناير ١٠٠٢ الى طرابلس حيث خرج فلفل ، الذى صارت اليه الأمور ، واستقبلها . ومنذ البداية اتضح عدم الانسجام بين الزناتى الذى كان يطمع فى السيادة وبين القائد الفاطمى الذى كانت له الولاية الشرعية من قبل الخليفة ، والذى كان قد فقد السيطرة على رجاله المضطربين[2] .

ورغم هذا الاختلاف تم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد باديس . وفى سنة ٣٩٣/١٠٠٣ خرج يحيى بن على على رأس قواته المصرية ، وفلفل بن سعيد بأعوانه من زناته وزويلة ، وفتوح بن على بحامية طرابلس ، واتجهوا نحو قابس وضربوا عليها الحصار فى منتصف شعبان/١٩ يونية . ولما لم يكن الوفاق تاما بين الأحلاف الثلاثة فقد فشلت مجهوداتهم ضد المدينة التونسية . وأخيرا رأى يحيى ، الذى أفلت زمام الأمر من يديه ، العودة الى طرابلس[3] . وفى طرابلس عجز القائد الفاطمى من جديد عن مواجهة الموقف : من اختلال عسكره، وتهجم فلفل ورجاله على جيشه، فقرر الانسحاب بعد أن نهبت أمتعته وخيله[4] . وهكذا وقعت طرابلس فريسة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٨ .
(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٦٨ .
(٤) ابن الاثير، ج ١ ص ٧٤ .

سهلة بين يدى الثائر الزناتى الذى أعطى لحركته نوعا من الشرعية بعد أن تدخلت جيوش الخليفة الفاطمى الى جانبه .

واكتفى الحاكم بأن صب جام غضبه على قائده الفاشل ، الذى أسخط تابعه القوى فى افريقية ، وأضاع طرابلس فأعطاها لقمة سائغة لزناته أعداء الفواطم وحلفاء الأمويين فى المغرب ، حتى كاد يقتله[1] . ولم يتخذ الحاكم اجراءات أخرى ضد الأمير الزيرى الذى لم يرض له بأن يسترجع المدينة التى وهبها والده (العزيز) بعد باديس (بلكين) ، ولا ضد الثائر الزناتى الذى استخدمه كمخلب القط واستولى عليها .

وظل فلفل فى طرابلس حتى وفاته سنة ٤٠٠/١٠٠٩ — ١٠١٠ بعد أن عمل على جعل المدينة وأعمالها مملكة زناتية صغيرة يورثها لأفراد أسرته : فاتخذ قصرا للامارة، ودون الدواوين ، وقوى من شأنه حتى خلفه أخوه ورثوا الذى بايعته زناته بعده[2] . وساعدت الظروف فلفل على الاستبداد بطرابلس طوال فترة السبع سنوات هذه . ففى السنة التالية لاستيلائه على عاصمة ليبيا الغربية (أى فى ٣٩٥/١٠٠٥) حدثت مجاعة كبرى بافريقية صحبها طاعون فتاك نشر الخراب والدمار ، وشل حركة البلاد بشكل يصفه الكتاب وصفا رائعا[3] . والى جانب هذه المأساة التى أحزنت البلاد بدأ النزاع يشتد بين باديس وبين عمه فى مغرب المملكة . ولا شك أن هذا الخطر الجديد أثار اهتمام باديس أكثر من خطر الثائر الزناتى الذى قام باسم الخليفة الفاطمى . ولكن بقاء فلفل فى طرابلس كان خطرا على كيان باديس . فبعد أن خذله الفاطميون فى مصر بدأ يتطلع الى تأييد الأمويين فى الأندلس فراسلهم[4] . ثم بدأ شأنه يرتفع شيئا فشيئا فى بلاط القيروان نفسه حتى أصبح ملاذ الساخطين على باديس أو الفارين من رجاله . فعندما توفى محمد بن أبى العرب عامل افريقية ، هرب أبناؤه سنة ٣٩٩/١٠٠٩ من المنصورية ، مقر باديس ، ويمموا وجوههم نحو فلفل بطرابلس . ولكن باديس حذر والى قابس فى الوقت المناسب ، فقبض عليهم

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٦٩ ؛ ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٧ .
(٤) انظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٦ .

وقتل اثنين منهم بينما عاد الثالث وهو القاسم الذى كان قد خلف والده فى منصب عامل افريقية ، الى باديس فعفا عنه[1] • ونال باديس واقفا موقف المترقب ازاء بنى خزرون بطرابلس ، ولم يتحرك الا بعد أن بلغه نبأ وفاة فلفل سنة ٤٠٠/١٠١٠ عندئذ سار على رأس قوات كبيرة ووصل الى ظاهر المدينة فى أوائل شعبان/أواخر مارس فخرج منها وروا أخو فلفل دون قتال • وتقدم أهل المدينة مرحبين بأميرهم القديم وضربوا خيام الديباج والسرادقات الحافلة اعلانا عن سرورهم بمقدمه وحفاوة بوصوله • ولكن الأحوال الجوية لم تحقق لهم ما أرادوا فهبت الرياح ومزقت أو اقتلعت ما أقاموا، وعندئذ أدخلوه الى قصر الامارة الذى كان اتخذه فلفل[2] •

وخضع وروا بن سعيد ، الذى لم يكن له همة أخيه ونشاطه ، للأمر الواقع فأرسل الى باديس يطلب الأمان له ولمن معه ، فأجابه باديس وعوضهم عن طرابلس وأعمالها فأقطعهم نفزاوة وقسطيلة من بلاد الجريد[3] . هذا ولم يلبث بنو خزرون أن انشقوا على أنفسهم اذ يذكر ابن عذارى أن خزرون بن سعيد اختلف مع أخيه وروا فقصد الى باديس سنة ٤٠٢/١٠١١ ــ ١٠١٢ فأكرمه ومن معه من فرسان زناته ، ثم أعطاه احدى المدن فخرج اليها بالبنود والطبول[4] . وعلى كل حال عادت طرابلس الى افريقية ودولة بنى زيرى بعد أن حققت استقلالها تحت امرة الزناتيين طوال سبع سنوات •

وكان لأحداث طرابلس هذه صداها ــ كما هو المعتاد ــ فى الجزء الشرقى من ليبيا أى فى ولاية برقة التى اقتطعت من مصر فى سنة ٣٩٦/١٠٠٦ على يدى رجل يدعى الوليد بن هشام ويعرف بابى ركوة . ورغم ان الكتاب لا يربطون بين ثورة طرابلس وثورة برقة، فهناك دلائل تبين وجود علاقة بينهما أو أوجه شبه على الأقل : فعمال الثورة فى الحالتين هم زناتة وهؤلاء كانوا حلفاء بنى أمية الأندلسيين فى المغرب • ولكن حركة برقة تختلف عن حركة طرابلس بأنها اتخذت شكل دعوة أموية بدأت بالصورة التقليدية التى بدأت بها الدعوة الفاطمية فى أرض كتامة ، ونجحت فى

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٧١ .
(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ . عن قصر فلفل أنظر الطاهر احمد الزاوى، الفتح العربى فى ليبيا، هامش ١ ص ١٨٥ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٢ .
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٣ .

استمالة زناتة التى عاضدتها . وصاحب الدعوة هو الوليد بن هشام من أقرباء المؤيد هشام بن الحكم الأموى ، وكان قد فر من قرطبة عندما طلبه المنصور بن أبى عامر[1] • وبعد رحلة فى المشرق زار خلالها مصر والحجاز واليمن استقر فى برقة حيث اشتغل بتعليم الصبيان ، كما فعل أبو عبد الله الشيعى من قبل فى أرض كتامة. وسلك الرجل مسلك المصلح الاجتماعى فأظهر العدل وأمر بالمعروف وأصلح بين قبائل المنطقة المتخاصمة من عرب بنى قرة وبربر زناته ، ثم انتهز فرصة استيلاء زناته على طرابلس وفترة المجاعة فأعلن نسبه الأموى • والظاهر أنه ادعى انه الأموى المنتظر الذى يعيد مجد بنى أمية فى المشرق ، وتمكن من اقناع أهل المنطقة بأنه مقدر له ملك مصر وازالة حكم الشيعة منها •

وكان من الطبيعى أن تقبل قبائل البربر من لواته وزناته هذه الدعوة فأجابوه ونصبوه اماما عليهم • وعندما أحس باشتداد أمره جمع جموعه وهاجم مدينة برقة، وتمكن من دخولها فى رجب من عام ٣٩٥/ابريل ١٠٠٥ • ورد الحاكم على ذلك بأنه أرسل جيشا ضده ، ولكن النتيجة لم تكن باحسن منها فى طرابلس ، اذ انهزم الجيش الفاطمى الذى أنهكه الجهد والعطش ، وعاد الى مصر بعد أن ترك قائده « ينال » قتيلا فى أرض المعركة • وقوى هذا النصر من شأن الثائر فاستفحل أمره وأصبح خطرا يهدد مصر نفسها ، اذ بدأ يكاتب بعض كبار قواد القاهرة مثل الحسين بن جوهر قائد القواد ــ كما يروى ابن الأثير • وهنا رأى الحاكم أن يستعمل معه الحيلة بعد أن فشلت ضده القوة • فتقول رواية ابن عذارى التى تؤيدها رواية ابن الأثير بشكل غير مباشر ، أنه أمر بعض كبار رجال الدولة بمكاتبة الوليد واغرائه بدخول مصر ، ووعده بالمساعدة أو الانضمام الى جانبه •

ووقع الثائر فى الشرك الذى نصب له ، فدخل مصر وترددت سراياه الى الصعيد حيث فاجأته القوات المصرية ومن معه من البربر وألحقت بهم هزيمة منكرة، ففر نحو النوبة ، وهناك أخذ أسيرا وحمل الى القاهرة مشهرا على جمل ، ثم قتل فى منتصف شوال سنة ٣٩٧/٥ يوليو ١٠٠٧[2] •

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٨٤ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب ، ج ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ ؛ ابن الاثير ، ج ١ ص ٨٢ ، ٨٣، ٨٤ .

وهكذا قضى على ثورة زناتة فى برقة قبل انقضاء ثورتها فى طرابلس بسبب تهور صاحبها الذى لم يعرف حدود مقدرته ، وأراد أن يحقق فى بضع سنوات ما حققه كتامة والفاطميون بعد ثمانين عاما من الدعاية الواسعة والكفاح المرير .

انتهت الأزمة السياسية اذن فى ليبيا سنة ٤٠٠/١٠١٠ وعادت الاوضاع الى ما كانت عليه أيام المعز لدين الله ويوسف بلكين بعودة طرابلس الى بنى زيرى بعد أن استقل بها بنو خزرون ، وعودة برقة الى أعمال مصر بعد أن جربت حظها لا فى الاستقلال فقط بل وفى فتح مصر أيضا . ولكن العلاقة كانت قد فترت من غير شك بين باديس وبين الحاكم بعدما قام به الاخير فى طرابلس وقابس . وعلى ذلك عمل الفاطمى على اصلاح ما أفسده ، فأرسل — بطريق البحر — الى باديس فى سنة ٤٠٣/١٠١٢ — ١٠١٣ سفارة تحمل هدية قيمة وسجلات باضافة برقة وأعمالها الى أملاكه[1] . وبذلك حقق الحاكم هدفين معا : استرضاء الأمير باديس ، والتخلص من الولاية المضطربة التى أزعجته بالأمس والقاء مسئولية ضبطها على عاتق الصنهاجى.

والحقيقة أنه رغم أن ليبيا أصبحت جميعا خاضعة لأمير تونس الا أنه كان من الصعب عليه أن يقر النظام فيها. فبعد التجاء خزرون بن سعيدالى باديس سنة ٤٠٢/ ١٠١١ — ١٠١٢ اثر اختلافة مع أخيه وروا[2] ، اغضب هذا الأخير لذلك فسار الى طرابلس بقصد استرجاعها، وضرب عليها الحصار[3] . ورأى باديس أن يضرب أعداءه الزناتيين بعضهم ببعض فعهد الى خزرون بحرب أخيه فسار الى طرابلس سنة ٤٠٣ ليمنع وروا من حصارها[4] . والتقى الزناتيون المتنافسون فيما بين قابس وطرابلس ولكنهم اتفقوا بدلا من أن يتحاربوا فدخل أصحاب خزرون فى طاعة وروا . وعندما طلب باديس من خزرون أن يفسر موقفه المريب لحق هو الآخر بأخيه فى السنةالتالية. ورغم أن المصادر لا توضح الأحداث التى وقعت أثناء ذلك وبعده الا أنه يتبين أن زناته وبنى خزرون استقروا من جديد فى منطقة طرابلس ، وأنهم فرضوا سلطانهم على المدينة حتى أصبحت علاقتها بالقيروان علاقة اسمية فقط ، وأن الرئاسة ظلت

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٤ .
(٢) انظر ما قبل، ص ١٠٤ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٧٤ .

لوروا الى أن مات سنة ٤٠٦/١٠١٦[1] .

والظاهر أن باديس أراد انتهاز فرصة وفاة وروا لاستعادة طرابلس كما حدث سنة ٤٠٠/١٠١٠ عقب وفاة فلفل، ولكن المنية عاجلته قبلأن يتحقق له ذلك. فيروى ابن خلكان أنه فى سنة ٤٠٦/١٠١٦ قصد باديس طرابلس ولم يزل على قرب منها عازما على قتالها ، وبلغ من شدة حنقه على المدينة الممعنة فى العصيان أنه أراد أن ينزل بها عقوبة أشبه بتلك التى أنزلها الحكم بن هشام بربض قرطبة سنة ٢٠٢/٨١٧: « فحلف ان لا يرحل عنها حتى يعيدها فدنا للزراعة » . وما يؤسف له أن ابن خلكان الذى ينقل هذه الرواية عن كتاب «الدول المنقطعة» — الذى لم يصل الينا — رأى الاختصار ، فقال ان رغبة باديس فى الانتقام من طرابلس كانت « لسبب اقتضى ذلك تركت شرحه لطوله » . ولكنه يستمر بعد ذلك فيقول انه عندما علم أهل البلد بهذا التهديد الخطير ، اجتمعوا عند المؤدب محرزولى المدينة وعابدها، وطلبوا منه الدعاء الى الله أن يزيل هذا البأس . ورفع الرجل الصالح يديه الى السماء وقال : « يا رب باديس ، اكفنا باديس . فهلك فى ليلته بالذبحة »[2] .

واذا ما علمنا أن باديس توفى بالمسيلة بالمغرب الاوسط عقب انتصاره على عمه حماد ، خامرنا الشك فى صحة هذه الرواية . ولكن يمكن التوفيق بين مضمونها الذى يعبر عن طبيعة العلاقة بين طرابلس وأمير القيروان ، بأن نبأ وفاة وروا وصل الى باديس وهو بالمسلية ، وأنه قرر استعادة عاصمة ليبيا الغربية فأرسل اليها أحد قواده وأوصاه بالحزم والشدة ازاء أهل المدينة الذين انزعجوا للتهديد الخطير ، وأن القوة الصنهاجية انسحبت من أمام طرابلس عندما بلغها نبأ وفاة باديس .

ولم يمنع هذا من انقسام بنى خزرون اذ دبت بينهم الفرقة فقامت المنافسة بين خليفة ابن وروا وبين عمه خزرون بن سعيد . ولكن كان التفوق لخليفة الذى استطاع اكتساب معظم زناتة الى جانبه. وازاء تفوق خليفة يئس خزرون من منافسة ابن أخيه فقرر المسير الى مصر وبصحبته أبنائه الثلاثةوهم سعيد وخليفةوالمنتصر[3] .

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ج ١ ص ٣٨٣ ؛ وانظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٧ — ٩٨ .
(٢) ابن خلكان، ترجمة باديس بن المنصور، ج ١ ص ٢٤١ .
(٣) انظر احمد النائب، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، ص ٩٨ .

هذا عن طرابلس فى أواخر أيام باديس أما عن برقة فلم تكن بأحسن حالا فلم يستطع أن يضبطها الأخرى • اذ تدل الدلائل على أن الحكومة الصنهاجية لم تكن مسيطرةعليها تماما، وأن هيبةالقيروان لم تكنأكيدة هناك. ففىسنة ٤٠٥/١٠١٤ — ١٠١٥ لم تتردد جماعات عرب برقة فى مهاجمة مركب أميرية كان باديس قد سيرها نحو مصر وهى تحمل هدايا منه ومن أخته أم ملال الى الخليفة الحاكم والى أخته• واستولى المهاجمون الجريئون على كل الأمتعة ولأعلاق النفسية : من الأفراس الأصلية والسروج المزخرفة والخز السوسى المذهب[1] .

وفى هذه الظروف القلقة ظلت العلاقة فاترة مائعة بين القاهرة والقيروان ، رغم محاولات الاصلاح ، كما ظلت الأحوال مضطربة فى ولايتى ليبيا جميعا منذ ان تدخل الحاكم فى أمر طرابلس سنة ٣٨٩/٩٩٩ الى وفاة باديس سنة ٤٠٦/١٠١٦ •

خلف باديس ابنه المعز الذى يعتبر ملكه نقطة التحول الحاسمة فى الموضوع : وذلك أن الصراع السياسى بين الخليفة الفاطمى وبين تابعه الصنهاجى ، هذا الصراع الذى اتخذ على عهد باديس صفة العداء المكشوف واستعمال العنف والقوة فى ليبيا ، اتخذ على عهد المعز شكلا مذهبيا أعمق وأخطر • وذلك أن شعب افريقية اشترك مع أميره وقام الجميع يعارضون المذهب الاسماعيلى الفاطمى ، معارضة صامتة أول الامر ثم علنية بعد ذلك — كل هذا مع الاحتفاظ بالشكليات — وانتهى الامر بالانفصال التام واعلان السنة والمناداة بخلافة بغداد • فبمجرد اعتلاء المعز لعرش بنى زيرى قامت حركات شعبية كبيرة فى القيروان ضد الشيعة ، راح ضحيتها كثير من هؤلاء فى القيروان وفى المهدية[2] . هذه الحركات تبين أنه رغم أن التشيع كان المذهب الرسمى الا أن جمهرة الناس ظلت متمسكة بمذهب مالك، وأنه بعد رحيل الفاطميين لم يعد للتشيع سلطان حقيقى فى البلاد • ففى سنة ٤٠٧/١٠١٦ — ١٠١٧ أى حينما وصل تقليد الحاكم للمعز بالولاية وتلقيبه بشرف الدولة ، كان الشيعة مستترين بأحد أحياء القيروان المعروف بدرب المعلى [3] . والحقيقة أن الانشقاق المذهبى والتمسك بالسنة ظهر بوضوح قبل ذلك وفى بلاط الامراء أنفسهم • اذ يسجل ابن عذارى ، أنه رفع الى المنصور سنة ٣٨١/٩٩١ أن عبدا من عبيده قذف

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٧٥ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٢٣ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

بعض الصحابة فأمر المنصور بقتل عبده وصلب جثته ، وأنه أعلن ذلك على الملأ فى أحياء القيروان وأسواقها[1] . وفى أواخر أيام باديس عندما أراد أن يقتطع من عمه حماد بعض أعماله ويعهد بها الى ولى عهده المعز بن باديس ، وذلك بموافقة الحاكم ، يقول ابن خلدون ان حمادا لم يتردد فى خلع طاعة ابن أخيه فقط بل خلع طاعة الفاطمى أيضا ، فأعلن ولاءه المباشر لخلافة بغداد وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضى عن الشيخين أبى بكر وعمر[2] •

كل هذا يدل على أن السنة كانت قد عادت فعلا الى المغرب عند ولاية المعز ، وبدأت المالكية تستعيد سلطانها المفقود . وعرف الشيعة ذلك منذ البداية، وقدروا خطورة موقفهم فقررت جماعة منهم مغادرة البلاد • ففى سنة ٤٠٩/١٠١٨ — ١٠١٩ خرجت طائفة منهم مهاجرة الى صقلية عن طريق المهدية ، وخرجت معهم قوة من الخيل لحراستهم ، ولكن أهل البلاد فتكوا بهم فى الطريق واستباحوا حريمهم[3] • ولهم تقم القاهرة برد فعل ضد هذا التحرش ، وظل الحاكم والمعز محافظين على الشكليات فالحاكم يرسل الهدايا وعلامات التشريف دون أن يذكرما كان من خصمه الى الشيعة من القتل والاحراق[4] ، والمعز يبعث بأخبار المغرب وانهيار الأمويين أعداء الفاطميين بالأندلس[5] • وبينما نرى الكتاب يسهبون فيما قامت به افريقية من التحرر المذهبى من الشيعة ، لا نجد ذكرا لليبيا فى هذا المجال رغم ما يقول التيجانى من أن الفقيه أبى الحسن على بن محمد بن المنمر الطرابلسى كان أول من أظهر السنة بمدينة طرابلس ، وأنه أثناء مقاتل الشيعة فى افريقية (سنة ٤٠٧هـ) قام العامة ضدهم فى طرابلس ، وقتلوهم فى الوقعة المعروفة بوقعة المشارقة وذلك بتحريض الفقيه أبى الحسن وعلى يديه • ويتابع التيجانى روايته فيقول ان أبا الحسن كان اول من قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن فى ذلك اليوم اذان أهل السنة بنفسه[6] • وهذا الجزء الأخير وما يتبعه من سياق الحديث والأخطاء الواضحة

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .
(٢) انظر فيما قبل هامش ٤٨ ص ٩٧ .
(٣) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٧١ ؛ وانظر
G. Marçais, La Berbérie Musulmane, p. 164.
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٠٦ .
(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨٩ .
(٦) التيجانى، الرحلة، ص ١٩٠ — ١٩١ .

فى التأريخ والتوفيت ، تدل على أن التيجانى خلط بين الأحداث التى وقعت فى بداية عهد المعز بن باديس وتلك التى حدثت بعد أن قطعت الخطبة الفاطمية فى افريقية • والحقيقة أنه خلط بين الفقيه أبى الحسن بن المنمر المتوفى سنة ٤٣٣ / ١٠٤٠[1] وبين الفقيه ابى الحسن بن المنتصر الذى كان فى طرابلس سنة ٤٤٦/١٠٥٤ وصول العرب اليها[2] •

وعلى عكس ما يفهم من رواية التيجانى نرى أن زناته سببت المتاعب من جديد لأمير القيروان فى طرابلس ، وزاد الأمر عما كان عليه الى سنة ٤٠٦/١٠١٥ — ١٠١٦ فانتقل ميدان الصراع من البر الى البحر • أما السبب المباشر لاستئناف الصراع ، فهو أن المعز كان ساخطا على وزيره أبى عبد الله محمد بن الحسن لأشياء منها استبداده وطمعه فى الأموال • ثم أتت الأنباء بأن أخا الوزير وهو عبد الله بن الحسن الذى كان واليا لطرابلس يمالىء زناته وزعماءهم بنى خزرون المجاورين له والمناوئين للدولة• وترتب على ذلك أن تخلص المعزمن وزيره الخائن فقتله سنة ٤١٣/١٠٢٢ — ١٠٢٣ • وعندما وصل هذا النبأ الى طرابلس ثار عبد الله لمقتل أخيه ، وتحالف مع زناته سرا وأدخلهم طرابلس وأعلن العصيان على المعز ، وفتك هو وحلفاؤه من بنى خزرون بالحامية الصنهاجية فى المدينة[3] . وبذلك عادت طرابلس امارة زناتية من جديد • وبدأ خليفة بن وروا الذى تخلص من عبد الله بن الحسن ، فى انشاء أسطول لطرابلس ، فبنى عددا كبيرا من المراكب • وعندما انضم أحد حلفائهم وهو فتوح بن القائد[4] الى جانب المعز الذى ولاه مدينة نقطة من عمل قسطيلية ، خرجت مراكب خليفة من طرابلس لمطاردته سنة ٤١٤ / ١٠٢٣ • وبذلك أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى بأسها ، وكان على المعز أن يتخذ الاستعدادات البحرية الى جانب قواته البرية اذ ما أراد استرجاعها • وفعلا خرج المعز فى نفس السنة من القيروان الى سوسة ، ومنها سار الى المهدية وبدأ فى حشد حملة بحرية برية . فأمر بجمع البحريين والعمل فى اصلاح القطائع واعداد دار الصناعة لانشاء

(١) انظر احمد النائب، المنهل العذب، ص ١٠١ .
(٢) نفس المصدر، ص ١٥ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٣٦ .
(٤) من الجائز أن يكون فتوح هذا ابن القائد بن حماد وان يكون قد اتخذ جانب زناته ضد المعز قريبه فى أول الامر نتيجة للخلاف بين الحمادين فى أشير وبين بنى عمومتهم فى القيروان. فابن الاثير (ج ٩ ص ١٤٧) يذكر عند وفاة حماد وولاية ابنه القائد أن حمادا كان قد اصطلح مع المعز كما أن ابناءه اذعنوا له بالطاعة .

العدد والآلات الحربية اللازمة . وتم الاستعداد حقيقة فى وقت قصير . أما الحملة البرية فانه أمر من تخلف من عسكره باللحاق به فى المهدية حتى يسير الجيش الى جانب الاسطول على طول الطريق الساحلى من المهدية الى صفاقس ومنها الى قابس ثم الى طرابلس • ولكنه عاد وغير خطته فرجع الى القيروان لكى يستوفى رجاله عددهم وما يحتاجون اليه كما يقول ابن عذارى[1] . ولكن ما هو أقرب الى الصحة هو أن زناته وبنى خزرون عندما ثاروا فى منطقة اقطاعهم بقسطيلية ونفزاوة وافسدوا البلاد، جعلوا المعز يغير من خطته فسير اليهم قواته التى فتكت بهم سنة ٤١٥ / ١٠٢٤ حسب رواية ابن الأثير[2] .

هذا الحدث ، وهو تكوين بنى خزرون لأسطول بحرى فى طرابلس ، له أهمية كبرى فى تاريخ الامارة الصنهاجية وتحديد مصيرها ، فهو الذى وجه اهتمامها بصفة جدية نحو البحر ، ونحو احياء مدينة المهدية التى فقدت أهميتها كقاعدة بحرية بعد رحيل الفاطميين • وسار النشاط البحرى بسرعة غريبة ، فبعد سنتين فقط استطاع المعز أن يجهز أسطولا كبيرا بلغت عدته ٤٠٠ قطعة ، حسب قول ابن الأثير ، وسيره الى صقلية لملاقاة القوات البيزنطية التى أرسلها الامبراطور باسيل الثانى ونزلت فى أملاك المسلمين بجنوب ايطاليا وفى الجزيرة • ولكن الحملة كانت سيئة الحظ اذ ثارت بها ريح عاصفة ونوء عظيم فغرق معظمها غير بعيد من الساحل الافريقى[3] • وهكذا لم يكن من الغريب أن تكتفى الامارة الصنهاجية ، بعد غزوة الهلاليين بعد ٣٥ سنة تقريبا بالمناطق الساحلية وان تصبح دولة بحرية أولا وقبل كل شىء •

أما دخول العرب من مصر الى المغرب ، وما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى كل النواحى السياسية والاقتصادية والبشرية ، فانه كان رد الفعل المباشر لاعتراف المعز بن باديس بالعباسيين ، وقطع علاقته بالفاطميين والقضاء على مذهبهم فى افريقية، ولعنهم من أعلى المنابر • وكان ذلك نتيجة طبيعية لسياسة الصنهاجيين الذين أرادوا أن يوطدوا ملكهم على أسس متينة عن طريق توطيد علاقتهم بشعبهم الذى تمسك بسنيته، ولم يقبل «الزندقة» الشيعية منذ البداية • ولقد عبر أحداث القيروان عن

(١) البيان المغرب، ج ١ ص ٣٩٠ — ٣٩١ .
(٢) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤١ .
(٣) ابن الاثير، ج ٩ ص ١٤٥ .

ذلك ، أيام عبيد الله المهدى ، فى بيتين من الشعر تلطفوا فى وصولهما اليه خفيـة ، وهما :

الجور قـد رضيـنا ... لا الكفر والحماقـة
يـا مدعى الغيـوب ... من كاتب البطـاقة ؟

وانتهى الامر الى أن أضرب القيروانيون عن صلاة الجمعة فى المساجد[1] «فرارا من دعوتهم ، وتبديعا لاقامتها بأسمائهم »[2] . وهكذا اضطر المعز الى حسم الموقف ، وعدم التمسك بالشكليات التى لا طائل وراءها ، ولكنه فعل ذلك بكثير من التردد والحذر، خلال فترةاستمرت حوالى ثمانى سنوات. ففى سنة ٤٣٣/١٠٤١ بدأالاتصال بالخلافة العباسية، وأظهر رغبته فى الدعاء لها. وردعليه ديوان الخليفة القائم بالموافقة، وبعث اليه بالتقليد والخلع والأعلام عن طريق القسطنطينية[3] . ولكن ذلك لم يتم بصفة قاطعة الا سنة ٤٤٠/١٠٤٨ ، اذ قطعت الدعوة فعلا للفاطمى وأحرقت بنوده ، ودعى للعباسيين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل لعن بنو عبيد من أعلى المنابر ، ثم محى ذكرهم من السكة فى السنة التالية (٤٤١هـ.) ، ومنع التعامل بالنقود التى تحمل أسماءهم رغم ما أدى اليه ذلك اضطراب الأسواق [4] .

وفى هذه الاثناء حاول الخليفة المستنصر أن يعالج الامر بالسياسة والمداراة كما فعل أسلافه ، فكتب الى المعز يرغبه ويهدده ، ويقول له : « هلا اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء» . ورد الصنهاجى يؤكد حق أسرته فى الاستقلال ، كما فعل جده المنصور عندما خطب فى أعيان القيروان بأشير، فقال فى جوابه : «ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم » واستمر على قطـع الخطبة[5] . وفى سنة ٤٤٣ /

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٢٢١ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠٠ .
(٣) نفس المصدر، ج ٣٩٧ . أما ابن الاثير (ج ٩ ص ٢١٧) فانه يضع ذلك فى سنة ٤٣٥\١٠٤٣ اى بتأخير سنتين، ويضيف الى ذلك قطع الخطبة للعلويين واحراق اعلامهم . ولكن هذا غير صحيح اذ المعروف ان ذلك حدث سنة ٤٤٠\١٠٤٨ حسب ما يفصله ابن عذارى (ج ١ ص ٣٩٩)، وما يذكره ابن الاثير نفسه فيما بعد (ج٩ص ٢٣٥). ولهذا السبب لم يستطع ابن خلكان تفسير هذا التضارب فذكر أن قطع الخطبة تم سنة ٤٤٣ ثم اضاف الرواية التى تقول بقطعها سنة ٤٣٥ ، وعلق قائلا والله اعلم (ترجمة المستنصر) .
(٤) ابن عذارى البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٣ .
(٥) ابن خلكان (ترجمة المستنصر) ، ج ٤ ص ٢١ .

١٠٥١ تقرر اتخاذ اللباس الأسود ، لون العباسيين شعارا للصنهاجيين . فأخرجت الثياب البيض من فندق الكتان ، وصبغت بأحلك سواد ، وقطعت أثوابا ، ووزعت على الفقهاء والقضاة وخطيب القيروان وجميع المؤذنين[1] .

وكان لذلك صداه فى ليبيا جميعا . ففى طرابلس قام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحريض العامة ضد الشيعة واشترك معهم فى قتلهم ، ثم قطع من الأذان « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه كما ذكرناه من قول التيجانى[2] . وفى سنة ٤٤٣/١٠٥١ وصلت الى القيروان رسالة من جبارة بن مختار أمير برقة يعلن ولاءه وطاعته للمعز ، وتفيد أنه وأهل برقة أحرقوا المنابر التى كان يخطب عليهـا للفاطميين ، وأنهم أحرقوا راياتهم وتبرأوا منهم ، كما دعوا لخليفة بغداد القائم بأمر الله[3] .

عندئذ تحطم كل أمل فى ايجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذى كان يوحى فيها لمعز بقتل الشيعة ويرسل بهداياه وآيات خضوعه الى القـاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ولا يذكر ما كان من تابعه الى الشيعة من القتل والاحراق . ولم يقف الامر عند خلع الطاعة بل تعداه الى لعن الفاطميين ، لا على منابر القيروان فقط ، بل على منابر برقة المتاخمة والتى كانت عملا من أعمال مصر . وكان اليازورى وزير المستنصر قد فكر فى اتخاذ اجراء يرد الى الثوار الطائشين فى ليبيا وتونس صوابهم ، وكان انتقامه رائعا ؛ اذ نصح الخليفة الفاطمى بأن يطلق على المغرب جحافل العرب الموجودين فى صحراء مصر الشرقية من قبائل هلال وسليم . وكان هؤلاء قد أرغموا على المسير الى صحراء مصر بعد أن قاموا ــ منذ وقت غير بعيد ــ فيما بين الشام والحجاز ، بأعمال خرقت كل ما تعارف عليه الناس ، وانتهكت كل ما هو مقدس ، مثلهم فى ذلك مثل القرامطة . فتسجل الحوليات التاريخيـة أن بنى سليم خرجوا سنة ٣٥٥/٩٦٦ على الحجاج السائرين من مصر والشام فأخذوهـم ولم يسلم الا القليل[4] . أما بنو هلال فانهم هاجموا الحجاج سنة ٣٦٥/٩٨٦ وقتلوا منهم خلقا

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤٠٥ .
(٢) انظر فيما سبق، ص ١٠٩ هامش ٦ .
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٦ .
(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٢٦ . وانظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١١ .

كثيرا حتى بطل الحاج فى ذلك العام[1] . ووافق المستنصر على الفكرة التى تحقق له ضرب أعدائه بأعدائه ، وسهل لهم عبور النيل ، وقلدهم المغرب وكل ما يفتحون وزودهم ببعض المال والسلاح .

وخرجت هلال وسليم بفروعها من زغبة ورياح والأثبج وعدى ، ولم يأمرهم الخليفة الفاطمى بشىء «لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية»[2] . فكان هؤلاء العرب الذين لم يعهدوا نعمة ، ولا طالعوا حاضرة ، كلما انتهوا الى قرية تنادوا : « هذه القيروان ، ونهبوها[3] » . وبهذا الشكل استقروا فى برقة التى وجدوها مفتوحة أمامهم بعدما تحطمت زناته فى المنطقة خلال الصراع المستمر ضد صنهاجه وضد الفاطميين[4] . ثم واصلوا مسيرهم عبر ليبيا فوصلوا الى طرابلس سنة ٤٤٦/١٠٥٤ — ١٠٥٥ وملكوا المدينة . وواصلت رياح منهم والاثبج وبنو عدى المسير الى افريقية، وعاثوا فسادا فى نواحيها ، ولم يستطع المعز وصنهاجة الوقوف أمامهم أوردعهم . وانتهى أمر المعز الى أن انتقل الى المهدية فى سنة ٤٤٩/١٠٥٧[5] . واستمر العرب فى تقدمهم نحو الغرب ، وبدأوا متعاونين مع الفرع الغربى من صنهاجة وهم بنو حماد فى الصراع ضد زناته بالمغرب الأوسط ، ذلك الصراع الذى سجلته ملحمة بنى هلال الشعبية الشهيرة .

النتيجة الخاتمة

ترتب على تخريب العرب المنظم أن حلت الفوضى السياسية والاقتصادية بعد أن لجأ بنو زيرى الى الاقاليم الساحلية ، وخربت البلاد الداخلية ، مما استند عليه ابن خلدون فى نظريته التى تقول ان العرب — وهو يقصد البدو منهم — لا يتذوقون الحضارة ولا يفهمون المدنية ولا يصلحون لتكوين دولة منظمة . وأدى انكماش الدولة الصنهاجية فى المناطق الساحلية الى اهتمامها بالامور البحرية فوجهت أنظارها نحو صقلية وجنوب ايطاليا . ولكن شاءت الأقدار أن يغزوا النورمانديون الجزيرة

(١) ابن الاثير، ج ٨ ص ٢٥٦ .
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٤١٧ .
(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٤١٨ .
(٤) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٦ .
(٥) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

على المسلمين ، ولم يستطع بنو زيرى الوقوف أمامهم فقبلوا وصايتهم . واستلزم الأمر تدخل المرابطين من صنهاجه الصحراء بحربا ضد النورمانديين فى صقلية . ولكن رد الفعل كان وبالا على الحسن بن على ، آخر بنى زيرى ، اذ انتهى الصراع بأن احتل النورمانديون كل السواحل الافريقية من بونة الى المهدية الى طرابلس . واستتبع ذلك تدخل الموحدين المصامدة ، فأتى عبد المؤمن بن على بجيشه المنظم وطرد النصارى وحمل عرب هلال وسليم الى المغرب الأقصى وضم افريقية حتى طرابلس وبرقة الى أملاكه . وبذلك توحد المغرب جميعا واستقل عن المشرق استقلالا تاما فى القرن السادس الهجرى .

وهكذا كان لليبيا دورها الذى لا ينكر فى تلك الأحداث الجسام التى قررت مصيرها ومصير المغرب لزمن بعيد . فموقعها المتوسط بين افريقية ومصر هو الذى أملى عليها موقفها ازاء كل من حكومتى القيروان والقاهرة . فلما كانت طرابلس داخلة فى حدود افريقية ، وبرقة فى أعمال مصر ، ولما عملت كل من الولايتين باستمرار على التحرر من سلطان الحكومة التابعة لها — مما ترتب عليه استعمال القوة ضدها من جانب الحكومة التى يهمها الأمر أو تدخل الأخرى بشكل انتهازى لتحقيق مغانم عابرة على حساب جارتها — اضطرب أمر البلاد التى أصبحت مجال الصراع السياسى بين جارتيها الغربية والشرقية ، وانتهى الامر بانهاك قوى الجميع . وترتب على ضعف ليبيا أن انكشفت حدود مصر الغربية وحدود تونس الشرقية . وبذلك عملت ثورة برقة فى أول الأمر على تسهيل دخول كتامة الى أرض مصر ، كما قررت ثورتها الاخيرة اطلاق قبائل العرب عليها . وكذلك كانت الحالة بالنسبة الى طرابلس فهى عندما خرجت على الزيريين تشجع الفاطميون وتدخلوا فى أمورها مما ساعد على قيام بنى خزرون فيها . وكانت نتيجة هذا الصراع الدائم أن تبددت قوى قبائل لواته وهوارة وزناته فى ليبيا وانفتحت البلاد على مصراعيها أمام بنى هلال وبنى سليم الذين استقروا فيها وعربوها واندفعوا منها يعربون افريقية والمغربين . ثم ان انشاء بنى خزرون لأسطولهم فى طرابلس هو الذى دعا الزيريين الى اعادة مجد المهدية

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهلاليين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد و تحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقى الخارجى والصفات الجسمية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بصدد تصنيفهم للسلالات البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للتفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة[١]، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر[٢]، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس[٣] الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه[٤] أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الانتروبولوچى الى الاستعانة بتحليل

---

(١) Leucodermi بيض البشرة
Xanthodermi سود البشرة
Melanodermi صفر البشرة
يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد فى أعماق البشرة

(٢) Leiottrichy الشعر المستقيم
Cymotrichy الشعر الموج
Ulotrichy الشعر المفلفل

(٣) Caphalic Index
Dolicho Cephalic الراس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥
Meso Cephalic الراس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠
Brachy Cephalic الراس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠

(٤) Prognathism and Orthognathism.

الساحلية نحو البحر ، ذلك النشاط الذى اتخذ فى كثير من الأحيان صفة الجهاد البحرى ، وجاء استيلاء الهلاليين على البلاد الداخلية فوجه نشاط معظم المدن ضد أوروبا حتى العصر الحديث .

النظرية العنصرية

— نقد و تحليل —

الدكتور احمد الخشاب

تمهيد

يفرق علماء الدراسات الانسانية بين المجموعات البشرية على أساس المظهر الفيزيقى الخارجى والصفات الجسمية والمميزات الحيوية لهذه المجموعات . ولم يستطع الباحثون أن يتفقوا بصدد تصنيفهم للسلالات البشرية على أسس ثابتة محددة ، ومن أجل هذا نجد عدة تقسيمات للناس : كل منها بحسب الصفة أو الصفات التى يتخذها العالم أساسا للتقسيم . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أن أهم المميزات التى تستخدم للتفرقة بين المجموعات الانسانية المختلفة تدور حول .

(١) لون البشرة[١]، (٢) لون الشعر ، (٣) شكل الشعر[٢]، (٤) لون العين .

(٥) نسبة عرض الرأس[٣] الى طولها ، (٦) نسبة عرض الأنف الى طوله ، (٧) توزيع شعر الجسم (٨) طول القامة . (٩) درجة بروز القسم الأسفل من الوجه[٤] أو عدم بروزه .

(١٠) ثم أخيرا فى وقتنا الحاضر يتجه علماء الانتروبولوچى الى الاستعانة بتحليل

(١) Leucodermi — بيض البشرة
Xanthodermi — سود البشرة
Melanodermi — صفر البشرة
يتوقف اختلاف لون الجلد على مقدار الحبيبات الملونة التى توجد فى أعماق البشرة

(٢) Leiottrichy — الشعر المستقيم
Cymotrichy — الشعر الموج
Ulotrichy — الشعر المفلفل

(٣) Caphalic Index
Dolicho Cephalic — الرأس طويلة اذا نقصت النسبة عن ٧٥
Meso Cephalic — الرأس متوسطة اذا كانت النسبة ٧٥، ٨٠
Brachy Cephalic — الرأس عريضة اذا زادت النسبة عن ٨٠

(٤) Prognathism and Orthognathism.

الدم ومعرفة فصائله للتعرف على السلالة .

هذا ولم يعتمد علماء الانتروبولوچى على صنف واحد من تلك المميزات الجسمية فى تصنيف السلالات البشرية ، وانما اعتمدوا على تركيب أو جملة عدد منها . ومن هنا تباينت وتعددت تقسيماتهم . فنجد لينـاؤس وهو أول من حاول تقسيم الاجناس تقسيما علميا على أساس جغرافى يقسم البشرية الى ثلاثة أجناس . بينما قسمها كل من «سانتهلير وليبنتز » و « كانت » الى أربعة ، وصنفها بلومنباخ الى خمسة اعتمادا على لون البشرة وتقاطيع الوجه وشـكل الشعر والرأس وأخذ يتزايد عـدد هذه التصنيفات ، فقسمها « يافون » الى ستة أجناس ، وصنفها « برتشارد » الى سبعة ، و «أجاسيز» الى ثمانية . ثم قفزت على يد كل من »بيكرنج» وهايكل وموللر[1] Pikering ; Haekel ; Muller الى احدى عشر ، وبورى[2] Bory St. Vincent الى خمسة عشر ، وتوبينارد[3] Topinard الى ثمانية عشر ، ومورتن[4] Mortan الى اثنين وثلاثين .

وصنفها روجرى[5] Ruggeri فى ثمانية أجناس وثلاثة وأربعين فرعا ، بينما اعتبر هادن[6] C. Haddon الاجناس الأصلية ثلاثة منقسمة الى ستة وثلاثين فرعا ، وقسمها كراوفورد[7] Crawford الى اثنين وستين مجموعة بشرية . بل وصـل تقسيم هـذه المجموعات الى مائة وعشرين فرعا فى مؤتمر عقد للدراسات الانتروبولوچية ، وأخيرا زاد العالم الامريكى جليدون[8] George R. Gliddon عدد فروع العائلة البشرية الى مائة وخمسين فرعا .

واختلاف علماء الأجناس على هذا الوجه يثير الشك فى صحة الرأى القائل بتعدد أجناس البشر أصلا ، كما أن الاختلافات الظاهرة بين اصـناف الجنس البشرى لا تقوم على قواعد ثابتة أصيلة .

هذا فضـلا عن أن هـذه التصـنيفات لا تنطبق وواقـع الأجناس أو الفروع

(١) Pickering, Haeckel, Muller
(٢) Bory St. Vincent
(٣) Topinard
(٤) Mortan
(٥) G. Ruggeri
(٦) Grawford
(٧) Haddon
(٨) G.R. Glidden : Origin & Race
C. Weatherford : Race Relations

السلالية ، فيندر أن تتمثل المقاييس الجسمية فى فرد أو فى جماعـة ما تمثلا كامـلا بشكل نموذجى حتى يسهل معه تطبيق هـذه المقاييس ورد الأفراد الى أصولهـا السلالية ، أو نسبتها الى أجناسها الأصلية .

وكان من المحتمل أن يكون الأمر أبسط من ذلك لو أن كل سلالة التزمت الاستقرار فى بيئتها التى اكسبتها صفاتها الفيزيقية المميزة لها ، ولكن الذى حدث فعلا أن هجرة الاجناس من بيئتها تحت ظروف طبيعية وبيئية واجتماعية ـ اقتصاديـة كانت او سياسية ، قد مكنها منذ فجر الانسانية من الاختلاط والامتزاج بعضها بالبعض الآخر فأصبح من العسير أن نعثر على جنس نقى يحتفظ بخصائصه الأصلية ، وبالتـالى فان محاولة تشخيص الجنس أو السلالة غدت من باب الأفكار الذهنية التى تجردت عن تجسداتها الفردية ، وأطلقت للتقريب والتعميم والتجريد على تفريعات المجموعات البشرية التى تكتسب مظهرا متحدا .

ومهما يكن من امر تنوع تصنيفات السـلالات فان العلم ينظر الى أفراد البشر نظرته الى كائنات حية تنتقل فيها المورثات[1] Genes من الأصول الى الفروع بنسب متفاوتة ، فضلا عن أن تلك المورثات تعتريها الطفرات الفجائية[2] Mutatinons التى تجعل من التركيب الفسيولوجى للاجناس تركيبا ديناميكيا . ويترتب على ذلك أن تصبح تلك التصنيفات متبدلة غير ثابتة .

ـ الآراء الفلسفية والسياسية فى التفاوت العنصرى ـ

والذى يعنينا بوجه خاص هو أن التفرقة بين المجموعات الانسانية تقترن عـادة بأحكام تقويمية تقديرية مؤداها أن الصفات الفيزيقية تدل على تفوق أو انحطاط نفسى أو اجتماعى للمجموعة البشرية التى تتميز بها .

وقد جرت عادة غالبية المفكرين من فلاسفة واجتماعيين على التسليم بالافكـار المتعلقة بالتمايز العنصرى وقد اتخذت هذه الافكار فى أطوارها الأولى مظهر الشعوبية التى كانت مألوفة بين المجتمعات التاريخية المتحضرة لا سيما مصر والفرس واليونان والرومان ، فمما يؤثر عن المصريين القدماء أن أحد الفراعنة قد أقام نصبا على حدود النيل الجنوبية ، ليمنع أى « زنجى » من عبور هذا الحد ، وقد عد هذا أقدم أثر

(١) المورثات أو الصبغيات Genes
(٢) الطفرات Mutations

تاريخى لاثبات التمييز العنصرى ضد الزنوج العبيد[1] • وكان اليونان والرومان يقسمون العالم ممن عداهم قسمين : قسم يسمونه بالبرابرة ، وهى الجماعات التى لم يعرف لها تاريخ أو يؤثر لها حضارة ، وقسم يسمونه بالجنتيل[2] Gentiles ويحوى كل الشعوب الأخرى التى من جنس دون الجنس الرومانى • وعن الرومان أخذ اليهود والمسيحيون هذا اللفظ ولكنهم صبغوه بالتمييز على أساس دينى ، فأطلقه اليهود على جملة الشعوب غير الاسرائيلية ، وأطلقه المسيحيون على جملة الجماعات غير اليهودية ، وغير المسيحية ، وفى مقابل ذلك نجد تعصبا شعوبيا من جانب الفرس باعتبارهم أصحاب سيادة وتفوق على الشعوب التى دانت لهم من العرب والآراميين والعبريين ، وبالتالى يقابل هؤلاء بالتعبير عن تفوقهم الشعوبى اما بالفخر بفصاحة اللسان وعراقة الانسان ، فجاء التمييز بين العربى والعجمى ، واما الاعتزاز بالسمو الدينى والروحى مما يظهر جليا فى زعم الشعب الاسرائيلى بانه شعب الله المختار ، بل ان سفر التكوين قد تضمن بذور التمييز العنصرى فى حكمه على أبناء كنعان باللعنة والاستعباد[3] •

ومما يجدر الاشارة اليه أن ما ورد فى سفر التكوين بصدد أولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث والشعوب التى انحدرت من كل ولد منهم ، كان من أول الدعائم لتقسيم الاجناس البشرية مع ملاحظة أن سفر التكوين قد اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية اكثر من اعتماده على الصلات الفيزيقية والبولوچية التى يتخذها علماء الانتروبولوجيا أساسا لتصنيف المجموعات البشرية • هذا الى ان روايات وانساب التوراة كان لها أثرها فى التعصب القبلى بين العرب ، تعصبا يقوم على التفاوت العنصرى ويظهر هذا جليا فى التمييز بين بدو الشمال وعرب الجنوب على أساس ان العرب فى تسلسلهم من جدهم الأعلى سام بن نوح يتبعون فرعين منفصلين : فأهل الشمال منحدرون من عدنان المتناسل من اسماعيل وأهل الجنوب يرجعون فى تسلسلهم الى قحطان بن عابر • ويختلط هذا التصنيف مع تقسيم العرب الى عرب عاربة وعرب مستعربة والى تقسيمهم[4] الى الحمس والطلس والحل، ونجد ان

(١) Juan Comas : The Race Question in Modern Science ; Racial Myths
(٢) Pharoth : Sesotris III, (B.C. 1887 1849) Unesco 1951
(٣) Ibid : (h) General Observations on Racial Prejudices & Myths
(٤) ابن حبيب ـ المحبر ص ١٨٠

بعض مفكرى العرب قد عرض لموضوع التمايز العنصرى ، نقد أشار الجاحظ[1] فى كتابه الحيوان الى هذا الموضوع فى كلامه عن النتاج المركب فيحدثنا عن «الخلاسى» من الناس وهو الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء ويكون عادة أعظم وأقوى من أبويه، ويتكلم عن «البيسترى» من الناس وهو الذى بين الأبيض والهندى ولا يكون يكون فى قوة أبويه ولكنه يكون أجمل ملامحا • • •

ولقد حارب الاسلام فكرة العصبية القبلية ، الا أن النظم الاسلامية لم تستأصل جذورها من نفوس العرب ، فقد راعاها الخليفة فى أعطيات الخراج[2] ، كما أنها برزت فى عهد الأمويين ، وظهرت الشعوبية فى عهد العباسيين ، وأدى ذلك الى ايجاد طوائف عربية مصطفاة تمتاز بشرف الدم وقرابتها للرسول (صلعم) أو أهل البيت وأصبح لهذه الطوائف حقوق اقتصادية وسياسية تتمتع بها جماعة الأشراف الذين ينتمون الى جنس عربى مختار أو مصطفى بالرغم من أن دعوة النبى (صلعم) كانت لا تفرق بين العربى والأعجمى ولا بين القرشى والحبشى الا بالتقوى •

وقد ذهب الكثير من المفكرين الى التسليم بالآراء المتعلقة بالتمايز العنصرى ، بل وحاول اغلبهم من فلاسفة واجتماعيين تبريرها بدون اخضاعها للدراسة العملية النقدية التحليلية الصحيحة• وقد تجلت هذه النظرة فى عدة اتجاهات فلسفية وفكرية نذكر منها على سبيل المثال :

أولا : الآراء الميثولوچية والثيوقراطية البدائية التى صورت العناية الالهية وقد أودعت فى الطبيعة البشرية نزعة الاستعلاء العنصرى اذ أنها تؤثر جنسا معينا بالرعاية وتعاهده على السيادة وفى ثنايا هذا الاتجاه الفكرى نجد البذور الأولى التى اختلطت فيها فكرة التفوق العنصرى بالسيادة والسلطة وامتزجت بفكرة التقديس والألوهية ويتمثل هذا فى الاساطير المصرية القديمة التى تصور حكام مصر الاقدمين من الآلهة العظام أو أنصاف الآلهة ، أى أنهم أسمى طبيعية وأرقى عنصرا

(١) الجاحظ ـ الحيوان حـ ١ ص ١٥١
(٢) أبو عبيد القاسم : الاموال ص ٢٢٣ الماوردى : الأحكام السلطانية حـ ؛ ص ٣٥٢ ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى هاشما من قريش واصطفانى من بنى هاشم •

من الرعايا المحكومين ، ونجد مثل هذا الزعم فى تعاليم مانو اذ تصور حكـام الهند بأنهم أنصـاف آلهة فى أثواب انسانية مما يجعلهم أسمى من سائر الأفراد العاديين وهم بطبيعتهم مزودون بالجواهر القدسية المعروفة بأسماء ڤارونـا واندرا وأجنى Agni, Indra, Varonna ويرى العالم الانجليزى هوكارت[1] Hocart أن لفظ فارونا يؤدى فى مفهومه الأصلى ما يؤديه لفظ رادكس radix الذى اشتـق منه العلامة فينو Jean Finot مصطلح « الجنس » بالمعنى الذى استخدمه فيه كل من بوفون Georges Buffon وتاوت François Tout وسانت هلير Geoffry Saint Hilaire وجيمس برتشارد James C. Prichard .

وقد ذخرت الميثولوچيا اليونانية بأقاصيص تبين أن النظام الاجتماعى عند قدماء اليونان كان يقوم على أساس طبقى ثيولوچى : فى قمة الهرم الاجتماعى الآلهة وهم يشبهون البشر فى صفاتهم وفى تكوينهم الجسمى ويتولون شئون القوى الكونية ، ويأتى بعدهم فى السلم الاجتماعى أنصاف الآلهة وهم أدنى منزلة من الآلهة ، ثم يجىء اليونان الأول الذين ترجع اليهم الأساطير الفضل فى نهضة اليونان فى مختلف شئون الحياة وتفوقهم على ما عداهم من الشعوب ، ثم يأتى بعد هذه الطبقات فى المنزلة طبقة الشعب من بنى الانسان من نسل Epimethée (الانسان الأول) وباندور "Pandore"(المرأة الأولى)[2] .

وقد ساد هذا الاتجاه الثيوقراطى ـ فى تعليل التفاوت العنصرى ـ المجتمعات السامية ، واستغل الانسان الدين الروحى فى تبرير استعمار الاوروبيين للشـعوب الأخرى الملونة ، وقد لجأت الشعوب الاستعمارية الى نص دينى ورد فى العهـد القديم لتستند اليه فى استغلال جهود تلك الاجناس ، وذلك النص هو الذى يشير الى أنه قد قضى على أولاد حام أن يكونوا قاطعى أخشاب وأن يعملوا فى رفع الماء وحمله[3] ، واستخلصوا من ذلك أن الشـعوب الملونة قد كتب عليها القيام بأعمال

(١) Hocart : Caste in India 1950. Hutton : 19 III. Caste in India, 1946

(٢) Homére : L''Iliada & : l'Odyssée
Hésiade : La Theogonie Epimetheé, Pandore,

(٣) ومعنى ذلك أن السيادة والحكم أمور تقتصر على فيئات من الناس زودتهم الطبيعية بمعادن نفسية وجبلة خاصة ، أما الآخرون من الفئات المحكومة والمغلوبة على أمرها ، فقد كونت تكوينا طبيعيا يحرمها من ممارسة أى نوع من مظـاهر السلطة . فقد كتبت الطبيعة على البعض بالحكم والقيادة وعلى البعض الآخر بالانقياد والطاعة .
Plato : The Republic. (translated by A.D. Lindray. Book P. 415 416

السخرة لخدمة الجنس الأبيض ، وليس لها من سبيل للتحرر مما قضت به المشيئة الالهية ، وبهذا أخرجوا النصوص الدينية عن القصد الذى تهدف اليه بما يحقـق لهم أغراضهم الاستغلالية .

هذه الافكار الميثولوجية تنطوى على ظاهرة باثولوجية مرضية ، يمكن فهـم مصدرها البدائى من طبيعة مقومات التكامل الاجتماعى ، اذ يبدو أن كيان الجماعة وتماسك وحدتها ، كان مرتبطا بالتعصب لمقومات جنسها ، بل وبتقديسها لعنصرها. ويظهر ذلك واضحا بتحليلنا للعقائد التوتمية[1] التى تسود الجماعات المتخلفـة فى الحضارة ، فالتوتمية تفترض الاتجاه الجوهرى بين الفصيلة الانسانية وتوتمهـا ، وتقديس التوتم يرجع الى الاعتقـاد بانحدار أصـولهم عنه ، أى باعتباره أصـلا لجنسهم ، ولذلك فان كثيرا من الطقوس الدينية البدائية تقصد الى تغذيته وتقوية المبادىء التوتمية التى تعتبر حاملة لمبدأ الحياة ، مخلدة للجنس ، لازمة للانسـال والتكاثر فى الجماعة . ومن ثم يستبعد من مجالات تلك الطقوس الجماعات والافراد الذين يحملون تواتم مغايرة ، لأنهم من فصائل بشرية اخرى تبعا لتواتمهم ويجب درء خطرهم وتجنب مخالطتهم وخاصة فى تلك المناسـبات الدينية التى لها شأنهـا والتى يرتبط كيان الجماعة بها .

ولئن كان «دركهيم» قد انتهى من تحليله للحياة الدينية عند القبائل البدائية الى أن أول ديانة انسانية هى عبادة الجماعة لنفسها[2] ، فاننا اذا تبينا منهجـه التحليلى أمكننا ان نستخلص ان تقديس الانسانية الأولى لم يكن للجماعة فى ذاتها وانما كان لجنسها ، ويستقيم هذا الزعم مع الناموس الحيوى فى الحرص على البقاء .

ثانيا : نظرية أفلاطون فى تمييزه معادن الناس وطبقاتهم ، اذ جرى على لسانه فى دستور مدينته الفاضلة بلغة ميثولوجية ان الاله ، وضع فى طينة بعض المواطنين ذهبا، ليمكنهم أن يكونوا حكاما ، وهؤلاء هم الاعلى مرتبة والأكثر احتراما ، ووضـع فى جبلة مساعديهم فضة ليأخذوا مركزا أدنى من السابقين ، أما طبقات الشعب من

(١) التوتم Totem عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد ، تتخذه العشيرة رمزا لها ولقبا لجميع افرادها ، وتنزله منزلة التقديس ، وتعتقـد ان كيانهـا الاجتماعى مرتبط به لانه يؤلف معها وحدة اجتماعية متكافلة

(٢) E. Durkheim : Les formes elementaires de la vie religiouse, Paris 1925

الزراع والعمال فقد وضع فى جبلتها حديدا ونحاسا[1] .

وهكذا يقسم الناس الى طبقات وفقا لمعادنهم أو عناصرهم .

ثالثا : وكذلك آراء أرسطو فى الرق والاستعباد اذ يعتقد ان الطبيعة قد أعدت شعوبا للتفوق والسيادة ، وخصت الأخرى بالانحطاط والعبودية .

وهذا الاتجاه لم يكن قائما على أساس التعصب العنصرى بالمعنى المألوف فى وقتنا الحاضر ، الا أن آراء أرسطو تعتبر تبريرا لذلك الصراع الشعوبى الذى كان سائدا بين الشعب اليونانى من ناحية وسائر الشعوب الأخرى التى أطلق عليها اليونان اسم البربر معارضا بذلك آراء السوفسطائيين الذين استغلوا قوة جدلهم الكلامى فى دحض مبررات العبودية العنصرية ، ولا شك أن آراء أرسطو لم تصادف قبولا لدى المدرسة الرواقية التى مجدت العدالة الانسانية والمساواة العنصرية . وهذه النظرة لم تقم على اساس علمى سليم ، غير أنها كانت ترجمة لمنطق تلك المرحلة العبودية التى مرت بها المجتمعات الانسانية حين كان ينظر الى المنازعات العنصرية على أنها أمور طبيعية ، ولم ير أنصار العنصرية اذ ذاك أنها ظواهر تاريخية اجتماعية وانما نظروا اليها على أنها أمور محتومة لا سبيل الى تسويتها الا بطريق التوافق الطبيعى الذى يتم باستسلام الاجناس المنحطة لسلطان الاجناس الراقية .

وغنى عن البيان أن آراء أرسطو كانت نواة للأفكار التى سيطرت على أصحاب المذاهب الطبيعية فى تفسير وتبرير التفاوت بين الاجناس على أساس التكوين الفطرى والانتقال الوراثى لصفات المادة الحيوية من الأصول الى الفروع ، فالطبيعة قد أعدت كل جنس اعدادا خاصا ، وشكلته على نحو معين ، وأمدته بعناصره الأصيلة متمثلة فى غرائزه الكامنة واستعداداته الفطرية التى تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل فى الجنس النقى الذى يحتفظ بخصائصه المميزة مهما تعاقبت عليه الأجيال ، ومن هنا كان التفاوت أمرا محتوما ودائما ولا سبيل الى التخلص منه[2] .

رابعا : وقد تولد عن التبرير الثيولوجى للتفاوت العنصرى والذى سبقت الاشارة

(١) جمهورية افلاطون ص ٩٠ دستور المدينة

(٢) اعتنق هذا الرأى فريق كبير من العلماء وعلى رأس هذا الفريق Henry Houssey وأوجست كونت A. Conte وهربت سبنسر H. Spencer Fontenelle وشوبنهور وجالتون Galton

اليه ، تيار معارض كان نتيجة لمعارضة بعض رجال الدين لا سيما الدين المسيحى[1] ، فى تفسير النصوص الدينية تفسيرا استغلاليا مغرضا ، وأيد هذا الاتجاه المعارض اخضاع الدراسات المستوحاة من الكتاب المقدس للمنهج المقارن ومحاولة كثير من المفكرين تصور الحالات البدائية للمجتمعات المتخلفة فى الحضارة والتى كان يطبق عليها جماعات المتوحشين البرابرة . وفى مقدمة الباحثين بهذا الصدد ديمودين[2] وفروبن[3] وسبنسر[4] J. Spener, Frobein, De Modene وقدألف الاخير كتاباقيما عن العادات والتقاليد الخاصة باسرائيل يعتبر مصدرا للمقارنات بين شعب اسرائيل المختار والشعوب الأخرى التى تحدث عنها الكتاب المقدس .

خامسا : وكان من نتائج اكتشاف الدنيا الجديدة ومعرفة شعوب أمريكا من الهنود الحمر والسكان الأصليين أن اتجه التفكير الى تشبيه تلك الشعوب ومقارنتها بالشعوب التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس ويظهر هذا واضحا جليا فى كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتاى Montaigne(١٥٣٣ — ١٥٩٢) . ومن الظريف أن الناقد لانسون[5] Lanson قدعلق على كتابات الفيلسوف الفرنسى مونتسيكو وبقوله أن شعوب الله وشرائعها المنزلة قداحتلت فى كتابه مكانا ضئيلا بالنسبة لشعوب أمريكا المتوحشة وشعوب جزر المحيط الهادى المتبربرة « وكذلك سيطرت هذه النزعة على كثير من المفكرين ممن دعوا للحرية والمساواة والاخاء الانسانى ، فنجد مثلا ان ڤولتيره Voltaire يدعو الى القضاء على مظاهر الاضطهاد العنصرى ولا يؤيد التمايز الجنسى، فذلك انحراف اجتماعى لا يتمشى فى نظره مع العقل كما انه ينافى الفضيلة التى يجب أن يتحلى بها الانسان المتحضر والتى يجب ان يرعاها فى معاملاته وعلاقاته مع الاجناس الاخرى المتأخرة أو المتخلفة فى الحضارة . ومهما يكن من أمر الدعوة التى وجهها ڤولتير فى مناهضة التمايز العنصرى فلا شك أن آراءه ترتكز على الاعتقاد بأن هناك أجناسا متأخرة تمتاز بالتوحش والهمجية وتتنافى عاداتها وتصرفاتها مع الأذواق السليمة ومع

(١) J. Dottin : Les Anciens Peuples de l'Europe. 1916 P. 25 - 32.

(٢) De Modene : Ceremonies et coutumes qui s'observent chez les Juifts

(٣) Frobein: Les Antiquités Judaiques 1545.

(٤) J. Spencer : De Legibus Hebraeorum Ritualibus . et Forum Rationibus (Cambridge 1686) & R. Linton : The Study of Man, N. York 1934.

(٥) Voltaire : Philosophie de l'Histoire P.P. 7,9, 23 (Dictionaire : Egalité)

الأوضاع العرفية والقانونية التى تسيطر على المجتمعات المتمدنة الراقية بل انه غالى وجانب الصواب فى وصفه لقبائل الايروكوا Iroquois بأنهم من أكلة لحوم البشر وآية ذلك أن فولتير لم يتجرد من النزعة المعيارية والأحكام التقديريـة وعارض التمييز العنصرى على أساس خلقى وان لم يكن يعارضه على أساس علمى واقعى ، وما يؤخذ عن فولتير فى هذا الصدد يمكن أن يؤخذ على العلامة روسو[1] J.J. Rosseau حين حاول أن يتصور الحالة الفطريـة التى مرت بها المجتمعات الانسانية بطريـق التخمين فتعرض لجماعات متأخرة وصفها بأنها متوحشة ومنحطة كجماعة الهوتينتوت Hottentot من أقوام افريقيا ، والأروكوا من أقوام أمريكا ، وان كان قد تأثر بما كان يرويه رهبان الجزويت عن طيبة الاقوام المتأخرة (Le Bon Sauvage)

ويمكن القول بصفة عامة أن آراء هذه الطائفة من المفكرين قد أعوزتها البيانات الصحيحة ، كما أعوزها المنهج الموضوعى الواقعى السليم ، وكان التخمين والخيال يقوم فيها مقام الملاحظة المنهجية • ولم يتجرد هؤلاء المفكرون من أهوائهم الشخصية وأحكامها التقديرية بل لم يكن قصد الكثير منهم دراسـة وفهم حقيقة التفـاوت العنصرى بقدر النقد والسخرية والتهكم[2] • على أننا لا ننكر أن الاتجاه الفكرى العام لهذه الطائفة بدأ ينحو نحو الدعوة للتقليل من شأن التفاوت العنصرى أو محو آثاره على أساس أن ذلك الموقف يعتبر فضيلة من الفضائل • ويظهر ذلك من ثنايا كتابات مونتاى Montaigne عن هنود البرازيل (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) وفى دعوة كل من فولتير (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) وجان جـاك روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) وبيفون Buffon (١٧٠٦ ــ ١٧٨٨) للمساواة بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، ولعل هـذا الفريق يمتاز تميزا واضحا عما ذهب اليه بعض فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال دافيد هيوم Hume (١٧١١ ــ ١٧٧٦) وتين Taine (١٨٢٨ ــ ١٨٩٣) ورينان Renan (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢) الذين أنكروا تساوى الاجناس البشرية فى قدراتها وملكاتها[3] العقليـة واستبعدوا أن يكون الزنجى أو الهندى مساويـا للنوردى Nordic •

(١) J.J. Rousseau : Discours sur l'Inégalité p. 176

(٢) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

(٣) Goldenweiser : Antropology N. York 1937 P.P. 364-366

سادسا : وترجع طائفة من المفكرين فكرة التفرقة العنصرية الى عوامل تاريخيـة واجتماعية نشأت عن هجرة اجناس واستقرارها فى أو اغتصابها لبلاد تسكنها أجناس أخرى • فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم الحضارى ويحرم منها الاقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التى يغلها بها • ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاجتماعية والحضارية للعنصر القاهر فى الوقت الذى يتردى السكان الاصليون فى الحضيض والتأخر، وكلما أمعن الزمن فى المضى على تلك الحال كلما بدا للعيـان أن الأقوام الغالبة القاهرة تمتاز بخصائص نفسية وعقلية عن تلك الأقوام المضطهدة المقهورة • هذا ويقوم طائفة من الكتاب الذين ينتمون الى العنصر المتحكم بتصوير هذه الفوارق المصطنعة على أنها فوارق أصيلة مرجعها تفوق عنصرهم فى مقوماته وخصائصه على العنصر المغلوب ولهذا آثاره النفسية الاجتماعية على الشعب الأصلى ، اذ أن غرس هذه الآراء يؤثر على سيكلوجية هؤلاء الأقوام ويجعلها تدين بالطاعة والاستسلام لحكم الواقع باعتباره أمرا محتوما • بل كثيرا ما يتضافر العامل الثيولوجى مـع العامل الاثنولوجى فى تأييد وتدعيم سيطرة عنصر على عنصر آخر بحكم أن هـذه الفوارق مرجعها مشيئة الله وحكم الطبيعة • وأبرز مثال على ذلك نظام الطبقـات فى الهند ، فالباحث المدقق يستطيع أن يقرر أن هذا النظام قام على أساس تفاوت عنصرى ثم صورت المانوية هذه التفرقة على أنها من وحى الاله براهما نفسه ، فقد أرادت مشيئته أن ينقسم المجتمع الهندى[1] الى الطبقات الآتية :ــ

(١) طبقة رجال الدين أو البراهما وتمثل هذه الطبقة رأس الاله واغلب الظن ان هذه الطبقة ترجع الى هجرة الدرافيديين Scytho-Dravidians قبل سنة ٢٠٠ ق•م• واستيلاؤهم على السكان الأصليين ، قد مكنهم من الاستئثار بالنفوذ والجاه والطهارة والنقاوة ، ويمكن القول بصفة عامة أن الطبقات العليا جنوب الهند تمثل الصفات الدرافيدية الأصلية[2] كما ان الطبقات العليا بسهول الهندستان تمثل العنصر الهندى الآرى •

(١) ابراهيم رزقانه العائلة البشرية ص ١٩٣ ــ ١٩٥ ، ١٩٦
وهو لا يختلف كثيرا عن جنس البحر الابيض المتوسط ص ١٩١ المرجع السابق.

(٢) Jacob & Storn : Outline Antropology P. 587. 1948 & The Living Races p. 48-49

(٢) طبقة المحاربين Kchatryas أو الكشاترية وتمثل ذراع براهما وتنسب هذه الطبقة الى الجنس القوقازى Homo Caucasicus

(٣) طبقة التجار والصناع وتمثل فخذ براهما ويمكن نسبتها الى العنصر الفيدى Veddoid Caucasoid أو عنصر الفدا •

(٤) طبقة العبيد والأرقاء التى تمثل قدم براهما وتعرف باسم السودرا Soudra

(٥) ويوجد الى جانبها طبقة الباريا أو المنتوذين وترجع أصولها الى القبائل الوطنية التى كانت تسكن الهند قبل هجرة الدارفيديين مثل قبائل شاندرا Chandra والسكاى Sakai والسينوى Senoi والبنيان Paniyan

ويبدو أن نظام الطبقات الهندى[1] قد نشأ اولا بين المجموعتين الجنسيتين الكبيرتين : ما قبل الدارفيديين (والسكان الأصليين) والدرافيديين ، والآريين ثانيا ، ومما ساعد على تأصل هذا التمايز الحاجز اللونى اذ أن البيض كانوا يحتقرون السود ويعتبرونهم أقل منهم مرتبة • هذا الى ان المنزلة الاجتماعية لكل طبقة قد تطورت تبعا لظروف الحياة الاجتماعية ، فنجد مثلا أن الزعامة كانت لطبقة الكاشاتريه المحاربة اثناء الحروب الوطنية التى نشأت بين السكان الأصليين والنازحين المهاجرين• ولا شك أن خوف الأجناس النازحة الى الهند على خصائصهم المميزة لعنصرهم كان أهم حافز لهم على وضع نظم تابو Tabou (مرمات مقدسة) عارمة تحرم عليهم التزاوج أو الاختلاط بغيرهم من الأجناس الأخرى لأن ذلك قد يؤدى الى انحطاط خواصهم العنصرية • وقد ترتب على ذلك قيام نظام طبقى ثم تطور هذا الأساس فأصبح المولد هو الذى يحدد مركز الفرد الاجتماعى والطبقة التى ينتمى اليها • على أن هذا التحليل لا يحملنا على التسليم بأن هذه العناصر الانثولوجية ظلت نقية صافية اذ أن الثابت أنه حدث اختلاط بين الاجناس من جل الطبقات، فمثلا الراجبوت والطبقات العليا الذين ينتمون الى العنصر الهندى الآرى لا يمكن أن يوصفوا بالنقاوة المطلقة بل امتزجت بهم دماء أخرى من السكان القدماء بشمال الهند ثم

(١) مصطفى الخشاب : تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ص ٢٧ ــ ٣١ ابراهيم زرقانه المرجع السابق ص ١٦٢

(٥) Chanda, Sakai, Senoi
Panyian
Tabou

من الغزاة الذين أتوا بعدهم ، على أن الملاحظ بصفة عامة أن الطبقات العليا اكثر نقاوة تتلوها الطبقات المتوسطة ثم الطبقات الدنيا ، ويرجع هذا الامتزاج الى ان القيود الاجتماعية ونظم التابو لم تتخذ شكلها النهائى فى الصرامة والدقة الا بعد تطور أتاح فرص المزج•

ويبدو ان التمايز العنصرى بين السكان الأصليين والغزاة الفاتحين والمهاجرين الغاصبين للسلطان ، كان مألوفا عند اليونان والرومان فى القرون الأولى ، فيشير العلامة دى كولانج[1] Fustel de Coulonges فى كتابه المدينة القديمة الى أن طبقة السوقة أو الدهماء[2] Plebs لم تكن تكون عنصرا من عناصر الشعب populus فى الأصل • ومع أن الكتاب الأقدمين لم يلقو ضوءا على التكوين الأول لهذه الطبقة الا أن المرجح أنها كانت تتألف من السكان الاصليين الذين غلبوا على أمرهم ، وكانت هذه الطبقة منفصلة عن الموالى والعبيد Thétes وكانت حالتها كحالة السودرا او المنبوذين فى الهند ، شعب محتقر مهين ليس له أن يشترك فى الطقوس الدينية ، وكانت معاملتهم تعتبر ضربا من التدنس والنجاسة ، ولم يكن لهم أية حقوق مدنية أو سياسية ولم يصبحوا مواطنين الا بعد ثورتها واندماجها فى الشعب باندماج الموالى فى السوقة • وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نفترض أن النظام الطبيعى فى تلك المجتمعات التاريخية قام أصلا على أساس عنصرى اثنولوجى• سابعا : هذا وفى خلال العصور الوسطى والاقطاعية كان النبلاء يبررون امتهانهم واحتقارهم لطبقة العبيد والفلاحين الذين لم يكونوا من أصل زنجى بترويج تلك الاسطورة التى ترجع أصلهم الى حام بن نوح ، الذى لعنه والده ودعا على سلالته بالعبودية والمهانة •

وذكر العلامة هرتز[2] Hertz أن طبقة الاشراف فى فرنسا حاولت حتى نهاية القرن السابع عشر أن تدعم مركزها الطبقى وتبرر سيادتها بأسطورة خيالية ترجعهم اصلا الى فرانسوا François بن هكتور[3] Hector

(١) Fustel de Coulanges : La Cité Antique, Etude sur le Culte, le Droit,
(٢) Hertz : Race & Civilization, P. 5.
(٣) Cont de Boulanivilier

وفى أواخر القرن الثامن عشر نجدأن كونت دى بولانفيى Count de Boulanviller ينسب الطبقة الحاكمة فى فرنسا الى العنصر الجرمانى الغازى ، فى حين أن سواد الشعب الفرنسى يتكون من العنصر الكلتى والرومانى المغلوب على أمره فكانت الثورة الفرنسية فى نظره قلبا للاوضاع الطبيعية[1] التى تقضى بأن تكون طبقة النبلاء والحكام من العنصر الغالب وطبقة المحكومين من العنصر المغلوب .

ومن وجهة نظر أخرى فسر أبيسييه[2] Joseph Emanael Abbé Sieyés الثورة الفرنسية بأنها نتيجة طبيعية لسعى الطبقة المحكومة من سكان فرنسا الأصليين للتخلص من وطرد العناصر الدخيلة من الغزاة الفاتحين .

هذا وقد حاول كثير من المفكرين تمييز أفراد الطبقة الواحدة على أساس عنصرى فى ضوء التفاوت العنصرى بين الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا ، فيذهب ساخلاند[3] Erich Suchsland الى أن الافراد الذين قدر لهم النجاح فى حياتهم الاجتماعية ، لا بد وأنهم ينتمون الى جنس أرقى من أولئك الذين اصابهم الفشل ، وعلى هذا الاساس فالأغنياء أنبل جنسا وأصفى من الفقراء . ومن أنصار هذا الرأى أيضا كارل[4] Alexis Carrel فهو يعتقد أن المتعطلين من الطبقة البروليتاريا ينتمون بالضرورة الى عنصر منحط ، وهذا الانحطاط جرى فى عروقهم فافقدهم القدرة على الكفاح والنضال بل جعلهم لا يرون أية حاجة ملحة للصراع من أجل البقاء . وبذلك تنتهى بنا هذه المدرسة الى لون من الجبرية التعسفية للطبيعة البيولوجية وتجعل من الوراثة العامل الأول والفذ فى تقرير حظ الانسان ودرجته الاجتماعية وشخصيته ، ولا شك أن هذا الرأى يؤيده فريق كبير من الفلاسفة والمفكرين أمثال فونتينل وأوجست كونت وسبنسر وشوبنهور وجالتون ، ولكن هذا الرأى مدافع ويعارضه فريق كبير وعلى رأسه جون لوك وآدم سميث وجون ستيوارت ميل وليسنكو وكثير غيرهم فيقررون أن أثر الوراثة[5] فى الفصيلة الانسانية ليس شيئا مذكورا اذا قيست بأثر البيئة الطبيعية ومظاهر الثقافة المكتسبة

(١) Cont de Boulanviller
(٢) J.E. Sieyés Abbé : Qu'est ce que le Tiers Etat?
(٣) Erich Suchsland : Archiv Für Rassen Geselschafts - Biologie
(٤) Alexis Carrel : Man, the Unknown.
(٥) V. Ency of Social Science : Art Racial Conflict
Brit. : Art Social Conflict by Hans Kihm.
Juan Comas : Racial Miths p. 10

من المنظمات الاجتماعية بصفة عامة . بل لقد بالغ بعض أفراد اصحاب هذا الرأى فذهب الى أنه من الممكن التغلب على جميع آثار الوراثة باحداث تغيرات فى البيئة ، وغلا فريق منهم الى أبعد من ذلك فانكر أثر الوراثة اطلاقا فى الأنواع والاجناس البشرية ، ومن الثابت أن هذه العوامل لا تنفصل من حيث آثارها على الصفات المميزة للجنس ، بل احدها ليكمل الآخر ، فنحن نعلم من علم الوراثة أنه اذا كانت صفات الجنس تتقرر الى حدما بالمورثات Genes فان مميزاته يمكن ان تتغير ــ اذا عرفت الوسائل المناسبة فى نطاق حدود معينة بتغيير الأحوال البيئية المحيطة[1] . وكذلك يمكن الوصول الى تغيرات فى صفات الجنس اذا توصلنا الى وسائل تغير مؤثراته ، ومن المحقق من الناحية العملية أن وراثة صفات نوعية ممتازة ليس ضمانا للتفوق فى الذكاء أو فى النمو العقلى والجسمانى ، كما أن وراثة صفات عنصرية سيئة لا يحتم بالضرورة العجز أو التخلف الحضارى[2] . فالمشكلة على هذا النحو نسبية وليست مطلقة .

ثامنا : فى مستهل القرن التاسع عشر حدث تطور كبير فى النظريات السياسية والاقتصادية نتيجة لازمة للثورة الصناعية فى انجلترا والثورة البرجوازية فى فرنسا ونهضة الروح القومية فى النمسا والمانيا . وكان لهذا أثره فى الاتجاهات الفكرية المتعلقة بالتفاوت العنصرى . فنجد فى انجلترا مثلا كارليل Carlyle يقيم دعائم الفلسفة الارستقراطية ، ممهدا الطريق للامبريالية الانجلوسكسونية ، وتتلخص فلسفته فى أن رجل العمل خير وأفضل نوعا من رجل النظر والتأمل ، فكان مترجما صادقا للتيار الاجتماعى الذى ساد انجلترا بعد الانقلاب الصناعى وكان دافعا ومبررا لموجة الرق والاستعباد التى اجتاحت امريكا عقب اختراع آلة الحليج الميكانيكية وشيوع استعمالها فى الولايات الجنوبية اذ ازدهرت زراعة القطن نتيجة لذلك واستدعى ذلك استرقاق عدد كبير من الزنوج العبيد ، ونما فى الولايات المتحدة نظامان اقتصاديان مختلفان هما : النظام الصناعى ومعه الزراعة التى يضطلع بها أحرار فى الشمال ، ثم النظام الزراعى الصرف الذى يقوم على اكتاف العبيد فى الجنوب ، ولم يلبث أن اصطدم النظامان وقام النزاع بين ولايات الشمال التى نادت

(١) V. Canclin : Heredity & Envitronment.
(٢) R.H. Wheeler & Perkins : Principles of Mental Development.
Hollingworth : Mental Growth & Decline.

بالغاء الاسترقاق وبين ولايات الجنوب التى نادت بالاحتفاظ بنظام الاسترقاق[1].

ونجد من علماء فرنسا الكونت دى جوبينو[2] Count de Gobineau يشيد بفكرة الجنس النقى ، وبالرغم من أنه فرنسى الا أنه يقرر أن الجنس الجرمانى هو اكثر الاجناس نقاوة ، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة ومشعل الثقافة من الجنس الآرى ، وهو يتميز عن الاجناس اللاتينية التى لم تعد أجناسا نقية بعد أن اختلطت بالشعوب السامية والاجناس الزنجية المنحطة ، ولم يخف جوبينو امتعاضه ونقده الشديد للنظم الديمقراطية التى كانت مألوفة فى بلاده، وراجت آراؤه وأفكاره فى كل من المانيا وأمريكا بالرغم من أنها كانت آراء فجة ينقصها التعليل العلمى الصحيح ، فضلا عن أنها لعبت دورا هاما فى خلق روح معارضة للجنس السامى — وغنى عن البيان أن جوبينو وأمثاله خلطوا من الناحية العلمية بين الجنس واللغة والحضارة .

ويرجع هذا الخلط الى تفسير ما ورد فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم عن نجاة سيدنا نوح وأولاده سام وحام ويافث بعد الطوفان ، فقد قسم المفسرون البشر وفقا لذلك الى الجنس السامى والحامى والآرى ، وفى نفس الوقت قسمت اللغات البشرية وفقا لهذا التصنيف الثلاثى . ويبدو أنه غاب عن أذهان النقاد أن سفر التكوين اعتمد فى تقسيمه على الروابط اللغوية والسياسية اكثر من اعتماده على الصلات والروابط الفيزيقية والبيولوجية التى يتخذها علماء الانسان أساسا لتصنيف الأجناس البشرية .

هذا الى أن كثيرا من علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) ، قد أقاموا باكورة أبحاثهم اللغوية المقارنة على أساس أن هناك مجموعات من اللغات ، تجمع أفراد كل مجموعة منها صلات تشابه وتقارب ، كأن تتفق مثلا فى أصول المفردات وطرق الاشتقاق وما الى ذلك من القواعد اللغوية ، فذهبوا الى أن هذه المجموعات لا بد وأن تكون قد

(١) هذا ما يعرف بالحرب الاهلية الامريكية التى بدأت فى ١٢ ابريل سنة ١٨٦١ بزعامة ابراهام لنكولن .

(٢) Counte de Gobineau : An essay on The Inequality of the Human Races. 1855

صدرت عن أصل لغوى واحد ، واستخلصوا من ذلك أنها لا بد وأنها تمثل حضارة وثقافة واحدة ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك : وهو أن الناطقين بها ينتسبون — لا محالة — الى جنس واحد . وقد ساعد على ذلك الاستنتاج أن التوراة قد لاحظت — من باب التسهيل والتقريب الى الاذهان — اطلاق الأجناس أحيانا على الشعوب المتكلمة بلغة معينة أو المشتركة فى صلات أو روابط ثقافية أو سياسية[1]، وقد تعرض كثير من العلماء أمثال بروكلمان Brockleman لمناقشة أسباب الاختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات ، وانتهوا الى نقد تفسيرات رواية التوراة ، واعتقد اللغوى الايطالى ترومبيتس A, Trombettis فى نظرية اتحاد نوع بنى الانسان من جهة الجنس اعتمادا على ان جميع اللغات لو حللناها وتتبعناها ترجع الى اصل واحد . وقد ذكر العلامة اللغوى ماكس موللر[2] Max Muller سنة ١٨٨٢ انه حين يقول أن ثمت جنسا آريا ، فانه لا يعنى البتة تشابها فى التكوين الفيزيقى لشعوب معينة وانما يعنى وجود تشابه فى اللغات التى ينطقون بها .

ولعل ابرز اختلاط بين تصنيف اللغات والسلالات ما وقع بين اللغات الآرية (الهندو أوربية) ومجموعة الشعوب التى تسمى بالآرية أيضا . وتشتمل هذه المجموعة من اللغات على ثمانية فروع :

١ — اللغات الهندية : الهندية الايرانية — السنسكريتية والفارسية القديمة والافستيه .

٢ — اللغات الأرمنية .

٣ — اللغات الايطالية (الرومانية واللاتينية وما تفرع منها من ايطالية واسبانية وبرتغالية وفرنسية) .

٤ — اللغات اليونانية .

(١) فقد اعتبرت التوراة مثلا العامورين الفنيقيين من الحاميين لمجرد أنه كانت تربطهم بالحاميين فى مصر وافريقيا الشمالية روابط سياسية وتجارية .

٥ — اللغات الالبانية .

٦ — اللغات الكلتية التى بقى بعض أشكالها فى لهجات ايرلندا وويلز .

٧ — اللغات الجرمانية (الانجلوسكسونية والهولندية والألمانية) .

٨ — اللغات البلطيقية (الليتوانية والروسية) والسلافية (البولونية الروسية).

وظن علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) ان الشعوب والمجموعات الجنسية التى تنطق بها ترجع الى أصل سلالى واحد هو الجنس الآرى .

ويجدر الاشارة فى هذا المقام الى الملابسات التى وقع فى ظلها الخلط بين الآرية كلغة والآرية كجنس . ومما قيل فى هذا الصدد أن أول من اكتشف أوجه التشابه بين مجموعة اللغات الهندوأوربيه التى سميت فيمابعد بالآرية هو المستشرق الانجليزى وليم جونز W. Jones وقد كان يعمل قاضيا فى الهند واشتغل اثناء اقامته هناك بدراسة اللغة السنسكريتية ، وفى فبراير عام ١٧٨٦ صرح أن اللغة السنسكريتية اكمل بناية من اليونانية وأغزر مادة من اللاتينية ، وهى مع ذلك شديدة العلاقة بهما فى الأصول والافعال والقواعد بحيث لا يتصور الانسان أن المشابهة بنت المصادفة ، بل ان عالم اللغة اذ يدرس اللغات الثلاثة لا بد أن يؤمن بأنها من نبع واحد شامل وربما زال من الوجود .

هذا الاعلان هو الذى حمل علماء فقه اللغة على أن يدرسوا العلاقة بين السنسكريتية وأقدم اللغات الأوربية ، وبفضل اتباع الاجرومية القياسية امكن تشييد سمات اللغة الأصلية التى نطق بها السلف المشترك لتلك الشعوب قبل انقسامها وتشتتها ، وقد سميت اللغة الأصلية باللغة الهنديه الأوروبية . وعلى ذلك فان اكتشاف وشائج القرابة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية هو الذى جعل العلماء يحكمون بانتمائها جميعا الى أصل واحد ، وامتد هذا الحكم الى الاعتقاد بان الناطقين بهذه اللغات جميعا يرجعون الى أصل جنس واحد أيضا . ومن أشهر دعامات هذا الاتجاه المستشرق الالمانى شلوتزر Schlözer الذى أعلن فى أواخر القرن الثامن عشر أن الشعوب التى تنطق باللغات الهندية الأوروبية تنحدر كلها الى جنس واحد هو الجنس الآرى الذى يقال أنه دخل أوروبا عن طريق آسيا

والذى ينسب اليه التفوق العقلى والجسمى . وذهب نفس المذهب العالم الالمانى اللغوى ماكس موللر Max Muller ١٨٨٢ .

فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الجنس السامى . فأساس فكرة الجنس الآرى اذن هو ما لاحظه علماء اللغات من اتفاق فى الالفاظ والقواعد بين اللغات الأوروبية الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية وبين الاغريقية والجرمانية والسلافية وبين لغة الهنود القديمة المسماة بالسنسكريتيه فأجمعوا عن طريق التخمين والفرض على أنها كانت فى الأصل لهجات لقبائل كانت تنتمى فى الأصل الى جنس واحد ، وقد اطلق العلماء على هذا الجنس اسم الجنس الهندوجرمانى ، ولما اتسعت المقارنة بين اللغات اطلق العلماء عليه اسم الجنس الهندوأوروبى ، ثم أخيرا الجنس الآرى نسبة الى أريا التى تذكر الكتب الهندية القديمة أن أجداد الهنود قد وفدوا منه ، وتشير الى أن موقعه فى الشمال الغربى من الهند من هضبة ايران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين وقد اعتبر وفقا لذلك الموطن الأصلى للجنس الآرى[1] .

وأما الجنس السامى فقد أطلقه شلوتزر Schloezer على الشعوب التى كانت تتكلم العربية والعبرية واليمنية القديمة والبابلية والآشورية والآرامية لتشابه هذه اللغات تشابها يؤدى الى الاعتقاد بانتمائها الى فصيلة واحدة ، وقد حمل هذا على الظن بأنها ترجع الى فصيلة انسانية واحدة سميت بالسامية اقتباسا مما ورد فى سفر التكوين بصدد اولاد نوح : سام وحام ويافث . وباختلاف الفروض عن موطن «سام» اختلفت الروايات عن الموطن الاصلى للساميين[2] .

والواقع أن تقسيم البشر الى سلالات طبقا للغة ليس له أى سند صحيح . فالناس المشتركون فى لغة ما أو ثقافة ما ليسوا بالضرورة منحدرين من أصل واحد أو أصول متقاربة ، فاللغة تنتقل من شعب الى شعب آخر أحيانا بطريق الغزو أو القهر ، فطالما فرض الفاتحون لغتهم فرضا على المغلوبين ، ومن أمثلة ذلك اللغة التركية التى فرضها

(١) هناك آراء مختلفة بصدد الموطن الاصلى ومنها أنهم نشأوا على ضفاف بحر البلطيق ، وقد اقتصرنا هنا على أهم الآراء التى تذهب الى أن العنصر الآرى قد انقسم منذ القرن ٣٠ أو ٢٠ ق.م. الى شعبتين رئيسيتين : شعبة شرقية (الهند وايران) وشعبة غربية فى أوروبا .

(٢) Renan : Histoire Generale des Langues Semitiques p. 43.

آل عثمان على سكان شبه جزيرة الاناضول الذين كانوا يتحدثون الاغريقية قبل الغزو العثمانى ، والذين يتعدون بعداً تاما عن السلالة الكبرى التى ينتمى اليها الأتراك الغزاة ، واللغة الاسبانية واللغة البرتغالية التى يتحدث بها عدد كبير من سكان أمريكا الجنوبية .

فظاهرة انتشار اللغة بالفتح ظاهرة تاريخية هامة ، وأحيانا يقتبس الغزاة لغة الشعب المغلوب على أمره ، فالغزاة النورمان تحدثوا الفرنسية فى فرنسا ثم تبنوا الانجليزية فى بريطانيا .

هذا الى أن كثيرا من الكتاب يستعملون تعابير مختلفة فى الاشارة الى الأمم والشعوب والقوميات ، فيقولون : الكلت والجرمان والهنود والعرب والانجليز والفرنسيين ، للدلالة على أن شعبا أو اكثر يرتبط بعضهم بالبعض برباط التاريخ والتقاليد المشتركة واللغة ، وأحيانا الدين ، والجوار الجغرافى ، أو يربط بعضهم والبعض الآخر بالتقارب الحضارى والثقافى ، ويشتركون فى آمال وآمان واحدة بغض النظر عن أصولهم السلالية ، فالانسان حيوان فريد يمتاز بقدرته على نقل تجاربه وخبراته عن طريق التقليد ، دون أن يكون لها أى علاقة بالعوامل الوراثية الحيوية ، وكل ما يترتب على ذلك من نتائج ، واللغة والعادات والتقاليد والآراء كلها أمور سائلة تنتقل من شعب الى شعب بوسائلها الخاصة ولا يصح أن تتخذ دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد ، وفى معرض الاشارة بالجنس النقى نجد الكونت جوبينو Gobineau قدر أن الجنس الجرمانى هو اكثر الشعوب نقاوة ، وهو الجنس المختار الذى حمل لواء الحضارة من الجنس الآرى وهو يمتاز عن الأجناس اللاتينية التى لم تعد بعد أجناسا نقية وخاصة بعد أن امتزجت بالشعوب السامية والأجناس الزنجية المنحطة ؛ من ذلك العرض يتضح لنا أن بعض العلماء قد خلطوا بين الجنس واللغة ، فليس هناك وجود حقيقى لما يسمى بالجنس الآرى أو الحامى أو الجنس السامى .

فمن الخطأ أن نتحدث عن السلالة الآرية أو السلالة السامية أو السلالة الحامية ، فهذه كلها مجموعات من البشر تتفق فى أنها تتحدث لهجات أو لغات مشتقة من أصول أو عائلات لغوية واحدة ، وقد ينطوى تحت العائلة اللغوية الواحدة ، بل أحيانا تحت

اللغة الواحدة ، سلالات عديدة ، قد يربط بينها رباط الأصل المشترك ، وقد ينعدم هذا الرباط ، فالعائلة اللغوية الآرية مثلا يتحدث بها الاسبانيون جميعا فيما عدا اللاب فى أقصى شمال اسكندناوة والباسك فى الحدود الفرنسية الاسبانية من ناحية الغرب ، وفيما عدا البلغاريين والهنغاريين والمجموعات التركية جنوب روسيا فى تركيا نفسها ، كما أن اللغات الفارسية والافغانية والهندية من نفس العائلة اللغوية ومن ثم كانت تسميتها باللغات « الهندو أوروبية » هذا بالرغم من السلالات الفرعية العديدة التى يتكون منها الناطقون بلغات هذه المجموعة — ليس هذا فحسب ، بل ان التقارب من ناحية السلالة بين بعض الناطقين باللغات «الهندو أو روبية» والناطقين باحدى اللغات الآرية الفنية اكبر من التقارب السلالى بين الناطقين باللغات «الهندو أوروبية » بعضهم والبعض الآخر .

كذلك الحال فيما يختص باللغات السامية اذ أن هناك تنوعات سلالية بين العرب الشماليين (طوال الرأس)والعرب الجنوبيين (عراض الرأس) ، كما أن اللغة العبرية القديمة تحدث بها بنو اسرائيل وخلفاؤهم فيما بعد وفيهم من يرجع الى الأصل الأرمنى. هذا الى وجود بعض عناصر هندية أوربية قديمةفى الهلال الخصيب مواطن الممالك السابقة القديمة فى بابل وآشور وأرض كنعان ، فان انتشار العرب المسلمين قد حمل اللغة العربية وفرضها فرضا على البلاد المفتوحة فى مصر وشمال افريقية مما أخرج تعبير العرب عن المعنى الاثنولوجى الى المعنى الثقافى واللغوى .

ولقد باعدت اللغة بين الشعوب الأقرب رحما لأنها حاجز ثقافى كبير فأصبح الاثيوبيون أبعد عن جيرانهم من الصومال الحاميين الشرقيين ، بالرغم من القرابة العنصرية الكبيرة التى تربطهم .

ففى رأى (آرثر كيث) لا يقل حاجز اللغة فى فصل الجماعات بعضها عن البعض خطرا عن الحواجز الفيزيقية ، فهى فاصل كبير بين الشعوب لأنها وسيلة التفاهم بين الأفراد داخل الشعب الواحد ، أو الجماعة الواحدة ولكنها بالرغم من ذلك أمر سهل يصبح بالاختلاط والتقليد ، أو بالقهر والغزو تراثا مشاعا بين جماعات تختلف بعضها عن البعض فى الصفات الجسمية ، وربما كانت تتحدث لغة واحدة ، منعزلة عن غيرها ، مقتصرة على التزاوج فيما بينها ، وقد عملت بحكم توارث الصفات

العامة المشتركة بين أفرادها على ابراز صفات خاصة بها ، وبهذا كونت سلالةمتميزة، ولكن مثل هذا الغرض لا ينطبق الا على الجماعة اللغوية وهى فى دور التكوين فى مرحلة معينة من تاريخها ، ويؤيد ذلك ما تواتر فى كتب اليونان القديمة من صفات امتاز بها الاوروبيون القدماء وارتباط صفات الشقرة بالشعوب الناطقة بالهندأوربية بين شعوب لا تتصف بالشقرة .

وفى الوقت الحاضر نجد أن الشعوب التى تتحدث لغات حامية فى افريقية تكاد تكون متجانسة فى صفاتها الجسمية ، ولكن هذا لا يشفع مطلقا فى اطلاق هذا التعبير اللغوى على معنى سلالى ، كما أننا نلاحظ أن بعض الجماعات قد تركت لغتها الحامية وتحدثت بالعربية وهى لغة سامية مثل المصريين ومثل بعض بربر شمال افريقية .

مما سبق تتضح لنا العلاقة بين الجنس واللغة التى استعملت خطأ فى تقسيم البشر الى سلالات والتى اتضح منها أنه لا يصح أن تتخذ اللغة دليلا على الاشتراك فى أصل سلالى واحد .

تاسعا : وفى ألمانيا برزت فكرة التفوق العنصرى بشكل واضح وبصورة تحيزية قومية فى الفلسفة الاجتماعية للعلامة الألمانى هردر[1] Herder فهو يعتقد أن الاجناس البشرية ليست متساوية فى استعدادها للتحضر ، فاذا كانت الأجناس تتمايز فيما بينها فى تركيبها الفيزيقى فانها تتفاوت كذلك فى مدى التأثر بمظاهر المدنية وفى تمثلها لمقومات الحضارة ، وعلى هذا الأساس يذهب هردر الى أن هناك أجناسا بشرية خلقت للرقى وأخرى قضى عليها بالتأخر والانحطاط ، بل ان الاجناس المتخلفة فى مضمار الحضارة يجب أن تظل كذلك لأنها ليست أهلا للرقى : وقد حاول هردر أن يفسر التاريخ تفسيرا عنصريا : فالامبر اطورية القديمة انما تم لها السيطرة على الشعوب الأخرى المتخلفة لتحقق الصفات الحضارية فى عناصرها ، فقديما تحقق التفوق العنصرى فى الشعب المصرى ثم خلفه الشعب اليونانى فالرومانى فالجرمانى، ويعتبر الجرمان الآرى أرقى الشعوب وأسماها فى العصر الحديث ، بل اليه يرجع الفضل فى كل اصلاح دينى أو سياسى (بانقاذ الوعى القومى) وجميع مظاهر الحضارة

(١) عبد العزيز عزت : فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

الحديثة ترجع فى نظره الى الحضارة الجرمانية المسيحية، وقصارى القول انتعصبهلقوميته أداه الى تعصب لما يسميه بالجنس الآرى والى تغيير حقائق التاريخ والى الخروج عن المنطق السليم : الى أن يبرز بذور العداوة بين الشعب الألمانى والشعوب الأخرى ولا سيما الشعب الفرنسى الذى وصفه بالانحطاط والشيخوخة[1] .

وقد احتضنت المدرسة الألمانية نظرية السيادة العنصرية للجنس الجرمانى ، ورتبت عليها من الناحية السياسية ضرورة قهر الشعوب المنحطة ، بما ينجم عنه من توسع وغزو وحروب طاحنة ، وقد بذر هيجل وفخته Fichte بذور هذه الفلسفة فى الشعب الالمانى ، فاعتنق هيجل نظرية الارتقاء وبقاء الأصلح ، وطبقها فخته على الجنس الجرمانى باعتباره الجنس المختار وأنه الجدير بالخلود والبقاء ، ولم يكن فخته يدعو الى بقاء الجنس الالمانى بقدر ما يدعو الى بقاء وخلود الثقافة والحضارة الجرمانية ، ومن ثم كان على الشعب الالمانى أن يحمل لواء التقدم والحضارة العالمية ولو بالقوة والعنف . وتولد عن هذه الاتجاهات نزعة قومية تعصبية أشعلتها حماسة كتابات كل من فردريك شليجل Friedrick Schlegel وليست List[2] وقد غذى هذا التيار موسيقى الفنان الالمانى ڤاجنر[2] Richard Wagner اذ أنه أشعل الالمان حماسة للتوسع والغزو والاشادة بنقاوة عنصرهم وحفزهم الى التخلص من اليهود الدخلاء الساميين الذين هم أساس التخلف والانهيار لكل حضارة ، وليس عجبا ان يصبح زوج ابنته[3] الكاتب الانجليزى الالمانى تشامبرلين Houston Stewart Chamberlain من أشد غلاة نظرية التفوق العنصرى ، فقد حاول فى كتابه عن دعائم القرن التاسع عشر ان يثبت أن العنصر الجرمانى هو الذى انشأ الحضارة الأوروبية ، وأن انهيار الحضارات القديمة ، وخصوصا حضارتى الاغريق والرومان، انما مرجعه الى امتزاج الأجناس التى انشأت هذه الحضارات باجناس غريبة عنها ، وخلص الىأن مصير الحضارة الانسانية منوط بمحافظة الجرمانعلى نقاوةعنصرهم. وقد قسم الأجناس البشرية من حيث أثرها الحضرى الى قسمين كبيرين : أجناس

(١) Beracha : Le Mythe de Racisme, Paris 1945.
(٢) Wilis Weatherford : Race Relations, p. 16.
Dr. H.A. Miller : The Jew & His Music (Wagner).
(٣) H.S. Chamberlain : The Foundations of the 19th Century, 1910.

منشئة وفى صدارتها الاجناس المختارة Elite وعلى رأسها الجنس الجرمانى ، وأجناس هادمة بطبعها وعلى رأسها اليهود والزنوج ، وانتهى من هذا الى أنه يجب أن تكون السيادة فى العالم للاجناس الممتازة وعلى قمتها العنصر الجرمانى .

وقد تبنت النازية الألمانية آراء تشمبرلين هذه واتخذتها أساسا لسياستها العنصرية فى تطهير البلاد والعنصر الألمانى ، فنصت المادة الرابعة من برنامج الحزب الاشتراكى أنه لا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألمانى مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء فى الأمة الألمانية . واذن فليس ليهودى ان يكون عضوا فيها . على أن النازية لم تقف عند حد العمل على سحق اليهودية فى ألمانيا ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فى الاشادة بتفوق السلالة النوردية الشمالية متبنية آراء برادلى[1] R.N. Bradely عن التفوق العنصرى لهذه السلالة (The Superior Nordic Race) وقد شاع استعمال الجنس أو العنصر التيتونى لهذه المجموعة البشرية ، وذلك نسبة الى اللغة التيوتونية التى يتكلم بها سكان المانيا والسويد والنرويج والدنمرك وهولندا والنصف الشمالى من بلجيكا (V. Teutonism) ، وقد تمادت النازية فى غلوائها فذهبت الى تصوير اليهود على أنهم أشد الأجناس هدما للحضارة[2] ، وأن الحضارات لا تفنى أو تهدم الا عندما يمتزج الجنس الآرى المنشىء لكل مدنية بالاجناس الوضيعة ، بل ان تاريخ الامم الآرية يدل على أنها تنحط وتتدهور كلما انحرفت عن مبدأ نقاوة الجنس وامتزجت بالاجناس المقهورة ، وتذهب النازية الى أبعد مدى بمناداتها بتفوق الجنس الآرى على جميع الاجناس الاخرى وليس على السلالة اليهودية وحدها . . . وترى أن الاجناس غير الآرية كلها أجناس منحطة : فشعوب البحر الأبيض والشعوب السامية والشرقية بوجه عام شعوب منحطة يجب أن يستعبدها الجنس الآرى ، ويجب أن يحرص على نقائه وعدم الامتزاج بها ، فالنازية بهذا المعنى تحمل فى ثناياها الزعم بأن العنصر الجرمانى هو الشعب السيد والجنس المختار Herrenvolk ، كما أنها تتصل بروحها بصلة وثيقة بفلسفة القوة والسيادة التى ذاعت فى المانيا خلال القرن التاسع عشر ، والتى حمل لواءها بالأخص

(1) R.N. Bradely : Racial Origins of English Character P. 87.
(2) Frank - H. Hankins : The Racial Basis of Civilization
Ginsberg : Anti-Semitism.

فردريك نيتشه . فالبشر فى نظره صنفان : الأسياد والعبيد ، أو الصفوة والدهماء ، وأن الخير لا يتحقق للانسانية الا اذا قام بين الشعوب جنس يمتاز بالقوة والتفوق والسيادة Uebermensch[1] يمثله الانسان الكامل المتفوق Superman.

هذا وقد نوه كثير من العلماء والكتاب امثال جنزبرج Ginsberg وريموند فيرث Raymond Firth ببطلان النظرية النازية القائمة على الزعم بتفوق السلالة الآرية أو العنصر النوردى ، أو اعتبارها منشئة للحضارات الانسانية ، فالتاريخ لم يرو لنا أن البلاد الشمالية قد شهدت حضارة عريقة كالتى ازدهرت فى الشرق الأدنى والأوسط فى الصين ومصر وبحر ايجه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة والأوسط فى الصين ومصر وبحر ايجه . كما أن الثابت المحقق أن المدنية الحديثة وفرنسا وبريطانيا والمانيا وامريكا وروسيا ، وكل تلك امم توجد فيها اجناس مختلطة بكثرة. هذا الى أن مغالاة النازية فى التحقير من شأن السلالات الأخرى ليس له ما يبرره من الناحية النظرية أو الواقعية ، ويبدو أن الاجراءات الاستثنائية التى اتبعتها النازية فى اضطهادها للسلالات الاخرى مما يمكن أن تفسر فى ضوء التعليل السيكولوجى الاجتماعى لظاهرة العدوان والتعصب ، والتمييز الجماعى الذى تلجأ اليه الجماعات التى تعانى من القلق الاجتماعى لتعيد الى كيانها الاستقرار ، وذلك بأن تصرف نقمة الجماهير عن النقائص الحقيقية فى الهيكل الاجتماعى وتحولها وجهة محدودة وخاصة . وقد كان هذا هو شأن المجتمع الالمانى[1] ، اذ كان معظم افراد الأمة الالمانية يشعرون قبيل الحكم النازى بالمرارة ، مما ادى الى وجود نوع من الشقاق والتنابذ الذى ينذر بقيام ثورة داخلية أو حرب أهلية تفضى الى تقويض المجتمع الألمانى ، فكان على النازيين أن يحولوا شعور النقمة الى متنفس يلتمسون فيه ملاذا من تلك النقمة الجماعية التى كانت تهدد كيان المجتمع الالمانى ، وبذلك تهيأ للحكم النازى نوع من الاستقرار . هذا ويرى بعض النقاد أن النازية رأت ان تستظل بلواء النظرية العنصرية فى اضطهادها لليهود ، ولكن البواعث الحقيقية كانت سياسية واقتصادية قبل كل شىء .

والآن يجدر بنا أن نتساءل من الناحية الموضوعية العلمية ، عما اذا كانت هناك

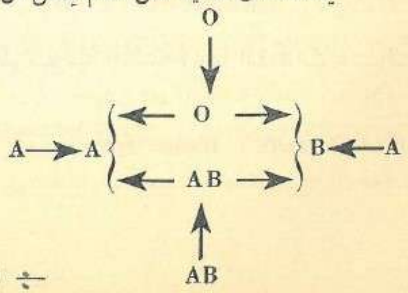
(1) Raymond Firth : Human Types.

ثمت قاعدة حقيقية ، يقاس بها تفوق جنس على جنس آخر ، استنادا الى الدعائم الاساسية التي يذكرها دعاة التفرقة العنصرية ، أعنى بها التفوق فى الدم والذكاء والثقافة •

ففيما يتعلق بتفوق الدم ، أجرى بعض علماء الانثروبولوجيا تجارب تقوم على تحليل عينات من السلالات البشرية ، بقصد استنباط المجموعات الدموية التى تنتمى اليها • وقد نشر دان L.C. Dunn [1] مؤلفا صغيرا عن علاقة الجنس بعلم الحياة لخص فيه جهود العلماء فى هذا الصدد ، ويكفى هنا أن نشير الى نسبة انتماء بعض الشعوب الى الفصائل الدموية المعروفة (O, A, B, AB) على النحو المبين فى الآتى :ـ

اسم الشعب	نوع فصيلة الدم			
	O	A	B	AB
الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية	٩١	٧	٢	صفر
الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية	٩٨،٥	١،٥	صفر	صفر
السكان الاصليين فى غرب استراليا	٤٨،١	٥١،٩	صفر	صفر
السكان الاصليين فى شرق استراليا	٥٨،٦	٣٧،٨	٣،٦	صفر
الانجليز	٤٧،٩	٤٢،٤	٨،٣	١،٤
السويديون	٣٧،٩	٤٦،١	٩،٥	٦،٥
الروس	٣١،٩	٣٤،٤	٢٤،٩	٨،٨
اليابان	٣٠،١	٣٨،٤	٢١،٩	٩،٧
الصين	٣٤،٢	٣٠،٨	٢٧،٧	٧،٣

يلاحظ ان عملية نقل الدم يمكن أن تتم حسب ما هو مبين بالرسم الآتى :ـ



ومن الواضح أن هذه الفصائل الدموية لا تعطى دلائل تفوق عنصرى وانما قد تدل على توحد أو تقارب الاصول السلالية ، ومدى العزلة الجغرافية أو الحضارية للجماعات البشرية ، وهى تخدم أغراضا حيوية اكثر منها دلالات عنصرية ، وخاصة فى مجال نقل الدم من شخص لآخر اذ يجب ملاحظة أن هذه العينات قد تتمثل باكملها فى شعب واحد ، أن الفرد الذى دمه من نوع (O) يستطيع أن يعطى دمه لأى شخص آخر ، بينما لا يستطيع شخص من نوع (AB) اعطاء دمه الا الى شخص ينتمى الى نفس المجموعة أى (AB)

أما فيما يتعلق بتفاوت الاجناس فى ذكائها وفقا لتفاوتها فى الفروق التشريحية الفسيولوجيا ـ وخاصة فى معدلات حجم الجمجمة وتلافيف المخ ووزنه ، فقد ذهب فريق من العلماء الى تأكيد الصلة بين الفوارق الفيزيقية والتفاوت فى الملكات الذهنية والقدرات العقلية والاستعدادات النفسية • فوضع مارتن Rudolf Martin عام ١٩١٤ لوحة هامة ، وضح فيها معدلات حجم الجماجم عند بعض السلالات المختلفة على النحو الآتى :ـ

الشعوب والقبائل	رجال	نساء
الأوروبيون وسكان جزر المحيطين، الهادى والاطلسى	١٤٥٠ سم٣	١٣٠٠ سم٣
الاستراليون الاصليون	١٣٤٧ سم٣	١١٨١ سم٣
القيرا	١٢٥٠سم٣	١١٣٩ سم٣
الاندمانيون	١٢٨٠ سم٣	١١٤٨ سم٣

بملاحظة التفاوت بين معدل حجم الجمجمة فى شعوب أوروبا من جهة ومعدل حجم جماجم بعض الأقوام المتأخرة استنتج انه لا بد وان تكون هناك صلة بين حجم الجمجمة والمقدرة العقلية •

واذا نحن سلمنا بهذه الارقام ، واخذنا بعين الاعتبار وجود صلة مباشرة بين حجم جمجمة الرأس والذكاء فمن الممكن أو المحتمل أن نسلم بتفوق الجنس الأروبى ، غير أننا لو وسعنا دائرة الاستدلال ، ودققنا فى الجداول التى وضعها كثير من العلماء

بخصوص معدل أحجام بعض الشعوب المتأخرة فربما انتهينا الى نتيجة مخالفة كما يتضح ذلك من الجداول الآتية :ـ

الشعوب	معدل سعة الجمجمة
اليابانيون	١٤٨٥
العرب	١٤٧٤
الصينيون	١٤٥٦

القبائل		معدل سعة الجمجمة
قبائل الآما	Ama	١٥٧٠
الاسكيمو		١٥٦٣
الكافر	Kafir	١٥٤٠
اقزام افريقيا الوسطى		١٦٠٠

وفى ضوء هذا يتبين لنا أن الأرقام الدالة على حجم الجمجمة عند القبائل المتخلفة فى الحضارة أعلى منها عند الاوروبيين مما ينهض دليلا على دحض آراء مارتن •

ومن أولى المحاولات العلمية لاثبات التفاوت العنصرى ،ما أجراه العالمان جوردن Gordon وفينت Vint بقصد مقارنة نمو الدماغ ووزن المخ بين الجماعات البدائية الافريقية والشعوب الاوروبية • فقد انتهى الاول الى أن متوسط النمو فى دماغ الافريقى الذى يقع سنه ما بين ١٠ ــ ٢٠ ، هو نصف متوسط النمو لدماغ الفرد الاوروبى فى نفس السن • وقد رتب على ذلك أن نظم التعليم الاوروبى لا يجب تطبيقها فى شرق افريقيا لأنها لا تأتى ثمارها المرجوة هناك • واستخلص فينت أن متوسط وزن المخ بين الشعوب الافريقية أقل ١٠٤٦٪ منه عند الاوروبيين وان هناك ثمة صلة بين المخ وذكاء الجنس •

ومن ناحية اخرى حاول العالم الفرنسى توبينار[1] Paul Topinard أن يضع لوحة يبين فيها معدلات زنة المخ فى بعض الاقوام والشعوب كما هو مبين على النحو الآتى :ـ

الصينيون	١٤٢٨ صم
اليابانيون	١٣٦٧ صم
الاوروبيون	١٣٦١ صم
زنوج أمريكا الشمالية	١٣١٦ صم

(١) Morris Ginsberg : Sociology, P. 64. Paul Topinard

والمدقق فى تلك البيانات ، يلمس أن لا صلة مطلقا بين معدل وزن المخ ، ومستوى الذكاء فى الجنس أو المستوى الحضارى له • ومما ينبغى الاشارة اليه ان هذه المقاييس لشعوب لا لأجناس ، وهذه الشعوب لا تتكون من سلالات نقية بحيث يمكن اعتبارها عينات يمكن الاستدلال بها أو القياس عليها ، فضلا عن أن هذه المعدلات أخذت من اعداد محدودة لا تكاد تفى بغرض المنهج الاستقرائى العلمى • وهى مع ذلك لا تعزز آراء المدافعين عن التفاوت العنصرى •

وقد اتجه بعض العلماء الى التدليل على سمو الجنس بنسبة النابغين فيه الذين يبلغون الحدود العليا للمقدرة أو الكفاية الذهنية "The Upper Limits of Ability" والواقع أن بلوغ هذا الحد ليس وقفا على سلالة معينة كما دلت ابحاث كل من ويتى Witty وجنكنز[1] Jenkins

ولقد أثيرت اعتراضات فنية على قيمة تلك البحوث من الناحية العلمية • ويهمنا فى هذا المجال أن نشير الى جهود بعض العلماء فى محاولة الربط بين الميدان التشريحى والميدان السيكولوجى والميدان الثقافى فى دراسة دلالات السلالات البشرية ، ومن بين هذه المحاولات ما قام به كل من شلشير Shell chear وكانجهام Cunigham وكابر Kapper • فعلل الأول صغر حجم أدمغة بعض السلالات بعدم اكتمال نموها نظرا لظروف بيئية واجتماعية وثقافية ، بل يذهب الى أن نموها قد يبرز امكانيات لقدرات عقلية تفوق السلالات التى تدعى لنفسها السمو • ويرى الآخران أن المشكلة تتصل بمعدل التطور أو النمو الفيزيقى والعقلى بين أفراد الأجناس المختلفة ، فالأطفال فى الجماعات المتأخرة ينمون بسرعة اكبر من أطفال الشعوب الأوروبية ، وعلى ذلك يقف نمو عظام الجمجمة قبل أن يستكمل المخ المراكز اللازمة للنمو العقلى لأن استغلاق الجمجمة يحول دون نمو المخ •

هذه المحاولات وما اليها قد تفسر طبيعة الصلة بين التباين العضوى الوظيفى اكثر من تفسيرها للتفاوت بين الملكات العقلية تبعا لتفاوت السلالات[2] •

(١) Witty & Jenkins : The Journal of Social Pschology 1935
Otto Klinberg : Race & Pschology 1951 (Unesco)

(٢) ومما يدعو الى عدم التسليم بنتائج تلك المحاولات انه اذا اضبطت النسبة بين حجم الجسم وحجم الجمجمة وبين زنة الجسم وزنة المخ تضاءلت هذه الفروق السطحية ولم يعد لها دلالة يقينية •

وقصارى القول أن هذه الاعتبارات لا تنهض دليلا على تفوق سلالة على أخرى ، ومن الخير أن نقف موقف العالمين الأمريكيين كروبر[1] A.L. Kroeber وفرانز بواس[2] Franz Boas ، فانهما رغم تسليمهما بان الاختلافات التشريحية لا بد وأن ينجم عنها فوارق فسيولوجية سواء فى الوظائف العضوية أو فى الصفات النفسية ، الا أن هذا لا يستلزم بالضرورة القول بتفوق جنس على جنس آخر ، فى أى من الملكات العقلية .

واذ تبين لنا أن جهود علماء التشريح فى قياس حجم الجمجمة وفى وزن المخ أو ملاحظة دقة تلافيفه ، تقصر عن أن تزودنا بدلالات عن التفاوت فى الملكات العقلية والصفات النفسية للسلالات البشرية ، فلنول وجهنا شطر ميدان علم النفس التجريبى

والواقع ان علماء الانثروبولوجيا قد استعانوا بالاختبارات المستخدمة فى تجارب علم النفس الفردى ، لقياس القدرات العقلية كالقدرة على التذكر والتصور والابتداع والذكاء ، والمهارات الفنية فى الموسيقى أو الرسم أو الهوايات ، كما استعانوا بما يستخدمه علم النفس فى قياس الاحساس بالالم وبالتعب ، وفى تحديد سمات الشخصية من ناحية المزاج والطبع Temprament ، وحاول الكثير من علماء الانسان تطبيق هذه الاختبارات على بعض الشعوب بغية دراسة الاختلاف المفروض بين الأجناس فى الذكاء والادراك والحساسية ، ولمعرفة ما اذا كان التفاوت أصيلا أم طارئا ، وعما اذا كان هذا التفاوت يرجع الى عامل المورثات السلالية أو الى عامل البيئة الاجتماعية .

وفى مقدمة هؤلاء العلماء وودورث L.C. Presey Woodworth وكلينبرج Klinberg . وتدل أبحاث هؤلاء بصفة عامة على أن نتائج هذه الاختبارات تتأثر بالوسط الاجتماعى وبالتقاليد والعادات وبمفاهيم اللغة ، فلا بد أن يكون للاسئلة المستخدمة معنى اجتماعيا فى نظر الشخص، كما أن موقف الجماعة تجاه الاسئلة يؤثر

(١) A.L. Kroeber : Social Antropology 1934, 1938.
(٢) Franz Boas : The Mind of Primitive Man, 1911.
(٣) Morris Ginsberg : The Study of Society, P. 184.

الى حد كبير فى نتائج الاختبارات ، هذا فضلا عن طبيعة الحياة الاجتماعية من ناحية كونها بدوية أو ريفية أو مدنية [1].

وقد أوضح العلامة كلينبرج استاذ علم النفس فى جامعة كولومبيا أن الاختلافات فى مستويات الذكاء تفسر جميعها بعوامل تتعلق بالبيئة والمحيط الاجتماعى ولا يمكن ارجاعها الى تنوعات وراثية سلالية .

وقد اعتاد كثير من المفكرين أن يميزوا بين الاجناس فى السجايا والطباع ، وان يخصوا بعض السلالات بصفات معينة ، فيعتقد الكثير أن الشعوب المتأخرة تفوق الشعوب المتحضرة مثلا بالقدرة على تعرف الأجسام والأصوات من مسافات بعيدة ، ولكن الاختبارات العلمية تفيد أن هذا التفوق لا يرجع الى قدرات أفضل ولكن يرجع الى الانتباه الى بعض الموضوعات التى يهملها الرجل الابيض . وما قيل فى تمييز الاجسام والصوت قد ينطبق على ما يقال عن حاستى الشم واللمس ، فان الاعتقاد السائد هو أن هناك فروقا طفيفة فى هاتين الحاستين بين القبائل المتأخرة والمجتمعات المتحضرة مع أنه لم يتحقق شىء بصفة جدية .

وقد وجد بعض الباحثين أن عتبة الألم ترتفع بين البدائيين عنها بين المتمدينين ويقصد بذلك أن الأول يتحمل ضغط آلة مدة أطول من الثانى قبل أن يشعر بالألم ، ويرى البعض أن الرجل الأبيض يشعر بألم وخزة بينما يتحمل البدائى الضغط حتى يؤلمه ، ويرجع هذا الى طبيعة الحياة الاجتماعية التى يحياها كل منهما ، فالمتحضر قد انشىء تنشئة اجتماعية تعتمد أساسا على الحرية الفردية وعدم احتمال الضيم والألم، بينما ترتكز الحياة البدائية على الصبر واحتمال الألم ، ومن أظهر الأمور السائدة عندهم أن الفرد لا يقبل فى الحياة الاجتماعية الا اذا اجتاز عدة تجارب قاسية Ordeals تثبت مدى تحمله للألم .

والواقع أن هذه الموضوعات تعود بنا الى صعوبة التمييز بين العوامل الاجتماعية والعوامل النفسية أى التأكد من أن الذى قيس بالفعل هو نقص العمليات العقلية وليس مجرد طريقة للسلوك تعود الشخص على أدائها .

(١) L.C. Presey : Art. in The Journal of Applied Psychology 1933.
Otto Klinberg : Opt. Cit.

وقد اجرى عدد كبير من الاختبارات التجريبيه لقياس الذكاء النسبى للأجناس المختلفة ، وهنا تعترضنا صعوبة ، ألا وهى : ماذا يعنى بالذكاء ؟

أجمع كثير من العلماء على ان ليس هناك صفة عقلية محدودة اسمها الذكـاء ، ولكن هناك عدد من القدرات الخاصة .

ووجهة نظر بعض العلماء الانجليز وعلى الاخص سبيرمان Spearman هو أنه وجد مظهر عام للعقل يسمى بالذكاء ، وبمعنى اكثر تفصيلا ، عرف الذكاء بانه المقدرة على التعلم واستخدام هذا التعلم فى مواقف جديدة .

ولكى نقارن ذكاء الأجناس المختلفة من الضرورى أن ندرس مجموعات كبيرة من كل منها ، كما أنه من الضرورى أن يراعى فى الاختبارات المستعملة ظروف كل بيئة حتى لا يعوقها اختلاف طرق المعيشة فى البيئات المختلفة . وهناك عدة طرق لقياس الذكاء النسبى . غير أنه يوجد اتجاهان رئيسيان بين علماء النفس ، الاتجاه الأول يمثله هؤلاء الذين يستخدمون اللغة اللفظية فى اختباراتهم ، والاتجاه الثانى يقوم على أساس تجنب استعمال اللغة والاقتصار على التصرفات ال Performance Test

وأهم اختبارات النـوع الاول اختبـار بنيت سيمون Binet-Simon الذى عدله فيما بعد ترمان Terman . وهذه الاختبارات اللفظية تتطلب صياغـة الأسئلة بطريقة تمكننا بقدر المستطاع ان نستبعد نتائج التعلم وبحيث تقلل الاختلافات البيئية الى أصغر عامل مستطاع[1] .

وقد طبق عدد من هذه الاختبارات على البيض والصينيين واليابانيين والمكسيكيين وهنود أمريكا وقبائل الزنوج فى شمال وجنوب الولايات المتحدة . ومن نتائج هذه الاختبارات أن البيض على رأس القائمة فى الذكاء يليهم مباشرة الصينيون واليابانيون ثم أخيرا الجماعات الاخرى . ويجدر بنا أن نتساءل : هل تعتبر هذه النتائج دلالـة على المقدرة النسبية للعقل ؟ توجد أسباب تدعو للقول بأنها ليست كذلك ، فمـا عدا عدم التأكد من أن لقوة اللغة نفس التأثير على الجماعات المختلفة ، فلم يستبعد

(١) ومن هذه الاسئلة مجموعة لمتوسط اعمار الافراد ، فمثلا الطفل الذى يجيب على مجموعة الأسئلة التى يجب عليها عادة أطفال أكبر منه يقل على هذا الطفل أن له العمر العقلى لهؤلاء الاطفال الكبار ، أى أن عمره العقلى أكبر من عمره الفعلى .
Raymond Firth : Human Types, P. 35.
L.C. Pressey : Art in The Journal of Applied Pschology, 1933.

تماما تأثير اختلاف الأنماط الثقافية ، وعلاوة على ذلك فمن المحتمل اختلاف الحياة الاجتماعية حيث هذه الجماعات لم تمكن الاختبارات من أن تستنتج مقارنة عادلة . وعندئذ فهذه النسب مضللة اذا أثبتنا بها أن قبائل الزنوج والهنود أقل ذكاء من الرجل الأبيض . وفى الجماعات السالفة الذكر أحرز الأفراد مكانة عالية مثل الرجل الأبيض وأعلى من مستواه .

وبعد بحث دقيق فى نتائج عدد كبير من هذه الاختبارات يصل جارث Garth وهو عالم أمريكى فى علم النفس التجريبى ، يصل الى أن الاختلافات فى الذكـاء الموجودة بين الاجناس يمكن ارجاعها الى تأثير التربية والانتخاب الطبيعى . وذلك لأن الأجناس التى يظهر من الاختبارات أنها فى مرتبة أقل من غيرها من المحتمل أنها لم تتعلم قط ، وانهم يعيشون معيشة وضيعة ، ويرجع ذلك الى مقاومتهـم للحيـاة الاجتماعية الأوروبية التى تحيط بهم ، وهذه المقاومة ــ على حد قوله ــ قد لا تكون علامة على الانحطاط ، بل على العكس من هذا . وقد ايده فى هذا العالمان هويلر وبيركنز Wheeler & Perkins

والواقع أن نتائج مثل هذه الاختبارات لا تكشف النقاب عن الذكاء الموروث فى هذه الجماعات ، بل انها غالبا ما تعكس آثار المحيط الاجتماعى والتراث الثقافى . ان أبسط اختلاف فى اللهجة أو فى اللغة التى يستخدمها العالم الممتحن عن لهجة أو لغة الشخص موضوع الاختبار ، تؤثر على نتيجة الاختبار ، خصوصـا اذا لم يكـن للمصطلحات المستعملة فى مادة الاختبار دلالات اجتماعية واضحة فى ذهن الاشخاص الممتحنين .

هذا الى أننا حينما نجرى اختبارا للذكاء لا نختبر بناء العقل ولكن عملياته ، ولا نمحص فيه أجزاء منفصلة ولكن عمليات مركبة ، ولا نعرف حتى الآن اختباراً يقيس القدرات الفطرية المحضة منعزلة عن المعرفة المكتسبة بالخبرات والتجارب التعليمية .

وحيث أننا نجهل فى وقتنا الحاضر المقاييس المتعلقة بمقارنة العمليات العقلية لمختلف الأجناس ، فلا توجد شواهد قاطعة تثبت تفاوت العقول بين الأجناس ، كما أنه لا يوجد أيضا دليل واضح على أنها متماثلة[1] .

(١) Ginsberg : The Study of Society, P. 184.

والنوع الثانى من الاختبارات لا تستخدم الألفاظ ، وهذه الاختبارات تتجنب الى حد ما الصعوبات الناشئة عن عدم اتاحة فرص التعليم للاشخاص الذين يختبرهم • ومنذ أن بطل استخدام الالفاظ والكتابة فى الاختبارات أمكن قياس سلوك الأميين وهذه الاختبارات تعرف بالاختبارات العملية• ومن الامثلة المعروفة لهذه الاختبارات اختبار لوحة اشكال جو دارد وسلفستر Goddard & Silvester واختبار متاهة بوريتس Portens Maze Tests

وهناك نقطة جديرة بالاعتبار فى هذه الاختبارات العملية ، وهى أن الاختلاف فى اللغة أو التعليم أو القراءة أو الكتابة ليس العقبة الوحيدة فى مقارنة القدرات العقلية، وهناك أيضا الاختلاف فى نوع الحياة الاجتماعية التى تربى فى كنفها هؤلاء الناس ، وهى من الأهمية بمكان بحيث لا يجب اهمالها • والذى يبدو مهما هو أن مجموعة الاختبارات التى تستخدم الصور والأشكال الهندسية هى محاولة لقياس القدرة النسبية للبدائيين فى المواقف العملية فى حياتهم اليومية أو فى المواقف التى تعتمد على خبرتهم العادية •

نحن الآن فى حالة تسمح لنا بأن نجيب على بعض الاسئلة السابقة عن الفروق فى القدرة العقلية والعمليات العقلية فى مختلف الأجناس • فمن نتائج عدد كبير جدا من الأبحاث السيكلوجية ظهر أن المقدرة العقلية والذكاء ليس فى مستوى واحد فى مختلف الأجناس ، ووجد من النتائج أنه يجب وضع البدائيين فى مرتبة أقل من المتمدينين •

ولكن مع هذا يجب ألا تعتبر هذه الاختبارات قاطعة وذلك لعدةأسباب، فمع أن مستوى الجماعات المتأخرة لم يعرف أنه واحد ، ففى كل جماعة حتى اكثرهم بدائية ظهر أفراد على مستوى عالى فى الذكاء والقدرات العقلية الأخرى فوق مستوى المتمدينين • علاوة على ذلك فالاختبارات تختلط مع الحقيقة ، وذلك لأن نوع المجتمع الذى يعيش فيه الأفراد الذين تجرى عليهم الاختبار يعين الى حد بعيد النتائج التى تحصل عليها الاختبارات ، فمثلا كيفية التفكير ، والقدرة على التذكر ، والقدرة على التصميم، وكل هذا وما اليه انمايجرى داخل اطار من الأفكاروالمواقف العملية التى تختلف من مجتمع لآخر •

ومع أن هذه الاختبارات قد يسلم بها من ناحية القيمة الاسمية ، فهى لا تمكننا من أن نربط بين الاختلاف فى العقلية وبعض المظاهر الفيزيقية كلون البشرة ولون العينين وشكل الرأس • • • الخ ، أو بينها وبين الاختلافات الوراثية، ولو أبعد تأثير الاختلافات فى التعليم والبيئة الاجتماعية ، وحتى لو فرضنا جدلا أنه يمكن عن طريقها معرفة تركيب المخ ، ووظيفته فى الأجناس المختلفة ، فسيبقى سؤال يحتاج الى اجابة شافية ، الا وهو ما اذا كنا سنتوصل عن طريق هذه الاختبارات الى نتائج كيفية أم كمية ؟

من الناحية الكيفية : من المستحيل القول بأنه يوجد هناك اختلاف فى مقدرات معينة بين الاجناس مثل المقدرة الموسيقية ، فهذه المسألة لم تبحث كما يجب •

ومن الناحية الكمية : فمن الملاحظ أن تأثير العمليات الاجتماعية على عمل العقل يمكن استبعاده من الاختبارات التى تطبق ، ولكن مع أن القواعد التجريبية ما زالت قليلة فانه يبدو من بعض الامثلة البسيطة أن الوظيفة العقلية لمختلف الاجناس متشابهة • فعقل الرجل البدائى يعمل بنفس الأساليب التى يعمل بها عقلنا • وهنا تتفق اختبارات علم النفس وتجارب علماء الانثروبولوجيا[1] •

وفى ضوء هذا يمكننا ان نناقش رأى من يفرق بين السلالات على أساس مقدرتها على انشاء حضارات ، فقد فسر البعض تفاوت السلالات فى درجات الرقى والثقافة والارتقاء الحضارى باختلافاتها فى الملكات والاستعدادات الفطرية • ولكن ما دام البحث العلمى قد هدم الأساس النظرى الذى تقوم عليه هذه النظرة فاننا لا نستبعد أن تبلغ الشعوب المتأخرة المستوى الذى وصلت اليه الشعوب المتحضرة ، وخاصة بعد أن تبينا أن سبب تخلفهم عن غيرهم لا يرجع الى اختلافهم اختلافا جوهريا عن بقية السلالات البشرية ، وانما سر تأخرهم يكمن وراء عزلتهم الاجتماعية وسطوة المستعمر وحرصه على ان يمتلك معينا لا ينضب من الثروة البشرية والعمل الرخيص•

---

(1) Stern : Outline of Anthropology, P. 55.

مشكلة الأمطار فى ليبيا

للدكتور عبد العزيز طريح شرف

ان المشكلة المائية هى من غير شك أول وأهم ما يسترعى الانتباه عند البحث فى امكان بناء مستقبل اقتصادى مضمون للملكة الليبية المتحدة، فعلى الرغم من أن مساحة هذه البلاد تزيد على مليون ونصف مليون ميل مربع ، فان ما يصلح منهـا للانتاج الزراعى والرعوى لا يزيد فى الوقت الحاضر على ٢٪ من هذه المساحة ، أما الباقى فعبارة عن مساحات صحراوية لا يوجد بها من مظاهر الحياة الا النذر اليسير الذى يظهر حيثما يتوفر أى مقدار مهما كان ضئيلا من الماء .

ومن الممكن تقسيم موارد المياه فى المملكة الليبية بصفة عامـة الى قسمين رئيسيين هما :

١ ــ مياه الأمطار التى تتحدر على سطح الأرض أو تتسرب فى مسام التربة السطحية وتعيش عليها النباتات بطريقة مباشرة .

٢ ــ المياه الجوفية ، ومصدرها الأصلى بطبيعة الحال هو ما يتسرب من مياه الأمطار فى تكوينات القشرة الأرضية ويتجمع فى طبقة أو أكثر من طبقاتها المسامية بعيدا عن سطح الأرض .

وسنخصص هذا المقـال للقسم الأول من هذه الموارد أما القسم الثـانى فسنخصص له مقالا آخر فى المستقبل ان شاء الله .

التوزيع العام للأمطار فى ليبيا :

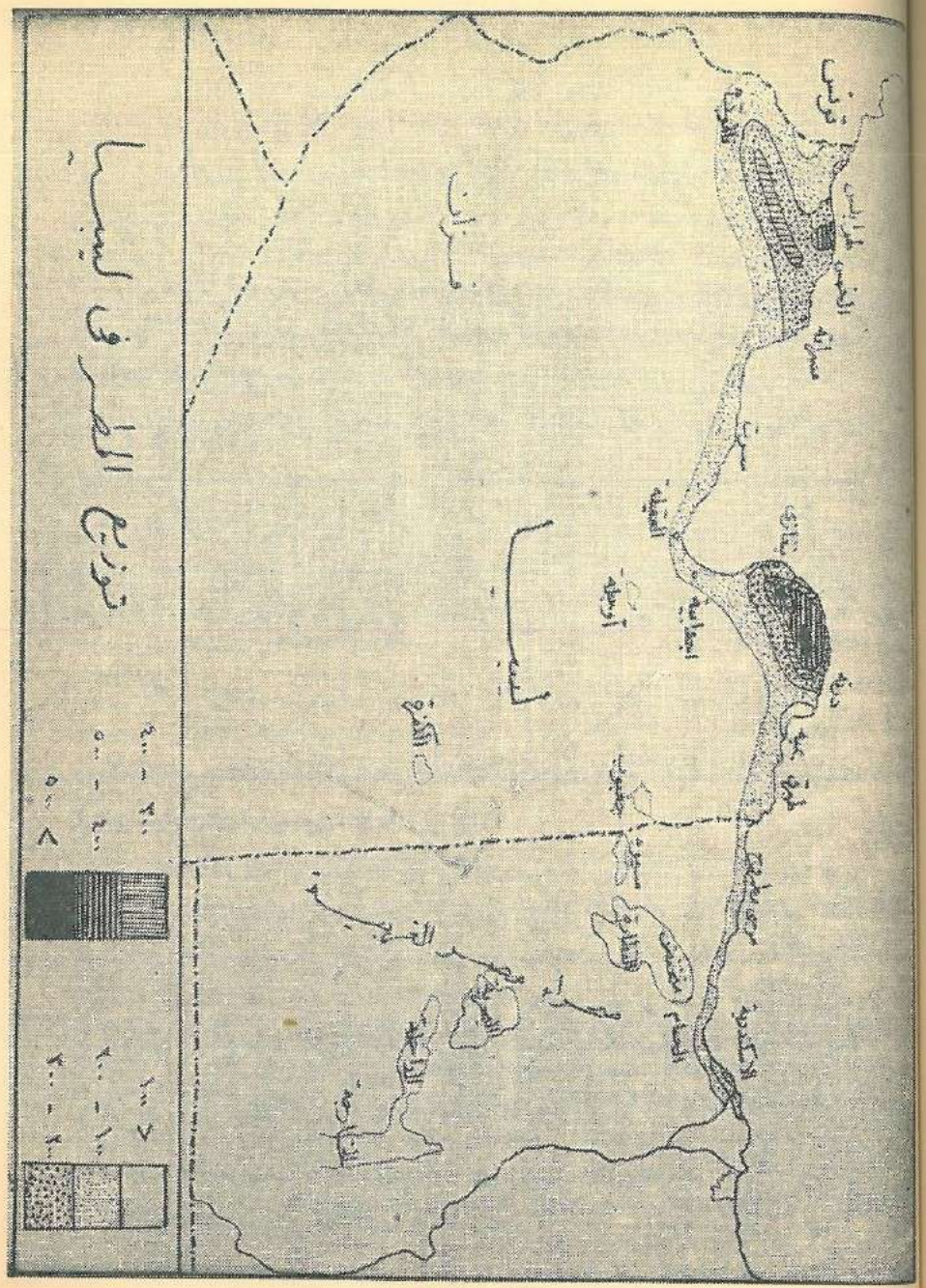
من المعروف ان الشريط الساحلى الممتد على طول البحر المتوسط هو أكثر مناطق المملكة الليبية مطرا ، ومع ذلك فان أمطار هذا الشريط ليست من الكثرة بحيث تجعل الحياة مضمونة فى جميع أجزائه ، فبمجرد النظر الى الخريطة التى فى

شكل (١) نلاحظ أن الأمطار فى بعض أجزاء الساحل قليلة جدا لدرجة أن رمال الصحراء وصخورها تمتد شمالا حتى تصل الى البحر مباشرة ، كما هى الحال على طول معظم الساحل الجنوبى لخليج سرت، وفى مثل هذه المناطق لا يسهل أن ينمو أى مركز مهم من مراكز العمران ، أما فى بعضها الآخر فتكثر الأمطار بدرجة تسمح بظهور مراكز عمرانية كبيرة وظهور حياة رعوية وزراعية مضمونة نسبيا .

ويرجع الاختلاف فى توزيع الأمطار على طول الشريط الساحلى بصفة عامة الى عاملين رئيسيين هما :

ا ـ **نظام التضاريس :** فالأجزاء المرتفعة من الساحل ، وكذلك المناطق الجبلية المتاخمة له أو القريبة منه هى أكثر الجهات مطرا ، ومثال ذلك منطقة الجبل الأخضر فى برقة وجبل نفوسة فى طرابلس ، ويلاحظ بصفة خاصة أن المنحدرات الشمالية والغربية للجبال تكون غالبا أكثر مطرا من المنحدرات الجنوبية والشرقية ، ويرجع ذلك الى أن الرياح الممطرة التى تهب فى معظم الأحوال من الشمال والشمال الغربى والغرب تصادم المنحدرات الشمالية والغربية مباشرة ، أما المنحدرات الجنوبية والشرقية فتكون واقعة عموما فى مناطق « ظل المطر » .

ب ـ **شكل الساحل وتعاريجه :** فبالنظر الى الخريطة نلاحظ أن السواحل المواجهة للشمال الغربى مطرها أكثر من مطر السواحل المواجهة للشرق أو الشمال الشرقى ، وسبب ذلك هو أن الرياح الممطرة التى تهب من الشمال الغربى والغرب تكون عمودية على السواحل المواجهة لها بينما تكون موازية للسواحل المواجهة للشرق أو الشمال الشرقى ، بل انها لا تصل فى كثير من المناطق الى هذه السواحل الأخيرة الا بعد أن تعبر أراض مرتفعة ، وعلى هذا الأساس نجد أن أمطار ساحل بنغازى مثلا أكثر من أمطار ساحل خليج بمبة من ناحية وساحل خليج سرت خصوصا القسم الغربى منه من ناحية أخرى، كما نجد أن امطار ساحل مدينة طرابلس تزيد على أمطار الساحل الممتد الى الغرب من بلدة الزاوية مباشرة. وتتكرر نفس هذه الظاهرة بوضوح أيضا على الساحل الشمالى لمصر حيث نلاحظ أن أمطار ساحل مدينة



(شكل ١)

الاسكندرية مثلا تزيد بكثير على أمطار ساحل خليج العرب حول بلدة الحمام .

والواقع ان أقل تباين فى الظروف المحلية للسواحل الليبية ، سواء من حيث شكل التضاريس أو اتجاه الساحل كفيل بأن يؤدى الى ظهور تباين كبير فى كمية الأمطار ، وهذا هو السبب فى وجود مناطق صحراوية جرداء تفصل بين مناطق العمران القليلة التى توجد متناثرة على مسافات كبيرة فى شمال البلاد ، مما حمل بعض الكتاب على وصف هذه المراكز بأنها واحات منتشرة على طول الساحل . ويبين الجدول الآتى معدلات الأمطار فى أهم محطات شمال ليبيا .

(جدول ١) المعدلات الشهرية والسنوية للأمطار بالملليمترات فى بعض بلاد برقة وطرابلس

المحطة	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيو	يوليو	اغسطس	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	السنة
طرابلس	٧٧	٤٢	٢٥	١٠	٥	١	١	١	١٠	٣٦	٦٨	٩٦	٣٧١
غريان	٧٤	٥٣	٤٢	٧	٦	٢	١	١	١٣	٢٠	٤١	٥٤	٣٣٢
العزيزية	٤٦	٣٤	٢١	١١	٤	١	—	—	٧	١٦	٢٧	٤٨	٢١٤
بنغازى	٦٧	٤٠	١٩	٥	٢	—	—	—	٣	١٧	٤٦	٦٦	٢٦٦
المرج	١١٧	٨٧	٤٢	١٧	٦	١	—	١	٢	٣٦	٥٧	١١٦	٤٨٥
شحات	١٥٤	٧٩	٦٠	٢٠	١٢	١	—	١	٩	٣٩	٨١	١٤٣	٥٩٨
درنة	٦٥	٤٥	٢٨	١٠	٦	١	—	—	٣	٢١	٤٣	٦٢	٢٨٥

أنواع الهواء وعلاقتها بسقوط الأمطار فى ليبيا :

مما لا شك فيه أن هناك علاقة وثيقة بين كمية الأمطار التى تسقط فى أى اقليم من الأقاليم وتوزيعها على أشهر وفصول السنة وبين نوع الهواء الذى ينشأ على هذا الاقليم أو الذى يغزوه من الأقاليم المجاورة ، ولهذا السبب نجد أن دراسة الأنواع المختلفة للهواء ،وهى الأنواع التى تطلق عليها عموما اسم « الكتل الهوائية » قد أصبح من الموضوعات التى لا يمكن أن يغفل بحثها عند دراسة المناخ فى أية بقعة فى العالم ، وعلى الرغم من أنه لا توجد لدينا حاليا بيانات وافية عن الكتل الهوائية التى تؤثر فى مناخ البلاد الليبية فى الأشهر والفصول المختلفة فاننا نستطيع، بناء على ما لدينا من بيانات قليلة ، وبناء على ما يفرضه الموقع الجغرافى لسواحل ليبيا ، أن نحدد أنواع الهواء التى لها آثار واضحة فى مناخ هذه السواحل كما يلى :

١ — هواء مدارى قارى «cT» مصدره الصحراء الكبرى التى تعتبر ، بسبب اتساعها وانسجام سطحها بصفة عامة ، من أهم مناطق نشأة الكتل الهوائية المدارية القارية على سطح الأرض ، ويتميز هواء هذه الكتل بأنه شديد الجفاف طول السنة ، وبأنه شديد الحرارة فى فصل الصيف ، ومائل للبرودة فى فصل الشتاء . ويكون تأثير هذا الهوا ءمحسوسا بصفة خاصة فى فصل الربيع عندما يندفع فى مقدمة الانخفاضات الجوية الربيعية التى تتحرك على طول السواحل الشمالية للبلاد من الغرب الى الشرق ، اذ أنه يكون فى هذا الفصل شديد الحرارة جدا فضلا عن أنه يكون فى غالب الأحيان محملا بكميات كبيرة من الأتربة والرمال الناعمة ، وهذا الهواء نفسه هو الذى يشتهر محليا باسم « القبلى » وكثيرا ما ترتفع درجة الحرارة عند وصوله الى أكثر من ٤٠° مئوية .

٢ — هواء مدارى بحرى«mT» مصدره الكتل المدارية البحرية التى تتكون فوق المحيط الأطلسى ، وهو يصل الى السواحل الشمالية للبلاد فى فصل الربيع فى مؤخرة الانخفاضات الجوية الربيعية، ويكون غالبا على شكل رياح غربية، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه يأتى فى الأيام التى تلى وصول « القبلى » مباشرة ؛ ونظرا لأن المحيط الأطلسى يكون فى هذا الفصل أقل حرارة من البحر المتوسط فان الهواء الذى يصل منه يكون باردا نسبيا ، ولكنه لا يسبب فى غالب الأحيان سقوط كميات تذكر من الأمطار ، ومع ذلك فكثيرا ما تظهر معه بعض السحب المنخفضة والزوابع الترابية .

٣ — هواء مدارى قارى له صفات معدلة يصل الى شمال المملكة الليبية خلال فصل الصيف ، ومصدره هو الأجزاء الجنوبية من أوروبا ، وعلى الرغم من أن هذا الهواء يمر فوق مياه البحر المتوسط فانه يظل محتفظا فى معظم قطاعاته بالصفات القارية اللهم الا فى الأجزاء السفلى التى تزداد فيها نسبة بخار الماء، ولكن هذه الزيادة لا تظهر فى الطبقات العليا منه لأن البحر المتوسط يكون عندئذ مركزا لضغط مرتفع يميل فيه الهواء للهبوط الى أسفل ، ولذلك فان هذا الهواء يكون على الرغم من الرطوبة التى يحملها فى أجزائه السفلى مصحوبا بجو صحو عديم السحب والأمطار بسبب جفاف الطبقات العليا منه .

٤ — هواء قطبى قارى «cP» شديد البرودة يصل الى شمال البلاد فى فصل

الشتاء فى مؤخرة الانخفاضات الجوية التى تغزو البحر المتوسط فى هذا الفصل من ناحية الغرب ، وهو يأتى من جنوب روسيا وشرق أوروبا ، وكثيرا ما يؤدى وصوله الى حدوث موجات باردة شديدة القسوة تهبط درجة الحرارة أثناءها الى ما دون درجة التجمد . ولكن يلاحظ أن هذا الهواء ، على الرغم من أنه يكون جافا فى أول الأمر، لا أن مروره على المياه الدافئة للبحر المتوسط يؤدى الى زيادة كمية بخار الماء العالقة به من جهة والى ارتفاع درجة حرارته نسبيا من جهة أخرى ، ويؤدى هذا التغير بدوره الى حدوث حالة عدم استقرار فى طبقاته مما يجعله سببا فى اثارة بعض العواصف وسقوط المطر على الشريط الساحلى الشمالى للبلاد .

٥ ــ هواء قطبى بحرى «mP» شديد البرودة يصل الى البلاد بصفة خاصة فى فصل الشتاء والخريف، ومصدره هو الكتل الهوائية القطبية التى تنشأ فوق المحيط الأطلسى ، وهو يصل غالبا عبر فرنسا ووسط أوروبا وايطاليا فى مؤخرة الانخفاضات الجوية التى تغزو البحر المتوسط من ناحية الغرب ، ويتميز هذا الهواء عن الهواء القطبى القارى بارتفاع نسبة بخار الماء العالقة به ؛ ونظرا لأن مياه البحر المتوسط تكون فى نصف السنة الشتوى دافئة بالنسبة لليابس المحيط بها فان مرور هذا الهواء فوقها يساعد على رفع درجة حرارته ، وزيادة كمية بخار الماء العالقة به ، ويؤدى ذلك الى حدوث حالة عدم استقرار فى طبقاته مما يجعله هو الآخر سببا فى اثارة عواصف شديدة، وهذا الهواء هو الذى يحمل الى النطاق الساحلى الشمالى فى ليبيا معظم الأمطار التى تسقط عليه .

ومن الممكن أن نشير هنا الى أن الهواء القطبى بنوعيه السابقين قد يستمر فى هبوبه نحو الجنوب حتى يصل أحيانا الى شمال السودان حاملا معه موجات شديدة من البرد .

طبيعة امطار ليبيا :

أمطار شمال ليبيا فى جملتها من النوع الاعصارى وهى تأتى مع الانخفاضات الجوية التى تتكون على حوض البحر المتوسط أو تغزوه من ناحية الغرب ؛ وتنشأ هذه الانخفاضات عادة نتيجة لالتقاء نوعين مختلفين من الهواء أحدهما مدارى قارى مصدره الصحراء الكبرى والثانى قطبى (بحرى أو قارى) يأتى من ناحية الشمال.

ويسقط هذا النوع من الأمطار غالبا على شكل وابل يأتى فى فترات متقطعة ،

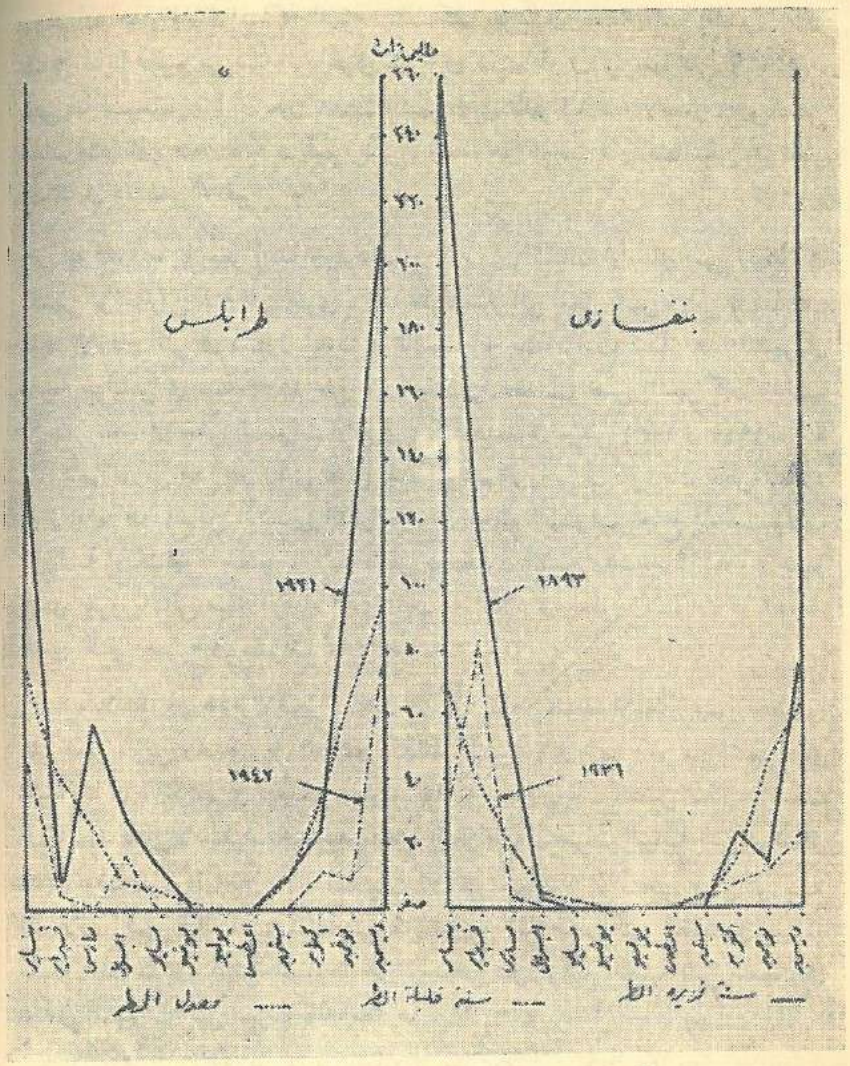
ورغم أن أمطار شمال المملكة الليبية تسقط كلها تقريبا فى نصف السنة الشتوى فانها تتباين تباينا عظيما من سنة الى أخرى سواء فى كميتها أو فى توزيعها على الأشهر ، حتى أنه ليصعب علينا أن نعين بالذات الشهر الذى تظهر فيه قمة الأمطار ، ففى بعض السنوات تظهر هذه القمة فى شهر يناير ، وهذا هو الغالب ، ولكنها يمكن أن تظهر كذلك فى ديسمبر أو فبراير .

وكثيرا ما نلاحظ أيضا وجود تباين كبير بين كميات الأمطار التى تسقط فى الشهر الواحد من سنة الى أخرى ، فاذا نظرنا مثلا الى أمطار شهر مارس (كما تدل عليها الأرقام التى فى متناول أيدينا)[1] نلاحظ أنه بينما زادت أمطار هذا الشهر فى مدينة طرابلس فى سنة ١٩٣٣ على ٢٦٠ ملليمترا نجد أن نفس الشهر كان عديم الأمطار تماما فى بعض السنوات الأخرى ، كما حدث فى سنتى ١٩٣١ و ١٩٤٧ . ولما كان شهر مارس هذا هو الذى يحتل قلب الموسم الزراعى فى ليبيا فان نقص أمطاره أو زيادتها هو العامل الرئيسى الذى يقرر فى معظم السنوات نجاح المحصولات الزراعية او فشلها ، خصوصا فيما يتعلق بمحصول القمح والشعير ، كما أنه هو الذى يقرر بالتالى مبلغ الرخاء الذى تنعم به البلاد فى بعض السنوات أو القحط الذى تشقى بسببه فى سنوات أخرى .

ويلاحظ أن هذا الاضطراب الشديد فى نظام سقوط الأمطار ليس مقصورا على شهر مارس وحده ، بل انه يظهر كذلك بالنسبة لأى شهر آخر من أشهر فصل الشتاء بما فى ذلك شهرى ديسمبر ومارس اللذين يحتلان قلب الفصل المطير، ويمكننا أن نلاحظ هذا الاضطراب الشديد بمجرد النظر الى المنحنيات البيانية التى فى شكل (٢) ، وقد قارنا فيها بين ثلاثة منحنيات للأمطار هى : ١ ــ منحنى يمثل توزيع المعدلات الشهرية العامة ٢ ــ منحنى يمثل توزيع كمية المطر التى سقطت فى سنة معينة كانت متميزة بكثرة أمطارها، ٣ ــ منحنى يمثل توزيع الكمية التى سقطت فى احدى السنوات التى تميزت بقلة أمطارها .

ويبدأ موسم الأمطار فى ليبيا عادة فى شهر اكتوبر وتأخذ الأمطار بعد ذلك فى

(١) تشمل هذه الأرقام الفترة ١٨٧٩ ــ ١٩٥٥ بالنسبة لطرابلس والفترة ١٨٨١ ــ ١٩٤١ بالنسبة لبنغازى .



شكل (٢)
ثلاثة منحنيات للأمطار بمثل أحدها المعدلات الشهرية ، والثانى بمثل توزيع الأمطار التى سقطت فى سنة تميزت بكثرة أمطارها والثالث بمثل توزيع الأمطار التى سقطت فى سنة تميزت بالجفاف ، وذلك لبيان مدى الاضطراب فى نظام سقوط الأمطار فى ليبيا .

الازدياد بسرعة ، كما يدل على ذلك الفرق الكبير بين أمطار اكتوبر وأمطار نوفمبر ثم الفرق الكبير بين أمطار نوفمبر وأمطار ديسمبر ، ولكننا على العكس من ذلك نلاحظ أن الفصل الممطر ينتهى بشكل تدريجى كما تدل على ذلك الفروقات الصغيرة بين كميات الأمطار التى تسقط فى كل شهر من أشهر الربيع (مارس — ابريل — مايو) والشهر الذى يليه مباشرة • وليس هذا الانتهاء التدريجى للفصل الممطر الا نتيجة لظهور الانخفاضات الجوية الربيعية التى يصحبها غالبا سقوط قليل من الأمطار فى كل من أبريل ومايو •

القيمة الفعلية للأمطار :

ان مجرد معرفتنا لكمية الأمطار السنوية وتوزيعها على الفصول لا يفيدنا كثيرا لمعرفة التأثير الفعلى لهذه الكمية ، فمن الحقائق المعروفة أن الحياة النباتية والحيوانية بما فى ذلك الانسان لا يمكنها أن تستفيد بأى حال من الأحوال بكل ما يسقط من الأمطار فوق سطح الأرض لأن نسبة كبيرة من هذه الأمطار تضيع بوسائل مختلفة، فجزء منها ينصرف عن طريق الأنهار والمجارى المائية الى البحار والمحيطات وجزء آخر يتسرب فى شقوق القشرة الأرضية ومسامها ويصل الى أعماق بعيدة يصعب الوصول اليها ، ولكنه ينتهى أيضا فى معظم الأحيان الى البحار والمحيطات • وفضلا عن ذلك فان نسبة كبيرة جدا من مياه الأمطار تضيع بالتبخر عند انحدارها فوق سطح الأرض أو عند تجمعها فى الحفر والمنخفضات والبحيرات والأنهار ، أو بالتبخر من سطح التربة التى تتسرب فيها ، كما أن النتح من أوراق النباتات يعتبر هو الآخر وسيلة لها خطورتها العظيمة لأنها تؤدى بدورها الى ضياع كميات كبيرة جدا من المياه المخزونة فى التربة •

والواقع ان التبخر والنتح معا هما أخطر الوسائل التى تضيع بواسطتها مياه الأمطار ، ويرجع ذلك الى عظم الكميات التى تضيع بواسطة هاتين الوسيلتين من جهة، والى استحالة الاستفادة بهذه الكميات بأية صورة من الصور من جهة أخرى، وهذا بخلاف الحال بالنسبة للمياه التى تنحدر فى مجارى الأنهار أو التى تتسرب فى باطن الأرض ، اذ أنه من الممكن التحكم فيها واستغلال معظمها لأغراض الرى والشرب وغيرها ، وان كان ذلك يتطلب فى أغلب الأحيان مجهودات شاقة وتكاليفا

باهظة ، ولهذا السبب نجد أن العلماء أصبحوا ينظرون الى التبخر والنتح معا على أنهما عنصران مناخيان لا يقل أثرهما على مظاهر الحياة المختلفة على سطح الأرض عن أثر الأمطار نفسها ، اذ أن القيمة الفعلية للأمطار تتوقف عموما على مقدار ما يضيع منها بالتبخر والنتح .

وعلى الرغم من أن خطورة هذين العنصرين كانت معروفة منذ أواخر القرن الماضى فان دراستهما لم تكن تلقى ما تستحقه من عناية ، وربما كان السبب فى ذلك هو أن عمليتى التبخر والنتح تعتبران من الظاهرات الطبيعية المعقدة التى لا يزال من الصعب تحديد العوامل التى تتحكم فيها تحديدا دقيقا واضحا ؛ فدرجة الحرارة والرياح والضغط الجوى والرطوبة النسبية والأمطار والارتفاع عن سطح البحر، ورطوبة التربة، ووجود المسطحات المائية وعمقها واتساعها ، كلها تتدخل بطريق مباشر أو غير مباشر فى عملية التبخر ، كما أن معظم هذه العوامل نفسها تتدخل كذلك فى عملية النتح من النباتات ، و هى العملية التى تتأثر فضلا عن هذا ببعض العوامل الأخرى التى تتعلق بصفات النبات نفسه من حيث النوع والكثافة والحجم وشكل الأوراق وغيرها .

وليس من شك فى أن تعدد العوامل التى تؤثر فى عمليتى التبخر والنتح مع عدم معرفة الدور الذى يلعبه كل عامل منها معرفة واضحة ، فضلا عن عدم وجود بيانات دقيقة عن معظم هذه العوامل ، كل ذلك كان من أهم الأسباب التى جعلت قياس التبخر والنتح أمرا غاية فى الصعوبة لدرجة أننا لا نجد فى الوقت الحاضر بيانات تذكر يمكن أن تتخذ أساسا لتقدير القيمة الفعلية للأمطار التى تسقط فى أى منطقة من المناطق ؛ ولهذا فقد رأى بعض الباحثين أن يتخذوا درجة الحرارة ، وهى من العناصر التى يسهل الحصول على بيانات وافية لها ، أساسا لتقدير هذه القيمة، وذلك على اعتبار أن هناك معامل ارتباط مرتفع بينها وبين نشاط عمليتى التبخر والنتح ، فكلما ارتفعت درجة الحرارة ازدادت كمية المياه المفقودة بهاتين الظاهرتين ، وكلما انخفضت درجة الحرارة زادت هذه القيمة ، ولكن بشرط ألا يؤدى هذا الانخفاض الى توقف الحياة النباتية أو الى تجمد المياه بحيث لا تستفيد بها الحياة الحيوانية أو النباتية .

وهنا يحسن أن نشير أيضا الى أن عددا من الباحثين فى دول مختلفة مثل ألمانيا

وبريطانيا وفرنسا وأمريكا اقترحوا عدة معادلات رياضية لتقدير القيمة الفعلية للأمطار لا على أساس درجة الحرارة وحدها بل على أساس بعض العناصر الأخرى التى يعتقد أن لها دخلا فى نشاط عمليتى التبخر والنتح ، الا أن معظم هذه المعادلات معقد بدرجة لا تشجع الباحث الجغرافى على الاستفادة بها ، وذلك فضلا عن أن نتائجها لا تزال مفتقرة الى التحقيق، ولهذا فلن نحاول أن نتعرض لشرحها، وسنكتفى هنا بالاشارة الى بعض المعادلات البسيطة التى لا نحتاج لتطبيقها الا الى معرفة المعدلات الشهرية والسنوية للأمطار ودرجة الحرارة ، وهى بيانات يسهل الحصول عليها فى أى منطقة من المناطق .

ويعتبر ديمارتون E. de Martonne وكوپين W. Köppen من اشهر الباحثين الذين وجهوا النظر منذ أواخر القرن الماضى الى أهمية تقدير القيمة الفعلية للأمطار عند دراسة المناخ وأثره على مظاهر الحياة المختلفة فوق سطح الأرض، ففى سنة ١٩٢٥ رأى ديمارتون أن القيمة الفعلية للأمطار أو كما يسميها معامل الجفاف Aridity Index يمكن حسابها بالمعادلة الآتية[1] $ق = \frac{م}{ح + ١٠}$ وذلك على اعتبار أن «ق» هى القيمة الفعلية للأمطار و «م» هى معدل المطر السنوى بالملليمترات و «ح» هى معدل درجة الحرارة بالدرجات المئوية .

أما كوپين فقد اقترح عددا من المعادلات كانت آخرها المعادلات التى اقترحها فى سنة ١٩٣١، ووضع على أساسها حدودا عامة للأقاليم النباتية كما يأتى : مع ملاحظة أن «م» هى كمية المطر السنوى بالملليمترات و «ح» هى المعدل السنوى لدرجة الحرارة بالدرجات المئوية[2] .

الاقاليم النباتية	مناطق مطرها طول العام	مناطق مطرها صيفى	مناطق مطرها شتوى
غابات	م = ح + ٧	م = ح + ١٤	م = ح
حشائش	م = ٢ (ح + ٧)	م = ٢ (ح + ١٤)	م = ٢ ح
صحراء			

(١) de Martonne, E. ; "Une Nouvelle Fonction Climatique ; l'Indice d'Aridité", la Mete orologie de France, vol. 2, 1926, PP. 449 - 466.

(٢) Köppen, W. "Grundriss der Klimakunde," 1931.

ولا يتسع المجال هنا للتوسع فى مناقشة الحدود التى اقترحها ديمارتون أو كوبن أو غيرهما للأقاليم المناخية ، ولكن يحسن أن نشير الى أن الدراسة المقارنة للمعادلات المختلفة التى ظهرت لتقدير القيمة الفعلية للأمطار ومن بينها معادلتا ديمارتون وكوبين المذكورتان قد أثبتت أن المعادلة الآتية، وهى المعادلة التى عبرنا عنها بمتوسط المعادلات يمكن أن توفق بين وجهات النظر المختلفة ، وذلك بالاضافة الى بساطتها التى تجعل من السهل تطبيقها فى الدراسة الجغرافية ، وهذه المعادلة هى[1] : ق = $\frac{م}{ح + ١٠}$.

وذلك على أساس أن «ق» ترمز للقيمة الفعلية للأمطار و «م» لكمية المطر السنوى بالملليمترات و «ح» للمعدل السنوى لدرجة الحرارة ؛ وكما هى الحال بالنسبة لمعادلة ديمارتون التى سبق ذكرها يمكننا أن نطبق معادلتنا هذه على كل شهر على حدة ، ولكن يجب فى هذه الحالة أن تكون قيمة «م» هى كمية المطر لهذا الشهر وقيمة «ح» هى معدل درجة حرارته ، كما يجب فى هذه الحالة الأخيرة أن نضرب قيمة «ق» الناتجة × ١٢ حتى يمكن مقارنتها بالحدود المناخية العامة، وقد رأينا أن نجعل هذه الحدود مطابقة للحدود التى اقترحها ديمارتون وهى :

قيمة ق (القيمة الفعلية للأمطار)	نوع المناخ والحياة النباتية
≤ ٥	مناخ جاف ــ صحراء
٥ ــ ١٠	مناخ شبه جاف ــ أعشاب فقيرة
١٠ ــ ٢٠	مناخ رطب نسبيا (استبس)
٢٠ ــ ٣٠	مناخ رطب ــ حشائش غنية وأشجار
٣٠ <	مناخ شديد الرطوبة ــ غابات

ويبين الجدول الآتى القيمة الفعلية للأمطار فى بعض محطات القسم الشمالى للمملكة الليبية المتحد محسوبة بالمعادلة ق = $\frac{م}{ح + ١٠}$.

[1] Torayah Sharaf, A., "The Climate of the British Isles, a New Classification," Bul. Soc. Geog. d'Egypte, Tom. XXVII, Sept. 1954.

(جدول ٢) القيمة الفعلية للأمطار فى شمال ليبيا

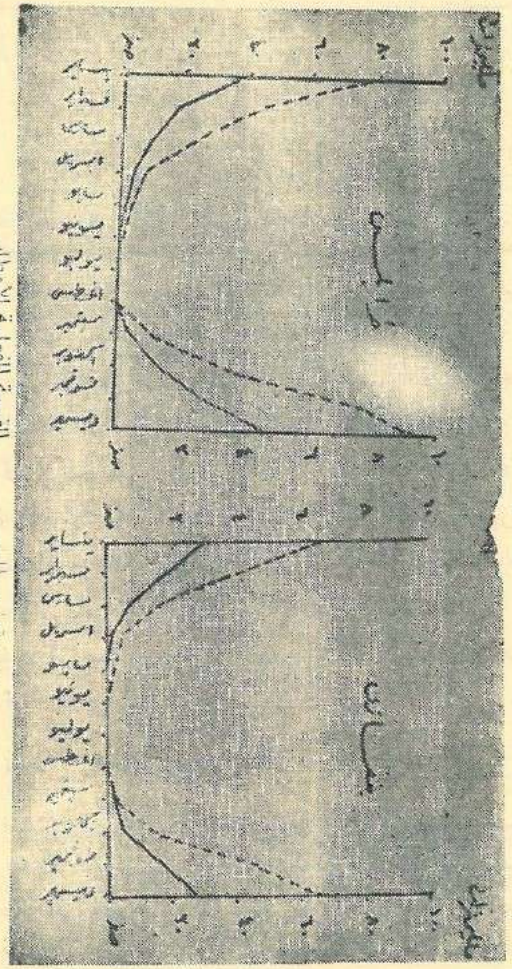
المحطة	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيو	يوليو	اغسطس	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	السنة
طرابلس	٣ر٧	٩ر١	١ر٠	٠ر٤	٠ر٢	—	—	—	٠ر٣	١ر١	٢ر٥	٤ر٥	١٣ر٣
غريان	٤ر٤	٢ر٨	٩ر١	٧ر٠	٣ر٠	١ر٠	—	—	٤ر٠	١ر٠	١ر٨	٢ر٨	١٢ر٤
هون	٠ر٢٥	٠ر٢٥	٢ر٠	١ر٠	٢ر٠	—	—	—	—	١ر٠	١ر٠	٠ر١	١ر٠
العزيزية	١ر٢	٢ر١	٨ر٠	٤ر٠	١ر٠	—	—	—	٢ر٠	٥ر٠	١ر٠	١ر٢	٧ر١
بنغازى	٣ر٣	٨ر١	٨ر٠	٢ر٠	—	—	—	—	١ر٠	٥ر٠	١ر٦	٢ر٧	٩ر٢
المرج	٥ر٨	٤ر٣	٢ر٠	٧ر٠	٢ر٠	—	—	—	—	١ر٤	٢ر١	٥ر٧	١٧ر٩
شحات	٩ر٠	٤ر٤	٣ر٠	١ر٠	٥ر٠	—	—	—	٣ر٠	١ر٤	٣ر٤	٧ر١	٢٣ر٨
درنة	٣ر٠	٢ر٠	٢ر٠	٤ر٠	٢ر٠	—	—	—	١ر٠	٠ر٦	١ر٦	٢ر٧	١٠ر٢

وتبين المنحنيات التى فى شكل (٣) توزيع الأمطار وقيمتها الفعلية فى بعض المحطات ، ومنها يتضح أن القيمة الفعلية للأمطار لا تختلف كثيرا فى نظامها عن التوزيع الفعلى للأمطار ويرجع ذلك الى أن فصل الصيف الحار هو نفسه فصل الجفاف الشديد ، ولكن يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الأرقام التى فى الجدول رقم ٢ تدل على ارتفاع فى القيمة الفعلية للأمطار فى ديسمبر ويناير وفبراير فان برودة هذه الأشهر وكثرة تعرضها لظهور الصقيع وخطورة ذلك على المحاصيل المهمة، كلها تقلل من فائدة ارتفاع القيمة الفعلية للأمطار خصوصا فى ديسمبر ويناير. وفى شهر مارس تنخفض القيمة الفعلية للأمطار انخفاضا كبيرا عنها فى شهر فبراير ، ومن الواضح أن هذا يرجع الى تناقص الأمطار نفسها من جهة والى بدء حلول موسم الدفء والحرارة من جهة أخرى .

هل هناك تناقص فى أمطار ليبيا ؟

من المتفق عليه فى الوقت الحاضر أن المناخ لم يكن يخضع فى كل الأزمنة لنظام واحد بل انه تعرض فى عصور مختلفة لعدة تغيرات كانت تتبعها تغيرات أخرى فى مظاهر الحياة على سطح الأرض ، ففى خلال الزمن الرابع الچيولوچى مثلا تعرض العالم لعدة تغيرات مناخية كبرى كان لها مظهران رئيسيان هما :

١ ــ اشتداد البرودة فى نطاق عظيم فى شمال أوراسيا وأمريكا الشمالية بدرجة جعلت هذا النطاق يتغطى بطبقات سميكة من الجليد فى عدة فترات أطلق عليها عموما



شكل ٣
العلاقة بين توزيع الأمطار وقيمتها الفعلية فى كل من طرابلس وبنغازى

اسم « العصر الجليدى » .

٢ ــ ازدياد الأمطار فى الصحراء الكبرى وغيرها من صحارى شمال افريقية وغرب آسيا فى فترات كانت تتفق عموما مع فترات اشتداد البرودة فى المناطق السابقة ، وقد أطلق على تلك الفترات الممطرة اسم « العصر المطير » .

لا يهمنا كثيرا هنا أن ندخل فى تفاصيل التغيرات المناخية التى حدثت فى الأزمنة الجيولوجية ، ولكن يجب ألا نهمل التغيرات التى تعرض لها المناخ فى العهود التاريخية والتى لا يزال يتعرض لأمثالها فى الوقت الحاضر ، اذ ان هذه التغيرات لها دخل كبير جدا فى درجة رخاء الصحارى ومبلغ ما كانت عليه من عمران فى العهود المختلفة ، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه التغيرات هى أخطر العوامل التى تزيد من صعوبة المشاكل المائية التى تواجهها هذه البلاد فى نهضتها الحديثة .

ويلاحظ أن موضوع التغيرات المناخية قد أخذ يجتذب فى الوقت الحاضر اهتمام الباحثين ، لا فى العلوم الجغرافية فحسب بل وفى علوم أخرى كثيرة منها علوم الزراعة وتصريف المياه والاقتصاد وتاريخ الحضارات والهجرات البشرية وغيرها ؛ بل ان الشخص العادى أصبح يتحدث عن مثل هذه التغيرات ، فكثيرا ما نسمع أحد شيوخنا يروى بعض القصص عن غزارة الأمطار وكثرة الزرع أيام آبائه وأجداده، ولقد كان ينظر الى هذه الروايات على أنها لا تخرج عن كونها حنينا للماضى وخيراته وثورة على الحاضر ومتاعبه كما هى عادة الانسان دائما ، الا أن الأبحاث الأخيرة أثبتت أن هذه الروايات خصوصا ما يتعلق منها بصحارى شمال افريقية وغرب آسيا تعتمد فى جملتها على أسس من الحقيقة ، حيث تبين أن الذبذبات المناخية خصوصا ما يتعلق منها بكثرة الأمطار فى عصر وقلتها فى عصر آخر كانت سببا فى موت حضارات معينة ونشوء حضارات أخرى ، وفى حدوث كثير من الغزوات والهجرات البشرية الكبرى ، وفى اضمحلال بعض المدن وازدهار غيرها .

ومما يذكر فى هذا الشأن أن هنتنجتن قد أوضح فى دراساته لبعض الحضارات القديمة فى غرب آسيا أن المناطق التى تحتلها صحارى مجدبة فى الوقت الحاضر كانت فى بعض العصور غزيرة الأمطار وعامرة بالسكان، وكانت توجد بها مدن لعبت ادوارا

المؤرخون على أنها كانت تمثل العصر الذهبى للأجزاء الشمالية من ليبيا وصحراء مصر الغربية وهذه الفترة هى التى تشتهر باسم العهد الاغريقى الرومانى ؛ فقد كانت هذه الأجزاء تعتبر فى ذلك العهد حقلا زراعيا من أعظم حقول الامبراطورية الرومانية، كما تشهد بذلك البقايا الكثيرة للمدن والآثار التى تخلفت عن ذلك العهد، ويبدو أن زراعة العنب والزيتون والقمح كانت تحتل المكان الأول بين غلات هذه المناطق ، وكانت كميات كبيرة من النبيذ وزيت الزيتون والقمح تصدر منها الى روما .

ويروى المؤرخون أن هذه البلاد قد استمرت على ما هى عليه من ثراء وعمران حتى القرن السابع الميلادى ، ثم بدأت بعد ذلك فى التأخر والاضمحلال وهجرها سكانها وتحولت الى حالة مشابهة لحالتها فى الوقت الحاضر ، وهنا يجب ان نحاول البحث عن الأسباب الحقيقية التى أدت الى هذا الاضمحلال ، فان وجدناها أسبابا عارضة يمكن التغلب عليها سهل علينا أن نبنى مشروعاتنا على أسس ثابتة فنضمن لها النجاح ؛ أما اذا كان من هذه الأسباب ما هو مرتبط بتغيرات طبيعية لا قبل لنا بالتحكم فيها وتعديلها فما علينا الا أن نبذل مجهودا أكبر ونبحث عن وسائل جديدة للنهوض بالانتاج الزراعى وغير الزراعى فى هذه البلاد على حسب ما تمليه علينا الظروف الطبيعية الجديدة .

ان الكتاب الغربيين يميلون دائما الى الأخذ بوجهة النظر التى تقول بأن حالة الاضمحلال التى طرأت على بلاد القسم الشمالى من ليبيا وصحراء مصر الغربية جاءت نتيجة مباشرة للفتح العربى ، لأن العرب ، كما يدعى هؤلاء الكتاب ، نهبوا حقوله وخربوا مدنه ولم يحاولوا تطبيق الوسائل الناجحة التى كان اليونانيون والرومان يتبعونها فى الزراعة وغير ذلك من وسائل الانتاج، وفيما يلى على سبيل المثال ما ورد فى التقرير الذى أعدته منظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ورفعته الى الحكومة الليبية .

« فى القرن السابع الميلادى اكتسح العرب بلاد ليبيا ووحدوا كل شمال افريقية وبلاد العرب واسبانيا تحت حكمهم ، وحل الاسلام محل المسيحية ، وعندما سقطت روما اختل النظام والأمن فى البلاد وقضى على الزراعة المستقرة اللهم فى بعض

تكرر هذا الرقم سهوا

مهمة فى التاريخ ، فقرية العوجة مثلا وهى قرية صغيرة جدا على الحدود الشرقية لمصر تدل آثارها وما يرويه عنها المؤرخون على أنها كانت فى بعض العهود التاريخية مدينة ذات شأن ، وكذلك مدينة الخليل (حبرون) فى فلسطين كانت فيما مضى أعظم اتساعا منها الآن ، كما تدل على ذلك بقايا المساكن والضواحى التى كانت تكون جزءا منها ، وبلدة تدمر فى بادية الشام يجمع المؤرخون على أن سكانها كانوا فى القرن الثامن الميلادى تقريبا حوالى مائة الف نسمة ، وهى الآن عبارة عن بقعة صحراوية لا تكاد موارد مياهها تكفى لحياة أكثر من الف شخص .

ومن الحقائق المعروفة أيضا أن صحارى ليبيا وغرب مصر قد مرت بها عهود فيما قبل التاريخ كانت الأمطار فيها أكثر منها فى الوقت الحاضر ، وكانت تسكنها فى بعض تلك العهود جماعات بشرية كبيرة العدد ، وكان النطاق الساحلى فى شمال مصر وليبيا بصفة خاصة مزدحما بالسكان الذين كانوا يشتغلون برعى قطعان كبيرة جدا من الغنم والماعز والبقر والحمير ، كما كانوا يقومون بالصيد وبعض الزراعة الأولية[1] .

وفى بداية العصر التاريخى أى منذ حوالى ٦٠٠٠ سنة استمر هذا النطاق الساحلى زاخرا بالحياة ، وكانت تغطية مراع غنية تربى عليها قطعان كبيرة جدا من الماشية ، وقد ذكر بعض المؤرخين ان ملوك مصر فى عهد الأسرات القديمة كانوا يرجعون من حروبهم مع القبائل التى كانت تسكن فى هذا النطاق بأعداد ضخمة من الأسرى والمواشى ؛ فقد قيل مثلا ان الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى قد أسر من هذه القبائل ١٢٠ الف أسير وغنم منهم ٤٠٠ الف رأس من البقر ومليون و ٤٢٢ الف راس من الغنم والماعز ؛ وفى عهد الأسرة الخامسة غنم ساهورع من نفس المنطقة أكثر من ١٢٣ الف رأس من البقر و ٢٣٣ الف رأس من الحمير و ٤٧٦ الف رأس من الغنم والماعز[2] . ولئن دلت هذه الأعداد على شىء فانما تدل على مبلغ رخاء هذه المناطق .

على أن تلك العهود الأولى لا تهمنا الآن بقدر ما تهمنا تلك الفترة التى اتفق

1 - de Cosson, A., "Mareotis", London 1935, P. 316.
2 - Oric Bates, "The Eastern Libyans", 1914.

المراكز التى أمكن الدفاع عنها ، وكان ذلك ايذانا بانتهاء احدى الحضارات الراقية التى عاشت حوالى ١٠٠٠ سنة ؛ وقد احتل البدو البلاد وردمت الآبار والخزانات، الا ما كان منها ضروريا لسقى الماشية التى أصبحت فى جملتها مكونة من الجمال ، كما فقدت التجارة أهميتها بسبب التعصب الدينى والأطماع الحربية والسياسية ، وان كانت التجارة مع البلاد الواقعة فى قلب الصحراء قد ظلت قائمة بل انها ازدادت نشاطا ، وفى القرن الحادى عشر جاءت غزوات بنى هلال وبنى سليم فقضت على البقية الباقية من آثار الرخاء » .

ومن الواضح أن الدليل الوحيد الذى يستند اليه هذا الرأى هو أن بدء اضمحلال المستعمرات الرومانية فى ليبيا وشمال غرب مصر قد حدث فى نفس القرن الذى حدث فيه الفتح العربى لهذه البلاد ؛ والواقع أن هذا التوافق مشكوك فيه الى حد كبير ؛ فبينما يرى بعض الكتاب أن اضمحلال المستعمرات الرومانية قد بدأ منذ حوالى سنة ٦٠٠ ميلادية أى قبل الفتح العربى بحوالى ٤٠ سنة نجد أن البعض الآخر يؤكد أن هذه البلاد ظلت على ما هى عليه من غنى وعمران لمدة طويلة بعد الفتح العربى ، فقد ذكر ديكوسون مثلا عند دراسته للآثار اليونانية والرومانية فى شمال صحراء مصر الغربية « أن هذه المنطقة بدأت فى التأخر التدريجى وأخذت تسودها المظاهر الصحراوية ابتداءا من سنة ٦٠٠ ميلادية بسبب تفشى مرض الطاعون وحدوث زلزال عنيف ، حيث أدت هاتان الحادثتان الى هلاك كثير من السكان وتخريب كثير من المبانى » .

وبينما يرى دى كوسون هذا الرأى نجد أن بتلر[2] يقول فى كتابه عن فتح العرب لمصر ، « انه ليس شىء أبعد عن الحق من أن يقول قائل ان الطريق الى غرب مصر كان يشق فيافى قاحلة ، فلدينا من الأدلة ما يذكر بصراحة ان كل أرض الساحل الواقعة الى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة على الفتح العربى » . كما يقول فى موضع آخر عند كلامه على حملة عمرو بن العاص على برقة « واذا قلنا ان السير فى ذلك الطريق كان سهلا على جند الرومان فانه كان نزهة لفرسان العرب ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد »[3] .

1 - de Cosson, Ibid, PP. 52 & 59.

2 - Butler, A.J. "The Arab Conquest of Egypt, 1902, P. 10

3 - Ibid, P. 428

تكرر هذا الرقم سهوا

واذا ما صرفنا النظر عن الخلاف بين الكتاب فيما يختص بتحديد تاريخ الاضمحلال تحديدا دقيقا فاننا نلاحظ أن هناك اتفاقا عاما على أن هذا الاضمحلال قد بدأ فى القرن السابع الميلادى ، وبالبحث فى تاريخ الحضارات التى كانت موجودة فى ذلك الوقت تقريبا، تبين أن هناك توافقا عاما بين تاريخ اضمحلالها وبين تاريخ اضمحلال حضارات شمال افريقية وغرب آسيا، كما تبين أن تغيرات المناخ كانت هى المسئولة بصفة خاصة عن هذا الاضمحلال ، فقد لوحظ مثلا أن معظم الآثار التى خلفها أصحاب حضارات المايا القديمة فى أمريكا الوسطى موجودة فى منطقة مدارية لا تسمح ظروفها المناخية فى الوقت الحاضر بظهور أى حضارة راقية بسبب شدة حرارتها وغزارة أمطارها وكثافة الحياة النباتية الطبيعية وانتشار الحشرات بها ، ومن الصعب علينا أن نتصور أن مناخ هذه المنطقة كان فى عهد ازدهار حضارات المايا مشابها تماما لما هو عليه الآن ؛ وقد استنتج هنتنجتن من دراسته لهذه المنطقة وللمناطق الواقعة الى الشمال منها فى كاليفورنيا أنها جميعا قد تعرضت لبعض الذبذبات المناخية التى كان أثرها يظهر بوضوح فى ياكاتان وجواتيمالا فى الجنوب ، وفى كاليفورنيا فى الشمال ، ولكن أثر هذه الذبذبات كان فى ياكاتان وجواتيمالا معاكسا له فى كاليفورنيا بمعنى أن الفترات التى كانت تزداد فيها الأمطار فى المنطقتين الأوليين كانت تقل فيها الأمطار فى المنطقة الأخيرة ؛ وهذا هو ما حدث فى القرن السابع الميلادى وترتب عليه اشتداد الجفاف فى كاليفورنيا وازدياد الأمطار فى جواتيمالا وياكاتان بدرجة أدت الى تدهور حضارة المايا التى كانت مزدهرة فيها ، وقد قارن هنتنجتن هذه التغيرات المناخية بتلك التغيرات التى كانت تحدث فى بعض المناطق الواقعة على نفس خطوط العرض فى غرب آسيا وشمال افريقية ، ولاحظ أنه كان يوجد توافق واضح بين الفترات الممطرة والفترات الجافة فى كاليفورنيا من جهة وفى صحارى العالم العربى من جهة أخرى ؛ ويرجع هنتنجتن أن القرن السابع الميلادى قد شاهد بدء فترة من الجفاف الشديد فى جميع هذه الصحارى ، وأن هذه الفترة هى التى لا نزال نلمس آثارها فى الوقت الحاضر .

ولئن تركنا التغيرات المناخية التى حدثت فى العهود التاريخية جانبا ، وحاولنا أن ندرس الوضع الراهن ، نجد أن الأمطار لا تزال تتعرض فى الوقت الحاضر لتغيرات واضحة من سنة الى أخرى ، كما سبق أن بينا ، وقد يكون من الصعب

أن ندرك لأول وهلة اذا ما كانت هذه التغيرات تسير عموما فى اتجاه واحد نحو الزيادة أو النقصان ، ولكن مع ذلك أمكننا أن نوضح كيف أن أمطار الساحل الشمالى لمصر وليبيا لا تزال فى تناقص مستمر بمعدل يبلغ حوالى ٧ و ٠ من المليمتر كل عام، وذلك بعد أن حصلنا على أطول احصائيات ممكنة للأمطار فى الاسكندرية وطرابلس، ففى المدينة الأولى أمكن الحصول على أرقام ٨٨ سنة (١٨٦٨ — ١٩٥٥) وفى الثانية على أرقام ٧٧ سنة (١٨٧٩ — ١٩٥٥) — وقد قسمنا هاتين الفترتين الى فترات قصيرة نسبيا طول كل منها ١٢ سنة ، واستخرجنا المعدلات السنوية للأمطار خلال هذه الفترات ، وحصلنا من ذلك على المنحنيين المبينين فى شكل (٤) ومنهما يظهر بوضوح أن أمطار السواحل الشمالية لمصر وليبيا ما زالت آخذة فى التناقص ، وأن فترة الجفاف التى بدأت فى القرن السابع الميلادى لا تزال مستمرة فى الوقت الحاضر ، ويغلب على الظن أنها لم تصل بعد الى أقصى شدتها ، ولكن هذا لا يعنى أن تناقص

(جدول ٣)

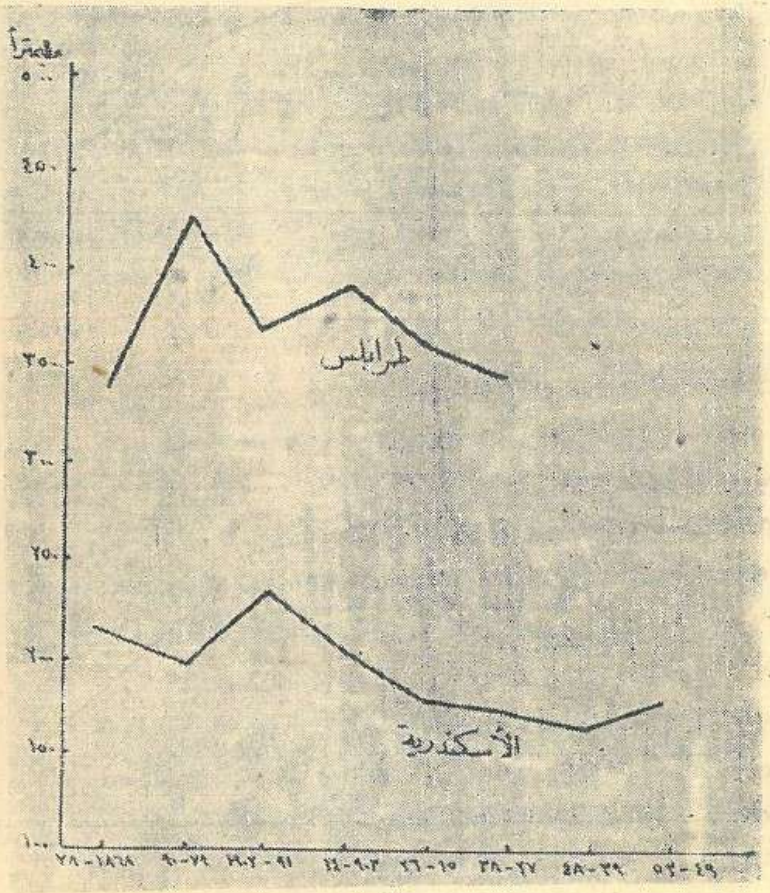
معدلات الامطار فى الاسكندرية وطرابلس لفترات كل منها ١٢ سنة

الفترة	الاسكندرية	طرابلس
من ١٨٦٨ — ١٨٧٨ (١١) سنة	٢١٤	—
من ١٨٧٩ — ١٨٩٠	١٩٦	٣٤٠
من ١٨٩١ — ١٩٠٢	٢٣٣	٤٢٧
من ١٩٠٢ — ١٩١٤	٢٠٠	٣٦٦
من ١٩١٥ — ١٩٢٦	١٧٧	٣٨٤
من ١٩٢٧ — ١٩٣٨	١٧٠	٣٥٦
من ١٩٣٩ — ١٩٤٨	١٦٣	٣٤٤
من ١٩٤٩ — ١٩٥٢	١٧٣	—

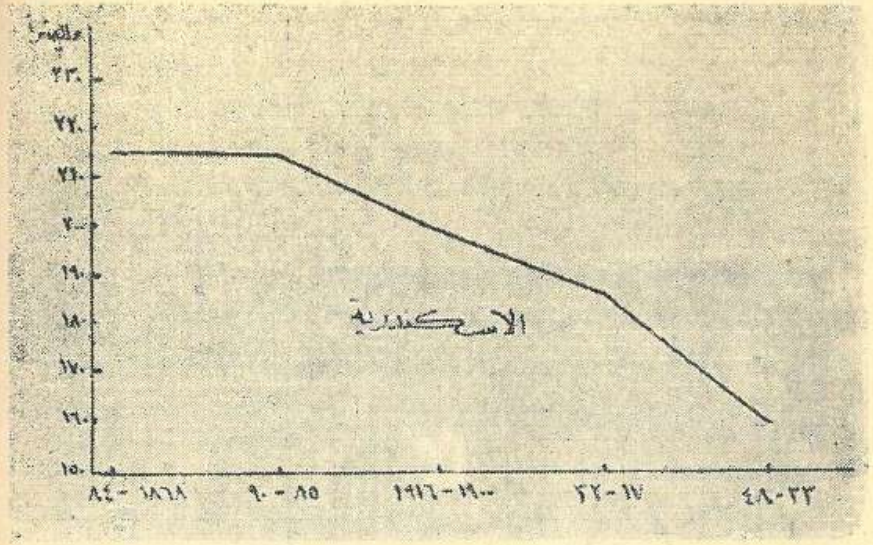
الأمطار يحدث باطراد وبنظام ثابت ، لأن أمطار هذا الاقليم تتباين فى كميتها تباينا كبيرا نحو الزيادة أو النقصان من سنة الى أخرى ، بحيث يستحيل علينا أن ندرك

تزايدها أو تناقصها الا اذا قارنا أرقامها على طول فترات طويلة ، ويبين الجدول رقم (٤) الكميات السنوية للأمطار التى سقطت فى كل من طرابلس والاسكندرية فى أطول مدة أمكن جمع احصائيات لها فى كل مدينة من هاتين المدينتين .

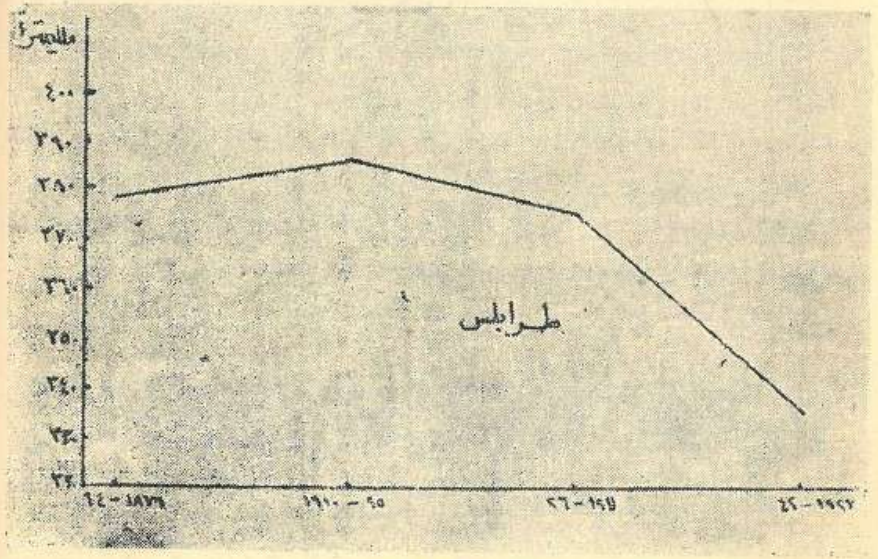
وتبدو ظاهرة تناقص الأمطار بشكل أكثر وضوحا اذا ما قارنا معدلاتها فى فترات أطول من الفترات السابقة ، كما فى شكلى ٥ و ٦ اللذين جعلنا طول الفترات فيهما ١٦ سنة بدلا من ١٢ سنة .



شكل ٤



شكل ٥



شكل ٦

استغلال مياه الأمطار المنحدرة على سطح الأرض :

على الرغم من قلة الأمطار فى المملكة الليبية بصفة عامة ، فمن المؤكد أن هذه الأمطار تكفى لو استغلت على الوجه الأكمل لبناء مستقبل اقتصادى مضمون مستقر لمناطق أوسع بكثير من المناطق التى تتمتع بالعمران أو الاستقرار الزراعى والرعوى فى الوقت الحاضر ، خصوصا فى الشريط الساحلى الضيق الممتد على طول البحر المتوسط فى برقة وطرابلس .

ولكى يمكننا أن نستفيد بالمياه السطحية الفائدة المطلوبة يجب علينا أولا أن نحاول تقدير كميتها ولو بصورة تقريبية ، الا أن مثل هذا التقدير ما زالت تعترضه لسوء الحظ صعوبات كثيرة لأنه مرتبط ، كما سبق أن بينا عند الكلام على القيمة الفعلية للأمطار ، بعوامل متعددة من أهمها كمية الأمطار نفسها، ومدى نشاط عمليتى التبخر من التربة والنتح من النباتات ، ودرجة مسامية الطبقات السطحية من الأرض فى المناطق التى تسقط فيها الأمطار ، وما يوجد بها من شقوق وفجوات تتسرب المياه عن طريقها نحو الباطن .

وليس من شك فى أن نظام سقوط الأمطار له علاقة وثيقة بكمية المياه السطحية ، فالأمطار التى تسقط بغزارة ولو فى فترات متباعدة تساعد على جريان المياه اكثر من الأمطار المتواصلة التى تسقط على شكل رذاذ . وقد سبق أن ذكرنا أن أمطار المملكة الليبية فى جملتها من النوع الاعصارى الذى يسقط فى فترات منقطعة ، ولكن نظرا لقلتها فانها لا تكفى الا لظهور مجار وقتية لا تلبث أن تجف عقب توقف سقوط الأمطار بوقت قصير ، ومن النادر أن يستمر جريان المياه فيها لأكثر من بضعة أيام .

وهناك عامل آخر مهم يجب عدم اغفاله عندما نحاول تقدير القيمة الفعلية للمياه المنحدرة على سطح الأرض، وهو وجود نسبة مرتفعة من الأملاح التى قد تختلط بهذه المياه فى بعض المناطق وتؤدى الى التقليل من فائدتها للشرب أو لأغراض الرى .

وكثيرا ما يحدث فى مناطق التكوينات الجيرية التى تكثر بها الشقوق والكهوف الباطنية أن تنساب المياه فى هذه الشقوق والكهوف وتتكون منها أنهار سفلية ؛ وقد يحدث أن تعود مياه هذه الأنهار للظهور على سطح الأرض مرة أخرى اما على شكل مجار صغيرة أو على شكل عيون تنبثق على جوانب المنحدرات أو فى قاع الوديان ، ومثل هذه المياه لا يمكننا أن نعتبرها مياها سطحية بمعنى الكلمة، بل يحسن أن ندخلها فى باب المياه الباطنية . وتوجد الأنهار السفلية فى ليبيا فى منطقة الجبل الأخضر فى برقة ومنطقة جبل نفوسة فى طرابلس ، وهما نفس المنطقتين اللتين توجد فيهما أهم مجارى المياه السطحية فى البلاد .

وعلى الرغم من أن المياه التى تجرى فى جميع الوديان قليلة بصفة عامة وان جريانها لا يستمر الا لفترات قصيرة تتراوح بين بضع ساعات وبضعة أيام فان بعض هذه الوديان يفيض فى بعض السنوات فيضانات خطيرة يترتب عليها حدوث خسائر فادحة فى الثروة الزراعية والثروة الحيوانية ، وينطبق هذا بصفة خاصة على وادى المجنين الذى ينتهى الى البحر عند مدينة طرابلس .

وان عدم انتظام جريان المياه فى الوديان المختلفة بالصورة التى وصفناها قد جعل من الصعب عمل مشروعات كبيرة مضمونة النتائج لاستغلال مياه هذه الوديان ؛ ولكن مع ذلك فمن الممكن عمل مشروعات خاصة لا تتكلف أموالا كثيرة اما لتنظيم جريان المياه فى بعض هذه الوديان أو لتخزينها فى المواضع التى تصلح لهذا الغرض . ولكن يلاحظ أن أى مشروع من هذه المشروعات ، مهما كان بسيطا يتطلب دراسة مفصلة لمظاهر السطح والتركيب الچيولوچى فى كل المنطقة التى تنصرف مياهها الى الوادى وروافده بصفة عامة وفى قاع الوادى نفسه بصفة خاصة .

ولن أحاول هنا أن أتعرض لتفاصيل المشروعات التى يمكن بواسطتها استغلال المياه التى تنحدر على سطح الأرض ، ويكفى أن أشير باختصار الى الطرق العامة التى يمكن اتباعها لتحقيق هذا الغرض وهى :

أولا ــ انشاء سدود صغيرة أو كبيرة لتخزين المياه فى بعض الوديان التى تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة لذلك من حيث مظاهر السطح والتركيب الچيولوچى وكمية الأمطار التى تتجمع فيها . وهناك أودية كثيرة يحتمل أن ينجح استغلال مياهها

بهذه الطريقة الا اذا أثبتت الدراسات التفصيلية عكس ذلك ، ومن أمثلة هذه الأودية فى برقة وادى الباكور وبعض روافد وادى الكوف ووادى درنه وبعض الوديان القصيرة التى تنحدر نحو حوض المرج ، ومن أمثلتها فى طرابلس وادى ترهونة ووادى تالوت ووادى المجنين ووادى صوفجين ووادى الحيرة . وقد بنى بالفعل سد لتخزين المياه فى هذا الوادى الأخير ولكن تبين لسوء الحظ أن قاع الوادى به رشح كثير يؤدى الى ضياع المياه بالتسرب نحو الباطن .

ثانيا ــ تحويل مياه بعض الوديان الى المناطق الزراعية المجاورة لها ، وذلك لغمر هذه المناطق بالمياه فى موسم الأمطار، وهذا يتطلب بناء سدود صغيرة فى مواضع معينة من هذه الوديان ، وهذه الطريقة لا تؤدى الى تنظيم جريان المياه بمعنى الكلمة ، ولكنها فى الواقع عبارة عن نوع من الرى أشبه برى الحياض فى مصر ، ومن أهم مميزاتها أنها تساعد على تجديد التربة فى المناطق الزراعية ، كما أنها تساعد على زيادة مساحة الرقعة المزروعة ، بفضل الرواسب التى تتوزع باستمرار على سطحها وعلى جوانبها . ويعتبر حوض المرج فى برقة مثالا ممتازا أوجدته الطبيعة لهذا النوع من الرى ، فهذا الحوض عبارة عن سهل فيضى تبلغ مساحته حوالى ٩٫٥٠٠ هكتار ، وكثيرا ما تؤدى غزارة الأمطار التى تسقط على هذا السهل وعلى المرتفعات المحيطة به فى بعض السنين الى غمره تماما بالمياه خصوصا فى القسم المنخفض منه، وهو القسم الذى يشتهر باسم الغريق ومساحته حوالى ٢٤٢٠ هكتارا، وفيه نجد أن الأرض تتغطى أحيانا بطبقة من المياه يزيد عمقها على متر ، ويغلب الا تجف هذه المياه الا فى أوائل فصل الصيف أو فى أواسطه .

ح ــ تحويل بعض الوديان الى مدرجات تغطيها طبقة من التربة الناعمة الخصبة ؛ والوسيلة الى ذلك هى بناء حواجز أو سدود قليلة الارتفاع فى مواضع متفرقة على امتداد هذه الوديان حيثما تسمح الظروف بذلك ؛ والغرض من هذا هو تهيئة الفرصة للرواسب التى تحملها المياه لكى تتراكم أمام السدود المبينة فتتكون بذلك مصاطب تغطيها طبقة من التربة يمكن استغلالها للزراعة، أما المياه الزائدة فيمكن توجيهها الى مجار صغيرة على جوانب هذه المصاطب، ولكن على الرغم من فوائد هذه الطريقة فان مساحات الأرض الزراعية التى تتكون بواسطتها تكون غالبا صغيرة ومتفرقة .

الصهاريج (الآبار الرومانية) :

من الوسائل المهمة التى لجأ اليها الرومان لاستغلال مياه الأمطار انهم كانوا يحفرون تحت سطح الأرض غرفا يمكن أن تنحدر اليها المياه من المناطق المجاورة فيمكن بذلك تخزينها والاستفادة بها عند الحاجة ، وهذه الغرف هى التى تشتهر باسم «الصهاريج» أو «الآبـار الرومانية» ؛ وقد ترك الرومان أعـدادا كبيرة من هذه الآبار فى شمال ليبيا وشمال صحراء مصر الغربية ؛ ولا يزال هذا الأسلوب من أساليب استغلال مياه المطر ذا أهمية كبيرة فى الوقت الحاضر ، ولهذا فمن الضرورى تطهير كل ما يمكن تطهيره من الآبار القديمة وانشاء آبـار جديدة من نفس النوع فى الأماكن التى تصلح لهذا الغرض .

وهناك شرطان أساسيان يجب توفرهما فى المواضـع التى تصلح لانشـاء الصهاريج وهما :

١ ــ ان يكون سطح الأرض منحدرا نحو فتحة الصهريج حتى يمكن أن تنحدر اليه أكبر كمية ممكنة من المياه ، وكثيرا ما يستعان على توصيل المياه الى فتحة الصهريج بواسطة حفر مجار صناعية تجرى فيها المياه .

٢ ــ أن تكون الصخور التى يحفر فيها الصهريج لينة بدرجـة تساعد على عملية الحفر وتكون فى نفس الوقت صماء بقدر الامكان حتى لا تضيع الميـاه المخزونة فيها بالتسرب ، ولضمان عدم تسرب المياه الى الخارج يمكن أن تغطى جدران الصهريج من الداخل بواسطة طبقة من المصيص .

ولكن يلاحظ أن هذين الشرطين لا يسهل أن نجدهما متوفرين فى مواضـع كثيرة متجاورة ، ولهذا فاننا لا نستطيع أن نعتمد على هذه الصهاريج وحدها لتغذية مراكز عمرانية كبيرة نسبيا ، ولكن مـع ذلك فانها ضرورية جدا للبدو الرحـل خصوصا فى المناطق البعيدة عن الساحل .

وتكون مياه هذه الصهاريج غالبا أفضل للشرب من مياه الآبار والسراديب التى تستمد مياهها من الطبقات الباطنية ، وذلك لأن انحدار مياه الصهاريج على سطح الأرض يكون لمسافة قصيرة نسبيا ولا تختلط بها لهذا السبب الا نسبة قليلة جدا من الأملاح .

(جدول ٤) كميات الأمطار التى سقطت فى الاسكندرية وطرابلس (بالمليمتر)
فى اطول عدد ممكن من السنين

السنة	كمية المطر فى الاسكندرية	كمية المطر فى طرابلس	السنة	كمية المطر فى الاسكندرية	طرابلس كمية المطر فى
١٨٦٨	٣٠٥		٩٨	٣١٤	٦١٩
٦٩	١٦١		٩٩	٢٤٦	٤٥٩
٧٠	٨٠		١٩٠٠	٢٠٢	٢٧٣
٧١	١٨٠		١	٢٢٥	٢٩٩
٧٢	٣١٣		٢	٢٥٨	٣٠٦
٧٣	٢٧١		٣	١٧٢	٢٥١
٧٤	١٨٣		٤	١٩٦	٥٧٢
٧٥	١٩٥		٥	٢٧٠	٣٨١
٧٦	٢٧٥		٦	٢٠٧	٥٢٣
٧٧	٢٦٧		٧	١٦٠	٣٢٥
٧٨	١٢٣		٨	٢٦٠	٢٥٩
٧٩	٨٦	٤٠٢	٩	٢٠٩	٣٣٠
٨٠	٢٧٠	٤٨٥	١٠	١٨٠	٣٧٩
٨١	١٧١	٢٩٦	١١	١٨٨	٣٩٢
٨٢	—	٣٦٢	١٢	٩٣	٤١١
٨٣	٢٤٠	٣٥٧	١٣	٢٦٠	٣٦٩
٨٤	٢٠٣	٥٥٨	١٤	٢٠٦	١٩٨
٨٥	٨٤	٢٦٣	١٥	٨٢	١٦٦
٨٦	٢٦	٢٥٢	١٦	١٩٩	٢٢٠
٨٧	٦٩	١٩٦	١٧	٢٠٠	٢٥٧
٨٨	٥٧٢	٣٥٣	١٨	١٧٩	٣٨٩
٨٩	٢٢٥	٢٦٢	١٩	٢٢٤	٤٢٠
٩٠	١١٨	٣٩٣	٢٠	١٣٣	٤٢٩
٩١	١١٠	٢٩٣	٢١	١٨٣	٥٨١
٩٢	١٩٧	٢٩٨	٢٢	١٨٧	٣٦٣
٩٣	٣٠٠	٦١٤	٢٣	١٠٥	٣٧٧
٩٤	٢٤٧	٧٥٨	٢٤	٢٧٠	٣٧٠
٩٥	١٦٨	٢١٣	٢٥	١٨٦	٥٦٣
٩٦	٢٠٨	٤٧٠	٢٦	١٦٥	٢٧٢
٩٧	٣٢٦	٥٢٤	٢٧	٢١٠	١٩٧

السنة	كمية المطر فى الاسكندرية	كمية المطر فى طرابلس	السنة	كمية المطر فى الاسكندرية	كمية المطر فى طرابلس
٢٨	٩٩	٣٤٢	٤٢	٩٣	١٩٨
٢٩	٢٤٨	٣٧٤	٤٣	١٩٤	٤٠٩
٣٠	٩٥	٢٧١	٤٤	٢١٨	٤٦٢
٣١	٣٣	٣٥٣	٤٥	١٩٧	٥٩٤
٣٢	٢٥١	٣٧٦	٤٦	١١٤	٣٧٨
٣٣	٨٨	٥٢٩	٤٧	١١٤	١٦٤
٣٤	٢٠٣	٤٢٨	٤٨	٢٨٢	٣٧٢
٣٥	١٤٢	٢٧٤	٤٩	٢٩٤	٣٢٨
٣٦	١٢٥	٢٥١	٥٠	١٥٠	٤٥٧
٣٧	١٥٠	٢٢٠	٥١	١٣١	٢٤٩
٣٨	٢٢٨	٦٥٥	٥٢	١١٧	٢٢٩
٣٩	٧٥	٢٩٨	٥٣		٤٩٩
٤٠	١٩٨	٣٢٤	٥٤		٣٢٨
٤١	١٥٤	٢٤٧	٥٥		٢٩٥

باب عرضه الكتب ونقدها

كتاب الاحاطة

فى اخبار غرناطة *

هذا الكتاب أشهر كتب لسان الدين بن الخطيب واضخمها ، وهو من أشهر الكتب الاندلسية عامة . وقد عرفته المطبعة المصرية فى مطالع هذا القرن ، فأخرجت الجزء الأول والثانى منه ، واستطاعت هذه النشرة الجزئية أن تقضى اذ ذاك بعض حاجات الادباء والدارسين . ثم كانت النهضة العلمية الحديثة فى صناعة النشر ، وكان اقتضاب تلك النشرة وعيوبها الفنية وقدم العهد بها ، مما يقتضى الأخذ فى نشره كاملا محققا ، على الاصول العلمية للنشر .

واستجاب الاستاذ محمد عبد الله عنان لهذه الحوافز، وهو الرجل الذى أقبل على الدراسات الأندلسية منذ عهد بعيد ، اقبالا دائبا متعمقا بصيرا ، وبذل فيها غاية جهده ومنتهى وكده ، فاقتحم هذا المجال ، وأخذ فى تحقيق الجزء الأول من الاحاطة واعداده للنشر ، وبذل فى ذلك جهدا كبيرا استغرق منه — كما يقول فى مقدمته — فترة طويلة من العمل المتواصل بالقاهرة ومدريد والاسكوريال .

وكان هذا الجزء الذى أخرجته دار المعارف — اخراجا انيقا — فى سلسلة ذخائر العرب ، ثمرة هذا الجهد ، ونتيجة ذلك العمل المتواصل فى مصر واسبانيا .

ولا ريب أن ظهور هذا الكتاب ، بتحقيقاته التاريخية التى عرف الاستاذ عنان بها ، قد أخذ يسد حاجة كبيرة من حاجات الدرس الأدبى ، وحاجات القومية العربية الناهضة معا . وجدير به ان يعد من الاحداث البارزة فى تاريخ النشاط الأدبى والعلمى المعاصر .

وبقدر المكانة الكبرى التى يحتلها كتاب الاحاطة من تاريخنا الادبى وتراثنا العربى، وبقدر منزلة الاستاذ الناشر فى الدراسات الأندلسية، كان استبشارنا لظهوره وتحفينا به، وبقدر ذلك كله ينبغى ان يكون اقبالنا على درسه درسا ناقدا ، يتناوله من نواحيه المختلفة .

---

* هذا هو الاسم الدارج للكتاب، وبه نشر . ولكن لسان الدين نفسه يسميه فى قائمة الكتب التى اوردها فى آخر الاحاطة ، ونقلها عنه المقرى فى نفح الطيب : « الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » . ثم جعل الاستعمال يختصر هذا الاسم ، فصار « الاحاطة باخبار غرناطة » كما سماه البشتكى فى مقدمة مختصره « مركز الاحاطة »

أما انا فسأجعل هذه الدراسة خاصة بناحية النشر ، ومدى توفيق الاستاذ الناشر فى اخراجه ، وابدأ ذلك بالنظر فى الأصول التى اعتمد عليها ، واستند فى تحقيق النص اليها .

والاصول فى النشر العلمى ــ كما نعلم ــ نوعان : أصول مباشرة ، وأصول غير مباشرة .

أما الأصول المباشرة فهى مخطوطات الكتاب . وجملة ما اتيح للاستاذ الناشر منها اربع ، صنفها صنفين ، وجعلها مجموعتين متفاوتى القيمة والمنزلة :

المجموعة الأولى تتألف من مخطوطتين ، واحدة مصرية وهى مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ، والأخرى اسبانية، وهى مخطوطة جاينجوس المحفوظة ضمن مجموعته فى اكاديمية التاريخ بمدريد . والمجموعة الثانية تتألف من مخطوطتين أيضا ، واحدة مصرية وهى مخطوطة رواق المغاربة بالأزهر ، والأخرى اسبانية تونسية ، وهى مخطوطة كوديرا المأخوذة عن نسخة جامع الزيتونة بتونس ، والمحفوظة بمكتبة اكاديمية التاريخ الملكية . وقد رأى الناشر أن يكتفى بها عن أصلها ، متجاوزا بذلك حدود المنهج العلمى .

فأما المجموعة الأولى فهى التى اعتبرها الأصل ، وجعل مخطوطتيها عمدته فى نشر هذا المجلد الأول تدوينا وضبطا وتحقيقا ، لأنه قد انتهى بالبحث والمقارنة الى انهما « اقدم ما وصل الينا من اجزاء الاحاطة الأولى ، والى انهما فى الوقت نفسه من حيث الكتابة والنص اقيمها واصحها » كما هو نص عبارته.

ووددنا لو انه اشرك القارىء معه فى خطوات البحث والمقارنة التى انتهى بها الى الحكم لهاتين المخطوطتين بالاقدمية والأصحية، بحيث آثرهما هذا الايثار، وكاد يهدر ما عداهما .

أما نحن فلم نر فيما ذكره عن هاتين المخطوطتين ما يوليهما هذا الحق، ويؤثرهما بهذه المأثرة ، فليست واحدة منهما نسخة المؤلف ، أو نسخة قرئت على المؤلف ، أو نسخة منسوبة نسبا كريما معترفا به يحلها هذه المنزلة ، أو حظيت فى تاريخ حياتها بما عسى أن يسمو بها حتى تتجاوز غيرها ، فلا شىء من ذلك يمكن أن توصف به هذه أو تلك لتظفر بذلك الشرف، وتخمل ما عداها كمخطوطة جامع الزيتونة أو رواق المغاربة . ولسنا بحاجة الى أن نراجعهما لنرى أن فيهما الى جانب القراءة الصحيحة القراءة الفاسدة ، والى جانب القراءة المحتملة الخطأ المصمت الذى لا وجه

له ، فذلك ما تثبته فى وضوح وجلاء القراءات المثبتة فى هامش هذه النشرة ، كما تثبت الى جانب ذلك ــ كما سنرى ذلك فيما بعد ــ أن من المخطوطتين المفصولتين ما لم تتورط فى مثل هذه الاخطاء .

وكان مما ترتب على اعتبار مخطوطتى دار الكتب وجاينجوس أصلا وعمدة ، أن جعلهما الناشر الحكم الذى يحتكم اليه ، ويقبل حكومته ، فى اكثر الأحيان . فيقبل ما يوردانه ويثبته وان كان محالا ظاهر الخطأ ، ويزيف ما عداه ويطرحه ، وان كان ظاهر الصواب ، بل وان كان متعينا لا يجوز غيره .

وقد لاحظنا هذا فى غير موضع ، وأخذ منا العجب ــ أول الأمر ــ كل مأخذ. ولكن هذا العجب لم يلبث أن زال عنا حين ادركنا السر فى ذلك ، وهو هذا التأصيل الذى لا أصل له، والايثار فى غير مأثرة .

* * *

وبعد ، فاذا كان هنالك بين الأصول المخطوطة التى عرف بها الأستاذ الناشر فى المقدمة ، أصل هو أول بالتقدمة ، وآثر بالأولوية ، لكان ذلك الأصل هو مخطوطة رواق المغاربة (ر٠م) . وحسبها فى ذلك ما يذكره الاستاذ الناشر من صفتها « ان بهوامشها تعليقات واستدراكات للمقرى صاحب كتاب نفح الطيب وبخطه . ومنها فى صفحة ٢٧٩ هامش كتبه تأييدا لقرشية نسب جده ابى عبد الله المقرى . وفى نهايته ما يأتى : « قال هذا وكتبه الفقير أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، نزيل فاس ، بالقاهرة المحروسة ، سنة ١٠٢٩هـ. عرفنا الله خيره » .

ومنذ قرأت هذه الفقرة عن مخطوطة رواق المغاربة وأنا أحس احساسا قويا بخطرها ، ثم تحول ذلك الاحساس الى خاطر ما زال يراودنى ويساورنى ويلح على: الا يمكن أن تكون نسخة رواق المغاربة هذه بقية من النسخة التى كانت فى مصر ايام كان المقرى فيها ، عالما من علمائها ، وشيخا ظاهر المكانة من شيوخ الازهر ، والتى كان يرجع اليها فى تأليف كتابه : نفح الطيب ، ويصدر عنها بما كان يورده فى هذا الكتاب عن كتاب ابن الخطيب ؟ ذلك فرض على كل حال جد قريب . ثم الا يمكن أن تكون هذه النسخة التى بقيت لنا منها هذه البقايا هى احدى نسخ الكتاب الأصلية ، أى انها النسخة التى اختص بها لسان الدين بن الخطيب مصر ، فوجه بها اليها ، ووقفها على أهل العلم فيها ، وجعل مقرها اذ ذاك بخانقاه سعيد السعداء،

والتى يتحدث عنها المقرى فى الفصل الذى عقده فى نفح الطيب لمصنفات ابن الخطيب، كما يشير اليها الأمير ابن الأحمر حفيد الغنى بالله تعالى فى الفصل القيم الذى تحدث فيه عن كتاب الاحاطة، وبعض ملابسات وضعه ، فى كتابه « نثير الجمان »، ونقله المقرى ؟

ما زال هذا الخاطر يراودنى ، ولا أملك له صرفا ، كما لا أملك تحقيقه والانتهاء فيه الى رأى علمى قاطع ، وانا بعيد عن مصر ، اذ كان أول التحقيق فحص هذه المخطوطة . فليبق اذن هذا الخاطر فرضا حتى يتسنى لى أو لأحد الباحثين تحقيقه. فاذا تحقق فقد ظفرنا بأصل من الأصول النادرة ، وكنز علمى من الكنوز التى يغالى بها أصحابها أشد المغالاة . وذلك لجملة أسباب ، كل واحد منها يكفى لأن يجعل من هذه المخطوطة شيئا نادرا . فهى أولا نسخة المؤلف التى بعث بها هو نفسه الى مصر لتوقف على أهل العلم فيها . ثم هى تعد من أول نسخ هذا الكتاب ظهورا ، فتاريخ الوقفية التى كتبها وكيل المؤلف فى مصر الشيخ ابو عمرو بن عبد الله بن الحاج الأندلسى ، عن موكله ، هو ٢٢ محرم سنة ٧٦٨ ، أى قبل وفاة لسان الدين بن الخطيب بعشرة اعوام . ثم لانها — فوق هذا كله — تحمل خطوط جماعة من العلماء الاعلام وتعليقاتهم وتوقيعاتهم ، منذ عهد ابن الخطيب نفسه ، كما نرى ذلك فيما يذكره المقرى فى حديثه عنها ، اذ يقول :

« وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء . فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزى المؤرخ، ونصه: انتقى منه داعيا لمؤلفه أحمد بن على المقريزى فى شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة . وما رقمه الحافظ السيوطى ، ونصه : الحمد لله وحده ، طالعته على طبقات النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى سنة ثمان وستين وثمانمائة . وبعد هذين ما صورته : انتقى منه داعيا لمؤلفه محمد بن محمد القوصونى ، سنة اربع وخمسين وتسعمائة . وبعده ما صورته : انهاه نظرا وانتقاء على الحموى الحنفى ، لطف الله به . وبخط مولانا العارف الربانى علامة الزمان وبركة الأوان الشيخ محمد البكرى الصديقى ما نصه : طالعته مبتهجا برياضه المونقة ، وازهار معانيه المشرقة ، مرتقيا فى درج كلماته العذاب سماء الاقتباس مقتنيا من لطائفه درر وجواهر ، بل احاشيها بذلك القياس . كتبه محمد الصديقى ، غفر الله له . انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب ، كابن

دقماق ، والحافظ ابن حجر ، وغيرهما من أهل مصر ؛ ومن المغاربة ابن المؤلف ابى الحسن على بن الخطيب ، والخطيب الكبير سيدى ابى عبد الله ابن مرزوق ، والعلامة ابى الفضل ابن الامام التلمسانى ، والنحوى الراعى ، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسى شارح الألفية وصاحب التآليف . وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم . رحم الله جميعهم »

فأى ذخر أدبى فريد فى بابه تتضمنه هذه النسخة !

وهذه التعليقات التى يشير اليها المقرى فى هذه الفقرة قد أورد كثيرا منها فى نضاعيف كتابه : نفح الطيب ، واكثرها غاية فى الطرافة والنفاسة من ناحية قيمتها الأدبية والتاريخية . ومن هذه التعليقات ما كتب فى حياة لسان الدين ، وما كتبه بعض من اتصلت حياتهم بحياته ، وشاركوا فى بعض الأحداث التى عنى بتسجيلها، كبعض ما كتبه ابن مرزوق . ومنها ما يمثل الوانا من الجدال أو الحوار ومناقلة القول بين هذا وذاك من قراء هذه النسخة من العلماء ، فى عبارات حية نابضة ، مما احاط هذه النسخة بجو خاص ، وقد عنيت بتتبع هذه التعليقات والتوقيعات — كما جاءت فى كتاب المقرى — ووجدت فيها متعة أى متعة. وأنا أرجو أن تجمع وتستقصى وتمثل فى هذه النشرة الجديدة من كتاب الاحاطة ، وأن تأخذ مكانها الجدير بها فى هامشها .

هذه هى النسخة التى ظلت فى مصر محوطة بأسباب الرعاية حتى القرن الحادى عشر للهجرة ، وظلت مرجعا للعلماء يرجعون اليها ويمتحون منها ، وبقيت مركزا من مراكز النشاط الأدبى فى القاهرة ، وموطنا من مواطن الاتصال بين علماء المشرق والمغرب . فهل ترى هذه المخطوطة التى احتفظ بها رواق المغاربة فى الأزهر ، والتى تحمل كثيرا من التعليقات كما رأينا فيما قاله الاستاذ عنان فى صفتها ، هى بقية من بقايا تلك النسخة ؟ والا يكون ذلك التعليق الذى أشار الأستاذ عنان الى ان المقرى كتبه على هامشها تأييدا لقرشية جده ابى عبد الله المقرى ، (ولم يورد الاستاذ نصه)، انما كتبه ليقرنه الى التعليقين الذين اشار اليهما فى النفح ، عند نقله ترجمة جده عن الاحاطة ، وفيها أنه قرشى، فقال : « وكتب بعض المغاربة على هامش هذا المحل من الاحاطة : (القرشى وهم . انتهى) ، فكتب تحته الامام ابو الفضل ابن محمد التلمسانى رحمه الله تعالى ما نصه : (بل صحيح نطقت به الألسنة والمكاتبات والاجازات ، واعربت عنه الخلال الكريمة ، الا ان البلدية يا سيدى ابا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى امام المغرب ابى عبد الله المقرى وهما . والحمد لله). »

اكان تعليق المقرى الموجود فى نسخة رواق المغاربة قرينا لهذين التعليقين ، أم انه كتبه مستقلا عنهما وفى هامش نسخة أخرى غير تلك النسخة التى نقلهما عنها ؟

هذا مالا نملك الاجابة عنه والقول فيه ما دمنا لا نملك مراجعة نسخة رواق المغاربة .

على انه مهما يكن من شىء فهذه النسخة ، نسخة رواق المغاربة ، تعد ولا ريب نسخة ممتازة حقا بهذه التعليقات التى كتبها المقرى بهامشها ، كما تمتاز بما يستطيع قارىء النشرة المطبوعة أن يراه واضحا فيما اثبته الاستاذ الناشر من قراءاتها مما يدل دلالة قاطعة على أصالة حقيقية ، وان كنا — ومعذرة الى الاستاذ الناشر — نشك كثيرا فى مدى الدقة والاستيعاب فى عرض هذه القراءات . فهو قد أساء الظن بها منذ أول الأمر ، واقتحمها نظره بادىء بدء ، فلا جرم لم يكن حريصا على أن يؤدى فى مقارناته صورة أمينة لها . وانما هى الالمامة بها بين الحين والحين ، واستشارتها بين وقت وآخر ، فى عجلة واستخفاف . وذلك هو تأويل نصه فى هامش ترجمة ثابت بن محمد الجرجانى على أن هذه الترجمة « روجعت بأكملها على مخطوط رواق المغاربة بالأزهر » . ولم يكن ثم حاجة الى هذا النص لو ان هذا هو شأن الناشر فى جميع الترجمات التى جاءت فى هذا المخطوط .

وهذا الى اختفاء رمز هذه المخطوطة اختفاء تاما من هامش كثير من الترجمات التى جاءت فى هذا الجزء مما تضمنته هذه المخطوطة . واذا كان الأستاذ الناشر قد أغفل بيان هذه الترجمات التى شاركت مخطوطة رواق المغاربة فيها — كما كان يقضى بذلك منهج النشر العلمى — فان القارىء يستطيع بشىء من التعقب أن يستنتج بعضها ، فيرى مثلا انه يذكر فى الفصل الذى عقده لوصف هذه المخطوطة انها تبدأ ببقية ترجمة بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية ، كما يذكر فى هذا الفصل أيضا انها تتضمن تراجم من حرف الحاء . وليس فى ترجمة بدر ولا أى ترجمة من تراجم حرف الحاء اشارة الى أى قراءة من قراءات هذه المخطوطة . وكذلك الأمر فى ترجمة ثابت بن محمد الجرجانى التى نص — كما رأينا — على انها روجعت عليها . وعند ترجمة أحمد بن محمد الهمدانى اشار الى ان ترجمته التى انفردت بها هذه المخطوطة قد وردت فيها قبل ترجمة ابن اضحى . وقد خلا هامش ابن أضحى من الاشارة الى أى قراءة من قراءاتها .

كما انا نستطيع أن نتبين مدى الدقة فى مراجعة هذه المخطوطة اذا نحن رجعنا الى الصفحتين المنشورة صورتهما منها فى صدر هذه النشرة ، واذا كان الاستاذ الناشر لم يعين مكانهما منها — وكان من واجبه أن يفعل — فقد وفقنا اليه ، وذلك

فيما بين صفحة ٤٥٥ وصفحة ٤٥٨ ، فى ترجمة تاشفين بن على ، وهى من الترجمات القليلة التى يظهر فى هامشها الرمز (ر م)

وبمراجعة هاتين الصحيفتين وجدنا أن كثيرا من القراءات التى تخالف بها هذه المخطوطة غيرها فيهما قد أغفل ، فلم يثبت فى النص ، ولم يشر اليه فى الهامش ، على ما يبدو من تعيّن بعضها ، وعلى ما يلاحظ فى هذه النشرة من اسراف شديد فى اثبات قراءات لا وجه لها ، واختلافات يصعب تبين حقيقة اختلافها ، مما أثقل الهامش بكثير مما لا داعى له .

وقد أحصينا المواضع التى أغفلت فى هاتين الصحيفتين ، مما انفردت به مخطوطة رواق المغاربة ، فاذا هى تقرب من العشرين موضعا . وليس بنا الآن ان نوردها جميعا ، اذ يكفينا للدلالة على ما نحن بصدده ، وهو موقف الاستاذ الناشر من هذه المخطوطة ، ان نشير الى بعضها :

فمن ذلك أن المخطوطة تسمى عامل على بن يوسف بن تاشفين على اشبيليه « أحمر » ، فى حين أن اسمه فى النشرة « اغمار » (ص ٤٥٥ س ١٥) . وكان من حق ذلك الاسم ، على الأقل ، أن يأخذ مكانه فى الهامش ، اذا لم ير الاستاذ الناشر انه جدير بالنص .

وبعد هذا بقليل نجد هذه العبارة ، فى سياق الحديث عن على بن يوسف بن تاشفين ، بعد أن وجه ابنه تاشفين الى العدو : « وتوفى لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين لفعله ذلك » (س ١٨) فتعترض حلوقنا هذه الكلمة الأخيرة النابية ، لا نجدلها مساغا ، فنهبط بأنظارنا الى الهامش ، فاذا به يقول : « هكذا وردت فى ج . وفى ك : « تفعله ذلك » . وأغفلها ر م » . وتظل الغصة ناشبة فى حلوقنا ، حتى يأذن الله فنقع على هذا الموقع من (ر م) ، فاذا هى لا تغفل هذه الكلمة كما يزعم الهامش ، وانما تضع موضعها العبارة الصحيحة ، اذ تقول : « وتوفى على تفيئة ذلك » .

ونحسب أننا نستطيع بهذه القراءة وحدها أن نعرف قيمة مخطوطة رواق المغاربة هذه ونقدرها قدرها . ومثل هذه القراءة فى هذا الموضع سائر النص فى هاتين الصحيفتين ، فهو سليم مستقيم لا عوج فيه ولا أمت ولا تعثر ، اذا استطاع القارىء أن يضبط القراءة على وجهها .

كما نستطيع أن نتبين هذا تبينا لا شبهة فيه فيما أورد الناشر من قراءاتها فى

بعض الفصول التى حظيت عنده فيها .

وبعض هذه القراءات ظفرت من الاستاذ الناشر بالرضا والقبول ، فأحلها فى مكانها من النص . ولكنه سخط الكثير منها فاهدره ، وان كان هو الأجدر والأولى، بل وان كان هو المتعين . كما جاء فى صفة الوزير الفقيه أحمد بن خلف الغسانى القليعى انه « قريع دهره » ، فلم تحظ هذه القراءة عنده ، فأهدرها ، وآثر أن يضع مكانها قراءة المخطوطتين الاثيرتين : « مريع دهره » وفسرها بقوله : « أعنى وافر الخصب والمرعى » ! ! (ص ١٥٣ س ٦) .

وفى هذه الترجمة، فى سياق حديث ابن الخطيب عن محنة ابى جعفر القليعى ، وسجن حفيد باديس اياه ، ثم اطلاقه من سجنه ، نقرأ هذه العبارة : « ولما تخلص أعدها غنيمة»، وينزلق النظر الى أسفل الصحيفة ليرى التعليق على كلمة «اعدها» القلقة النابية ، فاذا هو يقول : « هكذا فى المخطوطتين ، وفى رم : اعتدها». ولكن هذه القراءة لم تقع من الاستاذ الناشر موضع القبول ، فأهدرها ، مع أن الكلمة التى اثبتها فاسدة ، وليست الا تصحيفا لكلمة « اعتدها » المهدرة .

وفى عقب هذه الكلمة نقرأ هذه العبارة : « وكان جزلا قوى القلب » ، فنحس فيها بشىء من الغرابة ، فاذا قرأنا ما اثبته الناشر فى الهامش تعليقا عليها ، وجدناه يقول : « هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطتين . ولكنها وردت فى رم : حولا قلبا » . وهذه — ولا ريب — القراءة الصحيحة الأصلية التى يستقيم بها النص : والتى تحولت فى المخطوطتين الأخريين — بسوء القراءة والفهم — الى « جزلا قوى القلب » . أساء الناسخ قراءتها ، اذ غمض عليه معناها ، فوضع كلمة « جزلا » موضع كلمة « حولا » وتصرف فى كلمة « قلبا » ، فجعلها « قوى القلب » ، وأخذت بذلك هذه الصورة الغريبة التى روجها عند الأستاذ مجيئها فى المخطوطتين الاثيرتين ، كما أهدر القراءة الصحيحة المتعينة ورودها فى مخطوطة رواق المغاربة .

وهذا هو شأن سائر ما أورده الاستاذ الناشر من قراءات هذه المخطوطة ، وهو قليل فى جملته . ولكنه يدلنا على أصالتها وعظيم جدواها . وانا لنرجو أن تكشف لنا دراستها عن سائر مزاياها . وهى — فيما يبدو — جديرة بهذه الدراسة ، حقيقة أن تنكشف عن ذخر أدبى بليغ القدر .

أما ما اعتبره الاستاذ الناشر فيها من « انها تتكون من عدة أقسام متناثرة ،

لا تكون مجموعا موحدا أو متتاليا » أو انها « عبارة عن قطع متناثرة ليست كلها موصولة ولامتتالية» كما يقول فى صفتها، فما ينبغى لشى من ذلك أن يحرمها حقها، أو يهدر شخصيتها ، ويقصيها عن مكانها فى تحقيق النص والرجوع به الى الصورة التى أداها المؤلف . وأما قوله عنها : « انها بلا ريب قطعة مما يعرف بمختصر الاحاطة، لما ثبت انه يوجد بالنسخة المطبوعة زيادات كثيرة عما اثبت فيها»، فذلك أيضا لا يبرر اهدارها ، وخاصة اذا كانت جميع النسخ التى اتيحت للأستاذ الناشر موسومة بسمة الاختصار . على انى أحسب أن هذا القطع البات الجازم بانها قطعة مما يعرف . . الخ مجازفة غير لائقة علميا ، فليس يكفى أن يكون بالنسخة المطبوعة زيادات كثيرة عما اثبت فيها لتكون قطعة مما يعرف بمختصر الاحاطة ، وخاصة اذا كان « ما يعرف بمختصر الاحاطة » هذا شيئا ليس له كيان خاص ولا شخصية معروفة .

فاذا عرفنا ان لسان الدين بن الخطيب كتب كتابه الاحاطة غير مرة ، وانه ما زال يراجعه ويزيد فيه منذ وضعه ، تبين لنا مبلغ ما فى ذلك القول من مجازفة .

وقد رأينا أن تاريخ وقفية النسخة التى اهداها الى مصر هو ٢٢ محرم سنة ٧٦٨، أى انها تمت تأليفا ونسخا قبل هذا التاريخ بزمن غير قصير . كما نعلم الى جانب هذا أن نسخة الاحاطة المطبوعة فى مصر أول هذا القرن تحمل فى اطوائها وفى سياق بعض تراجمها ما يدل على انها كتبت بعد ذلك التاريخ بزمن غير قصير ، اذ تؤرخ مثلا لبعض الاحداث التى وقعت فى سنة ٧٧١ .

واذا علمنا أن نسخة الاحاطة تلك المهداة الى مصر ليست هى النسخة الأولى، بل كتب قبلها من نسخ هذا الكتاب ما يقع فى نحو نصفها ، علمنا مبلغ التفاوت فى نسخ الاحاطة التى صدرت عن المؤلف نفسه . وقد نص على هذا الأمير ابن الاحمر فى الفصل الذى كتبه عن الاحاطة ، اذ يقول :

« . . . وأخذ فى تأليف الاحاطة مستدعيا تصحيح الموالد والوفيات، والاسماء والمسميات ، ومستكثرا من طرف المصنفات ، ليتم قصده من الاطناب ، وتقله العيون الرائقة من كل كتاب . والقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة ، معلم الجملة منا كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ابى عبد الله الشريشى ، قدس الله تعالى ضريحه . وهذا الشيخ الذى لم يجاوز سن الكهولة فى ذلك الوقت هو الذى تولى من المبيضات نقله ، واحكم جنسه وفصله ،

وانختم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب الى الاندلس ، بعودة جدنا الغنى بالله تعالى الى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائه ، تلاحقت الفروع من كتاب الاحاطة بالأصول ، وانجز من التبجر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثنى عشر سفرا »

فها نحن اذن ازاء نسخ ثلاث من كتاب الاحاطة صدرت جميعا عن المؤلف : كتبت أولاها قبل سنة ٧٦٣ ، وكتبت الثانية قبل سنة ٧٦٨، وكتبت الثالثة بعد سنة ٧٧١ . ولعل هنالك مما صدر عن المؤلف غير هذه الثلاث . وبين الأولى والثانية من التفاوت ما رأينا . ولا بد أن تتفاوت جميعا على كل حال ، اذ كان الرجل فى اصداره لها مؤلفا وليس ناسخا ، واذ كان معنيا بتسجيل احداث عصره والاحاطة بها وملاحقتها .

واذن فالادعاء بان نسخة رواق المغاربة ليست الا قطعة من مختصر الاحاطة ، لان هناك نسخة أخرى تزيد عليها ، ادعاء يعتمد على غير أساس .

وبذلك يسقط ما اعتبره الاستاذ الناشر فى هذه النسخة ، مما أخرها عنده عن موضعها ، وأهدر حقها الأصيل فى تقويم نص الاحاطة على الأصول العلمية .

طه الحاجرى

بنغازى

الاستبصار فى عجائب الأمصار

لمؤلف مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، رقم ١٠ من مطبوعات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ناشر هذا الكتاب ، الفضل فى نشر نصف هذا الكتاب لأول مرة فى نصه العربى ، وقد شفع هذا الفضل بآخر وهو ترجمة ما نشره عربيا لأول مرة الى اللغة الفرنسية .

وبذلك أتم الدكتور سعد زغلول ما بدأه فون كريمر بالنسبة للنص العربى ، وأتم كذلك ما بدأه فانيان منذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لترجمة النص العربى الى اللغة الفرنسية . فاذا ذكر كتاب الاستبصار هذا فلا بد أن يقرن اسم الدكتور سعد زغلول الى جانب اسمى فون كريمر وفانيان لأن دوره وحده فى هذا الكتاب يعادل دوريهما معا .

وكان فون كريمر قد عنى بهذا الكتاب منذ أكثر من قرن ، ثم رأى فانيان فى أول هذا القرن أن يترجم هذا الكتاب الى الفرنسية لينتفع به من لا يعرفون العربية أو من لا يتقنونها . ولفانيان دور مشكور فى ترجمة كثير من الكتب العربية الى الفرنسية .

فلما عنى الدكتور سعد زغلول بهذا الكتاب أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه فى السربون وجده ناقصا لأن سلفيه العالمين نقلا عن مخطوطات ناقصة ، ووجد الناقص جديرا بالنشر والتسجيل : فقد كان الناقص : فصولا خاصة ببلاد غمارة ، واستقرار الأدارسة بالمغرب ، وزندقة برغواطة ، ومدينة سجلماسه ، وبداية العبيديين الفواطم ، ومدن درعة وأغمات ونفيس وتنملل ومراكش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة لبلاد السودان (أنظر ص : أ) . ومن شأن مثل هذا النقص أن يحرمنا من معلومات تاريخية وجغرافية قيمة . ولهذا واصل الدكتور سعد زغلول العناية بالكتاب وجعله رسالته التكميلية . ثم عنى بطبعه وشجعته على ذلك جامعة الاسكندرية حتى خرج الكتاب فى ثوب أنيق منشورا على الأصول المصطلح عليها فى النشر .

وانختم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب الى الاندلس ، بعودة جدنا الغنى بالله تعالى الى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائه ، تلاحقت الفروع من كتاب الاحاطة بالأصول ، وانجز من التبجر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتممة من اثنى عشر سفرا »

فها نحن اذن ازاء نسخ ثلاث من كتاب الاحاطة صدرت جميعا عن المؤلف : كتبت أولاها قبل سنة ٧٦٣ ، وكتبت الثانية قبل سنة ٧٦٨، وكتبت الثالثة بعد سنة ٧٧١ . ولعل هنالك مما صدر عن المؤلف غير هذه الثلاث . وبين الأولى والثانية من التفاوت ما رأينا . ولا بد أن تتفاوت جميعا على كل حال ، اذ كان الرجل فى اصداره لها مؤلفا وليس ناسخا ، واذ كان معنيا بتسجيل احداث عصره والاحاطة بها وملاحقتها .

واذن فالادعاء بان نسخة رواق المغاربة ليست الا قطعة من مختصر الاحاطة ، لان هناك نسخة أخرى تزيد عليها ، ادعاء يعتمد على غير أساس .

وبذلك يسقط ما اعتبره الاستاذ الناشر فى هذه النسخة ، مما أخرها عنده عن موضعها ، وأهدر حقها الأصيل فى تقويم نص الاحاطة على الأصول العلمية .

طه الحاجرى

بنغازى

الاستبصار فى عجائب الأمصار

لمؤلف مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، رقم ١٠ من مطبوعات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ناشر هذا الكتاب ، الفضل فى نشر نصف هذا الكتاب لأول مرة فى نصه العربى ، وقد شفع هذا الفضل بآخر وهو ترجمة ما نشره عربيا لأول مرة الى اللغة الفرنسية .

وبذلك أتم الدكتور سعد زغلول ما بدأه فون كريمر بالنسبة للنص العربى ، وأتم كذلك ما بدأه فانيان منذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لترجمة النص العربى الى اللغة الفرنسية . فاذا ذكر كتاب الاستبصار هذا فلا بد أن يقرن اسم الدكتور سعد زغلول الى جانب اسمى فون كريمر وفانيان لأن دوره وحده فى هذا الكتاب يعادل دوريهما معا .

وكان فون كريمر قد عنى بهذا الكتاب منذ أكثر من قرن ، ثم رأى فانيان فى أول هذا القرن أن يترجم هذا الكتاب الى الفرنسية لينتفع به من لا يعرفون العربية أو من لا يتقنونها . ولفانيان دور مشكور فى ترجمة كثير من الكتب العربية الى الفرنسية .

فلما عنى الدكتور سعد زغلول بهذا الكتاب أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه فى السربون وجده ناقصا لأن سلفيه العالمين نقلا عن مخطوطات ناقصة ، ووجد الناقص جديرا بالنشر والتسجيل : فقد كان الناقص : فصولا خاصة ببلاد غمارة ، واستقرار الأدارسة بالمغرب ، وزندقة برغواطة ، ومدينة سجلماسه ، وبداية العبيديين الفواطم ، ومدن درعة وأغمات ونفيس وتنملل ومراكش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة لبلاد السودان (أنظر ص : أ) . ومن شأن مثل هذا النقص أن يحرمنا من معلومات تاريخية وجغرافية قيمة . ولهذا واصل الدكتور سعد زغلول العناية بالكتاب وجعله رسالته التكميلية . ثم عنى بطبعه وشجعته على ذلك جامعة الاسكندرية حتى خرج الكتاب فى ثوب أنيق منشورا على الأصول المصطلح عليها فى النشر .

ومؤلف الكتاب مجهول • ولهذا لا نعرف عنه الا ما أورده المؤلف من اشارات الى نفسه أو موطنه أو ظروف تأليف الكتاب •

والمؤلف يقول بنفسه ان الكتاب الذى يقدمه مأخوذ من كتاب أقدم مع تحقيقات واضافات هى كل ما استجده • ثم يعدنا المؤلف بكتاب أوفى • ولا نعلم ان كان قد بر بوعده أم حيل بينه وبين ما كان يطمح فيه • ولكننا نقرر أن الأخذ بالنص عن المؤلفين السابقين كان منهجا علميا معترفا به فى جميع العلوم النقلية مثل الجغرافيا والتاريخ والتراجم والأخبار الأدبية • ولهذا فنحن نفهم قوله على أنه اراد أن يقرر انه اتبع المنهج السليم المصطلح عليه مع التنبيه على ما أضافه • وقد شرح الخطيب البغدادى أصول المنهج فى العلوم النقلية فى كتابه تقييد العلم ، فارجع اليه •

أما موطنه فالراجح أنه بلاد مراكش ، ووجه هذا الترجيح أن أخباره عن مكناسة وفاس ومراكش تبلغ من الدقة حدا لا يصله الا المقيم بهذه المدن • بل ان المؤلف يتجاوز حد التعريف الى حد رسم الخطط العمرانية لمراكش •

أما عن ظروف تأليف الكتاب ، فان التأليف عاصر سفارة ابن منقذ (٥٨٧/٨) من لدن صلاح الدين الأيوبى الى ثالث خليفة من خلفاء الموحدين وهو المنصور ابو يوسف يعقوب (٥٨٠ — ٥٩٥) • والكتاب مهدى من صاحبه الى الشيخ أبى عمران بن أبى يحيى بن وقتين • ولا نعرف عن المهدى اليه شيئا غير أنه ممن يصلون العلماء والفقهاء شأن الأعيان البارزين ذوى الجاه والثراء • ويظهر من ناحية أخرى أن المؤلف قد اطلع على سجلات الموحدين اما بحكم وظيفته أو بطريقة أخرى • وهذا أمر تزداد به قيمة الكتاب من حيث صحة الأخبار وجديتها •

ويرجح الدكتور سعد زغلول أن يكون المؤلف أحد كتاب الدواوين وهو ابن محشرة القيسى ، ولكنه ترجيح مفتقر الى أدلة أقوى وأصرح •

والكتاب من حيث موضوعه من كتب الجغرافيا العربية ، وقد جرى الجغرافيون المسلمون على ترصيع هذا النوع من الكتب بأخبار مختلفة فى نوعها فيها غناء كثير فى بعض الأحيان • ثم اننا اذا عرفنا ان الكتاب قصر عنايته على الحرمين ومصر

والمغرب عرفنا أنه يجب أن يوضع بين كتب الرحلات المؤلفة لغرض خاص هو انتفاع الحجاج بها ، مع اضافات لا يجب أن تخدعنا عن الغرض الأصلى • ولهذا وصف المؤلف مناسك الحج وصفا دقيقا مستجيبا لحقيقة هامة لا جدال فيها هى أن هذه التفاصيل عزيزة فى قلوب الحجاج كما نعهد فيهم بالتجربة الى اليوم •

وينضاف الى ذلك عنايته بالمدن الواقعة على طريق الحج ، مع ذكر عجائب الأمصار • وأغلب الظن أنها مادة للسمر والتشويق • وأهم من ذلك كله بالنسبة لنا ذكر أخبار المغرب فى كثير من الدقة على عهد الموحدين خاصة ، ووصف الآثار التى أنشأها أمراء الموحدين الثلاثة الأوائل وهنا نلمس أن المؤلف معاصر متصل بالحوادث مطلع على السجلات الديوانية •

وينقل المؤلف فيما عدا تحقيقاته الخاصة عن المسعودى (+ ٣٤٥) وابن وصيف شاه (+ ٣٠٠٠هـ تقريبا) وعن ابن عبد الحكم، والبكرى والادريسى • وتظهر آثار النقل فى ورود اشارات الى أخبار سابقة بكثير على عهد المؤلف •

تشكر الناشر لرجوعه الى مخطوطات جديدة غير مخطوطة فون كريمر التى لا يعرف اليوم مصيرها • وقد ذلل الناشر الصعبات التى لقيها ، برغم أنه لم يجد بين يديه غير مخطوطات متأخرة مملوءة بأخطاء النساخ • وقد نستطيع ان نقترح عليه بعض القراءات الخاصة وان ننبه على بعض هنات فى كشاف الأسماء • ولكن ما يوجد من ذلك تافه لا يذكر بالنسبة لما بذل من مجهود جليل •

محمد عبد الهادى شعيرة

ذكرى الامام السنوسى الكبير
٩ صفر ١٣٧٦ = ١٥ سبتمبر ١٩٥٦

يوم يكتب المؤرخون تاريخ ليبيا الثقافى فانهم سيسجلون حتما أن الجامعة الليبية امتداد فى شكل جديد لحلقات الجغبوب التى أنشأها الامام وأنشأ بها جامعة ذات مستوى عال ، ودرس فيها (وهو من أئمة عصره) فكان أول أستاذ جامعى فى فتة ليبيا الحديثة .

وقد مرت مائة عام على وفاته ، فكان على ليبيا أن تحيى هذه الذكرى المشرفة العزيزة الماثلة الى اليوم ، والى ما بعد اليوم فى قلوب المسلمين ، فى أرجاء العالم الاسلامى . وقد عود الله تعالى عباده أن يبعث اليهم على رأس كل جيل من يحيى فيهم السنن القويمة . فلعل الجامعة هى ذلك النور الذى ابتعث باذن الله ليهدى أهل هذا الجيل ، ومن حسن الاتفاقات أن يكون حفيد الامام وهو الملك الحالى باعث هذا النور ؛ فالجامعة احدى مفاخره .

ولهذه الاعتبارات حرصت الجامعة الليبية عند اصدارها لمجلة كلية الآداب والتربية أن تسجل احتفال البلاد بالذكرى المئوية للامام فى ٩ صفر ١٣٧٦ وقد ألفت لذلك لجنة عليا وجهت الدعوة لكل البلاد الاسلامية لحضور احتفالات الذكرى وقد رحبت الدول بهذه الدعوة وجاءت الوفود حتى من البلاد البعيدة : مثل اندونسيا والصين . وبدأت الاحتفالات فى طرابلس ثم فى بنغازى والبيضاء التى هى أول زاوية سنوسية أسست بالبلاد ، ثم انتهت هذه الاحتفالات بزيارة اعضاء الوفود لضريح الامام ، بالجغبوب . واشتركت الهيئات الليبية كلها فى هذه الاحتفالات بطبيعة الحال .

وقد أصدرت اللجنة العليا كناشة صغيره من ٢٧ صفحة جعلتها ترجمة موجزة للامام وذكرت فى الترجمة جميع الزوايا السنوسية المعروفة وعددها ١١٠ ؛ وأصدر كذلك المرحوم الطيب الأشهب كتابه عن « السنوسى الكبير » بهذه المناسبة . وقد أعددت فى هذه المناسبة بحثا فى نقد المصادر التاريخية الخاصة بالامام .

محمد عبد الهادى شعيرة

استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة الليبية

مواسم المحاضرات العامة
بالجامعة الليبية

ذكرى الامام السنوسى الكبير
٩ صفر ١٣٧٦ = ١٥ سبتمبر ١٩٥٦

يوم يكتب المؤرخون تاريخ ليبيا الثقافى فانهم سيسجلون حتما أن الجامعة الليبية امتداد فى شكل جديد لحلقات الجغبوب التى أنشأها الامام وأنشأ بها جامعة ذات مستوى عال ، ودرس فيها (وهو من أئمة عصره) فكان أول أستاذ جامعى فى فتة ليبيا الحديثة .

وقد مرت مائة عام على وفاته ، فكان على ليبيا أن تحيى هذه الذكرى المشرفة العزيزة الماثلة الى اليوم ، والى ما بعد اليوم فى قلوب المسلمين ، فى أرجاء العالم الاسلامى . وقد عود الله تعالى عباده أن يبعث اليهم على رأس كل جيل من يحيى فيهم السنن القويمة . فلعل الجامعة هى ذلك النور الذى ابتعث باذن الله ليهدى أهل هذا الجيل ، ومن حسن الاتفاقات أن يكون حفيد الامام وهو الملك الحالى باعث هذا النور ؛ فالجامعة احدى مفاخره .

ولهذه الاعتبارات حرصت الجامعة الليبية عند اصدارها لمجلة كلية الآداب والتربية أن تسجل احتفال البلاد بالذكرى المئوية للامام فى ٩ صفر ١٣٧٦ وقد ألفت لذلك لجنة عليا وجهت الدعوة لكل البلاد الاسلامية لحضور احتفالات الذكرى وقد رحبت الدول بهذه الدعوة وجاءت الوفود حتى من البلاد البعيدة : مثل اندونسيا والصين . وبدأت الاحتفالات فى طرابلس ثم فى بنغازى والبيضاء التى هى أول زاوية سنوسية أسست بالبلاد ، ثم انتهت هذه الاحتفالات بزيارة اعضاء الوفود لضريح الامام ، بالجغبوب . واشتركت الهيئات الليبية كلها فى هذه الاحتفالات بطبيعة الحال .

وقد أصدرت اللجنة العليا كناشة صغيره من ٢٧ صفحة جعلتها ترجمة موجزة للامام وذكرت فى الترجمة جميع الزوايا السنوسية المعروفة وعددها ١١٠ ؛ وأصدر كذلك المرحوم الطيب الأشهب كتابه عن « السنوسى الكبير » بهذه المناسبة . وقد أعددت فى هذه المناسبة بحثا فى نقد المصادر التاريخية الخاصة بالامام .

محمد عبد الهادى شعيرة

استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة الليبية

مواسم المحاضرات العامة
بالجامعة الليبية

الموسم الاول للعام الجامعى ١٩٥٥ - ١٩٥٦

١ — الخميس ١٥ مارس ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء	« مذاهب الشعر العربى الحديث » للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى استاذ الأدب العربى
٢ — الخميس ٢٢ مارس ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء	« موارد المياه فى صحراوات العالم العربى » (الحلقة الأولى) للأساذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف استاذ الجغرافيا
٣ — الخميس ٢٩ مارس ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء	« موارد المياه فى صحروات العالم العربى » (الحلقة الثانية) للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف
٤ — الخميس ٥ أبريل ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء	«نظام الثغور فى العالم الاسلامى القديم» للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة استاذ التاريخ
٥ — الخميس ١٢ أبريل ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء	«ليبيا بين المشرق والمغرب فى العالم الاسلامى» للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
٦ — الخميس ١٩ أبريل ١٩٥٦ الساعة ٩ مساء	« الفلسفة بين مهمة كشف الحقيقة ومهمة توجيه الحياة » للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده استاذ الفلسفة والاجتماع
٧ — الخميس ٢٦ أبريل ١٩٥٦ الساعة ٩ مساء	« أهمية الدراسات الاجتماعية من الناحيتين النظرية والعملية » للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

٨ — الخميس ٢٤ مايو ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء
«شكسبير وشمال افريقية» (بالانجليزية)
للأستاذ الدكتور د٠ج٠ وليامز
أستاذ الادب الانجليزى

Prof. Dr. D.G. Williams "Shakespeare and North Africa"

٩ — الخميس ٣١ مايو ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء
«العلاقات الأدبية بين مصر وشمال افريقية»
للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى

١٠ — الخميس ٧ يونيه ١٩٥٦ الساعة ٧ مساء
« تجربة اصلاح قرية فى مصر » (بالانجليزية)
للأستاذ العميد الدكتور و٠و٠ كليلاند

Prof. Dr. W.W. Cleland "An Experiment in Village Reconstruction in Egypt"

الموسم الثانى للعام الجامعى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧

١ — الاربعاء ٢٧ فبراير ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
«مذهب النقد فى الأدب العربى الحديث»
للأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى
استاذ الأدب العربى

٢ — الأربعاء ٦ مارس ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
« الهلالية فى الغـرب »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيره
استاذ التاريخ

٣ — الأربعاء ١٣ مارس ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
« علم الأصوات اللغوية »
للأستاذ الدكتور محمود السعران
أستاذ الأدب العربى

٤ — الأربعاء ٢٠ مارس ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
« ليبيا فى الكتابة الانجليزية » (بالانجليزية)
للأستاذ د٠ج٠ وليامس
أستاذ الأدب الانجليزى

٥ — الأربعاء ٢٧ مارس ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
« المذاهب الاجتماعية والتطور الاجتماعى »
للأستاذ الدكتور أحمد الخشاب
أستاذ علم الأجتماع

٦ — الأربعاء ٣ أبريل ١٩٥٧ الساعة ٩ مساء
« مستقبل البترول فى العالم »
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح شرف
أستاذ الجغرافيا

٧ — الأربعاء ١٠ ابريل ١٩٥٧ الساعة ٩ مساء
« العصر الذهبى للمغرب العربى »
للأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد
أستاذ التاريخ

٨ — الأربعاء ١٧ أبريل ١٩٥٧ الساعة ٩ مساء
« الأنسان ومركزه فى الكون »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبوريده
أستاذ الفلسفة

٩ — الأربعاء ٢٤ أبريل ١٩٥٧ الساعة ٩ مساء
« الأنتاج الزراعى فى الدول العربية »
للأستاذ فهمى الهلالى
أستاذ الجغرافيا

١٠ — الأربعاء ٨ مايو ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
« ولع الأنجليز بالقصة الشرقية » بالانجليزية
للأستاذ كيرنر
أستاذ الأدب الأنجليزى

١١ — الأربعاء ١٥ مايو ١٩٥٧ الساعة ٧ مساء
«نشأة النظم الدستورية فى الشرق الأوسط»
للأستاذ الدكتور مجيد خدورى
عميد الكلية

الموسم الثالث للعام الجامعى ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨

١ — الاحد ١٢ يناير ١٩٥٨
« اتجاهات جديدة فى علم الاجتماع »
للأستاذ الدكتور على احمد عيسى
استاذ الاجتماع

٢ ــ الثلاثاء ٢١ يناير ١٩٥٨ — ندوة موضوعها
«رؤوس الاموال فى البلاد النامية اقتصاديا»
برئاسة الدكتور على نور الدين العنيزى
محافظ البنك الوطنى الليبى
واشتراك الاساتذة :

١) دكتور دلاور على
استاذ الاقتصاد
٢) استاذ عيسى عبده
استاذ المحاسبة وادارة الاعمال
٣) استاذ نظيم شرابى
مدير البنك العربى ــ فرع بنغازى
٤) استاذ احمد فؤاد ابو النجا
مدير بنك مصر ــ فرع بنغازى

٣ ــ الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩٥٨ — « الدين والفلسفة »
للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده
استاذ الفلسفة

٤ ــ الخميس ١٠ ابريل ١٩٥٨ — « التخطيط الاقتصادى فى البلاد الناشئة »
للأستاذ الدكتور دلاور على
استاذ الاقتصاد

٥ ــ الخميس ١٧ ابريل ١٩٥٨ — « نشأة العالمين الاسلامى والعربى »
للدكتور محمد عبد الهادى شعيره

٦ ــ الثلاثاء ٢٩ ابريل ١٩٥٨

"The Celtic Background of Western European Culture"
By Professor D.G. Williams

٧ ــ الخميس ١ مايو ١٩٥٨ — « أسرار غزو الفضاء »
للأستاذ الدكتور عبد العزيز طريح

٨ ــ الثلاثاء ٦ مايو ١٩٥٨ — « من تاريخ برقة القديم »
للأستاذ الدكتور محمد عواد حسين
استاذ التاريخ القديم

٩ ــ الخميس ٨ مايو ١٩٥٨ — « الاتجاهات الحديثة فى التعليم التجارى »
للأستاذ عيسى عبده
استاذ المحاسبة وادارة الاعمال

١٠ ــ الثلاثاء ١٣ مايو ١٩٥٨ — The Cyrenaica Philosophers
By Professor J.G. Warry

١١ ــ الخميس ١٥ مايو ١٩٥٨ — «الحركات الدينيةفى المغرب العربى الى القرن الثالث عشر الميلادى »
للدكتور سعد زغلول
مدرس التاريخ الاسلامى

١٢ ــ الثلاثاء ٢٠ مايو ١٩٥٨ — « اصلاح الكتابة العربية »
للدكتور محمود السعران
مدرس الادب العربى

١٣ ــ الخميس ٢٢ مايو ١٩٥٨ — « الليبيون القدماء »
للأستاذ الدكتور ابراهيم احمد رزقانه
استاذ الجغرافيا البشرية

١٤ ــ السبت ٢٤ مايو ١٩٥٨ — «اثر ابن رشد فى الفلسفة الغربية فى العصور الوسطى »
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
استاذ الفلسفة

١٥ ــ الثلاثاء ٢٧ مايو ١٩٥٨ — Eastern Themes in English Poetry of the Early 19th Century
By Professor Koerner

Once more he blames his eyes for their false vision.

O me, what eyes hath Love put in my head,
Which have no correspondence with true sight... (Sonnet 148)

He begins to wonder whether the opinion of everyone around him is right after all and whether he is wrong in loving a woman of such unconventional colour.

If that be fair on which my false eyes dote,
What means the world to say it is not so. (Sonnet 148)

Sonnet 152, the last in the sequence written to the dark woman, ends with these bitter words :-

For I have sworn thee fair; more perjured I,
To swear against the truth so foul a lie.

So fairness and foulness are once more presented in ambivalent opposition. Shakespeare has revealed to us the source of this telling contrast of fair and foul, a contrast which he was to remove from the personal experience of love to make one of the basic thought patterns of his writing, nowhere, of course, more impressively than in *Macbeth*.

There may not be sufficient grounds for relating Shakespeare's experience with the dark woman of the Sonnets to his continued interest in North Africans and their skin colour, though the "dun breasts" and "black wires" of Sonnet 130 are significant pointers. Certainly the bitter disillusionment with which that love ended did nothing to impair Shakespeare's sympathy with tawny-skinned characters. From the very beginning to the very end of his career, the interest and the sympathy are there. Shakespeare is unique in English literature in the number of love affairs and marriages between North Africans and Europeans which he puts into his plays.

Gwyn Williams

Note : The Shakespeare Head Press edition of the *Works of William Shakespeare*, 1934, has been used for quotation in this paper.

Once more he blames his eyes for their false vision.

O me, what eyes hath Love put in my head,
Which have no correspondence with true sight... (Sonnet 148)

He begins to wonder whether the opinion of everyone around him is right after all and whether he is wrong in loving a woman of such unconventional colour.

If that be fair on which my false eyes dote,
What means the world to say it is not so. (Sonnet 148)

Sonnet 152, the last in the sequence written to the dark woman, ends with these bitter words :-

For I have sworn thee fair; more perjured I,
To swear against the truth so foul a lie.

So fairness and foulness are once more presented in ambivalent opposition. Shakespeare has revealed to us the source of this telling contrast of fair and foul, a contrast which he was to remove from the personal experience of love to make one of the basic thought patterns of his writing, nowhere, of course, more impressively than in *Macbeth*.

There may not be sufficient grounds for relating Shakespeare's experience with the dark woman of the Sonnets to his continued interest in North Africans and their skin colour, though the "dun breasts" and "black wires" of Sonnet 130 are significant pointers. Certainly the bitter disillusionment with which that love ended did nothing to impair Shakespeare's sympathy with tawny-skinned characters. From the very beginning to the very end of his career, the interest and the sympathy are there. Shakespeare is unique in English literature in the number of love affairs and marriages between North Africans and Europeans which he puts into his plays.

Gwyn Williams

Note : The Shakespeare Head Press edition of the *Works of William Shakespeare*, 1934, has been used for quotation in this paper.

the finest study we have of passionate womanhood.

So the peak has been reached in Shakespeare's interest in North Africans and in the colour of their skin in two great tragedies dealing with North African manhood and womanhood in their finest, most characteristic moods. Shakespeare is nearing the end of his career, but there is yet one more marriage between a North African and a fair European girl to come. The action of *The Tempest* begins with the wreck of the ship which carries the King of Naples and his courtiers back from Tunis, where they have been celebrating the wedding of the King's daughter, Claribel, to the King of Tunis. Once more there are some who disapprove of this kind of match, and Sebastian bluntly blames the King for the disaster which has befallen them.

Sir, you may thank yourself for this great loss,
That would not bless our Europe with your daughter,
But rather lose her to an African...(II i 122-4)

But apart from the distance which separates Tunis and Naples, the King has until now seen nothing wrong in the marriage, and Gonzalo, as though defending the marriage by referring to a similar love story associated with Tunis, harks back to the famous affair of Aeneas and Dido, Queen of Carthage.

So frequent have the signs been of Shakespeare's interest in tawny skin, and so consistently have they recurred, that we may reasonably look for similar signs in his non-dramatic poems, particularly in the Sonnets,the dates of which are unknown but which must have been written over a number of years, during which he was writing for the theatre. There is much reference in the Sonnets to the black beauty of a woman, who is usually contrasted with Shakespeare's fair male friend, her foulness, in more than one sense, opposing his fairness. Once more the warning must be made that her "blackness" may be no more than a tawniness, accompanied by black eyes and hair.

The Sonnets, too, show Shakespeare's detestation of cosmetics. We remember Hamlet's contemptuous remark to Ophelia, "God has given you one face, and you make yourselves another." (III i 145-6)[1] In the Sonnets it is the fair friend who requires no painting, and painting is here used metaphorically for flattery.

I never saw you did painting need,

1. I have shown elsewhere how the meretricious nature of the cosmetic art provides one of the central and most significant images in **Hamlet. Modern Language Review**, April 1950, pp.216-8.

And therefore to your fair no painting set. (Sonnet 83)

Shakespeare speaks of "false painting" (Sonnet 67) and calls artificial aids to beauty the "bastard signs of fair" (Sonnet 68). Again using it as a metaphor for flattery, he says,

And their gross painting might be better used
Where checks need blood...(Sonnet 82)

It is later in the generally accepted numbering of the Sonnets that references to blackness or tawniness appear, for even as late as Sonnet 115 it is time, not the sun, which tans sacred beauty. The change comes in Sonnet 127, the first written to the dark woman, whoever she may have been.

In the old age black was not counted fair,
Or if it were, it bore not beauty's name;
But now is black beauty's successive heir...

In Sonnet 130 there is a realistic astonishment in the way Shakespeare speaks of the woman with whom he is in love.

If snow be white, why then her breasts are dun;
If hairs be wires, black wires grow on her head.

She is certainly no fair-skinned, pink and white beauty, for he goes on to say,

I have seen roses damaskt, red and white,
But no such roses see I in her cheeks.

In the next sonnet, no. 131, he tells her,

Thy black is fairest in my judgment's place.

And Sonnet 132 ends thus,

Then will I swear Beauty herself is black,
And all they foul that thy complexion lack.

But a terrible disillusionment follows a betrayal, the nature of which is not difficult to imagine from what the Sonnets tell us. Shakespeare regrets the lack of judgment which has led him

To put fair truth upon so foul a face. (Sonnet 137)

He makes the situation as clear as is possible in Sonnet 144, which begins,

Two loves I have of comfort and despair...

In his eyes she has now become "a woman colour'd ill" and he speaks of her "foul pride". In Sonnet 147 he is "past cure" and "frantic-mad".

My thoughts and my discourse as madmen's are,
At random from the truth vainly exprest;
For I have sworn thee fair, and thought thee bright,
Who art as black as hell, as dark as night.

Would ever have, t'incur a general mock,
Run from her guardage to the sooty bosom
Of such a thing as thou.....(I ii 71-6)

But Othello's account of his wooing convinces everyone that he used no African witchcraft, and the Duke's comment is :-

I think this tale would win my daughter too. (I iii 171)

But when Iago manages to sow the dreadful seeds of suspicion in Othello's mind that Desdemona is unfaithful to him, Othello is ready to put the blame on his colour, his lack of courtly graces and his age, but first of all his colour.

Happly, for I am black,
And have not those soft parts of conversation
That chamberers have; or, for I am declined
Into the vale of years...(III iii 263-6)

The tragedy moves to its terrible conclusion, Iago's intrigue succeeds, Othello kills Desdemona and then learns the truth. Iago goes to his punishment with the bitter stoicism of Aaron the Moor, but Othello, before killing himself, weeps unaccustomed tears and pathetically associates his folly and his loss once more with difference in colour, for he asks Lodovico, in his report on the affair, to speak of him as he is,

of one whose hand,
Like the base Indian, threw a pearl away
Richer than all tribe...(V ii 347-9)

The final comment on the Moor is that of Cassio :-

For he was great of heart. (V ii 362)

So we have seen greatness of heart, passionate love leading to murderous jealousy, associated with a North African, a Moor, and we can now see what might perhaps have happened if the Prince of Morocco had picked the right casket. These are the elements which Shakespeare was to use again very soon in another Mediterranean and North African tragedy, and if Othello was dark, a black Moor, Cleopatra, for Shakespeare, was a white Moor, a tawny. The Ptolemies, of course, were Greeks, but Shakespeare shows no interest in or even awareness of this fact. For him Cleopatra was a North African queen, passionate, tawny, a gipsy. Ordinary men cannot understand Antony's love for her any more than they could Desdemona's love of Othello. The very first words of the play make that clear and indicate what kind of Cleopatra we are to expect, certainly not the "whitely wanton" who too often appears on the modern stage.

Nay, but this dotage of our general's
O'erflows the measure : those his goodly eyes,

That o'er the files and musters of the war
Have glow'd like plated Mars, now bend, now turn
The office and devotion of their view
Upon a tawny front: his captain's heart
Which in the scuffles of great fights hath burst
The buckles on his breast, reneges all temper,
And is become the bellows and the fan
To cool a gipsy's lust.

Yet this is the love which Shakespeare, in *Antony and Cleopatra*, glorifies with some of his finest poetry.

When Antony is away and Cleopatra thinks he does not love her any more, she is ready, as Othello had been, to put the blame on her colour and her age. (She could never accuse herself of lack of the courtly arts.) She wonders whether he will :-

.....think on me,
That am with Phoebus' amorous pinches black
And wrinkled deep in time? (I v 31-3)

If for the Prince of Morocco the sun was a neighbour and a cousin, for Cleopatra it is a lover, and her swarthy colour is the result of the bruises left by its playful and loving pinches. "With Phoebus' amorous pinches black" is the feminine counterpart of "The shadow'd livery of the burnisht sun", the associations of physical love replacing those of war. But even though in her momentary self-despising mood Cleopatra calls herself black, we must think of her as tawny, of the colour of old bruises, black in the broad Elizabethan sense.

Enobarbus tells us that he once saw Cleopatra "hop forty paces through the public street" (II ii 237). Gypsies were known to the Elizabethans as dancers in the public streets and in a Journal written in 1605, not long before Shakespeare wrote *Antony and Cleopatra*, the Earl of Nottingham speaks of "Gypsies...men and women, dauncing and tumbling much after the Morisco fashion" (O.E.D. *morisco)*. Morisco dancing, morris dancing, Morocco, gypsy, Egyptian, the associations are all implied in Enobarbus' account. Nor can Shakespeare handle this subject without recourse to the old fair-foul opposition and its ambiguities. This is what gives point to Anthony's bitter cry :-

This foul Egyptian hath betrayed me. (IV xii 10)

In his anger it seems to him that she has behaved "like a right gipsy", but all is well between them when, a little later, he dies in her arms. If Othello was for Shakespeare the type of North African man, then Cleopatra was North African woman, and Shakespeare's Cleopatra is perhaps

dark-skinned boy, not African this time but Indian,who must have figured prominently in the train of Titania, the Fairy Queen, though since he is given no words to speak, he does not appear in the list of characters. This boy is the cause of the quarrel between Titania and Oberon, which results in all the amusing and dangerous confusions of the plot, and Titania talks about him and his Indian mother with much warmth and poetry.

The fairy land buys not the child of me.
His mother was a vot'ress of my order:
And, in the spiced Indian air, by night,
Full often hath she gossipt by my side;
And sat with me on Neptune's yellow sands,
Marking th'embarked traders on the flood;
When we have laught to see the sails conceive
And grow big-bellied with the wanton wind;
Which she, with pretty and with swimming gait
Following, her womb then rich with my young squire,
Would imitate, and sail upon the land,
To fetch me trifles and return again
As from a voyage, rich with merchandise.
But she, being mortal, of that boy did die;
And for her sake do I rear up her boy;
And for her sake I will not part with him. (II i 123-138)

Yet another case, therefore, of reluctance to give up a dark-skinned child, and evidence of Shakespeare's continuing and sympathetic interest in dark skin colour.

The first really likeable North African in Shakespeare's work is the Prince of Morocco in *The Merchant of Venice*. A stage direction in the First Quarto refers to him as a Tawny Moor and when a flourish of cornets has announced him into Portia's presence his first act of courtship is a poetic and dignified defence of his colour.

Mislike me not for my complexion,
The shadow'd livery of the burnisht sun,
To whom I am a neighbour and near bred.
Bring me the fairest creature northward born,
Where Phoebus' fire scarce thaws the icicles,
And let us make incision for your love
To prove whose blood is reddest, his or mine.
I tell thee, lady, this espect of mine
Hath fear'd the valiant: by my love, I swear

The best-regarded virgins of our clime
Hath loved it too: I would not change this hue,
Except to steal your thoughts, my gentle queen. (II i 1-12)

He is servant and neighbour and cousin to the sun, is proud of his association with it and despises those whose skin and blood is not warmed by it. Portia is impressed and quietly tells him that by her father's will she is prevented from making her own choice of a husband. Were this not so, she says :-

Yourself, renowned prince, then stood as fair
As any comer I have lookt on yet
For my affection.

Shakespeare rarely misses an opportunity of playing upon the meanings of the word *fair* and its implied antithesis, and Morocco is surely pleased that Portia should make him the compliment of this word.

When it comes to the choice of caskets we are not suprised to find this neighbour of the sun veering towards the sunny metal, gold. His defence of his choice is noble and worthy of Portia, but he chooses the the wrong casket, takes his luck like a gentleman and departs with a heavy heart. Her gentle comment is, "A gentle riddance." Of course, she is not sorry, for now the chances are that her husband will be a man of her own colour, and Bassanio is already in her mind. So, before leaving the stage, she remarks :-

Let all of his complexion choose me so.

It his noticeable, however, that her next suitor, the white Prince of Aragon, is dismissed with much more contempt when he in turn has failed.

Thus hath the candle singed the moth.
O these deliberate fools! (II viii 79-80)

So we come to the central study, for which the others were sketches,*Othello*, a tragedy with a North African, for the first time, as hero, a study in Mediterranean psychology, in the contrast between Machiavellian coldness and hot blood, in passion and quickness to jealousy. One remembers what the Prince of Morocco said about his own hot blood. It is clear that Othello is very dark, not just tawny in our present day sense of the word. Roderigo calls him "thick lips" and Iago refers to him as "an old black ram".Brabantio, Desdemona's father, calls him a "foul thief" (note the opposition to fair) and asks :-

Whether a maid so tender, fair, and happy,
So opposite to marriage that she shunn'd
The wealthy curled darlings of our nation,

Aaron scornfully replies :

Why, there's the privilege your beauty bears :
Fie, treacherous hue, that will betray with blushing
The close enacts and counsels of the heart!
Here's a young lad framed of another leer :
Look, how the black slave smiles upon the father,
As who should say, "Old lad, I am thine own".

Aaron kills the Nurse to guarantee her silence and conceives the plan of substituting the fair, new-born child of Muliteus, a Moor married to a European woman, as the Emperor's heir, whilst he secretly brings up his own dark child. As he carries off his little son, he says :

Come on, you thick-lipt slave, I'll bear you hence;
For it is you that puts us to our shifts :
I'll make you feed on berries and on roots,
And feed on curds and whey, and suck the goat,
And cabin in a cave; and bring you up
To be a warrior and command a camp. (IV ii 175-180

Thinking forward into Shakespeare's later work, it is difficult not to see here a sketch of the infancy of Othello.

The crying of the child betrays Aaron as he conceals it in a ruined building and tries to still it. "Peace, tawny slave." Is he here attempting to lighten the darkness of his offspring, or is this another case of the loose equivalence of black and tawny? Aaron is brought before the triumphing Lucius and manages to save his son's life, partly by confessing his own misdeeds. A Goth, listening to the recital, exclaims,

What, canst thou say all this and never blush? (V i 121)

And Aaron goes, proud and unrepentant, to a terrible death.

In *Love's Labour's Lost*, an early comedy, Shakespeare returns to the commendation of dark skin and to the fact that it does not require artificial colouring. There seems to be no dramatic necessity for this, since Rosaline, the girl in question, is not a negress, nor even a black or a white Moor. Berowne commends a letter "to her white hand" and, in his disgust at having fallen in love, he describes her as :-

A whitely wanton with a velvet brow,
With two pitch-balls stuck in her face for eyes. (III i 193-4)

The word pitch sticks in his mind and a little later we overhear him complaining again about being in love. "I am toiling in a pitch, pitch that

defiles : defile! a foul word." (IV iii 2-3) The King makes matters worse by comparing Rosaline to another black substance :-

By heaven, thy love is black as ebony.

Berowne now jumps to the defence of her colour and the argument appears to pass beyond hair colour to the whole complexion.

Is ebony like her? O wood divine!
A wife of such wood were felicity.
O who can give an oath? where is a book?
That I may swear beauty doth beauty lack,
If that she learn not of her eye to look :
No face is fair that is not full so black. (IV iii 244-250)[1]

The King replies with a set of traditional mediaeval associations.

O paradox! Black is the badge of hell,
The hue of dungeons and the stole of night.

Berowne counters with an attack on the whole of the fashion for fairness in woman, a fashion sealed in Shakespeare's day by an unmarried, fair-haired, fair-skinned queen.

O,if in black my lady's brows be deckt,
It mourns that painting and usurping hair
Should ravish doters with a false espect ;
And therefore is she born to make black fair.
Her favour turns the fashion of the days,
For native blood is counted painting now ;
And therefore red, that would avoid dispraise,
Paints itself black, to imitate her brow.

A chorus of mockery from the king and his courtiers greets this pronouncement.

Dumaine : To look like her are chimney-sweepers black.
Longaville : And since her time are colliers counted bright.
King : And Ethiopes of their sweet complexion crack.
Dumaine : Dark needs no candles now, for dark is light.

But far from being beaten, Berowne still has a telling shot in his locker, the permanence of dark colour in contrast to the ephemeral nature of the cosmetics applied to fair skin.

Your mistresses dare never come in rain
For fear their colours should be washt away.

In another comedy, *A Midsummer Night's Dream*, there occurs a

1. Cf Weever **In Byrrham**, quoted by G.B. Harris on, **Shakespeare at work** p. 310.

sonne breent. *Judic. Urines* II ii II b.
Ben Johnson's friend, William Drummond, refers to the "sun-burnt nations of the south" *(Irene* 176) and Middleton in *More Dissemblers Besides Women*, 1623 (V ii), says of an ill-favoured woman, "She's the sun's masterpiece for tawniness."

The adjectives black, swart, swarthy, tawny,and sunburnt could all therefore be used interchangeably to refer to North African skin colour at the time when Shakespeare wrote and could all equally well be used for British skin colour. George Owen, writing of certain swarthy Welshmen in 1603, says that from the age of ten to twenty-four they spent their lives out of doors watching cattle, which gave their skin a North African darkness. "They seeme more like tawney Moores, then people of this lande." *(Description of Pembrokeshire* V 42.)

People dressed and disguised as Moors often gave colour and contrast to courtly entertainments during the second half of the 16th century. At a court masque in 1559 there were six Moors dressed in black velvet, at the entertainments given for Queen Elizabeth at Kenilworth in 1575, which may not inconceivably have been seen by Shakespeare, there was a blackamoor orchestra, and at Lord Unton's wedding in 1580 the torch-bearers were five pairs of cupids, naked children, five black and five white. But it was Shakespeare who first brought North Africans seriously and sympathetically into English drama, as persons that is, not as the black devils of medieval religious drama.

We meet Shakespeare's first North African in *Titus Andronicus*, one of his first experiments in tragedy. Aaron the Moor is the follower and lover of Tamora, Queen of the Goths. (Later, in *Othello*, Shakespeare gives us another study in almost absolute evil in the character of Iago, loosely repeating the Titus Andronicus- Aaron pattern in the Othello-Iago, but with the skin colour reversed, the Moor now noble and the Italian vicious.) In his first speeches Aaron makes clear to us his proud, lustful, scheming nature. Nor is his colour left in any doubt. He refers to his own "fleece of woolly hair", Bassianus calls him a "swarth Cimmerian," Lavinia talks of Tamora's "raven-coloured love" (all in II iii 24-84), and when Aaron brings good news, Titus Andronicus exclaims,

Did ever raven sing so like a lark? (III i 159)

In the tradition of the old religious plays, Aaron's colour accords with his character and, in his contempt for the truthfulness of Titus Andronicus, he himself sums the matter up :

Let fools do good and fair men call for grace,
Aaron will have his soul black like his face. (III i 205-6)

Later there is talk of...

.....a black ill-favourd fly
Like to the empress' Moor...(III ii 70-71)

and...

.....a fly
That comes in likeness of a coal-black Moor. (III ii 82-3).

There is no doubt, therefore, in our minds that Aaron is a "black", not a "white", Moor.

It is the more surprising, since this is so, that Shakespeare allows Aaron to defend his colour in such a convincing and admirable way. When Tamora has a child by Aaron and it turns out to be black, the Nurse, following the old tradition, calls it a devil, exclaiming,

A joyless, dismal, black and sorrowful issue :
Here is the babe, as loathsome as a toad
Amongst the fairest breeders of our clime :
The empress sends it thee, thy stamp, thy seal,
And bids thee christen it with thy dagger's point. (IV ii 70-3)

It is at this point that we begin to feel sympathy for the otherwise repellent Aaron. He cries out, "Is black so base a hue?" and we must admire the pride and spirit with which he prepares to defend his son.

At this point in the play occur two very interesting ideas connected with dark skin, first that it is superior to white skin in not betraying the secrets of the heart with blushes, and second that it requires no artificial colouring to beautify it, ideas to which Shakespeare was to return in other works, thus showing that they were of special interest to him. Aaron turns with anger and contempt on Tamora's two grown-up white sons, who threaten to kill the newborn child.

Ye white-limed walls! ye alehouse painted signs!
Coal-black is better than another hue
In that it scorns to bear another hue;
For all the water in the ocean
Can never turn the swan's black legs to white,
Although she lave them hourly in the flood. (IV ii 99-104)

And a little later, when Chiron says :
I blush to think upon this ignomy

wise as white as her husband, though of course very few so-called white people are really white.

During the 16th century the words black and Moor were so often used toghether that by 1581 we find them fused into the word blackamoor, which passes into common use by late Elizabethan writers. Andrew Boorde, the traveller, in his *Boke of the Introduction of Knowledge*, xxxvi 212,1547, reports a man as saying, "I am a blake More borne in Barbary." And he explains, "Ther be whyte Mores and black Moors", meaning that the skin colour of North Africans varies from fair to dark[i].

Purchas' *Pilgrimage*, 1613 (p. 687), distinguishes between the inhabitants of the North African or Barbary coast and those of the African hinterland, in referring to "The Sea coast Moores, called by a general name Baduini." This distinction accords with Boorde's white and black Moors, but it was rarely observed once the term blackamoor was indiscriminately used for all the inhabitants of North Africa and the word black became interchangeable with tawny, swarthy, tanned or dark-complexioned.

When Gloster in Shakespeare's *Richard III* (I. ii. 158) calls Clifford black-faced, he does not mean that he is a negro, nor is that the suggestion in the following dialogue in *Two Gentlemen of Verona* (V. ii. 8-12). Thurio is a rather silly young Italian gentleman and there is no question of his not being "white".

Thurio : What says she to my face?
Proteus : She says it is a fair one.
Thurio : Nay, then, the wanton lies; my face is black.
Proteus : But pearls are fair; and the old saying is,
Black men are pearls in beauteous ladies' eyes.

In other words, if gentlemen prefer blondes, ladies are apt to prefer dark-skinned and dark-haired men. Then again in *Othello* (II. i. 130-132), the phrase "black and witty" is the used to describe a woman in contrast to "fair and wise", black clearly meaning dark-haired or dark-skinned, though of course this playful exchange between Desdemona and Iago carries undertones of awareness of Othello's blackness and of the intermarriage of colour about which the play turns. Shakespeare thinks metaphorically of night as a dark-haired woman, so that we have "black browed night" *(MND* III. ii. 387) and "the black brow of night" *(KJ* V. vi. 17), but not as a negress. *Sonnet XXVIII* has "swart-complexiond night" and when death is conceived as a dark woman the image carries passionate overtones.

.....If I must die,
I will encounter darkness as a bride
And hug it in my arms. *(M for M* III. i. 82-4)

Just as it is clear that from the 17th century on the word black came gradually to be limited as a colour adjective to its present day meaning, so also there are signs in the 16th century that the word swart, which had previously meant black (cf. German *schwarz)* was being used in the looser sense of brown, sunburnt or tawny, interchangeably with black. In Hylton's *Scala perfeccionis*, 1395 (II xii), we already find the word swart associated with sunburn. "Beholde me not that I am swart for the sonne hath defaded me[ii]" But in the 1533 edition of this work *swart* was replaced by *blacke.* We have already noted Shakespeare's "swart-complexiond night". When Dromio of Syracuse *(Com. of Err.* III ii 100-101) is asked about the complexion of the kitchen-maid who pursues him, he answers "Swart, like my shoe." He means not black, but the colour of tanned leather, and it is the process of tanning leather with oak chips that has given us the words tan, tanned and tawny as colour words for skin. In 1613, William Browne similarly refers to the "swart ploughman" *(Britannia's Pastorals* I iv). Yet Shakespeare uses swarth, a variant of swart, to describe the very dark Aaron in *Titus Andronicus* (II iii 72), "your swarth Cimmerian", and the word swarthy for an Ethiop in *Two Gentlemen of Verona* (II vi 26). Ben Johson calls Egypt swarthy in *The Poetaster.*

The association of swarthiness of skin with the burning effect of the sun[ii] was a commonplace in the 16th century. The Oxford English Dictionary gives the following quotation : c. 1530 Men of Ethyoppe, that are

i. Libyans were specifically included under the term Moor in W. Watreman's **Fardle Facions, 1555** (I. iv. 48). "The reste of the people of Libya westward...are called Maures, or Moores." This work on the peoples of Asia and Africa was a partial translation of Joannes Boemus' **Repertorium Librorum Trium De Omnibus Gentium Mores, Leges & Ritus,** Augsburg, 1520.

i. Cf. The Prince of Morocco's first words in **M of V,** II i 1-2
Mislike me not for my complexion,
The shadow'd livery of the burnisht sun.

ii. The Old English **blaec** or **blac** was perhaps connected with the old verb **blackan** - to burn or scorch, cognate with the Greek phlebo - burn. This is very close to O.E. **blàecan** and **blàc** - pale, which has given us **bleach.** Is this another cause for colour confusion, and the reason why Hylton, see above, said **defaded,** not **burnt,** by the sun?

SHAKESPEARE'S INTEREST IN SKIN COLOUR

I have attempted elsewhere[1] to suggest an emotional background to Shakespere's interest in dark skin, an experience of love and lust out of which came the complex antithesis of fair and foul which gave him one of the central patterns of his thinking and changed the old alliterative and simple opposition into the telling paradox that fair can be foul and foul fair. In this paper I intend to analyse in more detail Shakespeare's use of adjectives of skin colour, particularly when applied to North Africans, his animadversions on the use of cosmetic art on white, as opposed to dark, skins, and the warmth of his reference to sunburnt skin which, though dramatised and made to fit a character like everything else in his plays, would appear to reveal a sympathy on the dramatist's part with North African skin colour.

Colour adjectives are tricky things to deal with, perhaps because no two persons see exactly the same colour, perhaps simply because words change their meaning over the centuries, and whereas a change of direction in the meaning of such words as charity or revolution might not be perceptible to the ordinary speaker of the language, a change in such common concepts as whiteness and blackness would puzzle anyone, so that to find the word black used to describe red wine or a pretty Englishwoman might come as something of a shock. It is important therefore for us at the start to realise what Shakespeare and his contemporaries could mean by the word black, the connotation of which has become narrowed by today.

As early as the 11th century this word was used to describe a person with dark hair or a dark complexion. Later, it was loosely used for non-European races who might be far from black in colour. Thus the late 14th century poem *Sir Ferumbras* describes the Saracens as black (l. 2785). In Pepy's *Diary* (30 April 1661) we find the lively author speaking of a Mr. Hater and his wife and saying, "I found her to be a very pretty, modest, black woman." There is no suggestion that the pretty Mrs. Hater was a negress. She was simply black-haired, but other-

1 **Shakespeare and Black Beauty. Personal Lanscape,** Poetry London 1945.

UNIVERSITY OF LIBYA

BULLETIN OF FACULTY OF ARTS & EDUCATION

BENGHAZI

VOLUME I

1958

NATIONAL PRESS BENGHAZI